


الدكتور
# علي أحمد مدكور

عميد كلية التربية - جامعة السلطان قابوس
وعميد معهد الدراسات التربوية - جامعة القاهرة السابق

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٢١٤,٣٧ علی أحمد مدکور.

ع ل م ن منهج التربية فـى التصور الإسلامى/ على أحمـد مدكور.

ط ٢. - القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م .

٤٠٨ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك: ٥-١٤٤٥-١٠-٩٧٧.

١- الإسلام - تربية. أ- العنوان.

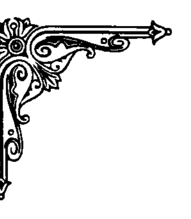
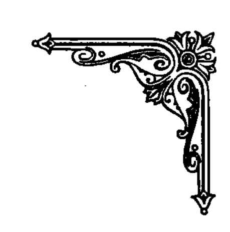
تصميم وإخراج فنى

منى حامد عمارة



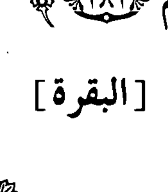
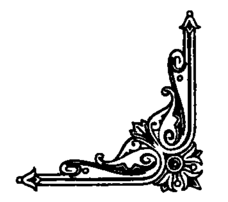
حورس للطباعة والنشر (مهندس / هشام الشربينى وشركاه)

١ ش المدق ـ خلف رقم ١٨٤ ش بورسعيد ـ السيدة زينب ت : ٣٩٥٧٦١٤

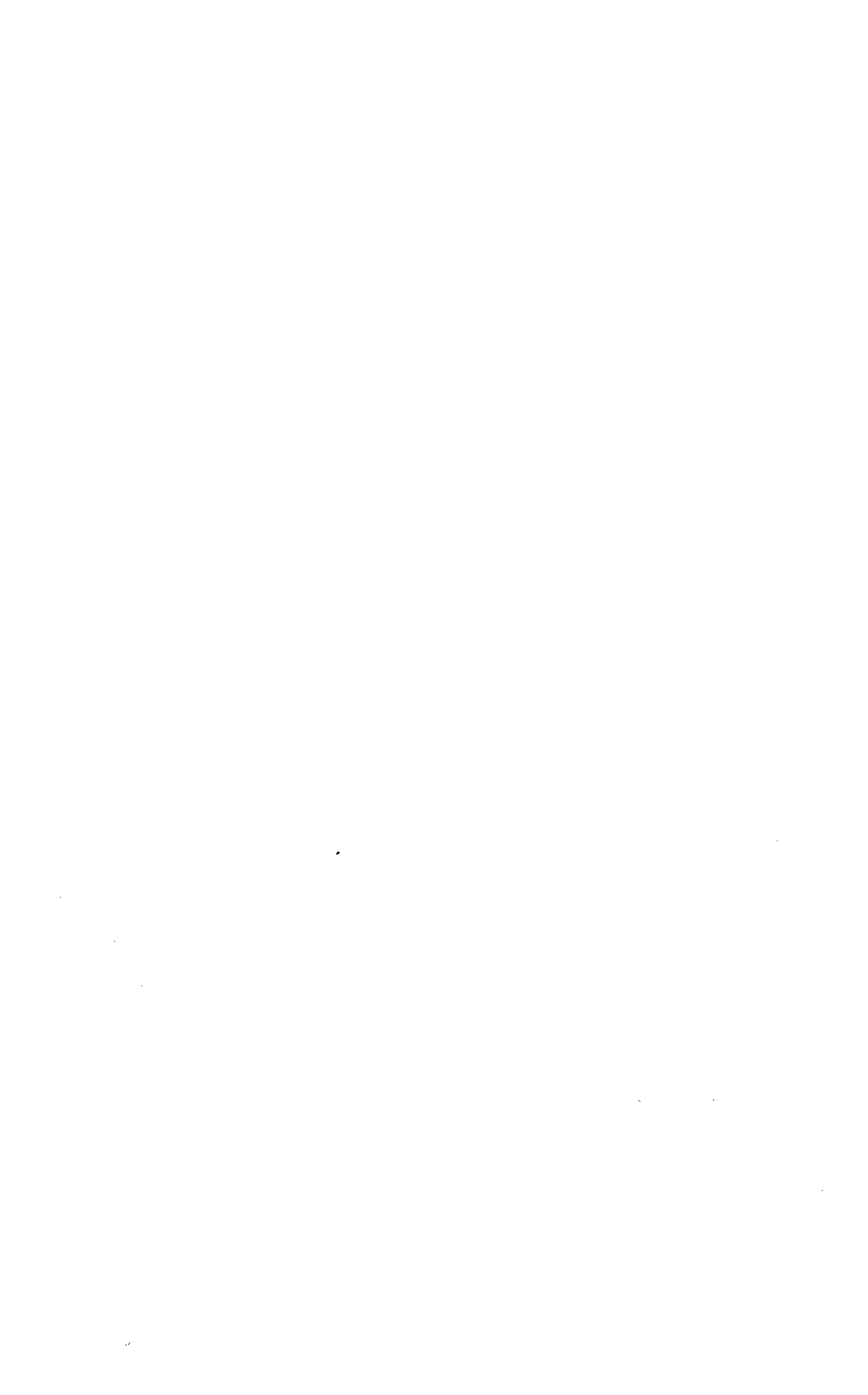
بسم الله الرحمن الرحيم

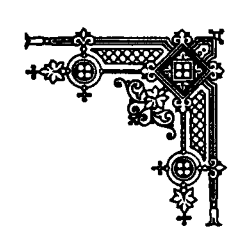

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

[ البقرة ]


صدق الله العظيم





# إهداء

إلى سرب الطيور المهاجرة إلى ملكوت السماء :

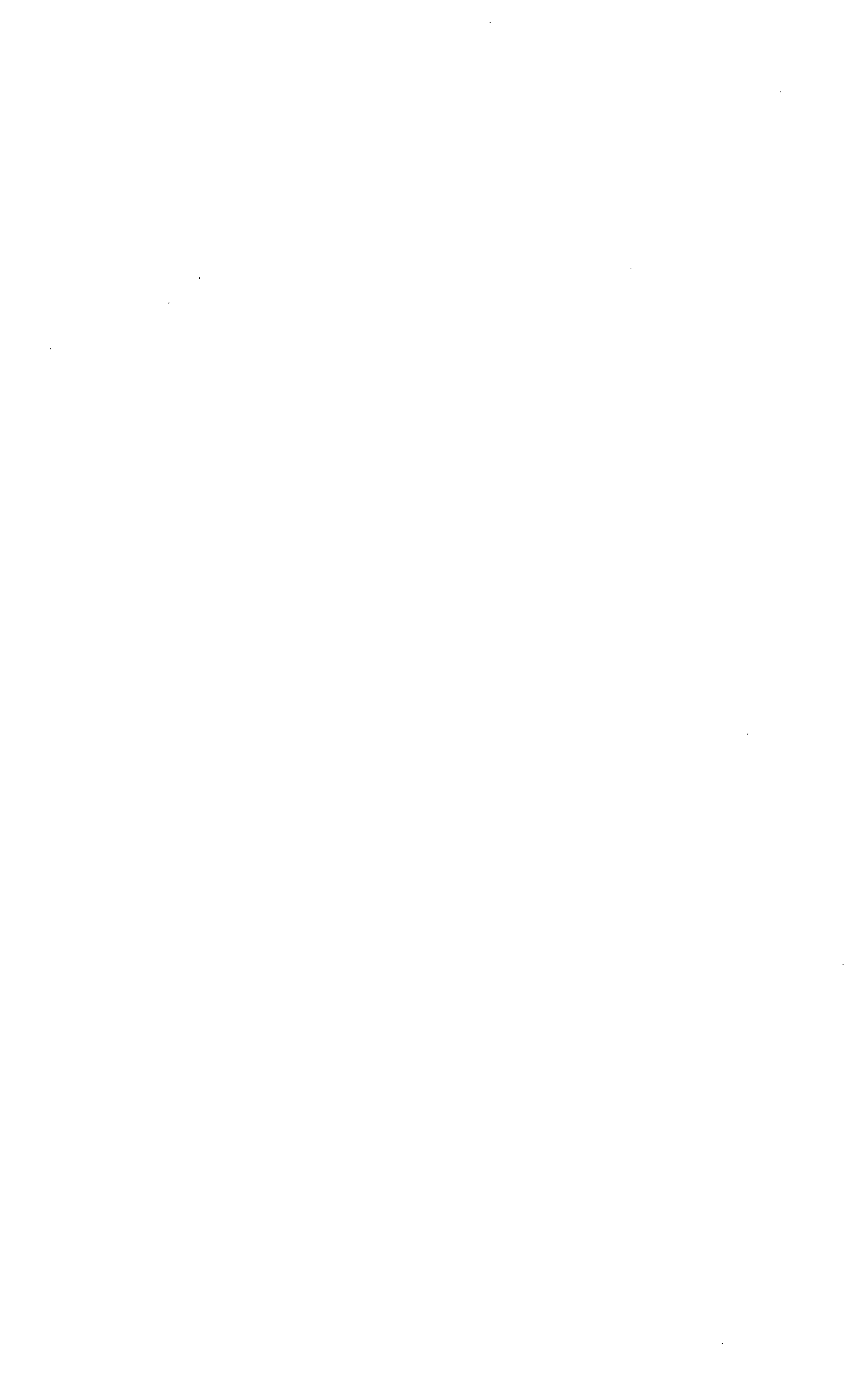
إلى روح جدى الشيخ علي مدكور، ووالدي، ووالدتي،

وعمي الشيخ محمد علي مدكور، وأخي السيد أحمد علي

مدكور ... رجاء أن يتغمدهم الله جميعا برحمته.

**على مدكور**





## مقدمة الطبعة الثانية

فى عصر يكاد ينعدم فيه اليقين، ويكاد يستحيل فيه تصور «الواقع الافتراضي» للمستقبل... عصر يلهث فيه قادمه يكاد يلحق بسابقه، وتتهاوى فيه النظم والأفكار على مرأى من بدايتها، وتتقادم فيه الأشياء وهى فى أوج جدتها... عصر تتآلف فيه الأشياء مع أضدادها؛ حتى أعلن البعض -كما يقول الدكتور نبيل على- نهاية الأضداد؛ نهاية تضاد الجميل والقبيح في الفن، والعدل والظلم في السياسة، والصدق والزيف في الإعلام، والموضوعية والذاتية.. في العلم، والشرعية والشذوذ في العلاقات الإنسانية!... في هذا العصر يصبح التمسك بالثوابت الدينية، والخصوصية الإسلامية والعربية هو العاصم الوحيد من الوقوع في الفوضى الشاملة، والانهيار الكامل.

لهذا جاء الكتاب ليؤكد على ضرورة تربية الإنسان القادر على إعمار الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله، من خلال منهج للتربية يقوم على أربعة أسس هي: حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة في التصور الإسلامي، وتنبعث أهدافه ومحتوياته وطرائق وأساليب تدريسه وتقويمه من هذه الأسس.

وبعد، لا بد من كلمة عن هذه الطبعة.. تأتي هذه الطبعة الأولى لدار الفكر العربي بالقاهرة عام ١٤٢٢ هـ الموافق ٢٠٠١م بعد طبعة دار النهضة العربية ببيروت التي تمت عام ١٤١١هـ الموافق ١٩٩٠م، وبعد أن فشلت كل محاولاتي للاتصال بالدار الأخيرة، وبعد أن يئست من اهتمامهم بالرد على مراسالاتي ومحاولاتي للاتصال بهم، وبالتالي من توفير الكتاب بالقاهرة.

أرجو الله أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم،

وأن ينفع به ويفيد؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

القاهرة: ٢ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ
٢٣ يوليو ٢٠٠١م

**عَلي أحمَد مَدكور**

# مقدمة الطبعة الأولى

من الحقائق الثابتة أن التربية نبت لا يصلح إلا في بيئته، ولا ينمو إلا من رِيٍّ أهله، ولا فائدة فيه لهم إذا فقد جذوره الأصيلة المتصلة بعقيدتهم، وتراثهم، وماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم.

وبالرغم من ذلك، لم يتحرج الناس في معظم أقطار العالم العربي والإسلامي- حين نظروا فرأوا واقعا حياتيا مؤلما، وأوضاعا اجتماعية لا تحقق العدالة في جميع جوانب حياتهم- في أن يلقوا جانبا تراثهم العقائدي والفكري، ويستوردوا بدلا منه النظم والقوانين والشرائع التربوية وغير التربوية، من الغرب تارة، ومن الشرق تارة أخرى.

وإذا كان استيراد المواد والآلات والبضائع، في مجالات الصناعة والتجارة، يحمل معه- بشكل أو بآخر- أفكار وثقافات صانعيها ومصدريها، فإن استيراد النظم والقوانين والشرائع- في مجالات السياسة والاقتصاد والتربية- أعظم أثرا وأشد خطرا.

ولقد أدى استجلاب الحلول من الشرق والغرب لمشكلات حياتنا إلى الكثير من الفوضى في كل جوانب حياتنا بصفة عامة، وفي ناتج العملية التعليمية بصفة خاصة.

ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فيما يعكسه الكثير من السمات الاجتماعية والثقافية: كالسلبية، واللامبالاة، والانحلال الخلقي، والازدواجية الثقافية، وتصارع الانتماءات الفكرية، وضعف الإنتاجية، وتدهور القيم الإسلامية جملة وتفصيلا.

إن الناظر المدقق في معظم مناهج التربية في العالم العربي يرى أنها في حيرة وتردد بين الأصالة والاقتباس، فهي تأخذ القليل من منهج التربية الإسلامية، وتأخذ الكثير من مناهج الغرب وطرائقهم وأساليبهم، دون وعي بالقيم والمبادئ الصريحة وغير الصريحة التي تتضمنها فلسفات المناهج الغربية، التي لا تتفق في معظمها مع مقومات وخصائص المنهج الإسلامي العام، ولا تتفق -بالتالي- مع المقومات العقائدية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية للشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

إن للإسلام منهجا متكاملا للتربية، وهو منهج فريد بين كل مناهج الأرض. فهو وإن التقى مع بعضها في بعض التفصيلات والفروع، إلا أنه يختلف معها في القواعد والأصول. وتكامل منهج التربية الإسلامية يتمثل في شموله لكل دقائق النفس البشرية

وجوانب الحياة الواقـعية. كما يتمثل في أثره داخل النفس وفي واقع الحيـاة معا. ولقد كان من أثر تطـبيقـه تلك الأمة الفذة في الـتاريخ الإنساني، التي وصـفهـا الله بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران] تلك الأمة التي انبثقت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غـير الصراع، فإذا هي أمة قوية صلبة، تفـتح وتغزو، وتعمر وتبنى، وتنشر الهدى والنور، وتقيم مثلا أخلاقية وإنسانية لم تعهدها الدنيا من قبل ولا من بعد.

ولئن كـان الاستـعمـار قد مـزق هذه الأمة وشـتـت شملهـا على مدى القـرون الأخيرة، فـقد كان السبب على أي حـال هو البعد عن منهج الله بصفـة عامة، ومنهج التربية الإسلامية بصفة خاصة. إن الجهل بطبـيعة الإسلام وبطبيعة المجتمعات، وقوانين الحياة، والكسل العقـلي والنفسي الذي أصاب المسلمين وأقعدهم عن مراجـعة رصيدهم القديم، والتقليد الأعمى للغرب والشـرق في فصل الدين عن الحياة. كل هذا هو سبب تمزق هذه الأمة وتدهورها.

ولن يستـقيم حـال المجتمع الإسـلامي، ولن يكون أهله مسلمين حـقا، وهم لا يُحكِّمون الإسلام في نُظُم حياتهم: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية.

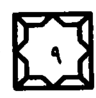
فقاعدة الإسـلام الأساسية هي إفراد العبودية لله، وأولى خـصائص العبودية هي «الحاكمية»: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر].

إن العودة إلى الإسلام، أو استـئناف حياة إسلامية لا يتم بمجـرد وضع تشريعات وقوانين مستمدة من الشريعة الإسلاميـة؛ فهذا هو الركن الثاني من ركنين يعتمد عليهما الإسلام دائما في إقامة الحياة. . أما الركن الأول، فهو بناء العقيدة الصحيحة الخالية من الاتهامات والخـرافات في نفوس الناس، العقـيدة التي تُفرِد الله- سبحـانه- بالألوهية، ومن ثم تفـرده بالحاكـميـة، وتنكر على غيـر الله أن يدَّعي حق الألوهية، بادعـاء حق الحاكمية؛ ومزاولة ذلك فعلا: سياسة، واقتصادا، واجتماعا، وتربية!

لابد إذن من البدء بإحياء مـفهومات العقيدة الإسلامـية، والنظام الإسلامي العام في قلوب وعقول جـميع أبناء الأمة، أو جملة صالحة منهـا ذات وزن وثقل في مجرى



الحياة العامة، وذلك عن طريق التربية الإسلامية. ومن العبث إهدار الجهود في محاولات فرض النظام الإسلامي- بأي شكل- قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمع هي التي تطلب النظام الإسلامي؛ لأنها فهمته على حقيقته، فاقتنعت به، وتريد أن تُحكَم به.

إن استئناف الحياة الإسلامية في المجتمع عن طريق فهم المنهج أو النظام الإسلامي العام، بجميع جزئياته ومفهوماته، لا يستهدف القمة، بل يستهدف قاعدة المجتمع بالدرجة الأولى. وإن هذا الطريق، وإن بدا بطيئا وطويلا، إلا أنه في واقع الأمر، هو أقرب الطرق وأسرعها.

علينا إذن أن نعيد بناء العقيدة الإسلامية أولا في نفوس الناس جميعا: صغارا وكبارا، قبل أن نفكر في وضع الشريعة الإسلامية موضع التطبيق في المجتمع.

لكن المشكلة هي: كيف يتسنى لنا أن نبني العقيدة الإسلامية في نفوس الناس بمناهج تربوية، وطرق تفكير، ووسائل إعلام، هي في صميمها غربية، وغريبة، بل ومعادية للمنظومة الإسلامية؟!

إننا نكون قد أعلنا هزيمتنا منذ الجولة الأولى، إذا نحن اتخذنا المنظومة الغربية، أو أجزاء منها، كوسيلة لإحياء المنظومة الإسلامية. إننا لابد، أولا، من أن نتخلص من طريقة التربية الغربية، وطريقة التفكير الغربية، ولابد، ثانيا، من أن نتخذ طريقة تربية، وطريقة تفكير إسلامية ذاتية؛ وذلك لنضمن أن يجيء النتاج متكاملا خالصا، وليس متناقصا ولا متصارعا.

إن الإسلام نظام عام وإطار تصاغ منه أشكال متجددة- لكنها في الوقت ذاته قائمة على أصول ثابتة- للمجتمع المسلم وفق ظروفه المحيطة، فالإسلام من صنع خالق الكون ومنشئ نواميسه، والعالِم بما يجد فيه وما يتطور. فقد كان في عمله هذا التطور التاريخي وما يترتب عليه من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ ولهذا فقد وضع الخطوط الثابتة، والمبادئ العامة الشاملة التي لا تخرج أطوار الإنسان في النهاية عند حدودها، وترك التطبيقات لتطور الزمان وتغير الحاجات التي لا تخرج عن إطار القواعد الثابتة، ولم يضع تفصيلات جزئية مقيدة إلا في المسائل التي لا تتغير حكمتها.. وبهذا الشمول، وهذه المرونة، كفل الإسلام لأصوله التطبيق والنمو والتجدد في كل مكان، وعلى مر الزمن.

إن هذا الكتاب هو محاولة للتفكير في رصيدنا الرباني المذخور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بقصد تحقيق ما يلي:

**أولا:** تحديد مفهوم منهج التربية وخصائصه المستمدة من مقومات وخصائص النظام أو المنهج الإسلامي العام الذي يحكم الحياة. فبدون التحديد والفهم والإيمان بهذه المقومات والخصائص، لا يستطيع أحد أن يقيم نظما أصغر في السياسة أو الاقتصاد أو التربية، يمكن أن يطلق عليها تعبير «نظام إسلامي» أو «منهج إسلامي».

**ثانيا:** تحديد طبيعة التصور الإسلامي للألوهية،والكون، والإنسان، والحياة، وهي الأصول أو الأسس التي يجب أن يقام عليها أي منهج بالمفهوم السابق أو الخصائص السابقة.

**ثالثا:** ترجمة الأصول أو الأسس السابقة إلى أهداف عامة، ومحتوى، وطرائق وأساليب تدريس، وطرائق وأساليب تقويم.

وبعد، فإننا على وجه اليقين، نخطئ في حق الإسلام وفي حق أنفسنا إذا نحن عمدنا إلى التقليد المبتسر للغرب تارة وللشرق تارة أخرى؛ فذاك تقليد مفقود الأسس العقائدية والتاريخية والثقافية في حياتنا، تضيع فيه شخصيتنا، ونصبح معه ذيلا للقافلة الإنسانية.

وليس معنى هذا أنني أدعو إلى الانغلاق وعدم التفكير والاستفادة من أفكار الآخرين وتجاربهم، فليس هذا من الإسلام في شيء؛ «فالحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها».

ورجاؤنا في الله كبير، أن يهدي البصائر إلى فهم الواقع الذي نحن فيه، والحق الذي نرجوه، إنه على ما يشاء قدير.

**علي أحمد مدكور**



# المحتويات

**الفصل الثالث**

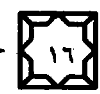
**مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي وخصائصه**

## الفصل الرابع

## اسس منهج التربية في التصور الإسلامي









## الفصل الخامس

## الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي





## الفصل السادس

## أهداف منهج التربية في التصور الإسلامي

## الفصل السابع

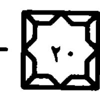
## محتوى منهج التربية في التصور الإسلامي



## الفصل الثامن

## طرائق واساليب التدريس





## الفصل التاسع

## تكنولوجيا التعليم والاتصال





**الفصل العاشر**

**طرائق وأساليب التقويم**



* * *

# الفصل الأول

# الإطار العام لمنهج التربية في التصور الإسلامي

## طبيعة التصور الإسلامي

### الدين في المفهوم الإسلامي:

الدين- في المفهـوم الإسلامي- هو النظام العام أو المنهج الذي يحكم الحـياة[1]. فهـو مرادف لكلمـة «نظام» أو «منهج» في الاصطلاحات الحـديثة. مع شـمول المدلول للإيمان والاعـتقـاد في القلب والسلوك في الـواقع، والشريعـة لكل جـوانب المجتـمع الإنساني.

إن النظام الإسلامي يختلـف في طبيعته الأصيلـة عن سائر النظم الأخرى؛ ذلك لأنه نظام من صنع الله، ولأنه عالمي الـنزعة، ينظر إلى العالم على أنه وحـدة متكاملة، ويرمي إلى ضم البشرية كلها إلى لوائه متساوية متآخية متكاملة.

«فالقاعدة التي يقوم عليها النظام الإسـلامي تختلف عن القواعد التي تقوم عليها الأنظمة البشرية جميعا. . . إنه يقوم على أساس أن الحاكمية لله وحده. فهو الذي يشرع وحـده، وسائر الأنظمـة تقـوم على أساس أن الحـاكمـية لـلإنسان، فـهو الذي يشـرع لنفسه. . . وهما قاعدتان لا تلتـقيان. ومن ثم فالنظام الإسلامي لا يلتقي مع أي نظام، ولا يجوز وصفه بغير صفة الإسلام»[2].

وانطلاقا من القـاعدة السابقـة فإنه لا يجوز أن نصف النظام الإسـلامي فنقول: «إمبراطورية الإسلام» أو «اشتراكية الإسلام» أو «ديمقراطية الإسلام»؛ لأن في ذلك خلطا بين نظام من صنع الله، ونظم من صـنع البشـر، تحمل طابعـهم من النقص والكمـال،

---

(١) سيـد قطب: العدالة الاجتـمـاعية في الإسـلام، بيروت، دار الشـروق، الطبعـة التاسـعة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ٧٨ - ٧٩.

(٢) انظر مفهوم الدين في: علي أحمد مدكور: المفاهيم الأسـاسية لمناهج التربية، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص١١٣.

والخطأ والصواب والهدى والضلال، بينما النظام الإسلامي نظام كامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. كما أنه منهج متكامل، ووحدة متجانسة، وإدخال أي عنصر غريب فيه يؤدي إلى سوء فهمه، وانحراف أهله.

ويقوم النظام الإسلامي على مبدأين أساسيين مستمدين من تصوره الكلي للألوهية والكون والحياة والإنسان: الأول هو وحدة الإنسانية في الجنس، والطبيعة، والنشأة. والثاني هو أن الإسلام هو النظام العالمي العام، الذي لا يقبل الله من أحد نظاما غيره، لأنه لا يقبل من أحد دينا إلا الإسلام... ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]... ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾﴾ [**آل عمران**].

وقيام النظام الإسلامي على المبدأين السابقين كان له أثره القوي في كل النظم والسياسات التي تفرعت منه كمنهجه في التربية، وسياسته في الحكم، وسياسته في المال والاقتصاد إلى آخره. ومن ذلك أنه لا يشرع لجنس، ولا لجيل، وإنما للأجناس جميعا، وللأجيال جميعا، في كل زمان ومكان، «فاتّبع الأسس الإنسانية الشاملة في كل تشريعاته ونظمه، ووضع القواعد العامة، والمبادئ الواسعة، وترك الكثير من التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات»[(١)]

وتأسيسا على هذا فإن الإسلام هو نظام النظم، حيث إنه يندرج تحته عدة نظم: ففيه نظام للاقتصاد، ونظام للسياسة، ونظام للاجتماع، ونظام للتربية[(٢)].. وهذه النظم وإن اختلفت في أشكالها وأساليبها ووسائلها من وقت لآخر، أو من بيئة إلى أخرى، إلا أنها تستمد أصولها وتستلهم أساليبها ووسائلها من خصائص ومقومات النظام الأكبر ألا وهو الإسلام، كما أنها تهدف إلى غاية واحدة وهي بناء «الإنسان» الصالح[(٣)].

وإذا كان الإسلام- وهو النظام الأكبر- قد حدد معالم النظم الأصغر التي تندرج تحته، وهي النظم السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية فإنه لابد وأن يكون قد حدد بالضرورة طبيعة الفرد، وطبيعة المجتمع، وطبيعة المعرفة التي سوف تعمل هذه النظم- متعاونة ومتكاملة- على بنائها.

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) محمد سيف الدين فهمي: النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٨٠م، ص٦٥.

(٣) أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، ص ٨.

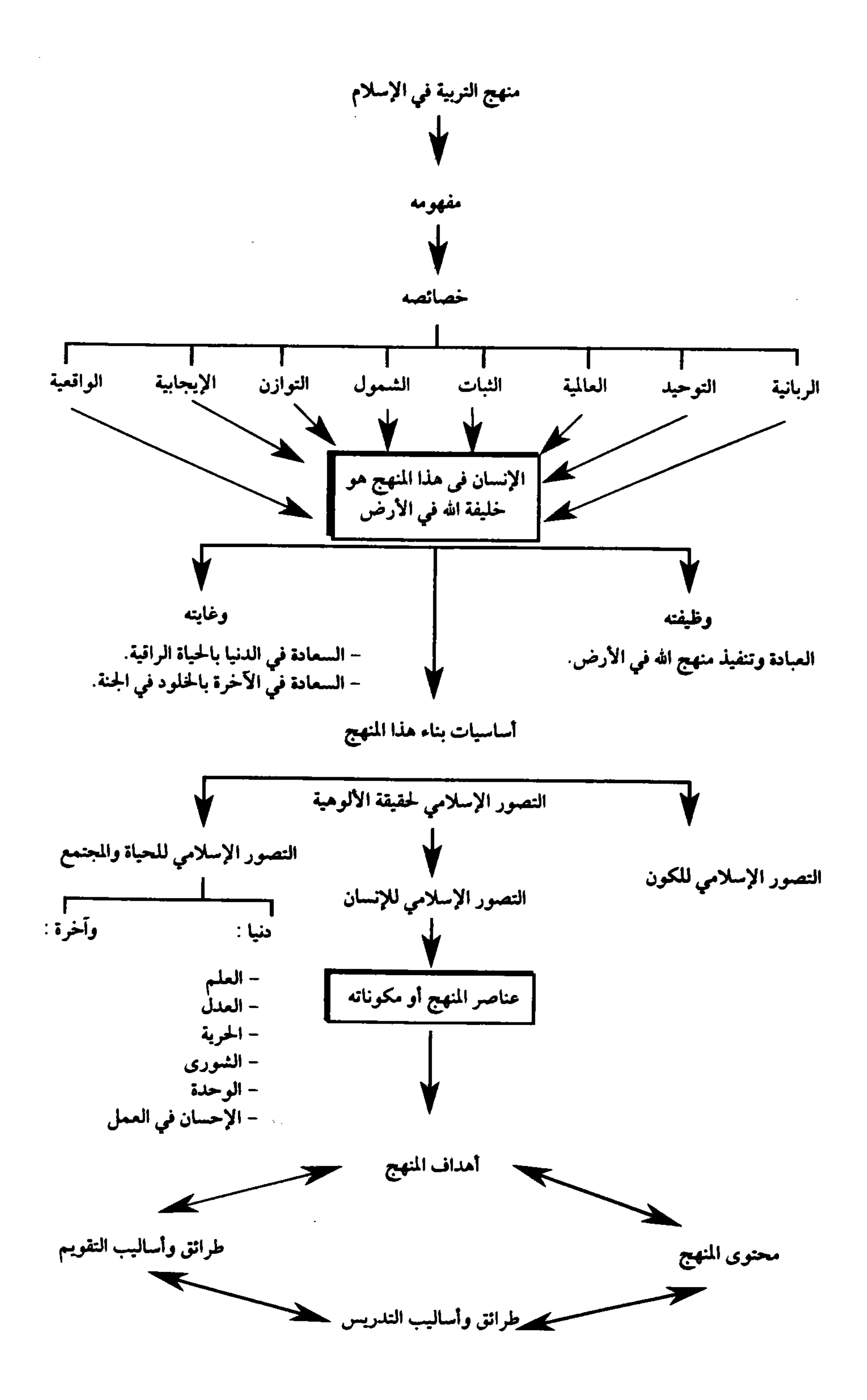
وليس من أهدافنا في هذا السياق أن نتعرض للنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإسلام إلا بالقدر الضروري الذي يوضح لنا طبيعة التصور الإسلامي؛ للكون غيبه وشهوده، والإنسان مصدره وغايته، والحياة: غيبها وشهودها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين كل هذا، فالكون والإنسان والحياة هي المحاور الأساسية التي تدور حولها أية فلسفة، ويقوم على أساسها أي نظام، فالفلسفات والأديان والنظريات والنظم إنما تختلف باختلاف نظرتها إلى هذه المحاور الثلاثة، ومن هنا فسوف نقدم أولا التصورات الإسلامية المتعلقة بهذه المحاور الثلاثة، ثم نشتق منها ثانيا الخطوط العريضة للممارسة المنهجية، وأخيرا نضع هذه الممارسة المنهجية في صورة أهداف محددة، ثم نضع المحتوى العام الذي يمكن أن تتحقق من خلاله هذه الأهداف، ثم نحاول تحديد الطرق والوسائل التي يمكن من خلالها تناول هذا المحتوى، ثم نختم بعرض الطرق والأساليب الممكنة في عملية التقويم. (انظر الرسم التوضيحي في الصفحة التالية).

فإذا ما عدنا إلى التربية الإسلامية، فإننا يجب أن نفرق بين أمرين:

**أولهما هو، أصول التربية الإسلامية في الكتاب والسنة**، وهي تلك المستمدة من الأصول الموجودة في نصوص الوحي المنزل وهي القرآن، وسنة الرسول ﷺ.

**وثانيهما هو، اجتهادات علماء التربية الإسلامية** التي هي مجموع آراء المفكرين المسلمين من فقهاء وتربويين خلال العصور الإسلامية. وهذه تسمى اجتهادات وتصورات؛ لأنها تمثل محاولة إنسانية للفهم جاءت في إطار الأصول والنصوص الثابتة. وهذه معرضة للتعديل والتطوير بما لا يتعارض مع الأصول والقيم الثابتة.

وفي محاولتي هنا في هذا الكتاب، سوف أميل إلى الاعتماد على الأصول في توضيح أسس ومكونات ومنهج التربية الإسلامية أكثر من اعتمادي على آراء المفكرين المسلمين خلال العصور الإسلامية المختلفة. وربما كان من أهم دوافعي في هذا الاتجاه هو شعوري بأننا في حاجة إلى العودة إلى الأصوال والنصوص الثابتة، لإحياء صورتها في الأذهان، ودفع الآخرين إلى العكوف على التفكير فيها بالدراسة والتحليل والتفسير والاستنتاج. نحن في حاجة إلى إحياء المنهج الأصلي الذي سارت على نهجه الأمة الإسلامية الأولى، التي وصفها الله بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]



منهج التربية في الإسلام
مفهومه
خصائصه
الربانية
التوحيد
العالمية
الثبات
الشمول
التوازن
الإيجابية
الواقعية
الإنسان فى هذا المنهج هو خليفة الله في الأرض
وظيفته
العبادة وتنفيذ منهج الله في الأرض.
وغايته
- السعادة في الدنيا بالحياة الراقية.
- السعادة في الآخرة بالخلود في الجنة.
أساسيات بناء هذا المنهج
التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية
التصور الإسلامي للكون
التصور الإسلامي للإنسان
التصور الإسلامي للحياة والمجتمع
دنيا :
وآخرة :
- العلم
- العدل
- الحرية
- الشورى
- الوحدة
- الإحسان في العمل
عناصر المنهج أو مكوناته
أهداف المنهج
محتوى المنهج
طرائق وأساليب التقويم
طرائق وأساليب التدريس

**ضرورة فهم طبيعة التصور الإسلامي:**

في الرسم التوضيحي في الصفحة السابقة، محاولة لإبراز منهج التربية في الإسلام ابتداء من أصوله العقائدية إلى عناصره العملية التطبيقية.

إن مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي- شأنه في ذلك شأن كل منهج إسلامي، أو نظام في الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع... إلى آخره- لابد وأن يستمد من مفهوم الإسلام العام، الذي هو نظام أو منهج لحكم الحياة.

كما أن خصائص منهج التربية في التصور الإسلامي لابد أن تستقي من مقومات المنهج الإسلامي العام وخصائصه التي حددها لنا تحديدا دقيقا شاملا متكاملا رواد الصحوة الإسلامية المعاصرة، ابتداء من الإمام محمد عبده والشيخ حسن البنا إلى العلامة «أبو الأعلى المودودي»، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور يوسف القرضاوي. وأخص بالذكر في هذا المقام المرحوم الأستاذ سيد قطب في بحوثه القيمة: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، و«مقومات التصور الإسلامي»، و«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«معالم في الطريق»، و«نحو مجتمع إسلامي». وهذه الخصائص والمقومات هي: الربانية، والتوحيد، والعالمية، والثبات والشمول، والتوازن، والإيجابية، والواقعية.

وهذا المنهج بمفهومه وخصائصه، لابد أن يعتمد في تصميمه، وتنفيذه، وتطويره على أساس فهم طبيعة التصور الإسلامي لحقائق: الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة، فهذه الحقائق الأربع هي الأسس التي يقوم عليها بناء منهج التربية في التصور الإسلامي.

فحقيقة **الألوهية** هي الأساس الأول باعتبارها مصدر كل شيء ومرجع كل شيء.

**والكون**، غيبه وشهوده- وهو الأساس الثاني- هو آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان. وقدره تقديرا محكما، وجعل كل شيء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴿٢﴾﴾ [الفرقان] ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

وأما **الحياة**، غيبها وشهودها، دنيا وآخرة، فهي الأساس الثالث من أسس بناء منهج التربية، بل إن وضوح الحياة ودور الإنسان فيها، وعلاقة الحياة الدنيا بالحياة الآخرة لهو أمر حاسم في التصور الإسلامي لبناء منهج التربية أو أي منهج آخر في المجتمع الإسلامي.



الأساس الرابع **هو الإنسان**. ومنهج التربية يهتم بدراسة الإنسان من جانبين: **الجانب الأول** يتصل بخَلْقِه، وفطرته، وطبيعة إنسانيته، ونموه، وحاجاته. **والجانب الثاني** يتصل بمصدر وجوده، وغاية وجوده، وعلاقته بالكون والحياة من حوله. وتصميم منهج التربية وتنفيذه وتطويره على أساس الفهم التام لهذين الجانبين أمر حاسم للأسباب التالية:

**أولا:** أنه لابد للإنسان من أن يفهم فطرته التي فطر الله الناس عليها، وطبيعته الإنسانية، وحقيقة نفسه، ومكوناتها، وأحوالها، ونموها، وحاجاتها، ومتطلبات كل ذلك وآثاره في مناهج التربية المختلفة.

**ثانيا:** أنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود، فلابد من أن يفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان وحقيقة الحياة وما بينها جميعا من ارتباطات.

**ثالثا:** لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني، وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعا.

**رابعا:** أنه بناء على فهم الإنسان لذلك التفسير الشامل، وعلى فهمه لحقيقة مركزه في الوجود الكوني، ولغاية وجوده الإنساني، ويتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج الأرضية الأخرى.

**خامسا:** أنه لابد للمسلم من أن يعرف أن الإسلام إنما جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله في الأرض. وإدراك المسلم لكل هذا هو الذي يكفل له أن يكون عاملا إيجابيا صالحا في بناء هذه الأمة، وقائدا وموجها في عملية البناء والترقية.

وباختصار فإنه لابد للإنسان كي يستقر على قرار في أمر هذا الكون، وفي أمر نفسه، وفي غاية وجوده، وفي منهج حياته، من فهم حقيقتين أساسيتين متلازمتين للحياة البشرية وللنفس البشرية في كل حال وزمان:

**الحقيقة الأولى:** هي أن الإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل، فهو ذرة تائهة ضائعة، فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يحدد له مكانه ويضمن له الاستقرار فيه: لابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله: فهي ضرورة فطرية وشعورية.



**الحقيقـة الثانية**: هي أن هناك تلازما وثيقا بين طبيعـة التصور الاعتقادي الإسلامي وبين طبيعة النظام الاجتماعي الإسلامي، فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان ووظيفته فيه، وغاية وجوده الإنساني كله. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع لا يعيش، وإذا عاش فترة شقي به الإنسان، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما.

فالتلازم الوثيق بين طبيعة التصور الاعتقادي الإسلامي وبين النظام الاجتماعي هو إذن ضرورة تنظيمية، كما أنه ضرورة شعورية[1].

وإذا كان التلازم وثيقا بين طبيعة التصور الاعتقادي الإسلامي وبين النظام الاجتماعي العام، فإنه أوثق بين طبيعة هذا التصور وبين مناهج التربية في هذا النظام. فمناهج التربية هي التي توطد وتعزز هذا التصور في قلوب الناس وعقولهم وسلوكهم.

وإذا كان المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يكون إسلاميا حقا إلا إذا سار هذا التصور الاعتقادي- بجميع خصائصه ومقوماته- فيه كسريان الدم في شرايين الجسم، والروح في الجسد، فإن هذا ينطبق بالتالي على مناهج التربية في هذا المجتمع، ويتحقق بواسطتها.

إننا عندما نبني منهج التربية الإسلامية على أساس الخصائص والمقومات التي تحدد طبيعة التصور الاعتقادي الإسلامي، فإننا نهدف إلى تثبيت هذه الخصائص والمقومات التي تحدد الملامح الربانية لمنهج التربية الإسلامية، وتميزه عن غيره من المناهج البشرية المحيطة به، وبذلك يساهم منهج التربية الإسلامية في الحفاظ على المجتمع المسلم من الذوبان في المجتمعات الأخرى التي جاء هو أصلا لهديها وقيادتها.

والخلاصة هي أن الإنسان هو أكرم مخلوقات الله في الوجود. وهو خليفة الله في الأرض. وهو- شأنه في ذلك شأن بقية مخلوقات الله- قد خلق لعبادة الله. ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴿٥٦﴾﴾[الذاريات]. وقاعدة العبادة الرئيسية هي: إفراد الله بالعبودية، ومن ثم إفراده بالحاكمية، وكل ما يترتب على ذلك من تقوى الله في جميع أنماط الاعتقاد والفكر والسلوك.

لكن الإنسان له وظيفة خاصة يتعبد بها ومن خلالها وذلك وفقا للتصور الإسلامي للإنسان، ولمفهوم العبادة، وهذه الوظيفة هي القيام بحق الخلافة في الأرض

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٢٣ .

عن طريق المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارتها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

ولكي يقوم الإنسان بهذه الوظيفة على الوجه الأكمل، لابد له من منهج تربوي يعده للقيام بهذه الوظيفة. والمنهج التربوي كي يقوم بوظيفة الإعداد هذه بطريقة متكاملة، لابد أن يستقي مفهومه وخصائصه من مفهوم منهج الإسلام العام وخصائصه. كما أنه لابد أن يعتمد في بنائه وتنفيذه وتطويره على أساس فهم طبيعة التصور الإسلامي لحقائق: الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة، وفهم طبيعة العلاقات والارتباطات بينها.

ومن هذا المفهوم للمنهج وخصائصه، ومن الأسس التي يقوم عليها بناؤه تشتق مكونات هذا المنهج وهي:

١- **الأهداف العامة**، التي يمكن أن تشتق منها الأهداف الخاصة بكل مرحلة تعليمية، وبكل مادة، حسب طبيعة المتعلمين، وطبيعة كل مادة على حدة.

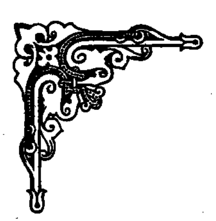
٢- **محتوى المنهج**،الذي هو مجموعة من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعلومات والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تناسب كل مرحلة، وكل علم وكل فن، وهذا المحتوى يجب أن يكون مناسبا- كما وكيفا- للأهداف السابقة.

٣- **طرق وأساليب التدريس**، وهذه يجب أن تتسق مع كل من الأهداف والمحتوى السابقين.

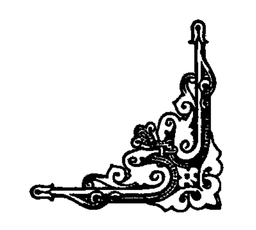
٤- **طرق وأساليب التقويم**، لمعرفة ما تحقق من الأهداف، وتشخيص جوانب القوة والضعف في المنهج. واتخاذ القرارات اللازمة للتطوير والمتابعة (انظر الرسم التوضيحي ص ٢٦).

* * *





# الفصل الثاني
## طبيعة المعرفة في التصور الإسلامي



سبق أن قلنا: إن الإسلام شريعة إلهية، ونظام مشتق منها لحكم الحياة. والإنسان في هذا النظام هو خليفة الله في الأرض، فهو مستخلف من الله فيها للعبادة. ومقتضى العبادة أن يسهم الإنسان- بإيجابية وفاعلية- في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.. ولكي يقوم الإنسان بواجبات الخلافة على نحو رباني وإيجابي وواقعي، فلابد من تربيته وإعداده.

### مفهوم التربية:

التربية عملية متشعبة، ذات نظم وأساليب متنوعة، تنبع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، وتهدف إلى إيصال الإنسان شيئا فشيئا إلى درجة كماله التي هيأه الله لها، وبذلك يستطيع القيام بحق الخلافة في الأرض، عن طريق إعمارها، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله. تفصيل ذلك:

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية وجدنا لكلمة «التربية» أصولا لغوية ثلاثة- كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الباني[1]:

**الأصل الأول:** رَبَا يَرْبُو بمعنى زاد ونما. وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ** (٣٩) ﴾ [الروم]. ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** (٢٧٦) ﴾ [البقرة].

**الأصل الثاني:** رَبَا يُرْبِي على وزن خَفَى يُخْفِي، ومعناه نشأ وترعرع، وعليه قول ابن الأعرابي:

فمن يك سائلا عني فإني … بمكة منزلي وبها رَبِيتُ

(١) عبد الرحمن الباني: مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي ط ٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م ص٧ - ١٤.

**الأصل الثالث:** ربَّ يَرُبُّ، بوزن مَدَّ يَمُدُّ، بمعنى أصلحه وتولى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه...

وقد اشتق بعض الباحثين من هذه الأصول اللغوية تعريفا اصطلاحيا للتربية، قال الإمام البيضاوي (المتوفى ٦٨٥هـ) في تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»: الربُّ في الأصل بمعنى التربية وهي تبلغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا. ثم وُصف به تعالى للمبالغة.

وفي كتاب مفردات الأصفهاني (المتوفى ٥٠٢هـ): «الربُّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام».

وقد استنبط الأستاذ الباني من هذه الأصول اللغوية، ومما قاله البيضاوي والأصفهاني أن التربية تتكون من العناصر التالية:

**أولها:** المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها.

**ثانيها:** تنمية مواهبه واستعداداته كلها، وهي كثيرة متنوعة.

**ثالثها:** توجيه هذه الفطرة وهذه المواهب كلها نحو صلاحها اللائق بها.

**رابعها:** التدرج في هذه العملية. وهو ما يشير إليه البيضاوي بقوله... «شيئا فشيئا» والراغب الأصفهاني بقوله: «حالا فحالا...».

ثم يستخلص (الأستاذ الباني من هذه العناصر) نتائج أساسية في فهم التربية:

**النتيجة الأولى:** أن التربية عملية هادفة، لها أغراضها وأهدافها وغاياتها.

**النتيجة الثانية:** أن المربِّي الحق على الإطلاق هو الله الخالق: خالق الفطرة وواهب المواهب. وهو الذي سن سننا لنموها وتدرجها وتفاعلها... كما أنه شرع شرعا لتحقيق كمالها وصلاحها وسعادتها.

**النتيجة الثالثة:** أن التربية تقتضي خططا متدرجة تسير فيها الأعمال التربوية والتعليمية وفق ترتيب منظم صاعد، ينتقل مع الناشئ من طور إلى طور ومن مرحلة إلى مرحلة.

**النتيجة الرابعة:** أن عمل المُربِّي تالٍ وتابع لخلق الله وإيجاده، كما أنه تابع لشرع الله ودينه، وأحكامه[1].

---

(١) عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية، وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ١٢ - ١٤.

وقد أجمل الشيخ محمد متولي الشعراوي هدف التربية بقوله: إن التربية هي إيصال المربي إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها: فالتربية هي حيثية إيماننا بألوهية الله، فنحن آمنا بالله معبودا لأننا آمنا به ربا.

ولذلك يقول الحق -سبحانه- حين يطلب منا أن نوجه الحمد لصاحب النعمة- «الحمد لله» وحيثية ذلك أنه «رب العالمين»[1].

## بين التربية والتعليم

فالهدف من التربية إذن هو إيصال المربي إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها. فهي تشمل جميع جوانب النفس الإنسانية، أي جميع جوانب الشخصية الإنسانية. وهي تستعين بوسائل منها «التعليم». فالتعليم وسيلة للتربية، ومدلوله أضيق من مدلولها، لأنه مرتبط بموضوع معين.

و«التعليم» قد يهدف إلى تحصيل المعرفة، أو التدريب على مهارة، أو حفظ نص من النصوص الأدبية، أو قانون من القوانين الرياضية أو الطبيعية، «والتربية» تتخذ كل ذلك وسيلة لتربية المشاعر، وتنمية الإحساس بالذوق والجمال في الكون الذي صنعه الله، وتربية الضمير والوجدان، وتربية الإرادة الحرة الواعية، والقيم الإنسانية، والقيم الخلقية النابعة منها، وأنماط السلوك التابعة لها.

ومع ذلك «فإن كل عمل تعليمي جيد، لابد أن يكون له هدف تربوي... أي أن التعليم المثالي إنما هو تربية، ولكنه- في الاصطلاح- يظل- مرتبطا بموضوع ما»[2]، في حين أن التربية تتناول النفس الإنسانية أو الشخصية الإنسانية كلها.

إذن فالتربية والتعليم ليسا متعارضين ولا منفصلين، بل هما متآزران ومتكاملان، ويترتب على هذه العلاقة تطبيقات كثيرة في تخطيط المناهج وتطويرها، وفي إعداد الكتب وتصميم الوسائل، واختيار طرق ووسائل التدريس والتقويم، وممارسة العمل التربوي عموما مع الناشئين في البيت والمدرسة والمجتمع.

---

(١) محمد متولي الشعراوي: منهج التربية في الإسلام، القاهرة، دار المسلم، بدون تاريخ، ص١١ - ١٢.
وانظر في تعريف التربية أيضا: سعد بن عبد الله بن جنيدل: أصول التربية الإسلامية، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ص ١٤-١١.

(٢) عبد الرحمن الباني، مرجع سابق، ص٢٤ - ٢٥.

## طبيعة التربية

وإذا كانت التربية هي إيصال المربي إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها، عن طريق مراعاة فطرته، وتنمية مواهبه وقدراته وطاقاته- بطرق متدرجة وفق مراحل- وتوجيهها نحو الخير والحق والكمال، فإن ذلك كله يتم وفق نظم وغايات العلم، والفن والصناعة، حسب مفهوم كل منها في منهج التربية الإسلامية.

فالتربية علم إخبار؛ حيث إنها إخبار عن الحقائق الكلية والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، التي يتلقاها الإنسان فيسلم بها ويتكيف معها. وهي علم من حيث إنها معرفة بقوانين الله في الكون التي تم اكتشافها من قبل.

والتربية علم إنشاء من حيث إنها محاولة للكشف عن «الحقيقة» ومعرفة للقوانين والسنن التي خلق الله الكون عليها ولم تكتشف بعد. فالتربية هنا علم من علوم البحث، ومناهج البحث التي تعين الإنسان على الاكتشاف والاختراع والإبداع.

ويدخل فيها «العلم» في العلوم الإنسانية، التي تكتسب فيها المعرفة عن طريق الملاحظة، والتفكير والإلهام. ويدخل فيها «العلم» في العلوم الطبيعية الذي هو الوصول إلى معرفة قانون الله بالملاحظة والتجربة والتطبيق.

إذن فالعلم وسيلة من وسائل التربية وغاية لها، ولكن من السفاهة المزرية جعل العلم أو العقل مصدرا للمعرفة، فالمصدر هو الله. ومن الجهل القول بأن العلم قد انتصر على الطبيعة أو قهرها، فالعلم ما هو إلا الوصول إلى القانون الطبيعي الذي طبع الله الكون عليه؛ والطبيعة ما خلقت لتقهر، بل لتكون في خدمة الإنسان. والإنسان لا يستطيع أن يقهرها، ولكن يستطيع أن يتلطف معها، ويتعرف على قوانينها التي أودعها الله فيها وبذلك يستفيد من خيراتها ومكنوناتها.

والتربية فن؛ وعندما نتكلم عن التربية كفن- كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الباني- فإننا لسنا بإزاء الإخبار عن واقع، أو الكشف عن حقيقة، ولسنا بإزاء تحقيق أهداف عملية لسد حاجاتنا الأساسية، وإنما نحن أمام تحقيق أهداف تتصل بتحسين الحياة وتجميلها كما يقول الإمام الشاطبي. فالفن تعبير عن القيم الإنسانية أخلاقية كانت أو جمالية. فهو ذو أثر يمتع أنفسنا، ويغني حياتنا، ويزيح عنا آثار البلادة والرتابة التي تصيبنا نتيجة اتصالنا الدائم بقبضة الطين التي هي جزء من طبيعتنا.



والتربيـة كفن، تهـدف إلى الوصول بالمربي إلى درجـة الإتقان أو الإحـسان في الأداء، فقيمة كل إنسان بما يحسن. والوصول بالإنسان إلى درجة أن يكون محسنا. هو أعلى درجات الفن، وأرقى ما يهدف إليه العمل التربوي(١).

والتربية صناعة، فهي عملية ذات قواعد وأصول، تسير وفق منهج لتحقيق أهداف معينة. والتربية- بهذا المعنى- مهنة أو صـناعة تهدف إلى إقدار المتعلم على عمل معين، بحيث يتناوله بالتغيير والتعديل والتطوير والمعالجة ليصبح على شكل معين.

وبهذا المعنى تكـلم ابن خلدون عن التعليم باعـتباره صناعـة أو مهنة ذات مهـمة عملية، لها أصولها وقواعدها المحكمة التي تتحقق بمراعاتها أهدافها(٢).

وإذا كانت التربية ثابتة فيما يتصل بأهـدافها العامة كبناء الإنسان العابد لله، القادر على القيـام بحق الخلافة في الأرض وفق منهج الله. وإذا كانت ثابتـة أيضا فيمـا يتصل بمحتواها الخاص بالحقـائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، فإنها مـتطورة فيما بعد ذلك، حيث إنهـا تعد الإنسان الذي يعـمر الحيـاة ويرقيها فـي كل زمان وفي كل مكان، وفق ظروف الزمان والمكان. لكن ذلك كله إنما يكون وفقا للقـواعد الثابتة في منهج الله وفي إطارها، وحول محورها.

## فلسفة التربية، ونظرية التربية:

تعتمد مناهج التـربية كلها تقريبا- ما عدا منهج التربيـة الإسلامية- على نظريات تربوية. والنظريات التـربوية تعتـمد بدورها على فلسـفات عامـة، فمـا الفلسفـة؟ وما النظرية؟ وما العـلاقة بينهـما؟ وهل يحتـاج منهج التربية الإسـلامية إلى فلسـفة أو إلى نظرية؟ هذا ما نجيب عنه فيما يلي:

## مفهوم الفلسفة:

الفلسـفة مـصطلح يوناني الأصل مكـون من كلمتين: «فـيلو»، ومـعناها حب، «صوفيا» ومعناها الحكمة، فالفلسفة إذن هي حب الحكمة أو محبة الحكمة، وبالرغم من جاذبية هذا المفهـوم للوهلة الأولى، إلا أن الفلاسفة والمفكرين قد اختـلفوا بل وتناقضوا في ماذا تعني مـحبة الحكمة؟ ومـا زال هذا الاختلاف والتناقض قائمـا منذ أن نشأ هذا المصطلح إلى يومنا هذا، فالبعض يرى أن الفلسفة هي العـلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح، والبعض يرى أنهـا مفهوم جامع للكون بما فـيه من جماد وحـيوان ونبات،

---

(١) عبد الرحمن الباني: مرجع سابق، ص١٩، ٢٠، ٢١ .

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون، الباب السادس (فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع).



وثالث يرى أنها علم دراسة الغيبيات وما وراء الطبيعة، والرأى عندى أن الفلسفة هي تصور ما للألوهية والكون والإنسان والحياة ولطبيعة الارتباطات بين هذه العناصر. وقد ظل مفهوم الفلسفة يحمل طابعا فرديا، وبقيت مذاهبها مجرد وجهات نظر تحمل شارة أصحابها إلى يومنا هذا[١].

أما فلسفة التربية «فهي باختصار الجانب التطبيقي للفلسفة العامة في ميدان التربية. ومن وجهة النظر هذه يصبح من وظائف الفيلسوف التربوي تطبيق مبادئ الفلسفة المثالية أو الواقعية أو البراجماتية أو ما إلى ذلك على التربية؛ ولذا فإن من ينظر في أسماء مدارس فلسفة التربية يجد أنها ذات المدارس الفكرية التي يتحدث عنها الفلاسفة. فهناك فلسفة مثالية عامة، وهناك أيضا فلسفة مثالية في التربية»[٢] وهناك فلسفة براجماتية عامة، وهناك فلسفة براجماتية في التربية، وهناك فلسفة أو تصور إسلامى عام للألوهية والكون والإنسان والحياة، وهناك فلسفة تربوية نابعة منه... وهكذا.

## مفهوم النظرية التربوية

النظرية بمعناها العام الذي يشيع في الغرب، هي تفسير بعض الأمور في الماضي أو الحاضر أو المستقبل استنادا إلى اعتقاد ثابت أو مفترض.

والنظرية بمعناها الدقيق، هي محاولة لتفسير عدد من الفروض أو قوانين الطبيعة من خلال وضعها في إطار عقلي عام[٣].

والنظرية التربوية هي مجموع المبادئ المترابطة التي توجه العملية التربوية وتحكم الممارسات التعليمية.

فإذا كانت النظرية العلمية وصفية وتفسيرية في الأساس، فإن وظيفة النظرية التربوية- كما يقول «بول هيرست»- هي التشخيص والعلاج. وإذا كانت النظرية العلمية تحاول وصف وتفسير ما هو قائم، فإن النظرية التربوية تصف وتقرر ما ينبغي عمله مع الناشئة، وتوجه وترشد الممارسات التربوية.

ومن هذا المنطلق فإن بول هيرست وغيره «من المربين الغربيين الذين يرفضون بناء النظرية التربوية على النمط العلمي يدعون إلى إعطاء الفلسفة دورا رئيسيا في بناء النظرية التربوية، لأنها تمدهم بالقيم التي يريدون غرسها في الناشئة»[٤].

(١) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ط٥، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م ص٣٨ .
انظر عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص٣٢ .
(٢) انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله في المرجع السابق، ص٣٨ .
(٣) ت. مور: النظرية التربوية، ترجمة محمد أحمد الصادق وعبد المجيد عبد التواب شيحة، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م ص١٧ .
(٤) عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص٧٤ .

**اعتماد النظرية على الفلسفة:**

يوضح «مور» العلاقة بين الفلسفة والنظرية التربوية، فيشبه العملية التربوية بالبناء المكون من عدة طوابق.. ففي الطابق الأول توجد مختلف الأنشطة والممارسات التعليمية، كالتدريس، والتدريب والتخطيط، وكل الممارسات التي يشترك فيها المدرسون والطلاب والإدارة المدرسية.. وفي الطابق الثاني توجد النظرية التربوية التي يمكن اعتبارها مجموعة من المبادئ والإرشادات التي تهدف إلى توجيه وإرشاد الممارسات التعليمية الجارية في الطابق الأول.

وفي الطابق الثالث أو الأعلى، توجد فلسفة التربية التي تعني بكل ما يدور في الطابقين الموجودين أسفل منها. إنها تحلل المفاهيم مثل التربية والتعليم والخبرة، وتحدد لها المعاني التي تدخل في بناء النظرية في الطابق الثاني، وتوجه الممارسات التربوية في الطابق الأول(١).

إذن فكل مناهج التربية الغربية تعتمد على نظريات ترشدها وتوجه سلوكها، وكل نظرية تعتمد على فلسفة أو أكثر تستمد مبادئها ومفاهيمها منها.

فهل منهج التربية الإسلامية في حاجة إلى نظرية توجهه، وإلى فلسفة يستمد منها مفاهيمه ومبادئه؟

**محاولات بناء «فلسفة» للتربية الإسلامية:**

إنه ليس من الضروري أن نواجه الفلسفات الغربية المختلفة والمتناقضة بـ «فلسفة إسلامية»، وليس من الضروري أن نواجه نظرياتهم التي لا يجمع شتاتها جامع بـ«نظريات إسلامية»، ليس من الضروري كل هذا لسبب بسيط هو أن لنا شريعة ربانية كاملة شاملة تتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما هم فقد قطعوا كل صلاتهم بالدين، فلم يبق لهم غير «الفلسفة» و«النظرية». فما يجوز عليهم لا يجوز علينا.

فالشريعة الإسلامية تكفي المسلمين شر اللجوء إلى الفلسفات التي هي من وضع البشر. فالفلسفات يلجأ إليها غير المسلمين لعدم وجود شريعة- عاملة لديهم. وفي ذلك يقول ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله...»: إن أهل الفلسفة قد قسموا العلوم إلى علم أعلى، وعلم أوسط، وعلم أسفل وجعلوا الفلسفة هي العلم الأعلى، لأن هذا العلم عندهم يرتبط بأمور قد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق المنزلة بالصدق، وما صح عن الأنبياء صلوات الله عليهم(٢).

---

(١) ت. مور: النظرية التربوية، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢) ابن عبد البر النمري القرطبي: جامع بيان العلم وفضله، جـ٢، ص ٣٧ - ٣٨.

ولكن يبدو أن بعضا- ممن يفكرون في الإسلام وهم داخل المنظومة الغربية، يصر على أن تكون لنا «فلسفة» مثل ما لهم «فلسفة» وأن تكون لنا «نظرية» مثل ما لهم «نظرية».

فبالرغم من أننا نعرف أن الجيل الأول لهذه الأمة، وهو جيل فذ فريد،... جيل قرآني، لم يعرف إلا القرآن وسنة رسول الله ﷺ، لم يعرف أية «فلسفة» ولم يتربَّ من خلال أية «نظرية» وبالرغم من ذلك قاد الأمة التي سادت الدنيا... الأمة التي وصفها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] وبالرغم من أننا نقرأ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ونقرأ قول الرسول الكريم ﷺ: «**لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي**» [رواه الستة].

أقول بالرغم من هذا الوضوح، وبالرغم من صفاء النبع المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إلا أنه كان هناك إصرار على بناء «فلسفة إسلامية» على نمط الفلسفة الإغريقية، فجاء القرن الرابع والخامس الهجري بمفكرين مسلمين أطلق عليهم وصف «فلاسفة الإسلام» وجاءت فلسفتهم ظلا للفلسفة الإغريقية، غريبة عن روح الإسلام وتصوره الأصيل.

فما الذي حدث؟.. اختلطت الينابيع الغريبة بالنبع الأصيل الصافي. اختلطت فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الفرس وتصوراتهم، وإسرائيليات اليهود، ولاهوت النصارى، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات. واختلط كل هذا بتفسير القرآن، وعلم الكلام، كما اختلط بالفقه والأصول أيضا. وتخرج على ذلك النبع المشوب- كما يقول الأستاذ سيد قطب- سائر الأجيال بعد ذلك.

وازدادت الشوائب في النبع الصافي على مر القرون بفعل عوامل العداء من الخارج والداخل، حتى جاء محمد علي في مصر مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي. فبدأ في عزل ذلك النبع الأصيل رويدا رويدا عن طريق الحياة، لتحل محله التيارات الغريبة المتربصة... وها نحن الآن عندما نقول إننا لكي نسترجع هويتنا الأصيلة، لابد لنا من العودة إلى النبع الصافي مرة أخرى... إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ- نجد من يرد علينا قائلا: وحتى عندما نعود إلى كتاب الله، فنحن في حاجة إلى أن نستنبط منه «فلسفة».

### محاولات بناء «نظرية» للتربية الإسلامية:

وكما أن هناك من يـرى ضرورة إيجاد «فلسفة إسـلامية» للتربيـة، فإنه يوجد من يرى ضرورة بناء «نظرية إسلامية» للتربية. وقد كنت أحد أفراد الفئة الثانية. فبالرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح، إلا أنني لم أكن قد تخلصت بعـد من ضغط رواسب الثقافة الآتية من مصادر أجنبية، التي غبرت حسي الإسلامي، وغبشت تصوري، وحرمتني من الرؤية الواضحة. وبعون من الله انجلت الصورة أو هكذا أتصور.

أقـول: إن هناك من يحاول بناء «نظرية إسـلاميـة» للتـربية على غـرار «النظرية» الغربية، لكنها تختلف عنها في أنهـا ثابتة وغير قابلة للرفض، وأنا لا أدري كيف تكون «نظرية» وتكون غير قابلة للرفض؟! ويـرى بعض الأخوة الأفاضل أن هذه النظرية تقوم على الحكمة، وهي عبارة عن مجموعة من المبادئ المترابطة التي جاء بها الإسلام لتوجيه الممارسات التربوية[1].

وتتكون النظرية التربوية الإسلامية- من وجهة نظرهم- من المصادر التالية:

١- القرآن والسنة، ومنهمـا تتزود النظرية التربوية بمجموعة من المـبادئ، الموجهة وهذه ليست فرضـيات تثبت عن طريق التجربة، وبالتالي فـهي ليست قابلة للرفض.

٢- الدراسات التاريخية والدراسات التربوية لآراء العلماء المسلمين.

٣- دراسة الشـخصـيات الإسلامـية اللامعـة في مجـال التربيـة كابن خلدون، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن جماعة وغيرهم.

٤- معطيات البحـوث العلمية الصحيحة التي تلقي الضوء على طـبيعة الإنسان، وطريقه تعـلمه، وكذلك كل خـبرات البـشر التي لا تتعـارض مع العقـيدة الإسلامية.

ويلاحظ على هذه المحاولة ما يأتي:

---

(١) انظر: عبد الرحمن صـالح عبد الله، مرجع سابق، ص ٧٦ وما بعدها. وانظر أيضـا: عبد القادر هاشم رمزي: النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتمـاعية التربوية، الدوحة، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤.

**أولا:** اختلاط الينابيع مرة أخرى. فقد جمعت هذه «النظرية» المقترحة بين النبع الصافي الأصيل المتمثل في المصدر الأول «القرآن والسنة» وبين مصادر أخرى كالتاريخ وآراء العلماء... إلخ، أي بين الوحي والاجتهاد أو الخبرة.

وهنا لابد من توضيح. فعندما نتحدث عن القرآن والسنة فإننا نتحدث عن أصول ربانية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وهي- بالقطع- ليست «نظرية» أي أنها لا تمثل وجهة نظر بشرية بما تحمله من خطأ وصواب، وهدى وضلال، وصدق وكذب... إلخ، ويتدارك أصحاب هذه المحاولة هذه المسألة، فيؤكدون أن المبادئ المستقاة من القرآن والسنة والداخلة ضمن بناء النظرية، ليست مجرد فروض تقبل أو ترفض، وإنما هي مبادئ ثابتة. فكيف تكون مبادئ ثابتة، مصدرها الوحي الإلهي، وتكون «نظرية» في نفس الوقت؟!

**ثانياً:** لا يمكن اعتبار الدراسات التاريخية والدراسات التربوية لعلماء المسلمين مصدرا ملزما إلزاما مطلقا في توجيه الفكر التربوي الإسلامي والممارسات التربوية الإسلامية. نحن نسترشد فقط بهذا الفكر أو ببعضه مما يصلح في زماننا؛ لأن هذا الفكر يمثل اجتهادات لهؤلاء المفكرين الأفذاذ وخبرات لهم في زمانهم، قد تصلح لنا وقد لا تصلح، ولا يجوز وضعه بجوار القرآن والسنة، وعلى مستوى واحد في التوجيه والإرشاد.

ولذلك نجد واضعي «النظرية» يتحفظون ويقولون: إن المصدر الأول هو المصدر الرئيسي، والمصادر الثلاثة الأخرى مصادر ثانوية. ويقولون: إنه بالرغم من أن الفكر التربوي الإسلامي يعد مصدرا للنظرية، إلا أنه من غير الحكمة اعتبار الفكر التربوي في سائر العصور الإسلامية ممثلا للتربية الإسلامية.

**ثالثاً:** لا يمكن اعتبار آراء الشخصيات الإسلامية موجهات تربوية مطلقة.

إن آراء هؤلاء هي مجرد اجتهادات في فهم الأصول وممارساتها، والمكان اللائق بها هو محتوى منهج التربية الإسلامية وطرق وأساليب تدريسه، وليس الأصول الموجهة للتصور.

**رابعاً:** نعم،إننا يجب أن نستفيد من معطيات البحوث والدراسات العلمية أينما كانت، فالحكمة ضالة المؤمن، ولكن نستفيد بها في الممارسة، ولا نعتبرها أصولا ومبادئ وموجهات للسلوك التربوي، فهذه مهمة الشريعة الإسلامية وحدها (القرآن والسنة). وقد سبق أن رأينا كيف أن مفهوم الطبيعة، ومفهوم الإنسان، ومفهوم النفس، ومفهوم علم النفس يختلف في الإسلام عن الفلسفات الغربية كلها.

**لا «فلسفة» ولا «نظرية»، بل تصور إسلامي للألوهية والكون والإنسان والحياة:**

يقول الأستاذ سيد قطب: «يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا أنه- كما أنه في ذاته دين رباني- فإن منهجه في العمل منهج رباني كـذلك، متواف مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقـيقة هذا الدين عن منهجـه في العمل[1] قال تعالى في شـأن الطريقة التي نزل بهـا القرآن فـي مكـة: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء] . فالفرق والمكث مقصـودات حتى يتم ترجمة كل آية، أو مجموعة من الآيات إلى واقع حي مـتحرك، لا إلى صورة «نظرية». فمن الخطأ والخطر أن تتبلور الشريعة في صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية، والمعرفة الثقافية[2].

هذه هي طبيعة هذا الدين، يجب أن نـعرفها، وألا نحاول تغييرها تلبـية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشريـة. فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة.

«يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها مـعا. في تحويل العـقيدة الإسلامـية التي تحب أن تتمـثل في واقع نام حي متحرك، وفي تجـمع عضوي حركي. . . تحـويلها عن طبيعـتها هذه إلى نظرية للدراسة والمعرفـة الثقافية، لمجـرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ «نظرية إسلامية»[3].

لقد جاء الإسلام ليـغير واقع العقيدة السائد، وواقع الحـياة السائد، وواقع منهج التفكير السائد. ومن ثم لا يجوز للمسلمين أن يفعلوا العكس بأن يحولوا منهج الإسلام في التـفكير والعـمل ليتناسب مع المناهج الـوضعيـة السائدة فـي صورة «فلسـفة»، أو «نظرية».

إن تخلف المسلمين إنما حدث عندما حادوا عن طريق الله، بسبب اختلاط المصادر والينابيع ،فقد خلطوا النبع الـرباني الأصيل الصافي بالينابيع البشرية الزائفـة. وأخضعوا الإسلام لمناهج التـفكير البشـرية أو كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشـرية. وكأنما نريد أن نرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد[4].

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ٤٧ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤٤ .
(٣) المرجع السابق، ص ٤٥ .
(٤) المرجع السابق، ص٤٨ .



إن الفصل بين أصول التربيـة الإسلامية وبين الممارسة الواقعـية لهذه الأصول هو تمييع لهذه الأصول. . . ربما يصل إلى حد التضييع لها.

إن منهج التربية الإسلامية- كمنهج الإسلام العام- «يكره بطبيعته- أن يتمثل في مجـرد تصور ذهني مـعرفي؛ لأن هذا يخـالف طبيعـته وغـايته، ويجب أن يتـمثل في أناسي، وفي تنظيم حي، وفي حـركة واقعيـة. . . وكل نمو نظري يسبق النمـو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك. . .»[1].

ويتمثل الخطر في أن «النظرية» التي قد تشتق من الأصول لـتقوم عليها الممارسة، سوف تعطل كطبـقة عازلة بين الأصول والممارسـة القائمة عليهـا، أي أنها سوف تعكر النبع الصافي أولا، ثم تخلطه بينابيع أخرى رويدا رويدا. . . ثم تقضي عليه.

يقول ابن القيم في «أعلام الموقعين» تحت عنوان: لا حاجة للناس بعد رسول الله ودينه، لأنه جاءهم بخيـر الدنيا والآخرة، ولم يحوجهم الله إلى أحد سـواه، كما وفق الله أصحاب نبيه الذين اكـتفوا بما جاء به، «واستغنوا به عما سـواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عـهدنا إليكم. وقد كان عمر -رضي الله عنه- يمنع الحديث عن رسـول الله ﷺ خشية أن يشتـغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائـهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]

والخلاصة أننا لابد من أن نرجع إلى النبع الصـافي الخالص، النبع المضمون الذي لم تشبـه شائبة، الـنبع الذي منه تربت وترعرعت الأمة الإسـلاميـة الأولى. نرجع إليه لنستمـد منه تصورنا لمنهج التربية الإســلامية، ولمناهج السيـاسة والاقتصاد والاجـتماع، وكل الجوانب الأخـرى للحيـاة. نرجع إليه مـباشـرة. . . دون وساطة من «فلسـفة» أو «نظرية».

هذه هي طبيـعة الإسلام في التـفكير والعمل. «وهو بهـذه الطبيعـة، صنع الأمة الإسلامية أول مرة- كما يقول الأستاذ سيد قطب- وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة.

(١) المرجع السابق، ص ٤٦ .

(٢) ابن القيم: اعلام الموقعين، مرجع سابق، ج٤، ص ٣٧٦ .



﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]. هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله... وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله.

## العلم شعار الإسلام وفطرة الله في الإنسان

### العلم شعار الإسلام:

سبق أن قلنا: إن العلم هو وسيلة منهج التربية الإسلامية في إيصال الإنسان إلى درجة كماله. والعلم في هذا الإطار هو معرفة قوانين الله في الكون وتطبيقاتها في واقع الأرض. والإنسان أكمل مخلوقات الله في الكون وهو سيد هذه المخلوقات. وقد جعله الله كذلك ليكون خليفته في الأرض: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

ولكي يقوم الإنسان بحق استخلاف الله له في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهجه سبحانه، كان لابد أن يخلقه مفطورا على حب العلم وطلب المعرفة، فهما - العلم والمعرفة - وسيلة الله للإنسان في عمارة الأرض: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

والعلم هو شعار الإسلام الأول، ولا عجب في ذلك، فأولى الآيات التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ هي: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق] كما أن أول آلة ذكرها الله في القرآن وأقسم بها هي القلم وذلك في ثاني سورة نزلت من القرآن: ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [القلم].

ولقد أكد الله هذا الشعار في كل مناسبة حتى يذكّر الإنسان، ويحرك أحاسيسه، ويثير مشاعره كلما تبلد أو ابتعد عن منهج الله: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

**إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٩﴾** [الزمر]. **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾** [فاطر]. **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾** [آل عمران] . . . **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾** [التوبة] وآيات أخرى كثيرة.

والرسول ﷺ يحث على طلب العلم، ويؤكد احترام المعلمين: «**تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلموا منه**» (رواه الطبراني). ويعتبر طالب العلم مجاهدا في سبيل الله: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**» (رواه الترمذي). . . ووصف مجالس العلم برياض الجنة: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلماء**»(رواه الطبراني). . . وطالب العلم بمرتبة الشهداء: «**لباب يتعلمه الرجل أحب إليَّ من ألف ركعة تطوعاً وإذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد**» (رواه البزار والطبراني). والعلم وسيلة غايته الاستقامة في واقع الأرض: «**ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عمله**» (رواه الطبراني). وأشاد رسول الله ﷺ بمن آتاه الله الحكمة فهو يقوم بتعليمها للناس: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**» (رواه البخاري ومسلم). وطلب العلم فريضة: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» (رواه ابن ماجه) ويرفع مرتبة العالم إلى الأنبياء: «**من جاء وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة**» (رواه الطبراني). وأشاد ﷺ بمن يذهب إلى المسجد فَيُعلِّم أو يَتَعلَّم: «**أفلا يغدو أحدكم بكل يوم إلى المسجد فيعلم أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير من أربع ومن أعدادهن من الإبل**» (رواه مسلم). . . وجعل العالم أفضل من العابد، والعلماء ورثة الأنبياء: «**من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» (رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه).

ولأن طلب العلم فريضـة، فهو إذن عبادة؛ ذلك أن حـقائق العلم هي آيات الله، والتأمل في آيات الله عبـادة، والانتفاع بها في عمارة الأرض هو وظيفـة الإنسان والغاية من خلقه. فـالذين يتدبرون آيات الله هم الذين يرون بديع صنعته ودقـة نظامه، وهؤلاء الذين يعلمون ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عـرفوا من الحق. وهؤلاء هم أكثر الناس خشية لله ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [ فاطر ].

ومما يؤكد هـذا المعنى الحديث الذي رواه مـعاذ بن جبل عـن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تعلموا العلم فإن تعـلمه لله خشية، وطلبه عـبادة، ومدارسته تسـبيح، والبحث عنه جـهـاد، وتعليـمـه من لا يعلمـه صـدقة، وبـذله لأهله قـربة، وهو الأنيس في الوحـدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمُصْبـر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغـرباء، ومنار سبيل الجنةَ، يرفع الله به أقواماً فيـجعلهم في الخير قـادة سادة هداة، يقْـتَـدَى بهم، أدلة في الخـير تُقْـتَص آثارهم، وتُرْمَقُ أفـعـالهم وترغب الملائكة في خُلتهم، وبأجنحـتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يسـتغفر، حتى حـيتان البحر وهوامه، وسبـاع البر وأنعامه، والسماء ونجومها. فـالعلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصـار من الظلم، وقـوة الأبدان من الضـعف يبلغ به منازل الأبرار والدرجـات العلي، والتفكير فـيه يعدل بالصيام، ومـدراسته بالقيام، به يطاع الله عـز وجل، وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يمجـد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحـلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء**»(١).

هذا هو العلم في الإسلام، عظمة العظمات، وسبيل كل مجد، وكل خير، وكل فضل؛ طلبـه عبادة، وتعلمـه لله خشية، وللحـياة في واقع الأرض رقي وعظمة. فـهو يربط الإنسـان بربه، ويربط الدنيـا بالآخرة، ويربط ملـكوت الأرض بملكوت السمـاء. ولكل هذا، فإن العلم هو شعار الإسلام.

**العلم فطرة الله في الإنسان:**

أما أن العلم فطرة الله في الإنسان، فهـذا واضح صريح لا يحتاج إلى تأويل في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴿١٧٢﴾ ﴾ **[ الأعراف ]**

---

(١) رواه ابن حبان وابن عبد البـر، نقـلا عن: أبى حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١ ، بيـروت، دار القلم، ط ١، ص ١٦ .

هنا تعرض قضية العلم بالتوحيد- وهي أهم قضايا العلم على الإطلاق- من زاوية عميقة، وهي زاوية الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر، فالعلم بوحدانية الله والاعتراف بربوبيته فطرة في الكيان البشري. ولقد شهد الكيان البشري على نفسه بهذه الحقيقة وذلك بحكم وجوده، فوجوده يعني هذه الحقيقة. أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى.

فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق، لكن رحمة الله اقتضت ألا يكلهم إلى أنفسهم، فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[1].

فحقيقة التوحيد قائمة ثابتة في الفطرة الإنسانية. يخرج بها كل مولود إلى الوجود، لا يحيد عنها إلا إذا فسدت فطرته بعوامل خارجية. هذه العوامل الخارجية التي تستغل الاستعداد البشري للهدى والضلال. وهو استعداد كامن تخرجه إلى حيز الوجود الظروف والعوامل البيئية والاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان. يوضح ذلك صراحة قول الرسول ﷺ : «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**» (رواه الشيخان).

إننا لو تأملنا الآية الكريمة السابقة، لوجدنا أنفسنا أمام مشهد كوني رائع باهر، مشهد فريد لا تعرف اللغة له نظيرا في تصوراتها المأثورة. إنه مشهد العلم بالألوهية، والإيمان والإقرار بالوحدانية، «مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكينة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربِّي، فيسألها: ألست بربكم؟ فتعترف له- سبحانه- بالربوبية، وتقر له- سبحانه- بالوحدانية، وهي منثورة كالذر، مجموعة في قبضة الخالق العظيم»[2].

إنني أرى أن هذه الآية الكريمة ترشدنا في صراحة ووضوح إلى ما يأتي:

**أولاً**: أن العلم بالألوهية والوحدانية- وهو غاية كل علم- فطرة الله في الطبيعة الإنسانية، وإن الانحراف عن هذا العلم هو انحراف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ ولهذا يجب مقاومته بجميع الوسائل لرد الإنسان إلى الفطرة.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٩٣ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٣ ص ١٣٩٢ .

**ثانيا:** يترتب على أولا، أن الأخـذ بأسبـاب العلم فريضة لازمـة لتأكـيد الفطرة والحفاظ عليـها وعدم الانحراف عنهـا؛ لأن الانحراف عنها يتبـعه الانحراف عن الإيمان بوحدانية الله، وما يترتب عليه من انحـراف الإنسان عن وظيفته ألا وهي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

**ثالثاً:** وبما أن العلم فطرة الله في الإنسـان، وهو سبيل الإنسـان إلى معـرفة الله وخشـيته ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر] وهو سبيله إلى عمارة الأرض وترقيـتها، فـإنه من الضروري إذن الاسـتمرار في عـملية التعلـيم والتعلم. إن حاجات الحياة متغـيرة متجددة بتغير الحياة نفسها. وهذا يستلزم بطبـيعة الحال، استمرار الإنسان في التـعلم لينفض عن نفســه وعن مشاعـره ما يكون قد علق بهـا من صدأ أو بلادة. نتيجة الانغماس في الحياة تحت وطأة قبضة الطين ومطالبها.

إن ترقـية الحـياة وفق منهج الله عـملية مـستـمـرة دائمة. وهي بالتـالي تتطلب معلومـات ومهارات متـجددة، وهذا كله يتطلب التربيـة والتعلم والتدرب بصفـة دائمة ومسـتمرة. إن الإنسان الذي يقـوم بحق استخـلاف الله له في الأرض، هو الذي يأخذ بكل الأسبـاب التي تساعـده في أداء هذه الغاية أحـسن الأداء. فالمسلم مطالـب بحسن الأداء لا مجرد الأداء. وهذا يتطلب أن يكـون الإنسان متطورا ومتجـددا وملمًا بكل ما يستجد في ميدان عمله من معارف وخـبرات ومهارات. إذن فترقية الحياة وفق منهج الله يتطلب التربية المستمرة، بل وحسن التربية.

### فساد القسمة إلى دين وعلم

إن الدين في المفهوم الإسلامي- كما سبق أن قلنا- هو شريعة الله، والنظام العام أو المنهج المنبثق عنها لحكم الحياة، والعلم- وفقا لمفهوم الدين هنا- هو معرفة قوانين الله في الكون، وتطبيقاتها في واقع الأرض، فـالعلم- كما رأينا- هو شعار الإسلام الأول، وهو فطرة فطرها الله في خلق الإنسـان، ولا غرابة في ذلك، فـالإنسان خليـفة الله في الأرض لعمـارتها وترقيتـها. وأهم وسائل الإنسان- على الإطلاق- في عـمارة الأرض وترقيتها- بعد الإيمان بعبوديته لله وحـده- هو معرفة قوانين الله في الكون وتطبيقاتها في واقع الأرض.

فالدين- إذن- في المفـهوم الإسلامي- هو المنظـومة الإلهية الـكبرى، والعلم هو أحد أجزاء هذه المنظومة. يتأثر بها كلها، ويؤثر فيهـا كلها. والعلاقة بينهما علاقة عموم وخصــوص. فالدين يشمل العلم، والعلم هو مـعرفة قوانين هذا الدين، وتحـويلها إلى واقع متحرك لإعمار الحياة والقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض.

إذن العلم المقصود في هذه المنظومة هو العلم الذي يؤدي إلى عمارة الأرض وترقيتها، وليس العلم الضار: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]، ولا العلم الذي لا كفاية فيه ولا غناء: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم] فمعيار الحكم على العلم- كما وضحه رسول الله ﷺ- هو غاية العلم، وهو أن يكون العلم نافعا للإنسان وللبشرية جميعا. فعن زيد ابن أرقم أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» [رواه مسلم والترمذي والنسائي](1).

إن العلم ليس مقصورا- كما يقول الأستاذ سيد قطب- على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع.. «فالعلم يشتمل على كل شيء، ويتعلق بالقوانين الطبيعية.. وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع»(2).

ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ويثني على أهله... إن هناك ارتباطا بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، وعلم طبقات الأرض... وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية، والقوانين الحيوية. إنها كلها تؤدي إلى الله، حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله كما اتجه «المنهج الأوربي». حينما حدثت الملابسات السيئة التي أدت إلى الفصام النكد- أثناء النهضة الأوربية- بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة. الأمر الذي ترك آثارا مسممة بالعداء لأصل التصور الديني كله، في كل ما أنتجه الفكر الأوربي في كل حقل من حقول المعرفة(3).

ولعل أحد أبرز الأمثلة على ذلك الفصام النكد الذي قطع العلم عن قاعدته الإيمانية أثناء النهضة الأوربية. هو ما حدث لمناهج البحث العلمي والتجريبي كالملاحظة، والممارسة العملية (وهي ما تسمى الآن بالمحاولة والخطأ، والخبرة)، والتجريب.

فقد عرفت أوربا المنهج التجريبي عن طريق كتابات علماء المسلمين ومفكريهم أثناء الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي. وقد أحلوا هذا المنهج محل المنهج القياسي لأرسطو الذي كان شائعا في أوربا حتى ذلك الوقت. وقد كان روجرز

---

(١) انظر: محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ٣٦- ٣٧.

(٢) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) انظر: سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، فصل: الفصام النكد.

بيكون أحد صناع الفكر الأوربي الحديث في القرن الثالث عشر- هو أول من هاجم المنهج القياسي الأرسطي، وحمل لواء الدعوة إلى اصطناع منهج المسلمين التجريبي(١).

وبالرغم من أن بيكون قد اعترف بأصل هذا المنهج في أكثر من وثيقة ثابتة. إلا أن هذا الأصل قد نسي بعد ذلك. ونسبت أوربا إلى نفسها أنها صاحبة هذا المنهج. وبانفصال هذا المنهج عن أصله وقاعدته الإيمانية، فقد تغير الهدف منه وتحول من عمارة الأرض لخير البشرية إلى أن صار سرّاً لخدمة المصلحة الإقليمية، والاستعلاء القومي، والتفوق العسكري، وفرض النفوذ الاقتصادي والثقافي.

**مصادر العلم:**

إن الكون من حولنا محسوس وغير محسوس، شهود وغيب. وادعاء أن الوجود والكون من حولنا محسوس فقط، هو إلحاد وجهل.

وعلى هذا تختلف مصادر العلم في منهج التربية الإسلامية باختلاف نوع المعلوم. «فالغيب مصدر العلم به هو الوحي الصادق من صاحب الغيب -سبحانه وتعالى-. وتحقيق هذا العلم يكون بتحقيق نسبة الخبر إلى الله -عز وجل-.

والمحسوس سبيله الملاحظة والتجربة والخبر أيضا؛ لأن المحسوس الذي غاب عنا لا مصدر للعلم به إلا بالخبر عنه، فنحن لا نعرف من كان قبلنا من بشر، وما كان قبلنا من عمران باد وضاع أثره، إلا بالخبر عنه. وسبيلنا لتصحيح هذا العلم هو تصحيح الخبر. بل العلم بالقوانين التي تحكم الأشياء، والتي هي سنن الله، هو تحقيق الخبر»(٢) ويكون تحقيق الخبر بالاستقراء والاستنباط والملاحظة والتجربة ؛ فلولا أن الله قد ركب في عقولنا القدرة على القيام بكل هذه العمليات لما استطاع الإنسان أن ينشئ كل هذا العمران، وأن يصل إلى درجة التقدم المادي الذي وصل إليها الآن.

فالعلم عن طريق الوحي والعلم عن طريق العقل يتكاملان ولا يتعارضان. فالعقل الإنساني قادر على التفاعل مع الكون والتأمل فيه والتجريب على الأشياء الموجودة فيه. فالعقل مع الشرع نور على نور، «والقرآن والعقل يأتلفان ولا يختلفان. ولقد فهم السلف الصالح هذه الحقيقة بمنتهى الوضوح، أما الذين خالفوا هذا المبدأ فهم في نظر ابن تيمية لم يفهموا حقيقة ما نص عليه الشرع، ولا ما جاء به العقل فصاروا مختلفين في العقل مخالفين للكتاب. فالكتاب لا يخالفه إلا الشبه والخيالات»(٣).

---

(١) أنور الجندي: أخطاء المنهج العربي الوافد، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص ٧ -٨ .

(٢) محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد كامل، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧١م. ص١٥٧ . نقلها عنه عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص ٢٤٠ .

ومع التسليم بأن الشريعة تتقدم على العقل، بل وتحدد له دوره، فإنه يمكن تلخيص العلاقة بين الشريعة والعقل عند ابن تيمية على النحو التالي:

١- المعرفة التي يتوصل إليها الإنسان بعقله بصورة قطعية لا يمكن أن تتعارض بأي حال من الأحوال مع المعرفة الخالدة التي نجدها في القرآن الكريم والحديث الشريف. فصريح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول.

٢- المعرفة العقلية التي تتعارض مع الآراء والمبادئ التي جاءت بها الشريعة هي معرفة فاسدة يمكن للعقل البشري إثبات بطلانها. فما يخالف الشريعة لابد وأن يكون فاسدا، إذ لو لم يكن كذلك لجاء مطابقا لها.

٣- المعرفة العقلية الصحيحة لا تقع خارج دائرة المعرفة التي تدعو إليها الشريعة، وعندما أقرت الشريعة مكانة العقل واعتبرته ضروريا لتدبر المعرفة الخالدة، فإنها أفسحت المجال أمام المعرفة العقلية الصحيحة لتستقر داخل دائرة المعرفة التي تعترف بها؛ ولهذا فإن ابن تيمية يؤكد أن الدليل العقلي الصحيح دليل شرعي، فالأمثال المضروبة الدالة على التوحيد هي أدلة عقلية لأن العقل يعلم بصحتها، وهي في الوقت ذاته شرعية لأنها تقر ما أثبته الشرع»[1].

## المعرفـــة

المعرفة الإنسانية في الإسلام كالعلم. وسيلة وليست غاية في ذاتها، فغاية المعرفة إقدار الإنسان على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وتستند المعرفة الإنسانية في الإسلام- نظرية وعملية- إلى أصول ربانية، لا إلى نظريات عقلية، ولا إلى فلسفات وضعية من صنع البشر.

ولا شك أن الإنسان يمتاز على سائر المخلوقات بقدرته على اكتساب العلم والمعرفة عن طريق الطاقات التي منحها الله له، وهي السمع والبصر والفؤاد. يتضح هذا من قوله سبحانه: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**.. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]. فهذا الاقتران في الآية بين الخالق- سبحانه- والملائكة وأولو العلم، لهو دليل قوي على رفعة المكانة التي يحتلها العلماء؛ فالعلم قوة، يتضح هذا من رد العالم على سيدنا سليمان حين قال له عفريت من الجن: ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴿٣٩﴾ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل].

---

(١) ابن تيمية: المرجع السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩، عبد الرحمن صالح عبد الله ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

والاقتدار إنما يجيء للإنسان وللمجتمع عن طريق العلم، وهذا هو ما دعا الأستاذ أبو الأعلى المودودي إلى الربط الوثيق بين قدرة أمة من الأمم على القيادة وبين نصيبها من العلم والمعرفة[1].

**بين العلم والمعرفة:**

ولكن هل يختلف العلم عن المعرفة، أم يترادفان؟ وهل توصف بهما الذات العلية كما يوصف بهما الإنسان؟ توضح أدبيات هذا الموضوع أنه يتباين فهم العلماء للعلم والمعرفة، فمنهم من لا يفرق بينهما ويستخدمهما للدلالة على معنى واحد. ومنهم من لا يرى تطابق هذين المصطلحين.

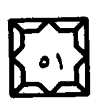
فالراغب الأصفهاني يرى أن المعرفة تستخدم للدلالة على ما تدرك آثاره وإن لم تدرك ذاته. أما العلم فلا يكاد يطلق إلا على ما تدرك ذاته، ولهذا يقال بأن الإنسان يعرف ربه، ولا يقال إنه يعلم ربه. فكأن المعرفة تأتي من خلال التعامل غير المباشر بالموضوع المدرك، ومن هنا فإنها تكون أقل دقة من العلم، ولهذا يوصف الحق- سبحانه وتعالى- بأنه عالم ولم يوصف بأنه عارف[2].

ولكي يتسنى لنا إلقاء المزيد من الضوء على هذه القضية فإننا نعود إلى القرآن الكريم لتدبر آياته الدالة على العلم والمعرفة. لقد وردت مشتقات الفعل الثلاثي (علم) في مئات الآيات القرآنية، ومن بين تلك المشتقات (علم، وعلام، وعليم، وعالمون وعلماء). وقد وردت لفظة «عالم» في ثلاث عشرة آية، بينما وردت لفظة «علام» في أربع آيات، وقد اقتصر استخدامها للدلالة على الخالق -سبحانه وتعالى- لاقترانهما بالغيب. وأما لفظة «عليم»، فقد وردت في أكثر من (١٥٠) آية للدلالة على الله -سبحانه وتعالى-، بينما وردت في بضع آيات للدلالة على أفراد إنسانيين، فقد وصف يوسف -عليه السلام- نفسه بأنه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف].

وهناك لفظتان اقتصر استخدامهما على وصف البشر هما «علماء وعالمون» فورودهما على صيغة الجمع يدل على أن الفرد يمكن أن يوصف بأنه عالم. وهذا ما تؤكده كذلك الآيات الكريمة التي تثني على أولي العلم والراسخين فيه... وهذا ما

(١) أبو الأعلى المودودي: المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له وعلق عليه محمود مهدي الإستانبولي، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ص ١٠ - ١١ .

(٢) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، راجعه وقدم له طه عبد الرءوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٣ ص ٨٢ .



يؤكده الغـزالي عندما يقول: إنَّ لفظة «علم كانـت تطلق على العلم بالله، وما ورد في فضل العلماء فهو في العلماء بالله -تعالى- وأفعاله وصفاته(١).

أما بالنسبة لمشتقات لفظة «معرفة» فقد ورد الفعل الماضي «عرف» والفعل المضارع «يعرف» في بضع وعشرين آية فقط، والجدير بالملاحظة أن الخالق -سبحانه وتعالى- هو الذي وصف في القرآن بأنه عالم، وعلام، وعليم- لا يوصف في أي من الآيات الدالة على المعرفة على أنه عـارف، فالبشر والملائكة هم الذين وصفوا بأنهم يعـرفون، فالعلم والمعرفـة لا يترادفان إذا مـا أريد الحديث عن الذات الإلهـية، بيد أنهـما يتـرادفان عند استخدامهما لوصف المدركات الإنسانية(٢).

**المعرفة وقيادة العالم:**

سبق أن قـلنا:إن الإسلام هو النظام أو المنهج الذي يحـكم الحياة. وقـد أنزله الله -سبـحانه وتعـالى- لتكـون له السيـادة، وتحكم به الأرض. لـكن سنة الله في الكون تقتـضي أن يسود ويحكم العـالم، حينمـا يكون المسلمون هم قلب هذا العـالم، وقادة القافلة الإنسانية. والسؤال الذي يتبـادر إلى الذهن هنا هو: وهل هناك علاقة بين المعرفة والسيادة، وبمعنى آخر، هل هناك علاقة بين المعرفة وقيادة القافلة الإنسانية أو السير ذيلا لها؟

يجيب على هذا السؤال المفكر الإسلامي الجليل الأستاذ أبو الأعلى المودودي حين يقول:

إن الجـواب على هذا السـؤال يكمن في سـر هذه الكلمات الـثلاث: «السـمع» و«البصـر» و«الفؤاد». إن هذه الكلمـات لم ينزل بها الوحي في كـتاب الله لتـعني فقط مجرد القدرة على الرؤية والسمع والتفكيـر؛ ذلك لأن «السمع» معناه هنا: إحراز المعرفة التي اكتـسبها الآخـرون. و«البصر» مـعناه تنميتهـا بما يضاف إليهـا من ثمرات الملاحظة والبحث. و«الفـؤاد» معناه تنقيتـها من أدرانها وأوشابهـا، ثم استخلاص النتـائج منها. وهذه «القوى» الثـلاث إذا ما تضافرت بعضـها على بعض، نجمت عنها تـلك «المعرفة» التي منَّ الله -سبحانه- بها على بني آدم. هذه المعـرفة التي بها وحدها استطاع الإنسان أن يستخدم سائر المخلوقات ويسخرها لإرادته(٣).

---

(١) انظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، الباب الخامس: في آداب المتعلم والمعلم.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق، ص -٢٢٨ ٢٢٩ .

(٣) أبو الأعلى المودودي: المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له وعلق عليه محمود مهدي الإستانبولي، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٨ .

«ولو أردت التعمق في تأمل هذه الحقيقة لاهتديت في النهاية إلى أن هؤلاء الذين لا يستخدمون هذه «القوى»، أو يستخدمونها في حدود ضيقة، هم الذين كتب عليهم العيش في حالة من التأخر والانحطاط، تحت كنف الآخرين وسلطانهم. أما الذين يوظفون هذه «القوى» ويستخدمون كل إمكانياتها، فهم- على العكس- يظفرون بالسيادة والسيطرة، وهم الذين يصبح لهم قيادة الشعوب وتوجيهها»[١].

لكن الجماعة الظافرة صاحبة السلطان إذا وصلت إلى مرحلة الترف فتراخت وتكاسلت- بعدما أخذ منها الكلل مأخذه، واستبد بها الجهد الذي بذلته- وتخلت عن الأخذ بأسباب المجد والسلطان، وهي البحث والملاحظة والدراسة والتفكير والاستنتاج، والإنتاج وكل أسباب التطور والنماء الأخرى، في هذه الحالة تتخلى هذه الجماعة رويدا رويدا عن مكانها في قيادة الآخرين، برضاها أو رغما عنها، لتحل محلها جماعة أخرى، بدأت تأخذ بأسباب المعرفة، وتوفر لها حظ أكبر من العلم، وعزم أقوى على الأخذ بزمام القيادة والتوجيه.

«أما هؤلاء الذين كانوا قادة فيصبحون أتباعا، وبعد أن تقدموا القافلة يحتلون مكانهم الزرى في ذيلها، وبعد أن يكونوا هم أنفسهم جزءا من علوم الدنيا، وأساتذة البشرية، يستقر بهم المطاف كمعروضات متحجرة في متحف التاريخ، تصور مرحلة من مراحل تطور العلم في الماضي»[٢].

مما سبق يتضح لنا «أن زعامة الجنس البشري والأخذ بقياده سواء إلى الخير أو الشر، إلى الجنة أم إلى النار، من نصيب هؤلاء الذين يتفوقون على سواهم في الانتفاع بنعم «السمع» و«البصر» و«الفؤاد»، تلك سنة الله في الخلق «ولن تجد لسنة الله تبديلا» ولا تحويلا. وأيما جماعة من البشر- بغض النظر عن كونها ربانية مؤمنة أو كافرة ملحدة- تحقق الغاية من هذه المنح الإلهية، فإنها من غير شك تتولى زعامة غيرها من الشعوب، فإن لم تفعل فلا تصبح حينئذ مرغمة على التبعية فحسب، ولكنها في الغالب تجبر على الطاعة والإذعان.

ولهذا السبب نفسه تخلينا- كمسلمين- عن مكانتنا في زعامة العالم وألقينا بالزمام في يد الغرب... يقود الإنسانية حيث يشاء»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٨ - ٩ .
(٢) المرجع السابق، ص ١٠ .
(٣) المرجع السابق، ص ١٠ .



وبالرغم من هذا، فإن هناك حقيقة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا بقوة. وهي أننا- كمسلمين، وباعتبارنا الجماعة «الربانية» الوحيدة في هذا العالم- يجب أن نسترد الزعامة وننتزعها من يد هؤلاء الذين تنكروا لمنهج الله، بل وسخروا منه. وليس هناك من وسيلة إلى بلوغ هذه الغاية سوى التخلي عن اقتباس واستعارة النظم الغربية، والعمل على إحياء منهج الله في الأرض، والانتفاع بكل قوى «السمع» و«البصر» و«الفؤاد» في مجال العلم والمعرفة.

ولكننا- كأمة مسلمة- لا يجب أن نعمل على استرداد الزعامة من أجل الزعامة في حد ذاتها، ولا من أجل خلع الآخرين من مواقع القيادة البشرية كهدف في ذاته، بل كوسيلة لإقرار منهج الله في الأرض، والأخذ بيد سائر الأمم نحو هذا الهدف الأعظم. فالأمر المؤكد هو أننا لن نحقق هذا الأمل المعقود علينا إذا لم نظفر بمكان القيادة من القافلة الإنسانية[١].

والخلاصة أن قيام الإنسان بعمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله يتطلب من الإنسان القيام بالأعمال التالية بالترتيب:

**أولا:** تطبيق منهج الله في الحياة، والمتمثل في «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله». إن «العبودية المطلقة لله وحده- وهي الشطر الأول لركن الإسلام الأول- هي المدلول المطابق لشهادة أن لا إله إلا الله. والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو الشطر التالي لهذا الركن، وهو المدلول المطابق لشهادة أن محمدا رسول الله»[٢].

**ثانيا:** إن تطبيق منهج الله في الحياة، المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يدفع الإنسان إلى أن يستخدم كل قواه وطاقاته في العلم والمعرفة.

**ثالثا:** ما سبق يدفع الإنسان إلى استخدام كل قوى العلم والمعرفة في استغلال طاقات الأرض ومدخراتها وخبراتها من أجل خير الإنسان والإنسانية جميعا.

**رابعا:** إن كل ما سبق يدفع بالمسلمين إلى موقع القيادة من القافلة الإنسانية.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣-١٤.

(٢) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٣٥.

خامسا: إن استرداد المسلمين لموقع القيادة يمكنهم- كما فعلوا سابقا- من نشر منهج الإسلام، وحضارة الإسلام، وثقافة المسلمين، بما فيها من حقائق ومعايير وقيم ومثل باقية خالدة، وما فيها من طرق وأساليب راقية.

### غاية المعرفة تطبيق منهج الله:

إن الغرض من المعرفة هو تمكين الإنسان من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، فالمعرفة الحقيقية في الإسلام هي المعرفة القائمة على أساس من تقوى الله وما يستتبع ذلك من السير وفق منهج الله وشريعته ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ..﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]، فالتقوى بمعناها الشامل الكامل هي أساس المعرفة.

ومن هنا فإن المعرفة التي يهدف للوصول إليها منهج التربية الإسلامية هي المعرفة التي تؤدي إلى تغير في السلوك الإنساني وفي واقع الحياة الإنسانية. أما مجرد المعرفة الذهنية أو العلم الذي لا يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقع حياته فإنها لا قيمة لها، ولا يعتد منهج التربية الإسلامية بها. إن الإسلام يبتغي الحركة من وراء المعرفة. يبتغي أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع.

ولقد صاغ الإسلام الأمة الإسلامية التي وصفها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ....﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، صاغها على هذا الأساس من طبيعة المعرفة. فالعرب في جاهليتهم كانوا يعرفون الله، ويعرفون أنه الخالق، وأنه المدبر، وأن بيده ملكوت كل شيء، ولقد سجل عليهم القرآن علمهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ..﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]. ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون]

إذن، فقد كانوا يعرفون. فلماذا سماهم القرآن الذين لا يعلمون؟. وما الفرق إذن بين معرفة العرب في الجاهلية أن الله هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وبين معرفتهم في الإسلام أن الله هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء؟ إن الفرق في الحقيقة هو في «طبيعة المعرفة» في الجاهلية، وطبيعة المعرفة في الإسلام. فالمعرفة في الجاهلية قائمة على أساس خاطئ، فقد كانوا يعرفون أن الله هو خالقهم، وخالق

السموات والأرض، وبيده ملكوت كل شيء، ورغم ذلك يعبدون الأصنام من دون الله، وينكرون البعث ﴿ ..أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]. وكانوا يتصورون أن الأصنام التي يعبدونها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها تعلم الغيب، وأنها تنفع وتضر.. إلى آخره. أما المعرفة في الإسلام فهي تلك المبنية على أساس من تقوى الله، وما يستتبع ذلك من السير وفق منهج الله نظريا وعمليا.

وهكذا فإن «العلم» بالألوهية الذي يتطلبه الإسلام يختلف في طبيعته ونوعه عن العلم الذي كان في الجاهلية والذي وصف القرآن أصحابه بأنهم الذين لا يعلمون؛ ولذلك فحين بدأ الإسلام يعلم العرب في البداية حقيقة الألوهية لم يبن على علمهم السابق أو يصحح فيه، بل اعتبره غير موجود على الإطلاق وبدأ يبني في قلوبهم مفهوم الألوهية على أساس جديد تماما.

فما دلالة ذلك على وجه التحديد ونحن بصدد الحديث عن منهج التربية الإسلامية؟ دلالته أن المعرفة الذهنية لا يعتد بها الإسلام ولا يعترف بها؛ لأنها معرفة سطحية لا قيمة لها، ولأنها لا تؤثر في سلوك الانسان ولا تفعل شيئا في واقع حياته[1].

يؤكد هذه الدلالة ما قرره القرآن على لسان يوسف -عليه السلام- عن حال مصر في عهده: ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴿٣٧﴾ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

فبالرغم من أن المصريين كانوا «يعرفون» الآخرة، ويؤمنون بأن هناك بعثا وثوابا وعقابا في الآخرة، ويصفون كل ذلك في كتبهم وعلى جدران معابدهم وآثارهم، إلا أن القرآن اعتبر معرفتهم هذه غير موجودة، واعتبرهم كافرين بالآخرة، ويؤكد القرآن ذلك على لسان يوسف: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾؛ «وذلك لأن معرفتهم النظرية المتوارثة عن الآخرة لم يكن لها وجود حقيقي في واقع حياتهم. فهم- مع هذه المعرفة النظرية- يعبدون الفرعون من دون الله. ولو كان علمهم بالآخرة حقيقيا وكان يعطي فاعليته الحقيقية، لعبدوا الله وحده، صاحب ذلك اليوم الآخر، ولم يشركوا معه عبادة الفرعون»[2].

(١) محمد قطب: مرجع سابق، جـ ٢، ص ٢٥ - ٢٧.
(٢) محمد قطب: مرجع سابق، ص ٢٨.



وهكذا، فالقرآن يسجل على العرب في الجاهلية معرفتهم بالله، وبأنه الخالق المدبر، ثم يلغي هذه المعرفة تماما، ويبدأ معهم من جديد. ورغم أن المصريين القدماء يعرفون اليوم الآخر والبعث والحساب، إلا أن القرآن يعتبرهم كافرين بالآخرة. لماذا؟ لأن المعرفة الأولى معرفة سطحية ميتة لا قيمة لها، في حين أن المعرفة التي يريدها الإسلام هي المعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس، وتؤدي إلى تغير في السلوك الواقعي، ويكون لها الأثر الحاسم في سلوك الإنسان ورقي البشرية ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..** ﴿١١﴾﴾ [الرعد].

وإذا كانت المعرفة في الإسلام تقوم على أساس الإيمان بالله وتقواه، فإن القرآن يعتبر هو المصدر الأول لمنهج التربية الإسلامية ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴿٢٤﴾﴾ [**محمد**]. فقراءة القرآن وتدبر آياته هو المصدر الأول لمحتوى منهج التربية الإسلامية.

وبمقتضى هذا الفهم بطبيعة المعرفة في الإسلام، فإننا ما دمنا نؤمن بوحدانية الله لا شريك له، فإننا يجب أن ننفذ شريعته ومنهجه، وبذلك ترتبط المعرفة والإيمان بالعمل والسلوك في واقع الحياة. أما ما نحن فيه الآن من الإيمان بالله الواحد وتنفيذ شريعة غيره من صنع البشر، فهذه حالة فريدة سيئة لم تحدث حتى في الجاهلية.

**مفهوم الخبرة في منهج التربية الإسلامية:**

يتعلم الإ نسان في منهج التربية الإسلامية عن طريق التلقي عن الله ورسوله، وعن طريق ملاحظته للكون من حوله، وعن طريق العمل والممارسة، وعن طريق التجربة.

أما بالنسبة للحقائق والمعايير والقيم الإلهية وكل ما يتصل بخصائص ومقومات المنهج الإسلامي العام، فإن الإنسان يتلقاها بجملتها من الله، ويتوقف عملها فيها عند حد تلقيها وإدراكها، والتكيف بها، وتطبيق مقتضياتها في واقع الأرض. وهو حين يتلقى كل هذا، فإنما يتلقاه وهو غير متأثر بمقررات سابقة من أي مصدر، لا من نفسه، ولا من أي مصدر آخر: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨﴾﴾ [**الجاثية**].



وأما بالنسبة للملاحظة، والعمل والممارسة، والتجربة، فكل هذه وسائل في تكوين خبرة الإنسان. فقد ورد لفظ الخبرة بمعنى العلم والمعرفة والإنباء والإخبار.

ففي اللغة العربية تقول: خَبَرَ الشيء خُبْرا: عرف خبره على حقيقته، ويقال لأخْبرن خُبْرك، أي لأعلمن علمك. ويقال خَبِرَ الشيءَ: علمه. وخَبِرَ الرجلُ: صار خبيرا.

ويقال: أخبره بكذا: أي أنبأه. وخابره: أي بادله الأخبار. وخبَّره بكذا: أي أخبره به.

ويقال: خَبَرَ الشيءَ: أي عرفه على حقيقته. وفي حديث الحديبية: أنه ﷺ بعث عينا من خزاعة يَتَخَبَّرُ له خبر قريش» أي يتعرَّفُ.

ويقال فلان اسَتخْبَرَه: يعني سأله عن الخبر، وطلب أن يخبره به. والأخباري المؤرخ. نسب إلى الأخبار. والخَبَرُ: ما يُنقل ويُحَدَّث به قولا أو كتابة. والخَبَرُ: هو قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، وجمعه أخبار(١).

وقد وردت مادة «خبر» في القرآن اثنان وخمسون (٥٢) مرة بمعنى العلم والمعرفة. فالله عليم بأعمال العباد ونياتهم وضمائرهم:

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

وهو- سبحانه- عالم قادر متقن:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل].

وهو العليم القدير الخبير:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان].

---

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط: مادة «خ ب ر» ص ٢١٤ - ١١٥ .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [ الحجرات ] .

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [ المجادلة ] .

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [ الملك ] .

وهو العليم بكل أعمال العباد:

﴿ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [ النساء ] .

وهو العليم البصير:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الإسراء ] .

وهي بمعنى العلم:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [ الكهف ] .

وبمعنى علم الطريق وخبره:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [ النمل ] .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [ محمد ] .

إذن، فالخبرة في منهج التربية الإسلامية هي تفاعل بين الفرد وبين مدركاته التي علمها وعرفها إما عن طريق التلقي عن الله من خلال شريعته- الكتاب والسنة- أو عن طريق ملاحظته للكون ولسنن الله الفاعلة فيه من حوله، أو عن طريق الممارسة والعمل، أو المحاولة والخطأ، أو عن طريق التجربة. وليس عن طريق التجربة فقط، كما يقول جون ديوى.

فالخبرة ليست مجرد عملية تفاعل بين المتعلم وبين عوامل البيئة الخارجية المحيطة مادية كانت أو اجتماعية، بل هي أيضا تلقٍّ للغيبيات، وتفاعل معها، وتسليم بها، وتطبيق لمقتضياتها في الحياة.

إن التجربة، التي هي أحد وسائل تحقيق الخبرة في منهج التربية الإسلامية، هي تلك التي تعود في أصلها إلى المنهج التجريبي العلمي الذي اخترعه المسلمون وانتشر في أوربا في عصر النهضة على يد روجرز بيكون وغيره. لكن مفهوم الخبرة عند ديوى هو جزء من الفلسفة «البراجماتية» أو «النفعية» التي تعود في جذورها- كما يقول الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل»- إلى الفلسفة السفسطائية، حيث يعتبر «راسل» أن الفيلسوف اليوناني «بروتاغورس» هو مؤسس الفلسفة البراجماتية(١).

وإذا علمنا أن الفلسفات الإغريقية عموما كانت تعتبر الطبيعة هي الجوهر المادي الذي هو أصل الوجود، وهي العلة المادية في وجود هذا الكون، وهي أصل الأشياء، ومصدر الحركة. وإذا علمنا أن الفلسفات الغربية الحديثة في عمومها لم تخرج عن حدود هذه المفاهيم الإغريقية القديمة للطبيعة(٢) فإننا- عندئذ- ندرك أسباب ذلك الاتجاه الفلسفي البراجماتي الذي يهدف الى إخضاع الإنسان ومشاعره ومعتقداته لسلطان البيئة والطبيعة والمادة.

إذن، فالخبرة عند ديوى ومن سار على نهجه هي جزئية في نظام الفلسفة البراجماتية النفعية، التي تقوم على أساس أن الطبيعة هي أصل الوجود ومنشؤه، أي أنها هي الخالقة. والإنسان هو ابن الطبيعة، ومخلوق من مخلوقاتها. فما هو إلا حلقة من حلقات التطور الحيواني الذي أنشأته الطبيعة، فإذا أراد أن يتعلم فعليه أن يتعامل ويتفاعل مع البيئة التي أوجدته ليحصل على خبراته منها كما حصل على وجوده من قبل.

إن منهج التربية الإسلامية لا يرفض التجربة كوسيلة للحصول على الخبرة ولا يرفض خطوات منهج البحث العلمي الذي تقوم عليه: مثل: الإحساس بالمشكلة، وتحديد المشكلة، وفرض الفروض وجمع المعلومات حولها، ثم اختبار صحة أو عدم صحة هذه الفروض، ثم الوصول إلى التعميمات. لكن الذي يرفضه منهج التربية الإسلامية هو اعتبار التجربة وحدها مصدر الخبرة. وهو الأمر الذي جعل أصحاب فلسفة الخبرة يربطون بين كلمتي تجربة Experiment وخبرة Experience حيث إن الكلمتين من أصل واحد.

إن الخبرة الإنسانية تأتي عن طريق التلقي عن الوحي الصادق، وعن طريق ملاحظة كتاب الكون المفتوح بما فيه من إنسان وجماد وحيوان ونبات وسنن الله جارية في

---

(١) عبد الرحمن صالح عبد الله، مرجع سابق ص ٢١ .
(٢) انظر: محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ١٠٣-١٠٤ .



كل شيء، وعن طريق الممارسة والعمل والمحاولة والخطأ، وعن طريق التجربة، بل عن طريق الإلهام من الله في كل هذا.

إن أصحاب فلسفة الخبرة «قد استبعدوا الجانب المغيب من مجال البحث لا على اعتبار أنه غير قابل للبحث بالمنهج التجريبي، وإنما على اعتبار أنه غير موجود أصلا»[1].

وفي منهج التربية الإسلامية الإيمان بالغيب ليس عقيدة صحيحة فقط، وإنما هو موقف علمي صحيح بنفس الدرجة. «إن الغيب المستعصي على المعرفة التجريبية بوسائلها الحسية ليس هو الغيب المتعلق بالله وملائكته والروح وغيرها فقط، إنه أيضا الغيب المتعلق بالذرة والخلية والكهرباء والمغناطيسية والجاذبية واطراد القوانين في الأشياء التي تقطع بوجود هذا الغيب القريب من الإدراك البعيد من الحواس»[2].

ولقد اكتشف بعض من أنكر الغيب وسخروا منه ومن المؤمنين به، أن الغيب حقيقة قائمة أمام أعينهم، وأنهم عاجزون عجزا كاملا- رغم قربه الشديد منهم، ورغم أنهم يطالعونه كل لحظة في تجاربهم- عن أن يمسكوا به، وذلك كماهية المادة والقوة، وأصل الحركة، وأصل الإحساس البسيط، وحرية الإرادة. . . إلخ.

إن الخبرة في منهج التربية الإسلامية هي جزئية في نظام هذا المنهج، فالخبرة تكون مربية أو غير مربية وفقا لعقائد ومبادئ هذا النظام، فعقائد النظام ومبادؤه هي معايير الخبرة التي تحكم عليها بالصواب أو الخطأ، وبأنها مربية أو غير مربية.

أما مفهوم الخبرة القائم على أساس الفلسفة البراجماتية النفعية. فالمنفعة هي غاية الخبرة، فعلى الإنسان أن يؤمن بوجود إله إذا كان ذلك يؤدي إلى سعادته، فهو لا يؤمن إلا إذا شعر بالسعادة. فالخبرة هي معيار كل شيء وليس لها معيار من خارجها. وإذا كانت المنفعة أو السعادة هي غاية الخبرة، فما الذي يجعلنا نحكم على الخبرة بأنها سعيدة أو سارة أو غير سعيدة أو غير سارة؟

ولما كان مفهوم الخبرة في الفلسفة البراجماتية محصورا في تفاعل المتعلم مع بيئته الخارجية، فقد أدى ذلك إلى عدم العناية الكافية بالماضي. فالتركيز على الحاضر وعلى

---

(١) محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص٥٠ .
(٢) المرجع السابق.

الجديد، وقد أدى ذلك إلى إهمال التراث، وإهمال العناصر الثقافية المتراكمة عبر الأجيال.

أما في الإسلام فإن الاستفادة من الخبرات الإنسانية أمر مقرر؛ فالله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** (٧٦) ﴾ [**يوسف**]. وقال ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**» (رواه الترمذي). وقد روى أن موسى -عليه السلام- سأل ربه: «**أي عبادك أعلم؟ قال الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى**».(١) وقد نعى القرآن الكريم على اليهود والنصارى اتخاذ كل منهم موقفا متزمتا من الآخر، ورفض الحوار والنظر فيما عنده بعقل مفتوح ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (١١٣) ﴾ [**البقرة**].

والانفتاح على خبرات الجماعات الإنسانية هو أحد أساليب نشر العقيدة الإسلامية نفسها، فمراجعة الخبرات الإنسانية بالدراسة والتقويم يساعد على أمرين: «الأول التعرف على مكامن الخير وأصوله في كل جماعة لتنميتها والاستفادة منها في الحوار الدائر مع الإنسانية. والثاني التعرف على عوامل الانحراف والمرض في كل جماعة لتشخيصه وتحديد وسائل علاجه. وكل ذلك يساعد على تحقيق الأهداف البعيدة التي يعمل الإسلام من أجلها،وهي توحيد الإنسانية واجتماعها على عبادة الله، وتوطيد السلام والأمن حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله»(٢).

إن الخبرة في منهج التربية الإسلامية هي وسيلة للتعلم وليست غاية له، فالإنسان قد يمر بخبرة ولا يتعلم منها. والجماعة قد تمر بخبرة واحدة فيتعلم منها بعض أفراد الجماعة ولا يتعلم البعض الآخر. ومن هنا فالخبرة ليست هدف منهج التربية الإسلامية، وإنما الهدف من الخبرة هو إيصال المربى إلى درجة الإتقان أو الإحسان في أداء العمل الذي يتعلمه. والخبرة تكون مربية إذا كان المتعلم يتعلم علما نافعا يعينه في أداء حق الخلافة في الأرض وفق منهج الله، وإلا فلا.

ولذلك قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** (٢٨) ﴾ [**فاطر**]، إنها إشارة إلى أخص ثمرات العلم، حيث يدرك العلماء- والمقصود بهم هنا

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى، ج ١٠، علم السلوك، الرياض، ١٩٨١، ص ٨٥.

(٢) ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص ٦١.

العارفون بقوانين الله في الكون وتطبيقاتها في واقع الحياة- حقيقة الثمار والنتائج الهائلة التي يمكن استخدامها في عمارة الأرض وترقيتها. وهؤلاء العلماء هم الذين يتعلمون ويعلمون العلم لله ويوجهون ثماره فيما يرضي الله. وفي ذلك قال بعض المحققين في معنى قولهم: «تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله»: «إن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه»[1].

وإذا كانت الخبرة تهدف في منهج التربية الإسلامية إلى إيصال المربىً إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها، فيؤمن بالله، وبمنهج الله لحكم الحياة، ويتقن العمل، ويحسن الأداء فيه وبذلك يحقق غاية وجوده، ألا وهي القيام بحق الخلافة عن الله في الأرض- إذا كان هذا هو هدف الخبرة في منهج التربية الإسلامية وهو هدف ثابت، فإن فلسفة الخبرة- كما صاغها جون ديوى- ترفض أي هدف ثابت للتربية، وترفض وجود حقائق ثابتة، وبالتالي ترفض أن تكون الخبرة طريقا للوصول إلى العبودية الكاملة لله. فالخبرة هي بالخبرة وإلى الخبرة، فهي وسيلة وغاية في نفس الوقت. ويصل التطرف إلى حد أنه يقول: إن القول بوجود أهداف ثابتة للتربية هو آخر أمراض العقل البشري.

والخلاصة أن مفهوم الخبرة في منهج التربية الإسلامية يتصادم من البداية إلى النهاية مع مفهوم الخبرة القائم على أساس الفلسفة البراجماتية.

## التعلم

### نظريات التعلم:

يمكن تصنيف نظريات التعلم المعاصرة عموما في مجموعتين كبيرتين هما: نظريات المثير والاستجابة، والنظريات الإدراكية المجالية أو «الجشتالتية». أما نظريات المثير والاستجابة فتشمل نظريات: ثورندايك وجثري وسكنر وهل. في حين تشمل النظريات المعرفية أو المجالية: نظرية تولمان، والنظرية المجالية أو الإدراكية «الجشتالت»[2].

وخلاصة القول في هاتين المجموعتين من النظريات هي أن النظريات السلوكية تحلل السلوك الإنساني إلى مجموعة من الذرات البسيطة، وترد كل ذرة أو فعل صغير إلى مثير محدد، فطرفة العين- مثلا- مثيرها لفحة هواء. وعلى العكس من ذلك النظريات الإدراكية أو المجالية.. ترى أن الكل يسبق الجزء وأن الجزء يعمل من خلال الكل ولا يعمل مستقلا.

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، مرجع سابق، ص ٤٩ .
(٢) فاخر عاقل: التعلم ونظرياته: بيروت، دار العلم للملايين، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

فالخلاف الأساسي بين المدرستين الأساسيتين هو أن المدرسة الأولى تقول بأن الإنسان يتعلم أو يكتسب عاداته عن طريق المؤثر والاستجابة، بينما تقول المدرسة الأخرى بأن الإنسان يتعلم عن طريق الاستبصار والأشكال المعرفية المنظمة.

إن علم النفس التربوي المعاصر، هو العلم الذي نشأ كميدان تطبيقي لنظريات علم النفس وأنصارها من التحليليين والسلوكيين والمجاليين وغيرهم من المؤمنين بالمذهب الطبيعي على اختلاف مدارسهم. وهذه المدارس- في عمومها- لا تعرف الإنسان الذي خلقه الله وكرمه وجعله خليفة له في الأرض. بل هم يتكلمون عن الإنسان الطبيعي، الذي هو حلقة من حلقات التطور الحيواني، الإنسان الذي لا روح له، ولا يتميز عن بقية الأشياء والأحياء. وهذه المدارس- في عمومها- بالتالي لا تؤمن بوجود الله، ولا بالإرادة المطلقة لله، ولا بقدر الله، ولا بسنن الله الجارية في الكون. ولقد انعكس كل هذا على نظرياتهم للتعلم. وعلى تفسيرهم لدوافع السلوك -كما سيأتي في الفصل الخاص بالطبيعة الإنسانية.

**التصور الإسلامي ونظريات التعلم:**

ولعل أبرز ما يلفت النظر في هذه النظريات عموما، هو أنها:

**أولا:** تتعامل مع الإنسان الذي هو ابن الطبيعة، وأحد حلقاتها التطورية لا مع الإنسان المخلوق الذي هو أكرم مخلوقات الله على الله؛ ولهذا فلا غرابة أن كل هذه النظريات قد قامت على أساس تجارب على الحيوانات مثل كلب «بافلوف» وقط «ثورانديك»، وشامبنزي «كوهلر»... إلخ.

**ثانيا:** أنه يصعب قبول نظرية من هذه النظريات كأساس لبناء منهج تربوي إسلامي، حيث إن المجال التعليمي للحيوان ينحصر في إشباع حاجاته العضوية. وهو في طرق إشباعه لهذه الحاجات يعتمد على خبراته السابقة، وعلى دوافعه وآلياته الغريزية التي زوده الله بها. لكن الحيوان لا يملك قدرة الإنسان على التفكير الإرادي ومعرفة الحقائق والمعايير والقيم الثابتة والمفاهيم التي تحكم العلاقات بين الأشياء، وكذلك العمليات العقلية المعقدة التي تؤدي إلى قيام الصناعة والزراعة واللغة، وكل وسائل التقنية الحديثة.

**ثالثا:** إن الإنسان قد منحه الله القدرة على التخيل والتصور والإرادة الحرة. وقد ميزت هذه القدرات العظيمة الإنسان عن بقية المخلوقات وجعلته قادرا على الإبداع والاختراع وعمارة الأرض وترقيتها.

رابعاً: إن الإنسان مسئول أمام الله؛ ولذلك وهبه الله حرية الإرادة. فبينما تكون استجابة الحيوان آلية بحتة، بحيث لا يملك التصرف فيها، فإن الإنسان يملك التصرف في استجاباته الآلية، ويملك تعديلها، بل ويملك الكف عنها. «إن الإنسان العاقل الرشيد المميز قد يستجيب عكس المثير تماما بإرادة واعية وعقل مدرك، فهو يستطيع الكف إذا كان المثير يستوجب الطلب، وهو يستطيع الطلب إذا كان المثير يستوجب الكف، أي أنه قادر على تصريف غرائزه والسيطرة عليها لتستجيب كما يريد، في الوقت الذي يريده، وبالطريقة التي يريدها»(1). فالصائم قد يستجيب استجابة غريزية لرؤية الطعام فيسيل لعابه، لكنه يكف عن الاستجابة، ويمتنع عن تناول الطعام بدافع من نيته وضميره وإرادته الحرة.

لذلك نجد أن منهج التربية الإسلامية يهتم بشعور الإنسان ووجدانه، وضميره، وإرادته الحرة الواعية، ونيته، فكل هذه تعمل كدوافع باطنية للعمل والسلوك الملاحظ. إن الإنسان يملك بالإضافة إلى كل هذه أحوال نفسه، فنفسه قد تكون مطمئنة، أو أمارة، أو لوامة؛ ولذلك فإن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يملك نوعين من الاستجابات ويصرفهما بعقله وإرادته الحرة. وهذا أفق خاص بالإنسان الذي خلقه الله وكرمه وفضله على كثير ممن خلق. فالإنسان هو وحده الذي يستطيع أن يدفع الجوع بالصوم والصبر، والخوف بالشجاعة، والكره بالحب، والانتقام بالعفو، والشر بالخير. إن هذا هو الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض.

**مفهوم التعلم في منهج التربية الإسلامية:**

مما سبق يتضح لنا أن مفهوم التعلم في منهج التربية الإسلامية ينبثق من المفهوم العام الذي يحدد كيفية حدوث أفعال الإنسان في الإسلام. فالسلوك الإنساني يبدأ بدوافع من غرائز الإنسان وحاجاته الفطرية أو المكتسبة، أو بدوافع من مشاعره ووجدانه وضميره ونيته وإرادته الحرة، أو بدوافع من معتقداته ومبادئه وفلسفاته وموجهات سلوكه عموما. فإذا اتفقت أنماط السلوك الظاهرة والباطنة للإنسان مع ما أمر به الله ونهى عنه، فتح الله عليه باب التعلم ورزقه كل خيرات العلم، وأبعده عن كل شروره: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]. ﴿ .. وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف].

---

(1) انظر: محمد رشاد خليل، مرجع سابق، ص ١٥٤-١٥٦.

أما إذا تعارض سلوك الإنسان وممارساته مع أساسيات ومبادئ منهج الله فإن التعلم يسير في اتجاه مخالف للصواب، ويترتب عليه الكثير من الآثار السلبية. وينال المتعلمون خيره لأنهم أخذوا بالأسباب المؤدية إليه وفق سنن الله في الكون وينالهم أذاه وشره لأنه سلوك يختلف مع أمر الله به ونهى عنه. وهذا هو تفسير قولهم: «تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون العلم إلا لله» وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا .. (٢٥) ﴾ [الأنعام]. وقال أيضا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف].

وانطلاقا من هذه القاعدة فإن التعلم لا يحدث إلا بشرطين: الأول هو أن يحس الإنسان بحاجته إلى الاستعانة بهدى الله. فإذا كان لديه هذا الشعور وهذا الاتجاه، فإنه يدفعه إلى التعرف على تفاصيل المنهج الإلهي فيسهل التحصيل. ويتم الفهم[1] فإذا أتى السلوك بعد ذلك موافقا للفهم، فإن التعلم يكون قد حدث. والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن: ﴿ .. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ.. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]. ﴿ الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ [البقرة]. وما لم يتكون هذا الاتجاه ويحصل الفهم ويتم الاقتناع ويتحول كل هذا إلى سلوك في واقع الأرض. إذن، فالتعلم لم يقع.

فالشرط الثاني- إذن- لحدوث التعلم هو تطبيق الفرد وممارساته لما حفظ وفهم. يقول الله تعالى: ﴿ .. وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) ﴾ [النساء]. ويؤكد ابن مسعود هذا المبدأ حيث يقول: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». وذكر أبو عبد الرحمن السلمي فقال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا»[2].

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨م، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المقدمة، ج١، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ص٧.

**مصادر التعلم ووسائله:**

إذن، فالتعلم عملية تبدأ بدافع فطري أو بحاجة من حاجات النفس الغريزية أو المكتسبة، يصاحب ذلك عند الإنسان المسلم إحساس بحاجاته إلى الاستعانة بهدى الله، هذا الإحساس يدفع الإنسان إلى النشاط وبذل الجهد المناسب من أجل التعلم. فبعون الله يحدث الفهم، ثم يتعدل السلوك طبقا لهذا الفهم. وهنا نقول: إن التعلم قد حدث. والسؤال الآن هو: ما ألوان النشاط التي يجب أن يبذلها المتعلم كي يصل إلى الفهم، وتعديل السلوك؟

إن استعراضنا السابق لمفهوم التعلم يوجب علينا أن نفرق بين مصادر التعلم ووسائله.. فمصادر العلم والمعرفة في منهج التربية في الإسلام هما الوحي كما يتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والكون، فالكون كتاب الله المفتوح الذي يتعلم منه الإنسان قوانين الله لتنظيم هذا الكون بكل مكوناته. أما وسائل العلم والمعرفة فهي تتمثل في أربع تتدرج صعودا:

**الأولى:** وهي أدناها، هي الأخذ بما يدور على ألسنة الناس.

**الثانية:** الخبرة المباشرة وتسمى أحيانا بأسلوب التعلم الفطري، التي يتعلم الإنسان فيها عن طريق العمل والملاحظة واستخدام الحواس: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)**﴾ [النحل].

**الثالثة:** الخبرة غير المباشرة، ويسميها الغزالي التفكير، ويحدث إذا غلب نور العقل على أوصاف الحس. وهنا يستغنى المتعلم بقليل من التفكير عن كثير من إدراكات الحواس: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)**﴾ [النحل].

**الرابعة:** الإلهام. والإلهام هو تنبيه الله للنفس الإنسانية وإلهامها بالأفكار والعلاقات على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها ومقدار سعيها. وتعلم الإنسان عن طريق الإلهام واضح لا يحتاج إلى دليل في قوله تعالى: ﴿ .. **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ.. (٢٨٢)**﴾، فالآية دعوة صريحة إلى المؤمنين بتقوى الله فهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيئ عقولهم للتعلم[1]، ويؤكد هذا أيضا

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج١، مرجع سابق، ص ٣٣٧ .



قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس].
فالإلهام- إذن- وسيلة من وسائل تعلم النفس الإنسانية عن طريق القوة الكامنة التي أودعها الله في النفس لتوجيه استعداداتها وطاقتها المدركة إلى طريق الخير أو إلى طريق الشر كما سبق أن ذكرنا.

فبالأسلوب الفطري، والتفكير والإلهام يتعلم الإنسان المسلم. ووسائل العلم هي: السمع، والبصر، والفؤاد، والإلهام. فبالعلم يحارب الإنسان الأمية والجهالة. وهما مختلفان.. فالأمية أن لا يعلم الإنسان نسبة من النسب أو قضية من القضايا أو حقيقة من الحقائق. لكن الجهالة هي أن يعرف نسبة خطأ، ومن هنا يكون علاج الجهالة أقسى من علاج الأمية؛ لأن علاج الجهالة يتطلب مجهودين: الأول: أن تزيح عن نفس الجاهل ما أدرك من خطأ، كما فعل الإسلام مع عرب الجاهلية. فقد أزال من نفوسهم كل المقررات السابقة. والثاني: أن تقرر في نفسه الصواب. فهنا عمليتان تربويتان. لكن في حالة الأمي يكفي أن تعطى له الحقيقة؛ لأنه ليس عنده نسبة أبدا.

إن العلم الذي هو وسيلة التربية، هو أن تدرك نسبة واقعة تجزم بها وعليها دليلها. فعناصر العلم ثلاثة: نسبة يجزم بها من علمها، وأن تكون واقعية، وأن يستطيع التدليل عليها وذلك هو العلم في قمته. فإذا كانت النسبة يجزم بها من علمها وهي واقعية، لكنه لا يستطيع أن يدلل عليها فذلك هو التقليد، فالطفل يعلم ويردد كما علمه أبوه «أن الله واحد» فهذه نسبة مجزوم بها، وهي واقعية لكل الطفل لا يستطيع أن يدلل عليها، فذلك هو التقليد. أما إذا كانت النسبة المعلومة ليست واقعة وبالتالي لا دليل عليها كأن يقول قائل: الأرض مبسوطة أو مسطوحة فإن ذلك هو الجهل[1].

**العلم غايته التطبيق:**

ويجب أن نفرق هنا بين العلم والتعلم؛ فالعلم وسيلة والتعلم غاية، فالعلم كما قلنا إدراك نسبة واقعية مجزوم بها وعليها دليلها. والتعلم هو تغير في السلوك نتيجة للعلم. ومن هنا فليس للعلم قيمة إلا إذا خرج إلى حيز التطبيق، وبالتالي فإن علمك بالفضيلة لا يعني فعلها، وإذا لم تفعلها تكون شهادة ضدك أكثر مما لو جهلتها.

فالعلم لابد أن يسير إلى تطبيق عملي. والتطبيق العملي هذا لابد وأن يكون في المربِّي الأسوة، بحيث لا يفهم المربَّى أن هناك علما تحشى به الرءوس، وهناك سلوك

---

(١) محمد متولي الشعراوي: هذا هو الإسلام، الطبعة الدولية، نيقوسيا- قبرص، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ١٦٥ - ١٦٦.

**آخر ينفصل عن مبدأ ذلك العلم. وإذا انفصل العلم عن أنماط السلوك المتصلة به، انهدرت قيمة العلم، وانهدمت قيمة المعرفة. وحينئذ يكون الفساد المطبق الذي يصعب، بل يستحيل علاجه.**

ومن ثم فإن من غايات العلم ترسيخ القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية القائمة عليها. والرسول الكريم -عليه أفضل الصلاة والسلام- يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». فالتربية عملية، وسيلتها الخبرة والقدوة والعلم، وغايتها الوصول بالإنسان إلى أن يكون فاضلا، فغاية التربية الإسلامية ليست خلق المواطن الصالح، بل خلق الإنسان الصالح أيا كان موطنه، وبناء المجتمع الإسلامي عن طريق تطبيق منهج الله بحذافيره في كل شئون الإنسان والمجتمع.

**تصنيف مواقف التعلم:**

إننا إذا قبلنا تصنيف «بلوم» للأهداف التربوية على أنها معرفية، ووجدانية، وحركية، فإننا لا نقبل النظرية النفسية التي يقوم عليها هذا التصنيف والتي تقوم على افتراض استقلال المعرفة عن الوجدان وعن الحركة[1]، فالنفس الإنسانية في المفهوم الإسلامي واحدة- وإن تغيرت أحوالها- كما سبق أن رأينا- والشخصية الإنسانية متكاملة.

إن الموقف التعليمي- في المفهوم الإسلامي- لا يمكن أن يكون «معرفيا» خالصا، أو «وجدانيا» بحتا، أو «حركيا» مجردا؛ لأن هذا لا يتناسب مع وحدة النفس وتكاملها[2]. فكل عمل وكل حركة في النشاط الإنساني تتمثل فيه الجوانب الثلاثة السابقة، وإن اختلفت نسبة التمثيل.

فمنهج التربية الإسلامية تتوازن فيه الجوانب الثلاثة: المعرفية، والوجدانية، والحركية، وذلك حتى تتوازن حركة النفس، ويتكامل نمو الشخصية الإنسانية.

والخلاصة أن التعلم في منهج التربية الإسلامية يعتمد على الضوابط التالية:

أ - الابتعاد عن الظن.

ب- عدم التحيز الانفعالي أو العاطفي.

---

(١) فؤاد أبو حطب: «نحو نموذج للتعلم المدرسي في النظام الإسلامي» في دراسات تربوية، المجلد الثاني، الجزء السادس، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، مارس ١٩٨٧، ص ٢٧١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢ .

جـ- الاعتماد على منهج التفكير المناسب.

د- الأخذ بكل الأسباب المناسبة.

هـ- تحويل ما تم فهمه- حقيقة، أو مفهوما، أو فكرة، أو قيمة... إلخ- إلى ممارسة في عالم الواقع.

### المعرفة بين الثبات والتغير:

المعرفة في الإسلام منها ما هو ثابت، ومنها ما هو متغير، فالثابت هو كل الحقائق والمعايير والقيم والمبادئ الإلهية، سواء وردت في القرآن أو جاءت على لسان رسول الله ﷺ. وهذا الجزء من المعارف لا يقبل التبديل أو التغيير؛ لأنه يحكم سلوك الإنسان في سعيه الدائب لعمارة الأرض والقيام بحق الخلافة فيها. وكل ما عدا ذلك من المعارف متغير.

والتغير سنة من سنن الله في الكون: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]؛ ولذلك يتوجب على الإنسان أن يتخطى حاجز الألفة والعادة، ويتكيف مع الجديد من شئون الله، وإلا وقع في الحيرة والاضطراب. قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق] والرسول ﷺ لم يمنع استحداث الجديد في أي شيء، وإنما اشترط أن يكون المستحدث الجديد موافقا للقيم والمبادئ الثابتة، حتى لا يصطدم بسنن الله في الكون فقال: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتبت له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتبت عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء**» (رواه مسلم والترمذي).

### على يد من يتم التعليم والتعلم؟

يفرق الإسلام بين نوعين من العلوم: العلوم التي تتصل بتفسير النشاط الإنساني كله، والعلوم البحتة.. فبالنسبة للنوع الأول من العلوم نرى أن الإسلام «لا يتسامح أن يتلقى (المسلم) أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره... من مصادر غير إسلامية، ولا أن يتلقى - في كل هذا- عن غير مسلم».



هذا ما يؤكده الأستاذ سيد قطب. وهو يضيف إلى ذلك قوله: «ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأيا لي أبديه... فالأمـر أكبر من أن يفتي فيه بالرأي، وأثقل في ميزان الله من أن يعـتمد المسلم فيه على رأي... إنما هو قول الله- سـبحانه- وقول نبيه ﷺ نحكمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله وإلى الرسول فيما اختلفوا فيه. إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر»(١).

يقول الله -سبحانه- عن الهدف النهائي لليهود والنصاري في شأن المسلمين بصفة عامة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾ [آل عمران].

كذلك يرد الأمر قاطعا بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله، ويقتصر اهتمامه على شئون الحـياة الدنيا. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾ [النجم]

إذن المصدر الوحيـد الذي يجب على واضع المنهج التلقي عنه في هذه الأمور هو هدى الله المتمثل في القرآن، ثم السنة، ثم إجماع فقهاء المسلمين، ثم الاجتهاد في ضوء روح الإسلام ونصوصه الثابتة. وتتـمثل هذه القاعدة في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾. فليس من وراء هدى الله إلا الضـلال: وليس في غيره هدى، كـما تفيده في صيغة القصر الواردة في الآية.

مرة أخـرى يجب التأكـيد على أنه بالنسـبة للعلوم التي تتـصل بتفـسيـر النشاط الإنساني كالعلوم التي تخـتص بالعقيدة، والتصور العام للـوجود، ونشأة الكون، ونشأة

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعـية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٣. معالم في الطريق، ص ١٣٨ - ١٤٣.



الحياة، والعبادة، والأخلاق، والقيم التي تحكم المجتمع، والمبادئ والأصول التي يقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أو تفسير بواعث النشاط الإنساني، وحركة تاريخه- أقول: إن العلوم أو المحتوى التعليمي المتصل بكل هذه الجوانب لا يجوز أن يؤخذ إلا من المصادر الربانية، ولا يجوز التلقي فيها إلا عن مسلم يوثق في دينه وتقواه ومزاولته للدين في الحياة(١).

«إن اتجاهات الفلسفة بجملتها، واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها، واتجاهات علم النفس بجملتها، واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها، واتجاهات التفسيرات الاجتماعية بجملتها... إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر غير الإسلامي قديما وحديثا متأثرة تأثرا بتصورات جاهلية... ومعظمها- إن لم يكن كلها- تتضمن في أصولها المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه الخصوص»(٢).

إن المسلم قد يقرأ كل ما تنتجه القرائح من علم وفكر وفن، لا ليكوّن منه تصوره في هذه الشئون، وإنما ليعرف كيف ينحرف الإنسان عن الطريق السوي، وليعرف كيف يصحح هذه الانحرافات البشرية بردها إلى أصول التصور الإسلامي.

أما بالنسبة للعلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة، والأحياء، والفلك، والصناعة، والزراعة، والطرق الفنية للإدارة، والطرق الفنية للعمل، والطرق الفنية فقط للحرب والقتال.. إلى آخر ما يشبه هذا النشاط، فإنه يمكن للمسلم أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم... وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير الكفايات في هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية، يجب أن يتخصص فيها أفراد فتسقط عن الباقين، وإلا أثم المجتمع كله، إذا لم يوفر هذه الكفاية، ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج... ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم «أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم، وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم..؛ لأنها من الشئون الداخلة في قول الرسول ﷺ: **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»**. وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون، وغاية وجوده، وحقيقة وظيفته، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله، وبخالق الوجود كله. ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠١.



حياته أفرادا وجماعات... ومن ثم فلا خطر فيها على زيغ عقيدته وارتداده إلى الجاهلية»[1].

«إن العلم- بطبيعة الحال- ليس مقصورا على علم العقيدة، وعلم الفرائض الدينية، فالعلم يشمل كل شيء، ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض على السواء... ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ويثني على أهله... إن هناك ارتباطا بين العقيدة الإيمانية وعلم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، وعلم الطب، وسائر هذه العلوم المتعلقة بالنواميس الطبيعية، والقوانين الحيوية... إنها كلها تؤدي إلى الله، حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله»[2].

إن الملابسات المعقدة والخلافات الحادة التي وقعت بين المشتغلين بالعلوم وبين الكنيسة قد تركت آثارها العميقة على مناهج الفكر الأوربي إبان عصر النهضة. وكان من أهم الآثار تلك الرواسب المسممة بالعداء لا للكنيسة وحدها، وإنما لأصل التصور الديني جملة وتفصيلا. وقد انعكس هذا على كل ما أنتجه العقل الأوربي ابتداء من الفلسفة الميتافيزيقية إلى البحوث العلمية التجريبية.

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي، ونتاج هذا الفكر يقوم على أساس العداء السافر لأصل التصور الديني عامة، فإن هذه المناهج أشد عداء للتصور الإسلامي بصفة خاصة، كما أنها تحاول في خطة متعمدة- كما يقول الأستاذ سيد قطب- تمييع الأصول التي يقوم عليها تميز المجتمع الإسلامي. «ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي وعلى نتائجه في الدراسات الإسلامية... ومن ثم تجب الحيطة كذلك في دراسة العلوم البحتة.. من أي ظلال فلسفية تتعلق بها؛ لأن هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي بصفة خاصة»[3].

والخلاصة أن منهج التربية الإسلامية يحتم ضرورة دراسة المواد التي تؤدي إلى تسخير الطاقة المادية لخدمة الإنسان في عمارة الأرض، مثل الرياضيات والطبيعة والكيمياء والأحياء، والعلوم الإدارية، وعلوم الصناعة والزراعة وغيرها. وأنه يجوز أن تؤخذ هذه العلوم عن المسلم وعن غير المسلم، على أنه يجب على المجتمع أن يوفر من أبنائه من يستطيعون القيام بالعمل بكل ما يتصل بهذه العلوم.

---

(1) سيد قطب، المرجع السابق، ص ٢٠٠.
(2) المرجع السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
(3) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

أما بالنسبة للدراسات الشرعية كلها، والدراسات الإنسانية كلها، فإنه لا يجوز التلقي فيها إلا على يد مسلم يوثق في علمه وتقواه.

**الإسلام مصدر الأخلاق:**

لقد اهتم الإسلام بالقيم الإنسانية النابعة منه، فالمؤمن بالإسلام يجب أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة التي هي عماد الدين[1]، فحينما مدح الله رسوله الكريم مدحه بسمو أخلاقه، حيث قال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾ ﴾[القلم]. وقد وقف الرسول ﷺ ليوضح جوهر دعوته فقال «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». ثم جعل المتحلين بالأخلاق الحسنة أحب الناس، وأقربهم منه منزلة، في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن أحبكم إلي، وأقربكم مني منازل يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون**».

ففي الإسلام يؤمن الناس أن الله لم يخلقهم عبثا، وأن وجودهم ليس هدفا في حد ذاته، بل هو وسيلة لارتقاء الإنسانية وتكاملها ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]. وإقامة الحياة في الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ** ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر].

«إن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي هي عبادة الله- أي العبودية لله وحده والتحرر من عبادة العباد- ووظيفته هي **الخلافة في الأرض عن الله**، واستغلال طاقاتها ومدخراتها وأقواتها والتركيب فيها والتحليل وتنمية الحياة وترقيتها بالإبداع المادي في ظل منهج الله، وفي حدوده، ليرتفع الإنسان في الحياة المادية بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وليرتفع في حياته الروحية المنطلقة من الضغوط المادية. ومقياس التفاضل في الحياة في التصور الإسلامي هو **التقوى**: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. وعلى أساس التقوى تقوم كل الأخلاق الإسلامية، وكل قواعد السلوك. فالتقوى تنشأ عن تمثل ألوهية الله وعبودية الإنسان، وتنشئ المشاعر التي يقوم عليها بناء الأخلاق كله[2].

---

(١) فتحي يونس وآخرون: مرجع سابق، ص ٣٢٩.

(٢) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٨.



فالإسلام- إذن- هو مصدر الأخلاق، وميزان القيم، فالأخلاق الفاضلة هي وسيلته في تحقيق عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها. وعقد الصلة الدائمة بين الفرد وربه. وعلى العكس من ذلك في الثقافات الأخرى، فغياب ميزان ثابت للقيم أدى إلى أن تتمخض بعض القيم الجميلة عن ميلاد مسوخ مشوهة من القبح، فالحرية قيمة جميلة، ولكن غياب ميزان ثابت للقيم هناك جعلها تتحول إلى فوضى، فالإنسان في الغرب- مثلا- حر في جسده، من حقه أن يعريه أو يبيعه أو يتاجر فيه، ولقد نتج عن ذلك مآس كثيرة، من ذلك انتشار أفلام الجنس، واتخاذ الخليلات ومسابقات ما يسمى (بملكات الجمال)، ومحلات استعراض مفاتن الجسد، بينما غابت قيم الجمال الحقيقي للمرأة وقيم احترامها، وفقدت قيمتها عندما حول الناس هناك جسدها إلى «بورصة» وإلى «حلبة» ليصلوا إلى أغراض غريزية ومادية عن طريق استخدام الجسد الإنساني، وهكذا عادوا بالمرأة إلى عصور العبيد والجواري.

إن مصدر القيم الخلقية في معظم المجتمعات غير الإسلامية هو المجتمع نفسه، فالسلوك الخلقي قد يوصف بأنه قويم إذا اتفق مع الأنماط المعيارية والقيمية التي ارتضتها الجماعة. ويوصف بالعكس إذا كان لا يتفق مع هذه القيم والمعايير وأنماط السلوك السائدة. وبما أن مصدر القيم متغير وهو المجتمع؛ فإننا نجد أن مستويات السلوك الخلقي في هذه المجتمعات يعتريها التغير من آن لآخر، فما كان مقبولا منها بالأمس لم يعد مقبولا اليوم، وما هو مقبول اليوم ربما تعرض للتغيير مستقبلا. بل ربما تعرضت أنماط السلوك التي كانت مقبولة بالأمس للنقد والسخرية اليوم، وهذا هو سر المشكلة الخلقية في هذه المجتمعات... عدم وجود ميزان ثابت للقيم.

أما في المجتمعات المتحضرة الإسلامية، حيث الإسلام هو مصدر الأخلاق، وحيث القيم الخلقية مستمدة من مبادئ الإسلام وروحه، فإن أنماط السلوك الخلقي، وإن تغير شكلها، فإن مضمونها لا يعتريه التغيير؛ لأن مصدرها وميزانها ثابت، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ففي هذه المجتمعات المتحضرة الإسلامية تعتبر إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع والخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، وليست المادة في أية صورة، هي القيمة العليا... سواء في صورة النظرية كما في المجتمعات الماركسية، أو في صورة الإنتاج المادي كما في المجتمعات الرأسمالية التي تعتبر الإنتاج قيمة تهدر في سبيلها القيم والخصائص الإنسانية[1].

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٢١ .

وفي المجتمعات المتحضرة الإسلامية، تعتبر الأسرة هي قاعدة المجتمع، وتقوم على أساس التخصص بين الزوجين في العمل، وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة؛ ذلك أن الأسرة على هذا النحو تكون هي البيئة التي تنشأ وتنمي فيها القيم والأخلاق «الإنسانية»... ممثلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة[1].

وعلى العموم، فإن «القيم الإنسانية» والأخلاق الإنسانية النابعة منها والتي تسود المجتمع المتحضر الإسلامي، هي قيم ثابتة، ليست متغيرة كما يزعم التطوريون وأصحاب التفسير المادي للتاريخ. وهي قيم تنمي خصائص «إنسانية» الإنسان التي تميزه عن الحيوان. وهي ليست وليدة البيئة، ولا مختلفة باختلاف البيئات الزراعية والصناعية والصحراوية والساحلية، رأسمالية كانت أم اشتراكية، وإنما هي «قيم إنسانية» ذات ميزان ثابت، وهي مقررة في الشريعة الإسلامية يوم جاءت. وما على الإنسان، إلا أن يمضي في بنائها، وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها، حضرية كانت أم بدوية، صناعية كانت أم زراعية. فالمهم- في كل الأحوال- هو الارتقاء صعدا بالخصائص الإنسانية، وحراستها من النكسة إلى الحيوانية، التي تؤدي إلى التخلف أو الجاهلية.

**الأخلاق والمعرفة:**

ولما كان الإسلام هو مصدر الأخلاق، ولما كانت الغاية من المعرفة هي تمكين الإنسان من عمارة الأرض وفق منهج الله، فإن القيم الإنسانية، والأخلاق النابعة منها صارت هي الضوابط المتحكمة في استعمال المعرفة. فالمعرفة- أيا كان نوعها- سلاح ذو حدين، يمكن أن يستغلها الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله وشريعته. ويمكن أن يستعملها في الشر وتدمير الحضارة الإنسانية. فالتطبيقات التقنية للعلوم والرياضيات- بصفة عامة- أدت إلى اختراع الوسائل الحديثة في الصناعة والزراعة والأقمار الصناعية التي يمكن أن تفيد الإنسان في عمارة الكون وفق منهج الله. ولكنها أدت أيضا إلى اختراع أسلحة الدمار، وإلى التفنن فيها. وهي تقف الآن على أهبة الاستعداد لإفناء الحضارة البشرية، وذلك حين يصدر إليها الأمر في غيبة الضمير وهبوط الأخلاق. ودراسة علوم الأحياء يمكن أن تفيد في تحسين كل ما هو حي على وجه الأرض. وفي مكافحة الأمراض والأوبئة، ويمكن أن تستخدم في نشر الأمراض في مكان ما كسلاح للدمار[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٣ .

(٢) إسحق أحمد فرحان وزميلاه: المنهاج التربوي بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤، ص ٩٦ - ٩٧ .

ولذلك يشدد الإسلام على أهمية الغاية الفاضلة للمعرفة، وعلى تعلم العلم النافع، واستخدامه فيما ينفع الناس. كما ينهى عن تعلم المعارف الضارة. فقد نهى عن تعلم «السحر» ونعي على هؤلاء الذين تعلموه ليفرقوا به بين المرء وزوجه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (١٠٢)﴾ [البقرة].

ومنهج التربية الإسلامية يهتم بالجانب الأخلاقي للسيطرة على المعرفة المدمرة التي قد يقرر الإنسان استخدامها في الأذى في لحظة من لحظات هبوطه تحت ضغط قبضة الطين. ويؤكد على تربية الضمير والوجدان للسيطرة على شطحات العقل وانحرافه عن منهج الله؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ من علم لا ينفع، وكان يدعو ويقول: «اللهم علمني ما ينفعني، وانفعني بما علمتني».

وهكذا نرى أن التربية الإسلامية مرتبطة بالعقيدة، وبالقيم «الإنسانية» وبالأخلاق الإنسانية النابعة منها، «ولهذا فهي تتميز بأنها تعمد إلى بناء الإنسان من داخله بناء خلقيا سليما لا يقوم على التظاهر بالأدب، أو على التكيف السلبي من أجل التعايش الاجتماعي، وإنما هي تجعل المسلم يعود إلى ذات نفسه، وإلى المبادئ الخلقية التي يلتزم بها في جميع أنماط سلوكه مثل: الصدق، والأمانة، والعدل، والرحمة، والحلم، والحرية وغير ذلك من أمهات الفضائل الإسلامية، المرتبطة ارتباطا وثيقا بحقيقة الإيمان»[1].

* * *

(١) آمال حمزة المرزوقي: النظرية التربوية الإسلامية، ومفهوم الفكر التربوي الغربي، جدة، المملكة العربية السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٩٢ .



# الفصل الثالث

## مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي وخصائصه

**فهم التصور الإسلامي:**

إن فهم منهج الله في الكون وكيفية تطبيقه في واقع الحياة هو البداية التي يجب أن ننطلق منها في كل اتجاه: في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والتربية.

فالإسلام هو المنهج الوحيد الثابت الذي يستطيع إنقاذنا من التردي الذي نحن فيه نتيجة السير وفق «فلسفات» و«أيديولوجيات» مختلفة ومتناقضة، أقل ما يمكن أن يقال فيها: إنها أزياء فصلت وطرزت لمجتمعات تختلف في عقائدها، وقيمها وأنماط حياتها، اختلافا جذريا عن مجتمعاتنا. وأننا منذ أن انفتحنا عليها في عصر محمد علي- ننقلها دون مناقشة- لم نصل إلا إلى هذه الفوضى التربوية التي هي طابع حياتنا المعاصرة.

إننا يجب أن نفرق بين التفاعل الثقافي والغزو الثقافي.. فالتفاعل الثقافي مشروع، بل ومطلوب، ولكن التفاعل لكي يسمى تفاعلا يجب أن يقع بين جانبين على درجة واحدة من الندية، بحيث يعطي كل جانب منهما ويأخذ، وبحيث يتم العطاء والأخذ بشكل واع، وفي ظل الاختيار الحر. ومن هنا يأخذ المسلمون في ظل التفاعل الثقافي ما يأخذونه ويدعون ما يدعون وفق قواعد ومعايير مدروسة. وبذلك يطورون أساليبهم وأنماط حياتهم مع الاحتفاظ بهويتهم.

أما الغزو الثقافي فيتم من طرف قوى غالب لطرف ضعيف مقهور. وعادة ما يتحول المقهور إلى مبهور بقوة قاهره، فيأخذ منه ما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه، ورويدا رويدا... يتحول إلى تابع ذليل له، وهذا ما تقوم به العولمة الآن.

إذا كان هذا هو ما توصلنا إليه حتى الآن، فإن السؤال الذي يثور في الذهن هو: ما مفهوم منهج التربية الإسلامية؟ وما الخصائص والمقومات التي يستند إليها هذا المفهوم؟ وما الفرق بينه وبين مفهومات المناهج الشائعة؟

الإجابة عن هذه التساؤلات هي جوهر القضية فيما يلي من هذا الفصل.

**مفهومات عامة للمنهج:**

يعرف ابن منظور المنهج بأنه الطريق البيّن الواضح. «ومنهج الطريق وضحه[1] والمنهاج كالمنهج. وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]. والمنهاج- كما يقول ابن كثير-: هو «الطريق الواضح السهل، والسنن والطرائق»[2].

لكن تعريف المنهج بأنه الطريق السهل الواضح، وأنه السنن والطرائق، هو تعريف عام يصلح لكل جوانب الحياة ومجالاتها: كالزراعة والصناعة والتجارة والتربية وغير ذلك. ومن هنا كان لابد من السير به خطوة نحو التخصص.. نحو التربية.

ويرى معظم المتخصصين المعاصرين في المناهج وطرق التدريس، أن المنهج التربوي هو «مجموع الخبرات والأنشطة التي تقدمها المدرسة تحت إشرافها للتلاميذ بقصد احتكاكهم بها وتفاعلهم معها، ومن نتائج هذا الاحتكاك والتفاعل يحدث تعلم أو تعديل في سلوكهم، ويؤدي هذا إلى تحقيق النمو الشامل المتكامل الذي هو الهدف الأسمى للتربية»[3].

ويلاحظ على هذا التعريف أمران: الأول، أنه واسع بحيث يشمل الخبرات التربوية المختلفة، التي عن طريقها ينتقل محتوى المنهج، كما يشمل أيضا المواد المستخدمة، والطرق والوسائل المتبعة في عملية التدريس والتقويم، الأمر الثاني، أن مفهوم المنهج هنا يشمل البرنامج، والبرنامج يشمل المقررات والمقرر يشمل الوحدات، والوحدة قد تتكون من درس أو عدة دروس.

وهذا المفهوم للمنهج، رغم اتساعه وشموله، إلا أنه لا يصلح أن يكون مفهوما لمنهج التربية الإسلامية لأنه مفهوم يصل الناس بالأرض، ويؤهلهم للاستمتاع بها، وعمارتها، والكفاح من أجلها، دون نظر إلى خالق الأرض والسماء، ومبدع الكون كله، ودون ربط للإنسان بمصدر وجوده، وسبب وجوده، وغاية وجوده؛ ولهذا فإن هذا المفهوم يصلح لكل المجتمعات ولكل الثقافات. فكل مجتمع يستطيع أن يصمم منهجا وفقا لهذا المفهوم يناسب حياته على الأرض.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ٥ ص ٤٥٥٤.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٢، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ، ص ٥٨٨

(٣) محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١، ص ١١.

والأمر مختلف تماما بالنسبة لمنهج التربية الإسلامية. فمهمة هذا المنهج الأولى والأخيرة: هي أن تصل الإنسان بالله، ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته فيها، فيعمرها ويرقيها عن طريق الكد والكدح المستمرين، وعن طريق التحليل فيها والتركيب، واستغلال كل الطاقات والإمكانات المدركة التي منحه الله إياها. وبحيث يفعل كل هذا بينما يكون متجها- في نفس الوقت- بعقله وقلبه إلى الله، وهنا يرتبط ملكوت الأرض بملكوت السماء.

**مفهوم منهج التربية في التصور الإسلامي:**

ومن هنا تظهر الحاجة إلى تعريف مناسب لهذا المنهج الرباني الفريد، وهنا يمكن القول- اجتهادا-: إن منهج التربية في التصور الإسلامي هو: نظام من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربوية إسلامية إلى المتعلمين فيها، بقصد إيصالهم إلى درجات الكمال التي هيأهم الله لها، وبذلك يستطيعون القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية وفاعلية في عمارتها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

**الخصائص التي يتميز بها هذا المفهوم:**

إن منهج التربية الإسلامية «نظام» نابع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، أي أنه بمفهومه وخصائصه، وأسس بنائه، وعناصره يكون كلا متكاملا، كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء، ويؤثر فيها.

وهذا المفهوم لمنهج التربية الإسلامية، يتميز ويتفرد بمجموعة من الخصائص أهمها ما يلي:

## أولا: الربانيـــة

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: إن المراد من الربانية هنا أمران:

- ربانية المصدر والمنبع.
- ربانية الوجهة والغاية[1].

---

(١) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ط ٢ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٧ .

### ١- ربانية المصدر والمنبع:

إن أولى مقومات النظام الإسلامي أنه نظام رباني «صادر من الله للإنسان وليس من صنع الإنسان. تتلقاه الكينونة الإنسانية بجملتها من بارئها. وليست الكينونة الإنسانية هي التي تنشئه، كما تنشئ التصور الوثني، أو التصور الفلسفي- على اختلاف ما بينهما- وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في الحياة البشرية»(١).

وإذا كان الفكر البشري لم ينشئ هذا النظام، فإن له وجودا قويا في مجاله للعمل فيه. «بيد أن عمله هو التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق في واقع الحياة... غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقي... هي هذه.... إنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة، يستمدها من أي مصدر آخر، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه، ثم يحاكم إليها هذا التصور، ويزنه بموازينها... إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته، ويتكيف به، ويستقيم على منهجه»(٢).

«وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشري- في ميزان هذا التصور- أداة قيمة وعظيمة، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوماته مستقاة من مصدرها الإلهي- وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع. ودون زيادة عليها من خارجها، ودون نقص كذلك منها... ويبذل منهج التربية الإسلامية لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل في كل ميدان هي مهيأة له... الشيء الكثير»(٣).

إذن فوظيفة الإنسان في هذا النظام هي التلقي في حدود طبيعته الإنسانية، وفي حدود وظيفته. «فالإنسان محكوم أولا بطبيعته: طبيعة أنه مخلوق حادث، ليس كليا ولا مطلقا. ليس أزليا ولا أبديا. ومن ثم فإن إدراكه لابد أن يكون محدودا بما تحده به طبيعته، ثم هو محدود بوظيفته. وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبودية لله فيها... ومن ثم فقد وهب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة... وهناك أمور كثيرة لا يحتاج إليها في وظيفته هذه. ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها... وإن كان موهوبا أن يدرك إمكانها وأن يحيل هذا على معرفته بطلاقة المشيئة الإلهية من ناحية، ومن ناحية أخرى، على معرفته بأنه مخلوق حادث، غير كلي ولا

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

مطلق، فلا يمكن- من ثم- أن يحيط بخصائص الأزلي الأبدي، الذي هو بكل شيء محيط»(١).

ويشير القرآن الكريم إلى بعض هذه الجوانب، كعدم إدراك الإنسان لكنه الذات الإلهية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]... وعدم إدراكه لمسألة المشيئة الإلهية: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران]. ومنها مسألة الغيب: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.. ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]. ومنها مسألة الساعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ.. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]. ومنها مسألة الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وفيما عدا ذلك، فإن الفكر البشري والإدراك البشري مدعو للتفكير والتدبر والنظر والاعتبار، والتكيف والتأثر، والتطبيق في عالم الضمير وعالم الواقع، وفي التصور الشامل لهذا النظام الكبير.

وباختصار فإن الإسلام هو منهج الله الذي تحكم به الحياة، وهو من خلق الله. فالإنسان لا يستطيع أن يشرع لنفسه، وليست لديه الإمكانات والقدرات التي تجعله يضع منهجا شاملا لحياته؛ لأنه يجهل نفسه، ويجهل نتائج تصرفاته، وكثيرا ما يخضع لسلطان شهواته، ومن هنا كان من الخطر على وجوده أن يسند إليه أمر وضع منهج حياته:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية]

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]

(١) المرجع السابق، ص ٤٧ .



﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة].

إن الله هو الذي خلق الإنسان، وفضله على كثير من المخلوقات، وسخر له كثيرا من الكائنات، فمن حق ملك الناس، إله الناس، رب الناس، أن يشرع لهم منهج حياتهم الذي به يحققون غاية وجودهم، وهي عبادة الله.

### ٢- ربانية الوجهة والغاية:

أما ربانية الوجهة والغاية: فنعني بها -كما يقول الدكتور القرضاوي- «أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله -تبارك وتعالى-، والحصول على مرضاته، فهذه غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة»[1]... : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦)﴾ [الانشقاق] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم].

ويتفق مع هذا المنطلق أن الإسلام جعل غاية الوجود كله هي عبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]، كما أن العبادة هنا ليست مقصورة على الشعائر المعروفة من صيام وصلاة وزكاة وحج... إلى آخره، ولكنها منهج حياة كاملة، إنها العبودية لله وحده، والتلقي من الله وحده في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، فكل فكر أو قول أو عمل أو سلوك يتقرب به الإنسان إلى الله طمعا في رضاه، وخوفا من غضبه، هو عبادة. وبذلك يكون المؤمن عابدا لله في كل وقت وفي كل حين؛ لأنه دائم الصلة بالله، يرجع إليه في كل لحظة، ويستشيره في كل أمر.

وبناء على ما سبق، فإنه يترتب على كون المنهج الإسلامي منهجا رباني المصدر والغاية، أنه منهج «كامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكميلا، كما أنه لا يقبل «قطع غيار» من خارجه، فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو صنعة غيره»[2].

ووظيفة الإنسان في هذا المنهج هو تلقيه، وإدراكه، والاجتهاد في إطاره والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في واقع الحياة.

---

(١) يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٧ .
(٢) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٤١ .

**الربانية والمنهج**

إن منهج التربية الإسلامية كمنهج الإسلام العام، منهج رباني في مصدره وغايته؛ ولذلك فهو يزود الإنسان (المتعلم) بمجموعة الحقائق والمعايير والقيم الثابتة التي توجه عمله ونشاطه، بل وتعينه على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. فلا مراء أنه من الضروري لكل إنسان (متعلم) أن يفهم الحقائق الثابتة في الكون: كحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان... إلى آخره. فبدون فهم هذه الحقائق، لا يستطيع الإنسان أن يفهم وجوده، ولا دوره في هذا الوجود، فضلا عن مصدر وجوده وغايته.

ومن الضروري أن يعرف الإنسان (المتعلم) المعايير التي يرجع إليها في إقامة الجوانب المختلفة لحياته على الأرض. فالشورى معيار للسياسة ونظام الحكم، والعدالة الاجتماعية معيار للنظام الاقتصادي، والتراحم، والتكافل، والتعاون معايير لتنظيم الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس... وهكذا.

ومن الضروري أن يفهم الإنسان (المتعلم) مجموعة القيم الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية الراقية. فالعلم واستخدامه في إعمار الحياة وترقيتها (لا في خرابها)، والإحسان والدقة في العمل، والنظام، والنظافة، وصدق الشعور في القول والعمل... كل هذه قيم ثابتة، لا يمكن أن يقوم نظام إنساني راق- في أي وقت- على وجه الأرض بدونها.

إن تطبيق هذا المنهج لا يحتاج إلى فلسفة. بل إن إلحاق مصطلح «فلسفة» به يفسده تماما. «فالفلسفة» مصطلح غريب وثني الأصل، وهي جزئية ثقافية وحضارية للإنسان وللحياة تختلف تماما عن النظام الذي ينتمي إليه منهج التربية الإسلامية. فالفلسفة جزئية في نظام «بشري» الأصل، تتأثر به وتؤثر فيه. ومنهج التربية الإسلامية جزئية في نظام «رباني» شامل لحكم الكون والحياة، فكيف يجتمعان؟!

إن الإنسان لا يستطيع- مثلا- أن يأخذ قطعة (غيار) من سيارة «فيات» ليضعها في سيارة «مرسيدس»؛ لأن خطوط الإنتاج في هذه تختلف عن خطوط الإنتاج في تلك، وكذلك كل ما يتبعها من جزئيات. فإذا كان ذلك كذلك على المستوى المادي البسيط، فما بالك بالنظم التي وضعت لحكم الحياة والسلوك الإنساني! فهل يمكن تبادل «قطع غيار» بين منهج مستمد من أصول ربانية وآخر مستمد من فلسفة بشرية؟!

إن الإسلام لا يتسامح- كما يقول الأستاذ سيد قطب- : «أن يتلقى المسلم أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه



وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره... من مصادر غير إسلامية. ولا أن يتلقى (في كل هذا) من غير مسلم يثق في دينه وتقواه»(١).

وهذا الأمر أكبر وأثقل في ميزان الله من أن يعتمد فيه على رأي شخصي. فالأمر فيه لله وللرسول. يقول الله -سبحانه- عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

والواقع أن الإسلام يفرق في هذا الأمر بين نوعين من العلوم: العلوم التي تتصل بتفسير النشاط الإنساني كله: كالفنون والآداب والعلوم الإنسانية عموما، فهذه يجب على المسلم ألا يتلقاها إلا على يد مسلم يوثق في علمه ودينه.

أما ما يردده بعض مفكرينا من آن لآخر، من أن الفنون والآدب يجب أن تدرس كفنون جميلة في حد ذاتها، دون ربطها بالعقائد والأخلاقيات، فهذا رأي مرفوض إسلاميا؛ لأن الإسلام لا يعترف بنظريات «العلم للعلم» و«الفن للفن» فالعلوم والفنون ما هي إلا وسائل وأدوات خلقها الله ليتعلمها الإنسان ويستخدمها في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

أما العلوم البحتة كعلوم الكيمياء، والفيزياء، والأحياء، وعلوم الصناعة والزراعة... إلخ فالأصل أن يسعى المجتمع المسلم لتوفير الكفايات فيها، باعتبار تعلمها فرض كفاية. فإذا لم يوفر الكفايات أثم المجتمع كله، وإلى أن تتوفر الكفايات في هذا الميدان فإن للمسلم أن يتلقى هذه العلوم عن المسلم وغير مسلم.

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق ص ٢٠٣.



وليس معنى ما تقدم أنني أدعو إلى الانغلاق وعـدم التفكير، وعدم الاستفادة من أفكار الآخرين وتجـاربهم أينما كانوا، فليس هذا من الإســلام في شيء. وقد وضع لنا الرسول الكريم ﷺ المـبدأ الهادي في هذا السـبيل حـيث قال: «**الحكمة ضـالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**».

إذن فهذه دعوة إلى الانفتاح، لا إلى الانغلاق. لكنه الانفتاح الذي ينشد الحكمة ويزن كل شيء وفقا لمعايير وقواعد منهج الله.

## ثانيا: التوحـــيد

الخاصية الثانية من خواص منهج التربية في الإسلام خاصية التوحيد، التوحيد هو المقوم الأول للنظام الإسلامي، فو حقيقة أساس في العقيدة الإسلامية. وبالتوحيد يتفرد النظام أو المنهج الإسلامي من بين سائر النظم والمناهج الاعتقـادية والفلسفية السائدة في الأرض.

«ونبادر فنقرر أن «التوحيد» كان هو «الخاصية» البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول. كما أنه كان «المقوم الأول» في دين الله كله... وأن «الإسلام على إطلاقه- كان هو الدين الذي جاء به كل رسول، بما أن الدين هو إســلام الوجه لله وحده، واتباع منهج الله- وحـده- في كل شئـون الحياة، والتلقـي من الله- وحده- في هذه الشـئون كلها، والعبودية لله وحـده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعـبادة لله وحده سواء في الشعـائر التعبدية أو فـي نظام الحياة الواقعـية»(١) ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [**الأنبياء**]، فالقرآن الكريم في الآية السابقة يؤكد هذه الحقيقة إجمالا. ويؤكدها تفصيلا فيما يلي:

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [**الأعراف**].

﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [**الأعراف**].

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الأعراف**].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق ص ١٨٢ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة].

«لكن التحريفات والانحرافات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق في الأرض كلها من تصور ديني صحيح، إلا التصور الذي جاء به محمد ﷺ، وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس... ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين»(1).

ويقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية... ألوهية يتفرد بها الله -سبحانه- وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه... وكما يتفرد الله -سبحانه- بالألوهية، كذلك «يتفرد»- تبعا لهذا- بكل خصائص الألوهية... كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية. فهناك إذن وجودان متميزان: وجود الله، ووجود ما عداه من عبيد الله. والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد...

---

(1) انظر: سيد قطب فصل «التوحيد» في تفصيل الانحرافات والتحريفات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، في الديانتين: اليهودية والنصرانية. في المرجع السابق.



«هذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي... ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى... وقيام التصور الإسلامي على هذه القاعدة الأساسية هي الذي يجعلها إحدى خصائصه»(1).

فالله- سبحانه- واحد في ذاته، متفرد في كل خصائصه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

والله- سبحانه- خالق كل شيء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

والله-سبحانه- هو مالك كل شيء: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.. ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

والله- سبحانه-هو الرزاق لكل من خلق ولكل ما خلق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ.. ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت].

والله-سبحانه-هو مدبر كل شيء، ومصرف كل شيء، وحافظ كل شيء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾﴾ [فاطر] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الروم]، ﴿.. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

وكل خلائق الله- سبحانه- تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] ﴿.. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

---

(1) المرجع السابق، ص ١٨٣ .

**التوحيد والحرية الإنسانية:**

ولا يتم الحديث عن خاصية التوحيد إلا بالحديث عن مقتضيات هذا التوحيد. ومن مقتضيات توحيد الألوهية في التصور الإسلامي ما يأتي:

١- «إفراد الله- سبحانه- بخصائص الألوهية من تصريف حياة البشر، كإفراده- سبحانه- بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء... فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى...

٢- ومن مقتضيات التوحيد أيضا أن «يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وبني الإنسان من جنسه إلا الله... فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات... سواء..»(١).

٣- أما الأثر المتفرد الذي ينشئه النظام الإسلامي من ضمير الإنسان المسلم والمجتمع المسلم عن طريق خاصية «التوحيد» فهو «تحرير الإنسان... أو بتعبير آخر... ميلاد الإنسان...» إن المنهج الإسلامي- بهذه الخاصية- «يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. «والإنسان» بمعناه الكامل لا يوجد على الأرض إلا يوم تتحرر رقبته، وتحرر حياته، من سلطان العباد- في أية صورة من الصور- كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء»(٢).

«إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر... يقعون في عبودية العباد... وفي الإسلام- وحده- يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده»(٣).

هذه هي الهدية التي أهداها الله لعباده في الأرض عن طريق التوحيد. ويستطيع أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها- بدورهم- للبشرية كلها. إن أصحاب هذه العقيدة «لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجادا علمية، ولا فتوحات حضارية يبلغ من

(١) سيد قطب، المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٨ .

(٣) المرجع السابق.



ضخامتها أن تتفوق تفوقـا ساحقا على كل ما لدى البشرية منها. . . ولكنهم يملكون أن يقدموا لها شيئا آخر. شيئـا أعظم من كل الأمجاد العلمية والفتوحات الحضارية. . إنهم يقدمون «تحرير الإنسان» بل «ميلاد الإنسان»[1].

## ثالثا: العالميـــة

الخاصية الثالثة من خواص منهج التربية في الإسلام هي العالمية؛ فالإسلام عقيدة ونظام لحكم الحـياة. ولما كانت هذه العـقيـدة ربانية المصـدر والغاية، وإنسانيـة الطابع، وخاتمة الرسالات السماويـة، فهي عالمية. ومعنى عالمية الإسلام أنه دعـوة لجميع البشر، دعوة ليست عنصرية، ولا قومية، ولا محدودة بحدود جغرافية أو إقليمية أو وقتية.

### الإسلام في صورته التامة والخاتمة:

يقول الأسـتاذ سيد قطب: «إن الإســلام تمشيا مع طبـيعتـه العالمية، قد احـتضن الرسالات والديانات كلها من قبله، وقرر مع وحدة الإله، وحدة العقيدة، ووحدة الدين الذي أرسل الله به رسله جمـيعا، فكل الرسل جاءوا بدين واحـد، هو الإسلام، إسلام القلب لله وحده بلا شريك، وهذا هو أساس العقيـدة الذي لا يتبدل، أما التشريع الذي ينظم حيـاة الجمـاعة فهـو الذي يتطور في الرسالات الإلهـية على أيدي الرسل، تبـعا لمصلحة البشرية ودرجة نموها، وتطور إدراكها. . . حتى إذا جاء الإسلام في صورته التي جاء عليها في رسالة محمد ﷺ، كان قد احتضن الفكرة الأساسية في دين الله الواحد، واستبقى الصالح من المبادئ والتشـريعات والنظم في الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها وأتمه»[2] ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ۝٣ ﴾ [المائدة].

إن رسالة الإسلام النهائية الخاتمة التي تمثلت في رسالة محمد ﷺ، وليست رسالة للعـرب، ولا لجنس دون غيـره من أجناس البـشر. فـإذا كانـت الصورة التي نزل بهـا الإسلام على موسى خاصة ببنى إسرائيل، وإذا كانت الصورة التي نزل بها الإسلام على عيسى لهـداية خراف بني إسرائيل الضالة. فإن الإسلام في الصـورة الخاتمة التي نزل بها القرآن الكريم، وشـرحت في سنة رسول الله ﷺ، إنما جاءت لهداية البـشرية جمـيعا، وفي كافة أنحاء الأرض، وعلى مر العصور والأزمان إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

(١) المرجع السابق، ص٢٠٠ .

(٢) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي: بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م ص١١٠ .

## الإسلام رسالة عالمية وشريعة كونية

الإسلام رسالة عالمية، وشريعته التي يستمد منها الناس منهج حياتهم هي شريعة كونية. والنصوص في ذلك واضحة وحاسمة، فالقرآن هو آيات الله وكلمته للإنسانية جمعاء: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]، ومحمد ﷺ هو رسول الله للناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، وقد أرسل بالإسلام رحمة للناس جميعا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

«إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب!... إن موضوعه هو «الإنسان»... نوع «الإنسان»... ومجاله هو «الأرض» إن الله- سبحانه وتعالى- ليس ربا للعرب وحدهم، ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم.. إن الله هو «رب العالمين»... وهذا الدين يريد أن يرد «العالمين» إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى- في نظر الاسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر... وهذه هي «العبادة التي يقرر أنها لا تكون إلا لله. وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين»[1]. ولقد نص رسول الله ﷺ، على أن اتِّباع الناس لشرائع العباد وأحكامهم هو «العبادة» التي صار بها اليهود والنصارى «مشركين» مخالفين لما أمروا به من «عبادة» الله وحده.

إن إقامة البناء الاعتقادي في الضمير وفي الواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده، هي المدلول العلمي لشهادة أن لا إله إلا الله، كما أن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو وحده المدلول العلمي لشهادة أن محمدا رسول الله.

إن هذه هي قاعدة المنهج الإسلامي التي تميزه عن كل المناهج والأنظمة الأخرى التي عرفتها البشرية. وهى أساس منهج الوجود كله وليس الحياة الإنسانية فقط. فالوجود كله من خلق الله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، ط١٠، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٦٩ - ٧٠.

إن شريعة الله للإنسان ما هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود الكوني العام، وينسق حياة الإنسان مع الوجود الكوني من حوله.

فالشريعة التي سنها الله لتنظيم حياة البشر- كما يقول الأستاذ سيد قطب- «هي شريعة كونية، متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه... ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذي يعيش فيه»، «ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام... فإنهم- من ثم- لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاما يتحقق به التناسق بين حياة الناس وحركة الكون، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة... [وهكذا] يصبح العمل بشريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق...»(١).

إن هذا التناسق يحقق للإنسان السلام مع نفسه، كما يحقق له السلام مع الكون المحيط به. أما السلام مع النفس فينشأ من توافق حركته مع دوافع فطرته الصحيحة، وبذلك تنظم حركة الإنسان الظاهرة مع فطرته المضمرة.

وأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركته مع حركة الكون المحيط به في الاتجاه والغاية. وبذلك «يتحقق الخير للبشرية عن طريق إهدائها وتعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في أطوائه، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله لتحقيق الخير البشري العام، بلا تعارض ولا اصطدام»(٢).

ولهذا فإنه عندما يحيد الإنسان عن هذه الشريعة فإنه يحدث نوعا من الشقاق الذي يؤدي حتما إلى كوارث نفسية وكونية، فالحياد عن شريعة الله يحدث الشقاق بين الإنسان وفطرته السليمة التي فطره الله عليها، فيصاب بأبشع الأمراض النفسية والجسمية. والحياد عن شريعة الله يحدث الشقاق بين الإنسان من جانب، وبين الكون من حوله الخاضع لله بفطرته من جانب آخر، فتحدث الكوارث الطبيعية التي تدمر الإنسان في كل مكان؛ حيث تنقلب طاقات الكون وذخائره وقواه من وسائل لتعمير الحياة وترقيتها إلى عوامل تدمير وخراب وشقاء(٣).

لكن عالميَّة الإسلام وكونيَّة شريعته لا تعني أخذ الناس قسرا على اتباعه: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.. ﴿٢٥٦﴾**﴾ [**البقرة**]، بل تكون الدعوة إليه

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، المرجع السابق، ص١١١.
(٢) المرجع السابق، ص ١١٢.
(٣) انظر المرجع السابق، فصل: شريعة كونية.

بالحكمة والموعظة الحسنة، والمنطلق العقلي: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

يقول الأستاذ سيد قطب: «إن الإسلام لم يشأ أن تكون وسيلته إلى حمل الناس على اعتناقه هي القهر والإكراه في أي صورة من الصور، حتى القهر العقلي عن طريق المعجزة لم يكن وسيلة من وسائل الإسلام كما كان في الديانات قبله، من نحو الآيات التسع لموسى، والكلام في المهد وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى. . . . لقد شاء الإسلام أن يخاطب القوى المدركة في الإنسان، ويعتمد عليها في الاقتناع بالشريعة والعقيدة، وذلك جريا على نظرته الكلية في احترام هذا الإنسان وتكريمه»[1].

ولذلك لم يضق الإسلام ذرعا باختلاف الناس في المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا ضرورة من ضرورات الفطرة، وغرضا من أغراض الإرادة العليا في الحياة والناس.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾ [هود] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

والقرآن يطمئن الرسول ﷺ، ويهدئ من حماسة المسلمين في حمل الناس على الإسلام، حين يقرر أن إرادة الله لم تحتم أن يكون الناس جميعا من المؤمنين. وأنه لا إكراه لأحد ليكون من المسلمين: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]، ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة].

إذن ليست غاية المسلمين إكراه أحد على الدخول في الإسلام، لكن الكثيرين يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى المادية والسياسية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبِّد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله. . . وهما أمران لا علاقة بينهما، ولا مجال للالتباس فيهما.

---

(1) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣؛ ص ص ١٠٣ - ١٠٤.

إن المسلمين حينما يلجأون للجهاد فإنما يلجأون إليه لواحد أو أكثر من الأسباب التالية:

١- الدفاع عن حرية الدعوة وحرية العقيدة.

٢- الدفاع عن الذين يؤذون بسبب عقيدتهم.

٣- الوقاية ضد أولئك الخائنين الذين ينقضون عهودهم السلمية مع المسلمين.

٤- دفع العدوان ودفع الفتنة، ودفع الظلم عن المظلومين من المسلمين وغير المسلمين.

إن الداعين إلى الإسلام يحتاجون إلى نوع من القوة والمنعة؛ لأنه لابد للشريعة من قوة تكفل احترامها، وتحقق النظام الاجتماعي الذي يقوم عليها. فليست مهمة الأمة الإسلامية مقصورة على مجرد الدعوة لدين الله؛ لكنها بالإضافة إلى ذلك لابد وأن تقوم بحماية حرية العقيدة والعبادة للناس جميعا. وحماية الضعفاء من ظلم الأقوياء، وكفالة العدل والأمن للناس جميعا؛ من دخل منهم الإسلام ومن لم يدخل، ومقاومة الشر والفساد في الأرض، وذلك بحكم الوصاية الرشيدة التي أناطها الله بها، إذ يقول في ذلك: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]. ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

لكن الإسلام لا يقرر الدفاع عن حرية العقيدة لأتباعه فقط، وإنما يقرره لأصحاب الديانات الأخرى أيضا، بل «ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية، راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين. . . . وبذلك يحقق أنه نظام عالمي، حر، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبحماية المسلمين»[1].

ولقد شرع القتال أيضا دفاعا عن الذين أوذوا بسبب عقيدتهم ولحماية أماكن عبادتهم، سواء أكانت صوامع، وهي معابد الرهبان، أو بيع، وهي كنائس النصارى، أو صلوات، وهي كنائس اليهود، أو مساجد وهي مصليات المسلمين. وقد وعد الله

(١) نحو مجتمع إسلامي، ص ١٠٦ .

بالنصر هؤلاء الذين يدافعون عن أماكن العبادة حيث قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

وقد يقاتل المسلمون لدفع العدوان بدون اعتداء، أو لدفع الفتنة عن الدين وترك الدين لله، فالقاعدة العامة أنه لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان إلا على الظالمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة].

وقد يقاتل المسلمون حربا وقائية ضد أولئك الذين يخونون المسلمين وينقضون دائما معاهداتهم السلمية معهم، بحيث يعيش المسلمون في قلق دائم وتوتر مستمر. هنا يحق للمسلمين أن يعلنوهم بنبذ ما بينهم وبينهم من معاهدات. وحتى مع هؤلاء ليس للمسلمين عليهم من سبيل إذا هم جنحوا للسلم واختاروها بصدق:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ



﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال].

**أصل البشرية واحد:**

إن الإسلام يرد البشرية كلها إلى أصل واحد، ويجعل الرابطة الكبرى بين البشر هي رابطة الإنسانية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ ﴾** [النساء: ١].

وعلى أساس هذه الرابطة الإنسانية يمكّن الإسلامُ جميعَ الأجناس البشرية، على اختلاف ألوانهم ولغاتهم أن تجتمع في حمى الإسلام، وفي ظل نظامه الاجتماعي، على أساس آصرة واحدة، هي آصرة الإنسانية: **«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»** (أخرجه أبو داود).

إن البشر- كما يقول الأستاذ سيد قطب- أمة واحدة[1]؛ ولذلك فلا معنى لاستغلال جنس لحساب جنس آخر، أو وطن لحساب وطن آخر، فمثل هذا العمل يعتبر مضحكا ومقززا في التقدير الإسلامي؛ لأن تقوى الله، والعمل الصالح لخير عباده هما معيار الأفضلية الوحيد في ميزان الله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.. ﴿١٣﴾ ﴾** [الحجرات]... **«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»**.

**الأرض كلها لله والناس مستخلفون فيها:**

إن الأرض كلها لله، والناس جميعا مستخلفون فيها: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾** [البقرة]، فالإسلام لا يعرف الحدود الإقليمية، كما لا يعرف حدود الأجناس والألوان؛ فالجنس البشري كله مستخلف في هذه الأرض لعمارتها وترقيتها واستغلال كنوزها وثرواتها. والناس تبعا لذلك كلهم إخوة، لا ينالون رحمة الله وعونه ما لم يتراحموا بينهم، ويتعاونوا على العمل الصالح. فلا عجب إذن، أن يقول رسول الله ﷺ : **«ارحموا من في الأض، يرحمكم من في السماء»**، بدون تخصيص لجماعة معينة أو عنصر معين أو جنس معين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٦ .

«وتبعا لإزالة حواجز الجنس واللون واللغة. . . . يزيل الإسلام تلك الحواجز الجغرافية التي تقوم بين شعوب الأرض وتخلق ذلك الشعور القومي الحاد، وتعمل بذلك على خلق المنافسة الخطرة بين القوميات المتباينة، وتؤدي في النهاية إلى التكالب الاستعماري، الذي هو في صميمه استغلال أمة لأمة، أو جنس لجنس،أو وطن لوطن».

«وبديهي أن الواقع الأول للصراع الاستعماري في العصر الحديث، كان -ولا يزال- هو شعور القومية الحاد، للتميز وراء تلك الحدود الإقليمية، ورغبة كل دولة في أن تجد للشعب. . . الذي تمثله مجالا حيويا لاستمداد الخامات والموارد البشرية، ولتصريف المنتجات والغلات الفائضة».

«وبديهي أن الحروب الحديثة كلها قد قامت على هذا الأساس، وأن الشر الذي أصاب البشرية في الحربين الماضيتين، والذي يوشك أن يدمرها في الحرب المقبلة. . . . كله قد نشأ من ذلك الشعور القومي الحاد، ومن ضعف الروح العالمية والروح الإنسانية»(١).

إن الإسلام يحطم النظام الاستعماري بأسلوبيه العسكري والفكري والثقافي، ويضع مكانه نظام الأخوة في الإنسانية، والأخوة العالمية، والأخوة الإسلامية.

والإسلام حين يزيل «تلك الحواجز الجغرافية أو العنصرية التي تقوم عليها فكرة الوطن القومي، فإنه لا يلغي فكرة الوطن على الإطلاق، إنه يبقى على المعنى الطيب وحْدَهُ لهذه الفكرة، معنى التجمع والتآخي والتعاون والنظام، ومعنى الهدف المشترك الذي تلتقي عليه الجماعة من الناس، فيجعل الوطن فكرة في الشعور من كل جنس ولون وأرض؛ فإذا هم أبناء وطن واحد، وإذا هم أخوة في الله، وإذا هم متعاونون على ما فيه خيرهم وخير البشرية جميعا. . . تلك الفكرة هي الإسلام»(٢).

**﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] . . . «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»** (أخرجه الشيخان). . . . **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** (أخرجه الشيخان).

---

(١) المرجع السابق، ص، ٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص، ٩٦ .



إن فكرة الإسلام تقوم مقام فكرة الوطن في معناها الخيِّر، فهي شعور بأن كل أرض يظلها الإسلام هي وطن لجميع المسلمين، وكل مسلم على ظهر الأرض هو مواطن في أي أرض للمسلمين. إن كل مسلم على وجه الأرض يملك- بدون استئذان حاكم أو شرطي- أن يدخل الوطن الإسلامي ويخرج منه، ويذهب في أرجائه ويروح، دون جواز سفر، ودون وقفة عند الحدود.

وكل إنسان- وإن لم يكن مسلما- يملك أن يعيش في ربوع الأرض الإسلامية، مكفول الحرية في العقيدة والعبادة، مكفول الدم، والرزق، والعمل، ما دام خاضعا للقوانين التي تنظم حياة الجماعة، شأنه في ذلك شأن المسلمين في هذه الأرض.

إن كل دولة غير مسلمة لها الحق أن تتعاقد وتتعاهد مع الدولة الإسلامية، على عمارة الأرض وإصلاحها، أو على السلم والمهادنة، وهي واثقة أن عهدها محفوظ ما وفّت هي بعهدها ووعدها ولم تنقص منه شيئا.

وهكذا، يمكن القول: إن الإسلام- عقيدة ونظاما- هو الدين الوحيد الذي يمكن أن يوصف بأنه عالمي، وهو الدين الوحيد الجدير بعالم حر؛ عالم واحد، تنعم فيه البشرية بالأمن والسلام والاستقرار.

**العالمية والمنهج:**

إن منهج التربية الإسلامية إذن هو منهج تربية «الإنسان»... الإنسان الصالح الذي يستطيع أن يعيش في كل مكان... وليس فقط «المواطن» المحصور في حدود «المواطنة الضيقة». وتربية الإنسان ليس فيها بالطبع إغفال لتربية المواطن، ولكنها أشمل وأكمل، فالحقيقة أنه لا خوف أبدا على المواطن من الإنسان، ولكن الخوف كل الخوف على الإنسان من المواطن الذي انحصر فكره وانتماؤه وسلوكه داخل الحدود الجغرافية لوطنه.

إننا في أمس الحاجة إلى تنمية النظرة «الإنسانية العالمية الشاملة» في التعليم، وتطوير المفهوم «الإنساني» في التربية. وهذا المفهوم لا تستطيع «فلسفة» أو «أيديولوچية» مرتبطة بمكان وزمان معينين تنميته وتطويره.

إن منهج الإسلام وحده، دون مناهج الأرض كلها، هو الذي يستطيع تحقيق مفهوم «الإنسانية» في نفوس الناشئة. فتحقيق إنسانية الإنسان يتمشى مع إنسانية المنهج الإسلامي وعالميته التي تقررت في القرآن في سورة هي من أوائل السور المكية، وهي

سورة التكوير، في قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير]. وتقررت في خطاب المولى- سبحانه- لنبيه ﷺ في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

لقد جنَت الإنسانية ثمار التأكيد على «المواطنة الضيقة» في صورة صراعات دولية، وحروب عالمية وإقليمية، واستعمار واحتلال لأراضي الآخرين، واغتصاب لحقوقهم، وتسخير لجهودهم في خدمة غيرهم، وإذلال لآدميتهم وإنسانيتهم.

إننا الآن في زمن جديد تماما. فنحن نعيش العصر النووى، عصر القنابل الذرية، والإشعاع النووي القاتل، والشتاء الذرى، والصقيع النووي الذي يمكن أن يحدث نتيجة حجب الغبار الذري لأشعة الشمس عن الأرض، فيبدأ عصر الجليد والظلام الذي تتجمد فيه الحياة البشرية إلى ما شاء الله.

إننا نعيش في عصر سبقت قوة الإنسان يقظة ضميره، عصر لا يملك الإنسان فيه القدرة- كما قال «أينشتين»- على إدارة الصراعات والحروب العالمية أو الإقليمية، دون أن يمتد خطرها ودمارها إلى ما حولها[1] نحن- إذن- في عصر نحتاج فيه إلى تنمية وتطوير مفهوم «الإنسانية» بمعناه العالمي الشامل، لا إلى تنمية مفهوم «المواطنة» بمعناه الضيق المحدود بحدود المكان والزمان.

فالوطنية الضيقة، وتربية المواطن المحدود في قيمه وولائه بين حدود دولته، أثمر كثيرا من الشرور التي نعاني منها الآن. فمشكلة الحرب والسلام التي يتوقف عليه مصير البشرية كله، تشتد وطأتها، ويزداد غليانها كل يوم، حتى وصلت إلى مرحلة تنذر بالخطر الحقيقي، وما ذلك إلا لأنها تدار بيد «مواطنين» يريدون تسخير خيرات العالم كله لصالح أوطانهم ومواطنيهم على حساب الآخرين.

وحتى بعد أن ظهرت نظرية استحالة الحروب النووية الساحقة الماحقة لكل شيء على وجه الأرض، فقد بدأ الصراع يتحول من الحرب والقتال إلى صراع النظم والنماذج الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية. وبمعنى آخر، فالصراع قد تحول من ميادين القتال إلى بيوت الناس، ومدارسهم، وعقولهم.

ولا نتجاوز إذا قلنا: إنه لا عاصم لنا اليوم من الانقياد إلى أحد أطراف الصراع والسير ذيلا له، إلا بالتمسك بالمنهج الإسلامي الذي كرم الإنسان، وحفظ له شخصيته

---

(١) محمد حسنين هيكل: حوار مع أينشتين، أخبار اليوم، عدد ٢٢٠٤، في١٤/١/١٩٨٧.

المستقلة حين قال ﷺ : **«لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا»**.

إن الولاء للمواطن وللوطنية الضيقة وليس «للإنسان» في كل مكان، هو الذي يعرض «السفينة العالمية» -إذا جاز هذا التشبيه- للخطر. فبعد ثورة الاتصالات وما ترتب عليها من تفجر معرفي، أصبحت الكرة الأرضية كسفينة واحدة تتعرض لمخاطر جسيمة في عرض البحر. فيها من يشكو من التخمة، وفيها من يشكو من الجوع إلى حد الهلاك.

فيها من يعانون وفرة الإنتاج! فماذا يصنعون وكيف يختزنون الفائض الهائل من الحبوب واللحوم والزبد والجبن والخضر؟! وفيها المحاصرون الذين يموتون جوعا، ويرجون فتوى تجيز لهم أكل الميتة ولحوم البشر!

فيها الأغنياء الدائنون الذين يفرضون شروطهم، ويشرعون سياطهم، وفيها الفقراء المدينون الذين يخضعون لكل عمليات الابتزاز والاستغلال والظلم. فيها من يصنع سلاح الدمار ويبيعه ليزداد ثراء، وفيها من يشترى هذا السلاح ليقاتل به حتى الموت!

وهكذا. . . تحدق الأخطار «بالسفينة العالمية» من كل جانب، بسبب الأنانية، والشره، والظلم، والطائفية، والعنصرية، والاستغلال. . . بسبب الحضور القوي «للمواطن» والغياب المستمر «للإنسان».

إن الإسلام هو المنهج العالمي الوحيد الذي يستطيع أن يحكم نظام الكون. وهو وحده بين كل مناهج الأرض، الذي لا يفرق بين البشر على أساس طبقي أو عنصري أو طائفي، وإنما يتوجه إلى أرواحهم وقلوبهم وضمائرهم مباشرة، حيث يكمن «الإنسان»، الجوهر الفذ، الذي تتكون منه الإنسانية. وهو بذلك الملجأ الوحيد الباقي لإنقاذ البشرية من الهول الرهيب المحدق بها.

بناء على ما سبق، فإننا- فيما أرى- لا نحتاج إلى تربية «المواطن الصالح». «فالمواطن الصالح» عادل، مجد، أمين، متواضع، قانع. . . في موطنه، لكنه عادة ما يتحول إلى ظالم، مستبد، غاضب، شره. . . في غير موطنه. وقد رأينا صور ذلك، وما زلنا نراها كل يوم، في فلسطين وفي أفريقيا وفي بلاد القوقاز، وفي كل موقع من مواقع الاستعمار القديمة منها والحديثة.

وخلاصة القول:إن المدرسة الانسانية في التربية قديمة قدم الإسلام فبينما كل مناهج الأرض تلتقي- كما يقول الاستاذ محمد قطب- على أن هدف التربية هو إعداد «المواطن الصالح»، نجد أن الإسلام يسعى لتحقيق هدف أشمل وأعمق وهو إعداد «الإنسان الصالح»، الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل، الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان»[1].

والإنسان الذي يهدف الإسلام إلى تربيته هو الإنسان الذي يستمد منهج حياته وشعوره وسلوكه من منهج الله، وهو بالجملة الإنسان الذي يفي بشروط الخلافة التي فضله بها خالقه على كثير ممن خلق، فينشط في عمارة الأرض وفق منهج الله، مستغلا كل الطاقات وقوى الإدراك الممنوحة له.

## رابعا: الثبات

الخاصية الرابعة من خواص منهج التربية في الإسلام هي الثبات ويسمي الأستاذ سيد قطب هذه الخاصية: «الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت». فبما أن النظام الإسلامي نظام رباني، قائم على التوحيد، وظيفة الإنسان فيه هي التلقي والاستجابة والتكيف والتطبيق في واقع الحياة، وبما أنه ليس نتاج فكر بشري، وأنه هبة من خالق الإنسان للإنسان. . . بما أنه كل ذلك، فهو يتميز بأنه نظام يقوم على «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت»[2].

فهناك «ثبات في «مقومات» النظام الإسلامي الأساسية، «وقيمه» الذاتية. فهذه المقومات والقيم لا تتغير بتغير «ظواهر» الحياة الواقعية، و«أشكالها» العملية. فالتغير في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع العملية يظل محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا النظام. وهذه الخاصية، وهي خاصية الحركة داخل إطار ثابت ومحور ثابت وهو طابع الصنعة الإلهية في الكون كله.

وعلى ذلك يرى الإسلام أن الحياة الإنسانية- كجزء من الكون الكبير- ليست كلها ثابتة، وليست كلها متغيرة. بل فيها جانب ثابت لا ينبغي أن يتغير، فإذا تغير تختل الحياة البشرية ويسودها الاضطراب. وفيها جانب متغير لا ينبغي أن يبقى جامدا على حاله دائما؛ لأنه إذا تجمد وبقى على حاله، تجمدت الحياة وتوقفت عن النمو.

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، جـ١، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص١٣.
(٢) انظر في تفصيل خاصية «الثبات» إلى الأستاذ سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، فصل «الثبات».



ومن الجوانب الثابتة التي تمثل «المحور الثابت» الذي يدور حوله المنهج الإسلامي: كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية: كحقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته، وقدرته، وتدبيره لأمر الخلق. وحقيقة أن الكون كله من خالق الله وإبداعه. وحقيقة العبودية لله، وحقيقة أن الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، شرط لصحة الأعمال وقبولها.

وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام وأن الإسلام معناه إفراد الله بالألوهية وكل خصائصها، والاستسلام لمشيئته، والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته.

وحقيقة أن الإنسان مخلوق مكرم على سائر المخلوقات في الأرض، وأنه مستخلف من الله فيها، مسخر له كل ما فيها، ومن ثم فليس فيها ما يعلو قيمة الإنسان أو يمكن أن تهدر بسببه قيمة الإنسان. وحقيقة أن الناس جميعا من أصل واحد، ومن ثم فهم متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها- فيما بينهم- هي التقوى والعمل الصالح، ولا قيمة- إذن لمال، أو جنس، أو حال، أو طبقة أو غير ذلك. وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي عبادة الله، وأن وظيفته هي القيام بحق استخلاف الله له فيها، أي عمارتها وترقيتها وفق منهج الله. وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء.

أما الجوانب المتغيرة فهي الأوضاع والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وكل ما يشابه ذلك. فهذه الأوضاع تتغير على الدوام بحكم فاعلية الإنسان في الأرض واستخلاف الله له فيها، وبحكم تفاعل عقله الدائم مع الكون المادي وما ينتج عن ذلك من تغير في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية.

لكن تبقى القيمة الثابتة للإنسان وهي أنه خليفة الله في الأرض لعمارتها وترقيتها وفق المنهج المرسوم. فهو قد يزرع الأرض بالفأس والمحراث؛ لأن الضرورات وأوضاع الحياة تتطلب ذلك، وبذلك يفي بشروط الخلافة. وتتطور الأوضاع، فيرى أن شروط الخلافة تتطلب استخدام الميكنة الزراعية، وتتطور الأوضاع فيرى أن من الضروري تفجير الذرة وإرسال الأقمار الصناعية لكشف طبيعة الغلاف الجوي للأرض... وهكذا تتغير صور الخلافة في الأرض، ولكن يبقى مفهومها الثابت على كل حال، وهو ممارسة الإنسان لحقه في عمارة الأرض وفق منهج الله، وأن لا يعلو شيء في هذه الأرض على الإنسان، وأن لا تهدر قيمته من أجل تفجير الذرة أو صنع الأقمار الصناعية أو زيادة الإنتاج؛ لأن الإنسان هو سيد كل شيء على الأرض، فلو أهدرت قيمته فلن ينتج شيئا

ذا قيمة على الإطلاق: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ. .﴿٧١﴾ [المؤمنون].

وهكذا يرى الإسلام «أن هذا التغير لا ينبغي أن يكون منفلتا من كل قيد وإنما تحكمه- في حركته- القيم الثابتة أو الجوانب الثابتة في حياة الإنسان، فتضبط منطلقه في الأرض دون أن توقف حركته أو تعوقها، وتمنع عن حياته الخلل والاضطراب. وأن الشريعة الربانية قد روعي فيها- من لدن منزلها سبحانه- أن تستجيب للجانبين معا على نحو معجز. ففي الجوانب الثابتة تعطي الشريعة تفصيلات ثابتة غير قابلة للتغير. وفي الجوانب المتغيرة تعطي أصولا عامة ثابتة، وتترك للعقل البشري المؤمن أن يجتهد بما يراه محققا للمصلحة- في المصالح المرسلة التي لم ينزل فيها نص- بحيث لا يتخطى تلك الأصول الثابتة ولا يصطدم معها. وهذا هو الذي يعطي تلك الشريعة مرونتها وصلاحيتها لجميع الأجيال إلى قيام الساعة»[1].

والأمر الآن على خلاف ذلك في أوربا بصفة عامة، وفي أمريكا بصفة خاصة. فإن ما أصاب الفكر الأمريكي والأوربي خاصة بعد ظهور نظرية دارون في النشوء والارتقاء، وقد وضع الحياة الأمريكية والأوربية كلها- بجانبيها الثابت والمتغير معا- على خط التغير، الذي يدعونه التطور. وقد أدى هذا «إلى انفلات البشرية كلها إلى الفوضى الهائلة التي تعيشها اليوم بدعوى أن التطور العلمي والمادي قمين بأن يغير الحياة كلها من ألفها إلى يائها، ولا يترك فيها شيئا ثابتا على الإطلاق!. «. . . وقد نشأ عن هذا ما يسمى في أوربا وأمريكا الآن «صراع الأجيال»[2].

«فما دامت الحياة كلها موضوعة على خط التغير، فأنى للأجيال أن تلتقي على أمر واحد من أمور الحياة، والزمن «المتطور» قد فصل بين جيل وجيل وإلى غير لقاء؟! فإذا تواجه جيلان- في أي أمر- فهي مواجهة الصراع لا مواجهة الهدنة ولا مواجهة الاتفاق!»[3].

أما المجتمع الإسلامي الذي يطبق منهج الله ويسير وفق شريعته، فإنه لا يعرف ظاهرة «صراع الأجيال»، ولكنه يعرف جيدا ظاهرة «اختلاف الأجيال». وقد أدرك ذلك

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني بيروت، دار الشروق، ١٤٠١هـ ١٩٨١م ص٣٢٠ - ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٣ .

(٣) المرجع السابق.

عمر -رضي الله عنه- ببصيرته النافذة حين قال: «أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم». وكان يرمى من وراء ذلك إلى ضرورة تنويع وتغيير بعض طرق التربية وأساليبها بما يتفق مع الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتغيرة. لكن ذلك كله لابد وأن يكون مضبوطا بالقيم الثابتة لكي لا يجرفهم التغير فيحيدوا عن سواء السبيل.

إن صور الحياة- كما يراها الإسلام- تتغير، ولابد أن تتغير وتتطور، ولكن ينبغي أن تظل- في تغيرها وتطورها- محكومة بمنهج الله المنزل أصلا لكي يواكب نمو الحياة الدائم، ويضبط منطلقه فلا يضل عن الطريق.

إن راكب الجمل، قد تتغير حياته فيركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ، لكنه يظل في كل الأحوال موصول القلب بالله، شاعرا بفضله عليه في وصوله إلى هذه الدرجة من التقدم. ويقول وهو يصعد الصاروخ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف].

وقد تتغير حياة الراعي أو الزارع البدائي إلى وضع يستخدم فيه أحدث وسائل التقنية في الرعي والزراعة، وقد ينشئ صناعة حديثة معتمدا على إنتاجه. ولكنه لا يغش ولا يسرق، ولا يحتكر لأن الله حرم هذا عليه.

وقد تتعلم الفتاة، وتصل إلى أعلى مراتب التعليم، وتنال أسمى الدرجات العلمية، لكنها لا ترفض قوامة الرجل؛ لأن القوامة لم تعط للرجل بحكم الشهادات التي يحصل عليها دون المرأة، «وإنما سببها فروق فطرية أودعها الله في فطرة كل من الرجل والمرأة لتستقيم الحياة داخل الأسرة، وداخل المجتمع على وجهها الصحيح»[١].

وهكذا، تتغير صور الحياة في الأرض، ولكن يظل البناء الرئيسي للفرد والأسرة والمجتمع لا يتغير وهو تطبيق منهج الله في واقع الأرض وفي كل صورة من صور الحياة.

## خامسا: الشمول

والشمول هو الخاصية الخامسة من خصائص المنهج الإسلامي العام، كذلك منهج التربية وهي خاصية نابعة من الخاصية الأولى لهذا المنهج، وهي أنه رباني من صنع الله وليس من صنع البشر. فالشمول هو طابع الصنعة الإلهية[٢].

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٣٢٦ .

(٢) انظر تفصيل خاصية الشمول في سيد قطب، المرجع السابق، فصل «الشمول».

وللشمـول صور ثلاث: **أولى** هذه الصور وأكـبرها رد الوجود كـله... بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيـره وتصريفه وتنسـيقه... إلى إرادة الذات الإلهـية السرمـدية الأزلية الأبدية المطلقة... فـالله -سبـحانه- هو الذي أنشأ هذا الكون ابتـداء، وهو الذي يحدث فـيه بمشيئته كل تغير جديد وكل انبثاق وليـد... وهذه هي حقيقة التوحيد الكبرى التي هي المقوم الأول للتصور الإسلامي[1].

وهكذا تمثل الشمول هنا في رد كل شيء في هذا الكون إلى الله، وشمول إرادته وتدبيره وهيـمنته وسلطانه لكل شيء. ويرسم القرآن الكريم هذه الخـاصية في كثـير من الآيات، هذه بعضها:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر].

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف].

**والصورة الثـانية** من صور خـاصية الشمـول في المنهج الإسلامي، هي أن النظام الإسلامي يتناول الحقائق الكلية كلها: حقيقة الألوهيـة، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقـيقة العـبودية، وحقيـقة الإنسانيـة- ويربط بين مجمـوع تلك الحقائق، من جـميع جـوانبهـا، في تصور واحـد منطقي فطري شـامل، يتعـامل مع بديهة الإنسـان وفكره ووجدانه، ومع مجموع الكينونة البشرية في كلٍّ متكامل.

«وهكذا تتكون من مجموعـة الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شـمول وسعة ودقة وتفصـيل، صورة كاملة شامـلة وتفسير جامـع مفصل، لا يحتاج إلـى إضافة من مصـدر آخر، بل لا يقبل إضافـة من مصدر آخر؛ لأنه أوسع وأشـمل، وأدق وأعمق، وأكثر تناسقا وتكاملا من كل مصدر آخر...»[2].

(١) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) سيد قطب: المرجع السابق، ص ٩٧.



ويقول الأستاذ سيد قطب: «ولقد وقع الفساد في التصور الإسلامي، ووقع التعقيد والتخليط حينما شاء جماعة ممن عرفوا في التاريخ الإسلامي باسم «فلاسفة الإسلام» أن يستعيروا بعض التصورات الفلسفية الإغريقية، وبعض المصطلحات وبخاصة من أرسطو وأفلاطون وبعض اللاهوتيين المسيحيين ويدخلوها في جسم «التصور الإسلامي»!.

«إن هذا التصور من الشمول والسعة، ومن العمق والدقة، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه، ولو كان هذا العنصر «اصطلاحا» تعبيريا من الاصطلاحات التي تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية. فكل اصطلاح له تاريخ معين، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، ولا يمكن تجريده من هذه الملابسات، والزج به في مجال جديد، منقطع عن تاريخه... وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقة في طبيعة اشتقاقها اللغوي، وفي ملابساتها التاريخية والموضوعية، مع طبيعته وإيحاءاته... وهذه ظاهرة دقيقة، تحتاج إلى حس لطيف يدرك مقتضيات هذا التصور في الشعور، ومقتضياته كذلك في التعبير»(١).

ولا شك أن القرآن مليء بالنصوص المتنوعة التي تكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامي المستقل المستمد من المصدر الرباني المضبوط والمستغني عن كل مصدر جزئي أو ظني للمعرفة.

**والصورة الثالثة** من صور الشمول هي أن المنهج الإسلامي يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها. ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، وتتوجه إليها بكل شيء ترجوها وتخشاها، كما يردها إلى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمتها وموازينها، وشرائعها وقوانينها؛ وذلك لأن تلك الجهة، أو ذلك المصدر هو خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومدبر كل شيء(٢).

وهكذا تتجه الكينونة الإنسانية في كل فكرها وشعورها وسلوكها إلى جهة واحدة مهما اختلفت السبل والطرق.

«والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو تصبح في خير حالاتها، لأنها تكون حينئذ في حالة «الوحدة» التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٧ .

- فالوحدة هى حقيقة الخالق سبحانه.

- والوحدة هى حقيقة هذا الكون، على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال.

- والوحدة هى حقيقة الحياة، على تنوع الأجناس والأنواع.

- والوحدة هى حقيقة الإنسان، على تنوع الأفراد والاستعدادات.

- والوحدة هى غاية الوجود الإنساني- وهي العبادة- على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود (فإنه يصل حتما إلى الوحدة)»[1].

## الشمول ومفهوم العبادة في الإسلام:

إن من أبرز سمات الإسلام أنه منهج عبادة لكن العبادة في هذا المنهج ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة وحج... إلى آخره، وإنما يتميز مفهوم العبادة في الإسلام بأنه أعمق من هذا بكثير[2]. إن العبادة هي العبودية لله وحده والتلقي من الله وحده في أمور الدنيا والآخرة. ثم هي الصلة الدائمة بالله في كل الأحوال.

فالعبادة في الإسلام تستغرق حياة الإنسان بكاملها، وهي تتمثل في أمرين رئيسين:

**الأمر الأول،** هو الاعتراف بوجود إله واحد يستحق أن يحمد على كل شيء، **والأمر الثاني،** هو الأخذ بالسنن الإلهية التي يسير الكون بموجبها. فالله -سبحانه وتعالى- جعل الإنسان خليفته في هذه الأرض. والمؤمن مطالب بأن يأخذ بالأسباب التي تعينه على عمارة الأرض واستغلال ما أودع الله فيها من ثروات وطاقات[3] وفق منهج الله.

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة كلها. إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك العبادة. وليست مناسك التعبد إلا مجرد مفاتيح للعبادة، أو «محطات»[4] يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد. وليست هذه المفاتيح أو

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨ .

(٢) انظر، أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية للتوزيع والنشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٣٩ - ٤٢ .

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، ص٥٨٩ - ٥٩١ .

(٤) محمد قطب: مرجع سابق، ص ٣٤ .



المحطات هي كل المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] وإلا فما قيمة لحظات صغيرة عابرة في صفحة النفس وفي صفحة الكون لا تكاد تترك أثرا.

«إن الإسلام يوسع مفهوم العبادة حتى تشمل كل الحياة. كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة. وكل عمل يتركه الإنسان تقربا لله واحتسابا فهو عبادة. وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة. وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فهو عبادة. وكل ذكر لله في الليل والنهار فهو عبادة، ومن ثم تشمل العبادة الحياة. ويصبح الإنسان عابدا لله حيثما توجه إلى الله(١)».

ويرجع مفهوم العبادة هذا في الإسلام إلى الصورة الثالثة من خاصية الشمول. ذلك أن من مظاهر التجمع في الكينونة الإنسانية- كما يقول الأستاذ سيد قطب- «أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني.. العبادة.. العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شئون الخلافة.»

«وهذا التجمع النفسي والحركي هو ميزة الإسلام الكبرى بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله. ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني. ففي الإسلام- وحده- يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين، في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض، وفي تدبير أمر الرزق. ولا يتطلب منه هذا إلا أمرا واحدا: أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي الحركة العملية على سواء، وأن يتوجه إلى تلك الجهة الواحدة بكل حركة وكل خالجة، وكل عمل وكل نية، وكل نشاط وكل اتجاه. مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التي تشمل كل طيبات الحياة. فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها، وتؤدي دورها... ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة، يحقق الإنسان غاية وجوده، في راحة ويسر، وفي طمأنينة وسلام، وفي حرية كاملة منشؤها العبودية لله وحده.

«وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملا متكاملا، منهجا يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة- لا بدون تعارض بينهما- بل في ترابط

(١) محمد قطب: المرجع السابق، ص٦٧ .



وتداخل يعز فصله؛ لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين؛ ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين.

«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه». ومع أنه كان المقصود به- في أول الأمر- مجرد التقسيم «الفني»، الذي هو طابع التأليف العلمي إلا أنه- مع الأسف- أنشأ فيما بعد آثارا سيئة في التصور، تبعته- بعد فترة- آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات». بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله «فقه المعاملات»! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه. فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي.

«ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة. أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيرا»(١).

إن منهج الإسلام في التربية، ونظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، ونظام الأسرة، وسائر التشريعات التى يحتويها هذا المنهج لا تهدف إلا إلى غاية واحدة، هي تحقيق معنى «العبادةَ» وفق هذا المنهج.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» من صلاة وزكاة، وصوم، وحج.. إلى آخره، وفق أحكام الإسلام، بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر، فرنسيا كان أو أمريكيا، أو روسيا «وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين- على هذا النحو- فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر، يخرج من هذا الدين..»(٢).

وبهذا فإن العبادة في الإسلام ليست مجرد إقامة الشعائر، إنما العبادة هي الحياة. فالحياة كلها خاضعة لشريعة الله. والإنسان في الحياة عابد طالما أنه متجه بكل نشاطه إلى الله، مهما كان نوع العمل أو النشاط الخير. قال رسول الله ﷺ: **«الساعي على الأرملة**

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٢) المرجع السابق، ص١١٠ .

**والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**»[1] وعن أنس -رضى الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقى الشمس بيده، قال فسقط الصوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب. فقال الرسول ﷺ : «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله**»[2].

إن العبادة بهذا المعنى هي ما فهمه عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- حين رأى رجلا يظهر النسك والتماوت، فخفقه بالدِّرَّة، وقال له :«لا تُمتْ علينا ديننا أماتك الله»[3].

وبهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم وربه. وتصبح هي التربية الدائمة للإنسان: جسمه وعقله ووجدانه.

**الشمول والتكامل في منهج التربية في التصور الإسلامي:**

إذا كان الشمول والتكامل من خصائص الصنعة الإلهية، فهما إذن من خصائص منهج التربية الإسلامية، فالمنهج هو .الجانب التطبيقي للأصول التربوية. وبذلك فهو ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة لتحقيق غاية، وهي تنمية شخصية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه تنمية شاملة. وهذا يقتضي أن يكون المنهج المعد لهذا الغرض شاملا متكاملا في خبراته وجميع أوجه مناشطه. ولا يعني ما سبق أن الجوانب المعرفية والوجدانية والحركية في الخبرة الإنسانية منفصلة عن بعضها، فحقيقة الأمر أن كل فعل حلال يقوم به الإنسان في الأرض لا يخلو من الجوانب الثلاثة السابقة: فيه جانب الجسم، وجانب العقل، وجانب الوجدان. فالتحدث باللغة مثلا- وهو نشاط حركي- يستخدم فيه الإنسان عقله، وينفعل به أيضا: والرياضة البدنية يبدأها الإنسان المسلم باسم الله، وينفعل بها، ويستخدم في أدائه لها عقله وجسمه، وكذلك القراءة والكتابة وإجراء التجارب. . . إلى آخره. فكل عمل تتوافر فيه العناصر الثلاثة، لكن مع الاختلاف في النسبة.

وتكامل جوانب الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية يتفق مع فكرة الإسلام عن الكون والوجود والإنسان. فالوجود كله صادر عن الإرادة المباشرة لله. . . ﴿**إِنَّمَا**

---

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه الستة.

(٣) انظر سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٣ .

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]. وهذا الوجود الصادر عن الإرادة المطلقة، وحدة متكاملة، كل جزء فيه متناسق ومتكامل مع بقية الأجزاء.. ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر]... ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج]. ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].. ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك].

وهكذا، فتكامل جوانب الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية يتماشى مع تصور الإسلام لوحدة الوجود وتكامل أجزائه، لكونه صادرا عن الإرادة المباشرة للواحد المطلق وهو الله.

وتكامل جوانب الشخصية الإنسانية في مفهوم التربية الإسلامية يتفق مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد، ووحدة الإنسانية جمعاء. فالإنسان الفرد وحدة متكاملة، وقواه المختلفة موحدة الاتجاه. فهو ليس جسما مستقلا بذاته عن الروح والعقل. وليس عقلا منفصلا لا علاقة له بالجسم والروح، وليس روحا هائمة بلا رابط من عقل وجسم. بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء.

ويتفق هذا أيضا- كما يقول الأستاذ سيد قطب- مع فكرة الإسلام عن وحدة الإنسانية وتكاملها، «فلأن الوجود الموحد صادر عن إرادة واحدة، ولأن الناس جزء من الكون متعاون متناسق مع سائر أجزائه، ولأن أفراد الإنسان خلايا متعاونة متناسقة فيما بينها؛ لذلك كان تصور الإسلام أن الإنسانية وحدة تفترق أجزاؤها لتجتمع، وتختلف لتتسق، وتذهب شتى المذاهب لتتعاون في النهاية بعضها مع بعض، كي تصبح صالحة للتعاون مع الوجود الموحد: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

إذن، فهناك حكمة من وراء هذا الاختلاف والتجزؤ وهو التعاون والتكامل وإلا فلو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة... ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]... ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ



**وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾** [النحل]. وهكذا خلق الله الناس أمما وشعوبا مختلفة لا ليتصارعوا ويختلفوا، ولكن ليتعاونوا ويتكاملوا.

ولكن الله لم يأخذ الناس قسرا إلى هذه الغاية، ولكنه جعل لكل منهم طريقا ومنهجا، وخلق لكل منهم استعدادا، ولكل منهم مشربا، لقد خلق الله الناس باستعدادات متفاوتة، نسخا غير مكررة ولا معادة، ثم أنزل لهم نواميس الهدى والضلال، تمضي بها مشيئته في الناس، وتركهم يستبقون، وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون وهم إليه راجعون.

إذن، فالأصل في الوجود الوحدة والتعاون والتناسق في حدود منهج الله وشريعته. ومن شذ عن هذه السنة من المؤمنين فليرد إليها بكل وسيلة؛ لأن سنة الله في الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد والجماعات: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾** [الحجرات]

وهكذا تتفق وحدة الشخصية الإنسانية، ووحدة تكامل الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية مع الإسلام، وهو أنه دين التوحيد، ودين الوحدة والتكامل بين القوى الكونية جميعا.

## سادسا: التوازن

«والتوازن» هو الخاصية السادسة في النظام الإسلامي ومنهج التربية في الإسلام. وخاصية «التوازن» مترابطة مع خاصية «الشمول». فالنظام الإسلامي هو نظام شامل، وهو شمول متوازن.

### صور التوازن:

وللتوازن عدة صور أهمها ما يلي:

١ - **هناك التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وينتهي عمله فيه عند التسليم، وبين ما يتلقاه الإنسان، فيدركه، ويبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر في مقتضياته العملية،** وتطبيقها في حياته الواقعية. إن الإنسان لا يستطيع إدراك كل شيء في الوجود، فإدراكه لا يتسع لكل شيء. فأودع الله في فطرته الارتياح للمجهول والمعلوم، والتوازن يبين هذا وذاك في كيانه.



ويقول الأستاذ سيد قطب: «إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول؛ ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول، المستتر وراء الحجب المسدلة... كما أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة! فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي. والفكر الإنساني لا بد أن يتلقى شيئا مفهوما له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه... والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة، وهي تجد في العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق»(١).

فإذا كان الإنسان لا يدرك ماهية الذات الإلهية، وعلاقة إرادة الله بالخلق، وحقيقة الروح وغير ذلك من الحقائق التي لا سبيل إلى إحاطته بها- فهناك صفات الذات الإلهية من وجود، ووحدانية، وقدرة، وإرادة، وخلق، وتدبير... وكلها صفات يستطيع الفكر الإنساني إدراكها، وإدراك ضرورتها، وإدراك نتائجها في الوجود. وهناك «الكون»: حقيقته، ووجوده، وعلاقة الإنسان به، ومصدره، وعبوديته لله. وهناك «الحياة» بشتى أجناسها وأنواعها، ومصدرها، وعلاقتها بالله، وعلاقتها بالإنسان. وهناك «الإنسان»: حقيقته، ومصدره، وخصائصه، وغاية وجوده، ومنهج حياته... فكل هذه ترد في منطق مفهوم مريح للعقل والقلب، وكلها مدعمة بالبراهين والأدلة التي تجعل الإنسان يقبلها ويسلم بها في اطمئنان: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)** ﴾ [الطور]، ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ [يس].

٢- **الصورة الثانية من صور التوازن،** هي التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الكونية. فالمشيئة الإلهية طليقة، تفعل كل شيء وأي شيء متى أرادت، وهي ليست ملتزمة بقاعدة أو قانون، فهي حين تريد تفعل ما تريد:
﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)** ﴾ [النحل].
﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)** ﴾ [آل عمران] ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)** ﴾ [آل عمران].

---

(١) سيد قطب: خصائص التطور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص ١١٤ - ١١٥ .

«وفي الوقت نفسه شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبدى للناس عادة في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يراقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة الله- مع هذا- طليقة، تبدع ما تشاء؛ وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة، والنواميس المطردة... ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها... والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعة»[1].

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ..(٤٠) ﴾ [يس].

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم].

٣- **وهناك صورة التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة،** وهي القضية المشهورة باسم قضية «القضاء والقدر» أو الجبر والاختيار.

«والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة... ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها... وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية- كما سنفصل ذلك في خاصية «الإيجابية»- ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها. وهو دور ضخم، يعطي الإنسان مركزا ممتازا في نظام الكون كله، ويمنحه مجالا هائلا للعمل والفاعلية والتأثير ولكن في توازن مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية، من وراء الأسباب الظاهرة وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء، وإرادته وعمله، وحركته ونشاطه، داخل في نطاق المشيئة الطليقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه»[2].

والقرآن الكريم ينص على وجود هذا التوازن؛ فنقرأ فيه:

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.
(٢) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٢٠ - ١٢١.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد].

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة]، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء]

ونقرأ في الجانب الآخر:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال]

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [النساء].

وبالرغم من هذا، فإن وجود الإنسان، وإرادته وعمله وحركه نشاطه، داخل في نطاق المشيئة المطلقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه؛ ولذلك نقرأ في القرآن:

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر].

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان].

لكن شمول مشيئة الله وإرادته، «من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث»(1).

٤- **والصورة الرابعة من صور التوازن هي التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم في الكون.** وقد سلم الإسلام من التطرف الذي وقعت فيه المذاهب والفلسفات ما بين تمجيد الإنسان إلى حد التأليه مرة، وتحقيره إلى حد الزراية والمهانة مرة أخرى. فالإسلام يفصل فصلا قاطعا بين حقيقة الألوهية ومقامها وخصائصها، وبين حقيقة العبودية ومقامها وخصائصها، بحيث لا يكون ضباب ولا تحدث شبهة.

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.

فالله ليس كمثله شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو الباقي وحده، وهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو العالم وحده.

والإنسان ما هو إلا عبدٌ لله، ككل مخلوق في هذا الوجود، لا يشارك الله في حقيقة أو ماهية أو خاصية أو صفة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

«لكن الإنسان- بعبوديته هذه لله- كريم على الله. فيه نفخة من روح الله. مكرم في الكون، حتى يأمر الله الملائكة -وهم عباده المقربون- أن يسجدوا له سجود التكريم[1] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر].

والإنسان مستخلف من قبل الله في هذه الأرض، مسيطر على كل ما فيها، مسخر له الأرض وما فيها ومحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ.. ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

ومحسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٣١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

وهكذا، فلا تعارض- في المنهج الإسلامي- بين المنزلة الرفيعة للإنسان وبين عبوديته لله، بل إن رفعة الإنسان وتكريمه وفاعليته مستمدة جميعها من كونه عابدا لله وحده.

٥- **والصورة الخامسة من صور التوازن هي، التوازن بين مصادر المعرفة، بين التلقي من الوحي والنص، والتلقي من الكون والحياة.** فلم يتطرف الإسلام كما تطرفت العقائد والمذاهب والفلسفات الأخرى، لم يفعل كما حدث في أوربا من اتخاذ «الوحي» وحده مصدرا للمعرفة، ثم الانصراف عن الوحي إلى «العقل» واتخاذه وحده مصدرا للمعرفة، ثم الانصراف عن العقل واتخاذ «الطبيعة» وحدها مصدرا للمعرفة. لم يتعسف الإسلام ولم يتطرف إلى درجة «تأليه» المصدر الذي يتلقى عنه مع إهمال المصادر الأخرى إهمالا تاما، بل أخذ الإسلام من جميع المصادر، ووازن بينها، وأعطى كلا منها ما يستحق من الدرجة والاعتبار.

فالإسلام يرد كل شيء ابتداء إلى إرادة الله وتدبيره، ويرد الخلق كله- بما فيه الكون وما فيه، والإنسان وجميع قدراته إلى إرادة الله الواحد، ومن ثم فالإسلام لا يجد تناقضا في أن يكون الكون أو (الطبيعة)، وأن يكون للحياة وأوضاعها واقتصادها وسياستها دور في إمداد «الإنسان» بالمعرفة عن طريق «العقل» وسائر المدارك والطاقات الكامنة فيه، باعتبار أن هذا كله من صنع الله... فهي من عنده، كما أن الوحي من عنده أيضا.

فالكون -إذن- هو كتاب الله المفتوح الذي يزود الإنسان بالمعرفة كما يزوده بها الوحي. ولكن مع فارق أساسي: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون قابلة للخطأ والصواب؛ لأنها من إدراك الإنسان وعمله، أما ما يتلقاه الإنسان من الوحي فهو اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

«لقد خلق الله هذا الكون متوافقا في فطرته وتكوينه مع هذا الإنسان. ومع سائر الأحياء. فكلهم من خلق الله، وكلهم يتلقى من الله وكلهم يتمتع بهداه»(١).

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٣٨.

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى].

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه].

«وفي التوافق والتناسق والتعاون بين خلق الله جميعا- وفيهم الإنسان- ترد نصوص قرآنية ذات إيحاء قوى بالوحدة والتضامن والتناسق في طبيعة التكوين وفي الاتجاه العام»(١).

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النبأ].

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات].

والخلاصة، أنه بناء على تأكيد الإسلام على أن هناك اتفاقا وتناسقا بين الكون والإنسان، وبناء على أن الكون والإنسان وكل الحياة والأحياء من خلق الله وحده، فإن مصادر معرفة الإنسان هي:

١- الوحي، أي التلقي عن الله سبحانه ابتداء.

٢- الكون وكل الحياة والأحياء.

٣- الإنسان ذاته، فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة عن طريق العقل، والنصوص القرآنية كثيرة وتوجهنا إلى هذه المصادر فهي توجهنا إلى المصدر الأول الأصيل والصادق:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء].

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٣٩ .



﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣ ﴾ [ يوسف ].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ ﴾ [ الجاثية ]

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠ ﴾ [ البقرة ]

والقرآن يوجهنا إلى التلقي والمعرفة من كتاب الكون المفتوح، ومن كتاب النفس المكنون:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [ الذاريات ]

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۝٥٣ ﴾ [ فصلت ]

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤ ﴾ [ البقرة ].

ويوجهنا القرآن إلى استخدام العقل للمعرفة والعلم، إما بتدبر آيات الله في الكون، وإما بتدبر حقائق الوحي وحقائق الحياة وسننها:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ [ النساء ]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦ ﴾ [ الحج ]

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

وهكذا تتوازن مصادر المعرفة في الإسلام، وتناسق كل بحسب وزنه، دون تطرف أو شطط، أو تأليه ما ليس منها بإلـه(١).

## سابعا: الإيجابيـة

الخاصية السابعة في النظام أو المنهج الإسـلامي العام، هي الإيجابية، وللإيجابية صورتان- كمـا يقول الأستاذ سيد قطب-: الإيجـابية الفاعلة في علاقة الله- سـبحانه- بالكون والحياة والإنسـان، والإيجابية الفاعلة من ناحية الإنسـان ذاته، في حدود مجاله الإنساني(٢).

**الصـورة الأولى:** في التـصـور الإسـلامي ليس هناك شـك في إيجـابيـة الله - سبحـانه- في عـلاقته بخلائقه كلهـا، ومنها الإنسان. فالإنسان «في التـصور الإسلامي يتعامل مع إله موجود، خالق، مدبر، مهـيمن، قادر، فعال لما يريد... كامل الإيجابية والفاعـلية... إليه يـرجع الأمر كله. وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابـتداء، وكل انبثاقة فيه بعد ذلك، وكل حركة وكل تغير وكل تطور. ولا يتم في هذا الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيـره. وهو- سبحانه- مباشـر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل من عباده في كل حال من أحواله ولكل حي ولكل شيء وفي هذا الوجود كذلك(٣).

ويحفل القرآن الكريم بتقـرير هذه الحقيقة الأساسية وهي إيجـابية الله -سبحانه- في علاقته بالكون والحياة والأحياء، بما فيهم الإنسان:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر].

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق، ص ١٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤٩.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد]

وهكذا، فالإنسان المسلم يؤمن ويدرك أن الله خالقه ورازقه، ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة. كما يؤمن ويدرك ويحس أنه يتعامل مع إله واحد، له إرادة واحدة، ومنهج واحد، وبذلك فهو يعلم بدقة ما يريد منه الله، وما يكرهه منه.

فإله المسلم ليس كإله أرسطو سلبيا لا عمل له ولا إرادة، من كماله ألا يشعر بغير ذاته، ولا يفكر إلا في ذاته، وليس كإله أفلاطون، لا يشعر حتى بذاته لأنه يتنزه عن ذلك الشعور وليس كإله الفرس: «هرمز» الخاص بعالم النور والخير، و«أهرمان» الخاص بعالم الظلام والشر، اللذان احتدمت المعارك بينهما. وهو ليس إلها خاصا كإله بني إسرائل «يهوذا» الذي رسمته تصوراتهم المنحرفة على أنه غيور ثائر محطم إذا ما عبد شعبه الآلهة الغريبة، وهو راض ومستريح ونادم على ما فعل إذا ما عاد شعبه إليه. وليس كالتصورات الكنسية التي تجعل إرادة الله متلبسة في إرادة المسيح... إلى آخره.

وإله المسلم ليس مثل «الطبيعة» الخرساء الصماء التي لا تطالب عابديها بعقيدة ولا بشعيرة، ولا بالسير حسب منهج ولا نظام في الحياة، ولا أخلاق، ولا آداب، ولا ضمير ولا سلوك، ولا تحس بوجودهم أصلا. فالمسلم يعرف أن إلهه «الله» الحي الذي لا يموت، الصمد المقصود في الحاجات، الرقيب الذي لا يغفل، العادل الذي لا يظلم، الرحيم الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء.

ولقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة في تصور المسلمين وتأكيدها. وتقرير «وجود الله -سبحانه- في حياتهم وتوسيعه وتعميقه... وكانت حياة الجماعة

المسلمة الأولى في ظلال الوحي المتلاحق، المتعلق بواقع حياتهم، وبما يهجس كذلك في ضمائرهم، مثلا حيا، وترجمة عملية، لهذه الحقيقة... فقد رأينا يد الله -سبحانه- تتدخل جهرة، وعينه يلحظ، وسمعه يرعى، أحوالهم اليومية، وأعمالهم الشخصية، وحياتهم الفردية والجماعية»(١).

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية في شأن أسرة صغيرة، لتقرر الحكم في قضية بين امرأة وزوجها، حين لم يجد الرسول ﷺ فيها رأيا:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة].

كما شهدناها في شأن الرجل الأعمى الفقير، ابن أم مكتوم مع رسول الله ﷺ في هذه الصورة الرائعة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس].

وشهدنا هذا التدخل- كما يقول الأستاذ سيد قطب(٢) -في الأحداث الكبرى: كالهجرة، وبدر، وأحد. ورأينا هذا التدخل المباشر في شأن موسى -عليه السلام- مع فرعون، وفي شأن نوح -عليه السلام- مع قومه، وفي شأن إبراهيم -عليه السلام- مع قومه، وفي شأن الكون كله...

ولقد كان من أثر استقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى، ومعايشتهم لها ليل نهار تلك العظمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والخلقية التي ليس لها نظير في التاريخ الإنساني كله من قبل ومن بعد.

**والصورة الثانية** من صور الإيجابية في المنهج الإسلامي العام... «هي إيجابية الإنسان في الكون، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص.

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٢) تفاصيل ذلك موجود فى فصل «الإيجابية» المرجع السابق.



«إن هذا التصور ما يكاد يستقر في الضمير حتى يتحرك ليحقق مدلوله في صورة عملية، ليترجم ذاته في حالة واقعية. والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة، فاعلة من ذات نفسه، وفي الكون من حوله.

«إن التصور الإسلامي ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير، قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية! أو تصوفية روحانية! إنما هو «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه، وفق هذا التصميم. وطالما هذا الواقع لم يوجد، فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته، إلا باعتباره حافزا لا يهدأ لتحقيق ذاته.

«هذا ما يثيره التصور الإسلامي في شعور المسلم، ومن ثم يجد دائما هاتفا ملحًّا في أعماقه، يهيب به إلى تحقيق هذا التصور في دنيا الواقع، ويؤرقه، حتى يهب للعمل، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء. وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.

«وحيثما ذكر الإيمان في القرآن، أو ذكر المؤمنون- ذكر العمل، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان. فليس الأمر مجرد مشاعر. إنما هو مشاعر تُفَرَّغُ في حركة، لإنشاء واقع، «التصميم» الإسلامي للحياة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

«فليس هنالك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان أو تصورات في الذهن، لا ترجمة لها في واقع الحياة. وليس هناك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية، ليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله»[1].

وفي طبيعة المنهج الإسلامي ذاته ما يحفز الإنسان على الحركة الإيجابية لتحقيق هذا المنهج أو التصميم في واقع الحياة. «فالمسلم يعرف -من تصوره الإسلامي- أن الإنسان قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وأنه ليس عاملا سلبيا في نظامها. فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية: لينشئ ويعمر، وليغير ويطور، وليصلح وينمي. وهو مُعان على هذه الخلافة: معان من الله- سبحانه- بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه معاونة له:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل].

وهو معان من الله كذلك بما وهبه من القوى، والاستعدادات الذاتية والقدرات الإدراكية، وهو يكلفه أمر الخلافة:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

«وشعوره بأنه مكلف بالعمل، ومعان عليه، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون... وانتفاء الشعور بالسلبية يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية، غير أن الإسلام

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٥٨.

لا يكتفي بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية. بل يمده بدوافع الحركة الإيجابية كذلك. إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله، عن طريق حركته هو ذاته (١):

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة].

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

### الإيجابية ومنهج التربية في التصور الإسلامي:

إن خاصية الإيجابية في منهج الله العام تقتضي من المتعلم في منهج التربية في الإسلام أن يدفع عن نفسه الشعور بالسلبية، وأن يتزود بدوافع الحركة الإيجابية. كما تقتضي من المتعلم أيضا نشاطا إيجابيا ووعيا بأبعاد الموقف التعليمي، وتفاعلا معه. والأصل هنا أن منهج التربية الإسلامية لا يعتمد في طرائقه وأساليبه على التلقين وحده، بل يهتم- بالدرجة الأولى- بالتعلم عن طريق الأحداث، وعن طريق الممارسة والعمل، وعن طريق الثواب والعقاب، وعن طريق القصة، وضرب المثل، والتجسيم والتصور، والقدوة، وعن طريق استخدام قوى الإدراك الظاهرة والباطنة التي زود الله الإنسان بها، ليستخدمها إلى أقصى طاقاتها: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].. ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

إن مجرد المعرفة النظرية، أو العلم الذي لا يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقع حياته لا قيمة لهما ولا يعتد بهما منهج التربية الإسلامية. إن ذلك العلم خاو من المعنى ولا قيمة له. وتلك المعرفة سطحية ولا قيمة لها أيضا؛ لأنها مجرد معرفة «ذهنية»، لا

(١) انظر سيد قطب: المرجع السابق،ص ١٦٠، ١٦١.



تؤثر في سلوك الإنسان، ولا تغير شيئا في واقع حياته على الأرض. إن تلك المعرفة وذلك العلم- باختصار- لا يعينان الإنسان على أداء وظيفته في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، ولهذا كان الوحي قاطعا في رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقا فآية إيمانكم هي تنفيذ أحكام الله:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء].

## ثامنا: الواقعية

الخاصية الثامنة من خواص النظام أو المنهج الإسلامي- التي يشرحها لنا الأستاذ سيد قطب- هي الواقعية، أي التحقق في عالم الواقع. فالمنهج الإسلامي هنا «يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المؤكد، والأثر الواقعي الإيجابي. لا مع تصورات عقلية مجردة ولا مع «مثاليات» لا مقابل لها في عالم الواقع؛ أو لا وجود لها في عالم الواقع.

«ثم إن «التصميم» الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية... ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية، أو مثالية واقعية؛ لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج، تملك البشرية أن تصعد إليه...»[1].

«إنه يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية، وفاعليتها الواقعية. ويتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدها المحسوسة، المؤثرة أو المتأثرة. ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناس كما هم في عالم الواقع.

فالحقيقة الإلهية التي يتعامل معها هذا المنهج تتمثل في «الله»، المتفرد بالألوهية، وبكل خصائص الألوهية. لكن خصائص الألوهية كلها من عالم الواقع، وذات أثر في عالم الواقع، ويمكن لكل متدبر أن يدرك آثارها الواقعية في كل مظاهر الكون من حوله. فالعقل البشري هنا غير متروك للضرب في التيه، يتصور الحقيقة الإلهية على هواه من خلال قضايا منطقية مجردة، أو «ميتافيزيقا» مثالية لا أثر محسوسا لها.

وإنما يتعامل المنهج الإسلامي مع إله «موجود» يدل خلقه على وجوده، وهو «مريد». «فعال لما يريد»، تدل حركة هذا الكون وما يجري فيه على إرادته وقدرته.

---

(١) سيد قطب، المرجع السابق، ص ١٦.

وباختصار «فإن الحقيقة الإلهية في التصور الإسلامي، حقيقة فاعلة من هذا الوجود، وتُلتمس خصائصها وصفاتها في آثارها الواقعية في هذا الوجود.

وهذا ما يفصله القرآن الكريم، وهو يصف الحقيقة الإلهية للناس؛ وهو يعرفهم بربهم تعريفا يسيرا عميقا واضحا؛ وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس، من منطق فكري واقعي جميل: [1].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم].

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى].

بمثل هذه الواقعية يواجه المنهج الإسلامي الكون... «فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد، وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار وقوى وطاقات، لا مع الكون الذي هو «فكرة» مجردة عن الشكل والقالب... ولا مع الكون الذي هو «صورة» أو «مثال» في العقل المطلق، أو الكون الذي هو «الطبيعة» الخالقة! التي تطبع الحقائق في العقل البشري.

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٦٩.

الكون في التصور الإسلامي هو كل الخلائق التي أبدعها الله، وقال لها: كوني، فكانت. والتي نسقها بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتي جعلها خاضعة لإرادته، عابدة له، مسخرة لأمره. فالكون إذن هو السموات والأرض، والنجوم والكواكب.. جميع الكائنات.. الليل والنهار، والنور والظلام، الرعد والبرق، والمطر، هو كل المخلوقات والظواهر الكونية ذات الوجود الحقيقي، والتي يدركها الإنسان، ويوجه القرآن عقل الإنسان وقلبه إليها لإدراكها، كدليل على وجود خالقها، ووحدانيته، وهيمنته وتدبيره، وعلمه وتقديره[1].

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾ [يونس].

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾ [الحج].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) ﴾ [الفرقان].

---

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٦٩ - ١٧٠.

«كذلك يتعامل التصور الإسلامي مع الإنسان، مع هذا الإنسان الواقعي، الممثل في هؤلاء البشر كما هم، بحقيقتهم الموجودة!. مع هذا الإنسان ذى التركيب الخاص، والكينونية الخاصة، الإنسان الذي هو من لحم ودم وأعصاب، وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق، والرغائب والضرورات. الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الاسواق، ويحيا ويموت، ويبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر. ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويطمع وييأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويكفر، ويهتدي ويضل، ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل... إلى آخر سمات الإنسان الواقعي، وصفاته المميزة»(1).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ [الحجرات].

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) ﴾ [يس].

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) ﴾ [يونس].

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (22) ﴾ [عبس]

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207) ﴾

[البقرة]

إن هذا هو «الإنسان» الذي خلقه الله ليستخلفه في هذه الأرض، يقوم فيها بالخلافة الحركية الإيجابية، التي تنشئ وتبدع في عالم المادة ما يتم به قدر الله في الأرض والأحياء والناس.

---

(1) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٧٣.



«إنه الإنسان واقعي. . . ومن ثم فإن المنهج الذي يرسمه له الإسلام منهج واقعي كذلك، منهج حركي. تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان، وتكوينه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه، وجسمه وعقله وروحه، الممتزجة في ذلك الكيان.

«والمنهج الإسلامي للحياة- على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته- هو في الوقت نفسه منهج لهذا الإنسان- في حدود طاقاته الواقعية- ونظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش على هذه الأرض، ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج ويتناسل، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله.

«وهو يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله ورذائله، وقوته وضعفه، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يحتقر دوره في الأرض. . . كما لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية، . كذلك لا يتصوره ملكا نورانيا. . . ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري.

«ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه، فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، وأكمل وضع، يبلغ إليه الإنسان، في أي زمان وفي أي مكان»[1]، هذه هي المثالية الواقعية، والواقعية المثالية في آن.

بهذا المفهوم الشامل المتكامل، لمقومات المنهج الإسلامي وخصائصه، لا نقول: إنه منهج قابل للتطبيق، بل نقول: إنه منهج قد طبق بالفعل على مدى قرون طويلة، وتربت في ظله أجيال عديدة، وأخرج للإنسانية أمة وصفها الله بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

فعندما طبقت الأمة الإسلامية هذا المنهج، بهذا التصور كانت خير أمة في تاريخ البشرية. وحوت من ألوان العظمة في كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى في تاريخ الإنسانية بهذه الوفرة، وذلك التنوع. . عظمات حربية، وعظمات سياسية، وعظمات علمية، وعظمات إدارية، وعظمات نفسية، وعظمات روحية. عظمات من كل نوع رسّخت أسس التاريخ الإسلامي على الأرض، بما قدمت من مبادئ ومثل عليا مطبقة

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.



في التاريخ الإسلامي بصورة فريدة. صورة يلتقي فيها المثال والواقع، فلا تكاد تعرف- من روعة العظمة المذهلة- أيهما الواقع، وأيهما المثال![1].

وبعد هذا العرض، نستطيع أن نقول عن يقين لا يتطرق إليه شك: إنه لا يمكن تصميم منهج سليم للتربية الإسلامية، ولا نظام للاقتصاد، أو السياسة، أو الاجتماع دون «فهم»؛ لهذا التصور الشامل المتكامل لمقومات المنهج الإسلامي العام وخصائصه التي سبق ذكرها. وبحيث يكون هذا «الفهم» قائما على الإيمان بهذا التصور- بكل مقوماته وخصائصه- والعمل بمقتضاه.

**الواقعية ومنهج التربية في التصور الإسلامي:**

إن منهج التربية الإسلامية منهج إيجابي وواقعي فهو- كما يقول الأستاذ سيد قطب- «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه على أساس هذا التصميم والإنسان وحده- باعتباره خليفة الله في الأرض- هو المكلف بتنفيذ هذا «التصميم» عن طريق التفكر والتدبر والنشاط بإيجابية وفاعلية.

وينسحب هذا- بطبيعة الحال- على الموقف التعليمي. فمجرد تقديم الخبرة للمتعلم لا يعني- بالضرورة- تعلمه، وتعديل سلوكه في الاتجاه المطلوب فلابد من أن ينشط الإنسان، ويتفاعل مع الموقف التعليمي، بل ولابد وأن ينعكس أثر هذا الموقف على سلوك الإنسان بعد ذلك.

والأصل في هذا، أن التعلم لا يحدث وفقا لتصور منهج التربية الإسلامية إلا بعد تمام خمس خطوات مرتبة ترتيبا سببيا، وهي كما يلي:

١- وجود دافع فطري أو حاجة من حاجات النفس الغريزية أو المكتسبة.

٢- أن يحس الإنسان أو المتعلم بحاجته إلى الاستعانة بهدى الله - في إشباع هذه الحاجة أو ذلك الدافع.

٣- فإذا كان لديه هذا الاتجاه وهذا الشعور، فإنه يدفعه إلى النشاط وإلى التفاعل والأخذ بكل الأسباب الممكنة من أجل التعرف على تفاصيل ما يريد أن يعرف.

٤- ونتيجة للاستعانة بهدى الله، والأخذ بكل الأسباب الممكنة، يحدث الفهم، ويتم التحصيل.

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج٢، ص ١٥.

٥- فإذا جاء السلوك بعد ذلك موافقا للفهم والإدراك والتحصيل فإن التعلم يكون قد تم.

إنَّ هذا ما نراه واضحا جليا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ..(٢٨٢)﴾ [البقرة]... ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة]. وهكذا، فما لم يتكون الشعور والاتجاه، ويتم النشاط، ويحصل الإدراك والفهم، ويتحول كل ذلك إلى سلوك عملي في واقع الأرض، إذن، فالتعلم لم يقع.

**منهج فريد:**

وانطلاقا من المفهوم السابق والقواعد التي يرتكز عليها، فإن منهج التربية الإسلامية قد يتفق مع بعض مناهج العالم في كثير من التفصيلات والفروع، ولكنه يختلف عنها- قطعا- في القواعد والأصول التي ينبثق منها. فمعظم مناهج الأرض تهتم- مثلا- بدراسة العلوم والرياضيات. وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. إلا أن كثيرا من بلاد الدنيا قد تهتم بتدريس هذه المناهج لا لترقية حياة المواطنين في مجتمعاتها فقط، ولكن لاستغلال تطبيقاتها التقنية في صنع أدوات الحرب والدمار، لا للدفاع عن النفس فقط، بل وللاعتداء على حقوق الآخرين وحرماتهم أيضا. إن الناظر حوله يرى حروبا مدمرة لكل حي على وجه الأرض. هذه الحروب تمولها وتغذيها مجتمعات تقدمت في تطبيقاتها التقنية للعلوم والرياضيات. لكن منهج التربية الإسلامية يهتم بهذه المواد والدراسات لتزويد الإنسان المسلم بالمعلومات والمهارات والتجارب التي تمكنه من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، والقيام بحق استخلاف الله له فيها أينما وجد، وحيثما وجد.

ومعظم مناهج الأرض تهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا، وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. إلا أن معظم هذه المناهج يهدف إلى تربية العزة القومية، والنعرة الوطنية، وتخليد المثل والنماذج التاريخية لتقوية الاتجاهات العنصرية.

لكن منهج التربية الإسلامية يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها التي قررها الله في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾ [التكوير]... ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]. فمنهج التربية الإسلامية لا يهدف إلى إعداد «المواطن» الصالح، وإنما يسير وفق ما تقتضيه عالمية الإسلام، فيسعى إلى تحقيق هدف أكبر وأشمل- كما سبق أن قلنا- وهو إعداد «الإنسان» الصالح أيا كان موطنه. الإنسان

القادر على القيام بحق الخلافة. وحق الخلافة لدى الإنسان هو المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وفق منهج الله.

كما أن أهم أهداف الدراسة في العلوم الإجتماعية عموما هو تربية الاتجاه إلى التفكير في الأنفس وفي الآفاق، وتدبر العبرة من الحوادث التي تقع في الأرض، وربط كل ذلك بإرادة الصانع الحكيم. وهنا- مرة أخرى- ترتبط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة.

ومعظم مناهج الدنيا تهتم بتدريس الآداب والفنون المختلفة. وكذلك يفعل منهج التربية الإسلامية. لكن معظم هذه المناهج تهدف -فقط- إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الطبيعة وفي الكون في ذاته. لكن منهج التربية الإسلامية يضيف إلى تربية الإحساس بالذوق والجمال في الكون كله، اعتباره من صنع الله الذي أتقن كل شيء. فوظيفة الفن إزالة البلادة المتراكمة على القلوب، وجلاء الإحساس، وإثارة المشاعر للتعبد بدقة الصانع القادر.

ومعظم مناهج الدنيا تهتم بتدريب المتعلمين على الرياضة البدنية والألعاب الرياضية المختلفة. ومنهج التربية الإسلامية يفعل ذلك، لا لتدريب الناشئة على الطاعة والحرص على النظام فقط، كما تفعل بعض النظم.. ولا لتربية الروح التعاونية والجماعية فقط، كما تفعل بعض النظم الأخرى.. ولا لصناعة الأجساد الجميلة وبيعها والاتجار بها في أسواق الرقيق المعاصرة، كما تفعل بعض الهيئات والمؤسسات. وإنما الذي يعني منهج التربية الإسلامية من التربية البدنية والرياضية هو بناء المؤمن القوى بجسمه وعقله ومشاعره؛ المؤمن القادر على الكد والكدح في الأرض بما يسره الله له، المؤمن القادر على محاربة طواغيت الأرض، والقادر على الجهاد في سبيل تنفيذ منهج الله، **«فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»** كما قال رسول الله ﷺ.

والمؤمن القوى هو الذي لا يظلم الناس، ولا يظلم نفسه، ولا يرضى بوقوع الظلم دون أن يحاربه. والمؤمن القوى هو الذي يكافح في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية في حدود منهج الله. فالإسلام لا يريد الناس أن يتركوا حقوقهم على الأرض وينتظروها في ملكوت السماء. بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم المشروعة، تحت أي ضغط، بسوء العذاب في الآخرة، ويسميهم: «ظالمي أنفسهم»: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ**

مَصِيراً ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]. وأكثر من ذلك فالإسلام يحرض المؤمن على القتال في سبيل الحصول على حقه: «ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد» (رواه النسائي).

وعلى هذا فإن منهج التربية الإسلامية لا يقيد الإنسان في نطاق حاجاته الأرضية أو الوطنية أو القومية، وإنما يزوده بالحقائق الثابتة، والمفهومات والمعلومات والمهارات والخبرات المتغيرة، التي تقدره على الربط بين الأرض والسماء في آن واحد. فقيمة العلم تكمن في مدى فائدته في بناء الإنسان بحيث يكون قادرا على عمارة الأرض وترقيتها في حدود منهج الله. فالمنهج هنا يربط بين التقوى والعلم ﴿.. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ.. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] ويجعل العلم سبيلا إلى معرفة الله وخشيته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

إن العلم في منهج التربية الإسلامية هو معرفة قوانين الله في الكون، وتطبيقاتها في عمارة الأرض. فالعلم الصحيح- إذن- هو الذي يؤدي إلى معرفة الله، وهذا العلم فريضة مقدسة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (رواه ابن ماجه). وبذل الجهد في طلب العلم جهاد، أي عبادة: «من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة» (رواه مسلم).

نحن إذن حيال منهج فذ، فريد، شامل، متكامل، لتربية الإنسان كله: جسمه وعقله ووجدانه، تربية شاملة متكاملة.. تربية الإنسان القوي القادر على المساهمة في عمارة الحياة وترقيتها، الإنسان التواق إلى العدل، المناضل من أجل الظفر بالحرية، الذي تحركه الأشواق إلى الخير، والحق والجمال، الإنسان الذي يعمر قلبه الإيمان، وحب الآخرين، والرغبة في إسعادهم، الإنسان الذي يتحدى الخطر والفقر، ويقتحم المجهول في جسارة مستعينا بالله، ليصوغ لنفسه وللناس عالما أفضل.

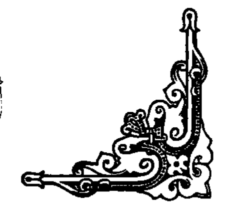
إن ذلك المنهج الذي يربي الإنسان الموصول الصلة دائما بالله، الذي يربط بين الدنيا والآخرة، كما يربط ملكوت الأرض بملكوت السماء... ذلك المنهج هو هويتنا التربوية؛ لأنه وسيلتنا إلى تحقيق هويتنا الكلية، وهي أن نكون مسلمين حقا.

ولكن ما الأسس التي يقوم عليها بناء هذا المنهج السابق للتربية، بمفهومه وخصائصه؟

هذا ما نجيب عنه تباعا في الفصول التالية، إن شاء الله.

* * *





# الفصل الرابع
## أسس منهج التربية في التصور الإسلامي

**أسس المنهج:**

تتفق معظم مناهج الأرض على أن لها أسسا ثلاثة يقوم عليها بناؤها، وهي:

١- **الفلسفة التربوية أو «الأصول التربوية»**: وهي أعظم الأسس الموجهة للنظام التربوي على الإطلاق، وأكثرها خطرا؛ ذلك لأنها تتحكم في كل عناصر النظام التربوي، وتوجهها جميعا الوجهة التي ترضيها. فهي التي تحدد نظرية التعلم، وطبيعة المعرفة وهي التي تضع قواعد الممارسات التربوية، وتقيم نظمها، وتهدي إلى مثلها... إلى آخره.

ونظرا لأن الفلسفات ما هي إلا تصورات بشرية قاصرة عن الألوهية الكون والإنسان والحياة- فإنها تختلف وتتناقض من زمن لآخر، ومن جيل إلى جيل وفقا لقوة كل فلسفة وصمودها في وجه الفلسفات الجديدة المناهضة، وبذلك تقع المجتمعات التي تتبع الفلسفات البشرية في التناقض، وتقف دائما على حافة التغير، ولا يستقر لها قرار!

ولقد درج معظم التربويين على ملء الفراغ الذي أحدثه إبعاد العقيدة الإسلامية عن طريق الحياة في بلادنا، بأقوال الفلاسفة وتصوراتهم للألوهية والكون والإنسان والحياة، بدءا بالفلاسفة الأقدمين كسقراط وأفلاطون وأرسطو.. ومرورا بكانت، وديكارت، وجون لوك، وجان جاك رسو، ووصولا إلى بياجيه، وجانيه، وبرونر، وجون ديوي... إلى آخره. وكانت النتيجة أن استقر في ضمير كثير من الأجيال المعاصرة، أن فلسفة هؤلاء وأقوالهم التي يستشهد بها في كل مقام هي التي يجب أن تحكم الحياة، وتوجه شؤونها، وليس الإسلام بقرآنه وسنته!

٢- **الأساس الثاني، هو «طبيعة المتعلم»**. وهذا الأساس يتناول طبيعة النفس الإنسانية، ومكوناتها، ووظيفة كل مكون من هذه المكونات في النفس،

وطبيعة النمو، ومراحله، ومطالبه، وحاجات النفس، والانعكاسات التربوية لكل ذلك على المناهج.

وهذا الأساس يعتمد على الأساس الأول. فالنظرة إلى الطبيعة الإنسانية، وإلى طبيعة النفس تختلف من نظام تربوي إلى آخر وفقا للعقيدة التي يعتمد عليها هذا النظام أو الفلسفة التي يتبناها. فالعقيدة الإسلامية- مثلا- ترى الإنسان مخلوقا لله وهو أكرم مخلوقات الله، وهو خليفة الله في الأرض، ومقتضى الخلافة، أن يقوم الإنسان بعمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله، وأنه في النهاية عائد إلى الله ليحاسبه على ما قدم في هذا الشأن. وفي الفلسفة الطبيعية- مثلا- الإنسان ابن الطبيعة، فهو من خلقها، وهو حلقة من حلقات تطورها، وهو في النهاية عائد إليها! وبذلك تختلف النظم التربوية في نظرتها إلى الإنسان تبعا للحكمة من خلقه، وغاية خلقه. وقيمته في الكون والحياة من حوله.

٣- **الأساس الثالث**، هو «طبيعة المجتمع»، فإذا كان الأساس الثاني من أسس بناء المنهج يتصل بنوع الإنسان الذي يود المنهج إعداده وتربيته، فإن هذا الأساس الثالث يتصل بنوع المجتمع الذي يود هذا المنهج بناءه. وهذا الأساس يتناول التنظيمات الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والثقافية. . . إلى آخره. وهذه التنظيمات جميعها تسير وفقا للمعايير والقيم النابعة من الأساس الأول وهو الأساس العقدي أو الفلسفي.

أما منهج التربية الإسلامية فهو يقوم على أسس أربعة: وهي تصور الإسلام لحقيقة الألوهية، وتصوره للكون، وتصوره للإنسان، وطبيعة الفطرة الإنسانية، وتصوره للحياة بتنظيماتها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعرفية وتصوره للارتباطات بين كل هذا. وهو إن اتفق مع بعض مناهج الأرض في شكل هذه الأساسيات، إلا أنه يختلف عنها جميعا اختلافا جوهريا، وهذا الاختلاف نابع من خصائصه الفريدة التي سبق شرحها، وهو أنه منهج رباني، وعالمي، وثابت، وشامل.

وفي هذا الفصل والفصلين القادمين نتناول الأسس التي يقوم عليها بناء منهج التربية في التصور الإسلامي، عن طريق بيان طبيعة التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية، وتصوره للكون، والإنسان، والحياة وعلاقاتها بمنهج التربية.



# الألوهية في التصور الإسلامي

قلنا فيما سبق- في الفصل الأول من هذا الكتاب- إنه لابد للإنسان من أن يفهم حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، وما بينها جميعا من ارتباطات، وبذلك يتعرف على مركزه في هذا الوجود الكوني، وعلى غاية وجوده الإنساني، وحدود اختصاصاته، وعلاقاته بخالقه وخالق الكون جميعا، وبذلك يتحدد أيضا منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، والفرق بينه وبين المناهج البشرية أو الأرضية.

إن التصور الإسلامي للألوهية والكون والإنسان والحياة هو أكمل وأشمل تصور عرفته البشرية؛ لأنه صادر عن رسالة الإسلام العالمية الخاتمة. إنه التصور الذي لا يأخذ جانبا من الوجود ويدع جانبا آخر. . . وإنما يأخذ الوجود كله بعادياته وروحانياته، بشهوده وغيبياته، وكل كائناته؛ لذلك فإن هذا التصور بحقائقه الأربع: الألوهية، والكون، والإنسان، والحياة، هو القاعدة والأساس الذي يبنى عليه منهج التربية الإسلامية.

«والتصور الإسلامي يبدأ من الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود كله؛ ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته، ويعنى عناية خاصة بالإنسان- خليفة الله في الأرض- فيعطيه مساحة واسعة من الصورة؛ ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها وإليها يعود».

«وهو في هذه الجولة الواسعة من الله وإليه، يشمل كل دقائق الكون، لا يغادر منها شيئا يقع في محيطه، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه، وما يدركه العقل بوعيه، وما تدركه الروح فيما وراء الوعي. ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته. سواء نشاطه المادي ونشاطه الروحي. وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وسواء عمله في الحياة الدنيا، وفيما وراء هذه الحياة»[1].

---

(١) محمد قطب : منهج الفن الإسلامي، ط ٦، بيروت، دار الشروق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٦.
لمزيد من التفصيل اقرأ مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب دار الشروق.

# الكون في التصور الإسلامي

أما الكون فهو آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة المبهرة، أراده الله فكان، وقد قدره تقديرا محكما، وجعل كل شيء فيه خاضعا لإرادته وتدبيره.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل].

## الكون المادي:

والكون في التصور الإسلامي قسمان: كون محسوس، وكون غير محسوس.. شهادة، وغيب، ولقد تناول الإسلام الكون المادي المتطور، وعرض لكثير من ظواهره، كالشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والمطر، والنبات، والبحار، والأنهار، والجبال، والشجر، والدواب... إلى آخره. وقد تكلم الإسلام عنها في بدء خلقها، وتكلم عنها في عوارض وجودها، وتكلم عنها في بعض نهاياتها. وقد عرض لهذه النواحي لا ليعالج أمرها علاجا فنيا تحليليا، فيكون كتاب هيئة، أو كتاب نبات، أو كتاب حيوان. ولكن عرض لها لأنها دلائل قدرة الله -تبارك وتعالى- وعلائم صنعه الدقيق الحكيم، ولتكون نبراسا يهدي الناس لمعرفة الله:

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [ فصلت ].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ الأعراف ].

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

[ يس ]

وهكذا نرى أن القرآن لم يتناول الكون المشهود من الناحية الفنية؛ لأن القرآن كتاب للتوجيه، يصل الإنسان بالله، ولو تعرض لهذه النواحي لما انتهى أمره، ومن ناحية أخرى يدرك ضرورة ترك الحرية للعقل الإنساني كي ينمو ويتقدم حتى يدرك مكونات الكون، ويدرك صورها بحسب تدرجه في قوته واكتماله. . . فكلما ارتقى العقل الإنساني اكتشف ناحية من نواحي الدقة، وجانبا من جوانب القدرة، التي يصعب أن تتجلى للإنسان في طور واحد من أطوار حياته.

وواجب المنهج أن يتناول هذا الجانب من الكون بالدراسة والتفكير والتدبر، واكتشاف قوانين الله فيه عن طريق الملاحظة والتجربة. كما أن هذا الجانب من الكون لا يمكن قهره- كما يقال- وإنما يمكن التلطف معه واستثمار خيراته لخير الناس جميعا.

**الكون المغيب:**

أما القسم الآخر من الكون، فهو الكون المغيب، أو غير المحسوس. وهو الذي يسمى «عالم الغيب». فهو عالم لا يدخل في حدود الكون المادي، الذي يمكن أن ندرك مكوناته بالحواس ومن هذا العالم الروح، والملائكة، والجن، والملأ الأعلى، والتخاطر عن بعد، وتأويل الأحلام. . . إلخ[١].

---

(١) حسن البنا : حديث الثلاثاء، القاهرة، مكتبة القرآن، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، بدون تاريخ، ص ٣٤ - ٣٥.

فهناك شيء اسمه الروح، وهو مكون من مكونات الإنسان، وهو من أمر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص].

ومن الكون غير المرئي الملائكة: ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾ [فاطر].

وهم يقومون بأعمال... فهم يسبحون ويستغفرون، ثم إنهم مكلفون ببعض أعمال الجزاء: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً (٣١) ﴾ [المدثر].

ثم إنهم يُحيُّون أهل الجنة: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد].

ثم إنهم يقومون ببعض المهام الروحية، مثل تسلم الأرواح: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [الأنعام]

ثم إنهم يستخدمهم ربهم في تأييد عباده المؤمنين: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) ﴾ [آل عمران].

وهناك من العالم المغيب، الجن، وقد وصفوا بأنهم كانوا يسترقون السمع، وأن فيهم القدرة على تصريف الأمور أكثر من قدرة البشر: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل].

ومن الجن صنف من الشياطين، وأنهم الذين يزينون للناس الأعمال الضارة، والمعاصي المهلكة، وعلاقة الجن بإبليس قوية، فإنه كبيرهم. وأنهم كانوا يعلمون الكتب المقدسة، وكانوا يوازنون بينها موازنة دقيقة:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا

وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن].

ومن الكون المغيب، الملأ الأعلى. ومن عوالم الملأ الأعلى: سدرة المنتهى، والعرش، والكرسي، واللوح المحفوظ، والبيت المعمور... وغيرها مما لا يعلمه إلا الله.

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص].

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم].

**واجب المنهج:**

وهكذا تناول القرآن الكريم هذا الكون غير المرئي بإيجاز بليغ، دون تعرض لحقائقه، وإن كان قد تعرض فقط لبعض خواصه. فلم يذكر- مثلا- كيف خلق الله الملائكة، ولم يذكر شيئا عن أصل الروح، ولا عن هياكل الملأ الأعلى.

وواجب الباحثين أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن يقفوا عند حد ما جاء به، ولا يتركوا العقل يسبح فيما ليس للإنسان به علم: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

إن القرآن لم يـتناول هذا الجانب المغـيب من الكون بالتفـصيل؛ لأن القـرآن جاء للفائدة ولا فـائدة تعود على البـشر من الخوض في هذا العـالم. إننا نتخـاطب بلغتنا، وبحسب ما نعرف، وما نفـهم، واللغة عندنا لا تتناول إلا ما يقع في دائرة المتكلمين بها حسًّا ومعنى. فاللغة تصور المعاني والإحساسات التي تقع في دائرة المتكلمين بها، فكيف يمكن أن تصور جوانب هذا العالم المغيب وتـفصيلاته؟! إن الفيض في هذه النواحي لن يوصل إلى شيء سوى الفرقة والجدل![1]

* * *

(١) لمزيد من التفصـيل عن المبادئ المستفادة لمناهج التربـية عن حقيقتي الألوهيـة والكون،انظر كتاب : مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها للمؤلف، القاهرة، دار الفكر العربي.

# الإنسان في التصور الإسلامي

الإنسانُ جزء مـن الكون، وهو مخلوق من طين الأرض، وفيه نفـخة علوية من روح الله، فالإنســان في التصـور الإسلامي هو هذان الـعنصران المختـلفان، متـرابطين ممتزجين في كيان كلي واحد.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر].

وهو كائن من كائنات الملأ الأعلى؛ لأن إنسانيته لم تتكون ولم تتشكل إلا بعد أن نفخ الله فيـه من روحه. فقـد نشأ في الملأ الأعلى... ثم هبط على الأرض اختـيارا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه].

وقد عـقدت له الخلافة في الأرض ليـعمرها ويرقبـها وفق منهج الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة].

وهو معان من الله على القيام بحق الخلافة، فالكون كله مسخر له:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان].

وهو أكرم خلق الله على الله.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء].

ولأن الإنسان كريم على الله، ومعقودة له خلافـة الأرض، فهو محسوب حسابه في تصميم الكون قبل أن يكون: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام].

«والإنسان- كما أسلفنا- يكون في أرفع مقاماته، وفي خير حالاته، حين يحقق مقام العبودية لله. إذ إنه- في هذه الحالة- يكون في أقوام حالات فطرته، وأحسن حالات كماله، وأصدق حالات وجوده»[1].

والبشر جميعا من أصل واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً.. ﴿١﴾﴾ [النساء].

ولقد خلق الله البشر أمما وقبائل وشعوبا، ليتعارفوا ويتعاونوا، لا ليتنافروا ويتناحروا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

والعقل الإنساني هو مناط التكليف، وهو شرف الإنسان وامتيازه، وقدرة الإنسان على التفكير والاختيار، هي التي أهلته لهذا الاستخلاف، ولحمل مسئولية تنفيذ منهج الله في الأرض، فالعقل هو مناط التكليف والمسئولية.

والعقيدة هي رابطة التجمع الإنساني الرئيسية في نظر الإسلام، وليس الجنس، ولا القوم، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة الاجتماعية أو المصالح السياسية أو الاقتصادية؛ وذلك لأن العقيدة مرتبطة بحرية الإنسان واختياره وإرادته، أما وابط القوم، والأرض أو اللحم، والدم، والطين، فلا إرادة للإنسان فيها. فالإنسان ليس حرا في اختيار بلده أو أهله وقومه، ولكنه حر تماما في اختيار عقيدته وفكرته ومنهجه.

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص ١٣٢.

والإنسان حر لأنه مسئول، فالحرية والمسئولية وجهان لعملة واحدة، فالحرية تستلزم المسئولية، والمسئولية تتطلب الحرية.

وحرية الإنسان ليست حقا من حقوقه، يمكن أن يمنح له أو يمنع عنه، وإنما هي فطرة في طبيعته، وجزء من إنسانيته، بما يصير إنسانا مسئولا، وبدونها يهبط إلى درجات أدنى بكثير من الحيوان. فهو حر حتى في العقيدة التي يؤمن بها: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]، ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور]، ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ..** ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر].

وقد عبر سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- عن فطرة الحرية في الطبيعة الإنسانية، عندما قال لولد عمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

إن الحرية هي من أثمن ما جاء به الإسلام. فالتوحيد قرين التحرير، وشهادة «لا إله إلا الله»، هي إعلان عن ميلاد الإنسان الحر في هذا الكون الذي يسجد لله وحده، ويخشى الله وحده. ومن هذا المنطلق فإن الاستبداد يصبح قرين الشرك؛ لأنه يحيل الناس عبيدا لآلهة من البشر، ويدفعهم إلى السجود لغير الله!

وشعور الإنسان بألوهية الله، وبوجود الله الواحد، هو شعور فطري، مستقر في أساس تكوينه. فالإنسان في تكوينه نفخة من روح الله، وعلاقته بخالقه، هي علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم، وهي علاقة لا يستطيع أي مخلوق دفعها، أو الحياد عنها[1].

فشعور الإنسان بوجود الله خالقه، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته التي لا يستطيع أن يتخلى عنها. فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس، وإلى الطعام والشراب، والراحة. فإذا كانت حاجاته هذه قانونا من قوانين وجوده المادي، فإن إيمانه بالله الخالق، الرحمن، الرحيم، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته.

إذن، فشعور الإنسان بوجود الله فطرة في الطبيعة الإنسانية: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم].

---

(١) حسن البنا: مرجع سابق، ص ٤٨.

فالإيمان بالله، والشعور بوجـود الله، فطرة مستكنة في الطبيعة الإنـسانية، أصلها الروح التي هي جزء في كل تكوينه، وهي شيء من روح الله.

ولذلك لا غـرابة أن نجـد الإنسـان يلجأ إلى الله حـين ييأس من كـل الأسبـاب الظاهرة، حين يمسـه الضر، وحين ييأس من حـوله وقوته، ومن حـول الناس وقوتهم. فهذا اللجوء هو هتاف تهتف به الفطرة الإنسانية من جوانب نفسه. . .أن يلجأ إلى الله.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس].

**ضرورة دراسة الطبيعة الإنسانية:**

إن التقدم العلمي الهائل في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك وعلوم الجماد عموما يتسم بعدة أمور أهمها: أنه لا يتبع أية خطة معينة، وأنه يتطور دون إدراك للنتائج المترتبة عليه إنسانيـا، وأنه لا يتحرك تبعا للرغـبة في تحسين أحوال البشـر، وأنه تحكمه قيم من خارجه.

إن هذا التقدم العلمي الهائل في علوم الجماد قد تزامن مع تقدم علمي بطيء، لم يكد يتعـدى كثيـرا حد الجهل في دراسـة علوم الإنسان والطبـيعة الإنسـانية، أو العلوم الحيوية عموما. وقد تمخض هذا عن حضارة إنسانية معاصرة، زودت الناس بكل وسائل الحياة الحديثـة، لكنها أهدرت- في نفس الوقت- القيم الخلقية، وأخـفقت في النهوض بالمستويات الأدبية والعقلية لعامة الناس وخاصتهم.

فكيف أمكن الحصول على هذه النتيجة المتناقضة؟

إن الإجابة البـسيطة على هذا السؤال تجيء على لسـان أحد علماء هذه الحـضارة والمشاركين في صنعـها، وهو «ألكيس كاريل»، حيث يـقول: «إن الحضارة الحديـثة تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية مـعرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم



ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[1].

لقد أدى تطبيق الاكتشافات العلمية إلى تغيير العوالم المادية والعقلية بصورة هائلة. لكن التأثير التعس لهذه التغيرات إنما هو نتيجة لأنها نمت وتطورت دون أدنى. تفكير في طبيعتنا.

«لقد أُهمل تأثير المصانع على الحياة الفسيولوچية والعقلية للعمال إهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية، إذ إن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ: الحد الأقصى من الإنتاج بأقل التكاليف، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال، وقد اتسع نطاقها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أي اعتبار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم»[2].

إن الإنسان يجب أن تعلو قيمته على كل شيء، كما يجب أن يكون مقياسا لكل شيء. لكن الواقع عكس ذلك؛ فهو غريب في العالم الذي ابتدعه؛ لأنه لم يستطع تنظيم العالم وفقا لطبيعته؛ لأنه لا يملك معرفة علمية دقيقة بطبيعته.

وصفوة القول: إن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث الذي تعاني منه الإنسانية؛ إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها.

وإن العلاج الوحيد لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقا بأنفسنا وبطبيعتنا الإنسانية؛ وبذلك نتعلم كيف نكيف أنفسنا للمتغيرات المناسبة، وكيف نغير الظروف المحيطة بحيث تصبح الحياة حولنا ملائمة لطبيعتنا الإنسانية. وعلى هذا فإننا هنا في رحلة عبر هذا الإنسان، لمحاولة فهم طبيعته الإنسانية من خلال التصور الإسلامي له.

## الفطرة الإنسانية

التربية هي عملية إيصال المربَّى إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها. والإنسان هو محور العملية التربوية. فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول تربوية، ونظريات، ومناهج، وممارسات، ومربين، كلها تعمل وتتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للمتعلم كي ينمو إلى درجة كماله الإنساني.

---

(١) ألكيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت مكتبة المعارف، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، ص٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

لكن المنهج التربوي يتأثر إلى حد بعيد بنظرة المخططين له والقائمين على تنفيذه إلى الفطرة الإنسانية. فالفطرة الإنسانية في الإسلام تختلف في مفهومها، وفي مصدرها، وفي غايتها عن الطبيعة الإنسانية في الفلسفات ومدارس علم النفس المختلفة.

فالإسلام هو شريعة الله، ومنهجه العام لحكم الحياة. فهو دين رباني، ونظام عالمي لحكم حياة البشر أجمعين: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧)﴾ [التكوير]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٨)﴾ [سبأ].

أما الفلسفات والمدارس التربوية والنفسية المختلفة فهي نظم وفروض لتنظيم جانب من حياة بعض الناس في مكان معين وزمان معين. وهي في كل الأحوال خاضعة للهدى والضلال، والخطأ والصواب، باعتبار أن مصدرها -وهو الإنسان- خاضع لكل ذلك.

**بين الفطرة الإنسانية والطبيعة الإنسانية:**

يختلف مفهوم الفطرة الإنسانية في الإسلام عن مفهوم الطبيعة الإنسانية لدى الفلسفات ومدارس علم النفس المختلفة، ففي المعجم الوسيط: طبع الشيء طبعا، وطباعة: صاغه في صورة ما، ويقال طبع الله الخلق: أنشأه. وتستخدم بمعنى التأثير على الأشياء، تقول طبع الشيء وعليه: ختم عليه بطابع. والطبيعة: السجية، ومزاج الإنسان المركب من الأخلاط، والقوة السارية في الأجسام التي يصل بها الجسم إلى كماله الطبيعي الذي هيأه الله له[1].

فالطبيعة بهذا المعنى هي مجموعة السجايا التي خلق الله عليها الناس، وفطرهم عليها، والطبع هو الصياغة وإحداث الأثر، فالطبع هو تأثير الأعمال في النفس، وتأثير الأشياء في الأشياء[2].

ولا يختلف معنى الفطرة في التصور الإسلامي عن معنى الطبيعة. ففي القاموس: فطر ناب البعير: أي شق اللحم وطلع. وفطر النبات: أي شق الأرض ونبت منها. وفطر الأمر: أي ابتدأه واخترعه. وفطر الله العالم: أي أوجده ابتداء. يقول الحق على لسان إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام]. والفطرة هي الخلقة التي يكون عليها كل

(١) المعجم الوسيط: مادة «طبع».

(٢) محمد رشاد خليل: علم النفس الإسلامي العام والتربوي، دراسة مقارنة، الكويت، دار القلم، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص ١٠٣.

موجود أول خلقه، فالفطرة هي الخلقة السليمة، لم تشب بعيب: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. (٣٠) ﴾ [الروم].

فإذا كانت الفطرة في الإسلام هي خلق الله الإنسان على الإسلام؛ أي شاهدا بعبوديته لله، ومقرا بربوبيته، فإن الطبع هو صياغة الله للإنسان بمزاج وسجية خاصة، سواء كان ذلك من خلق الله في الإنسان من البداية، أو بتهيئة الإنسان كي يقوم بذلك في نفسه، أو من خلال البيئة والأشياء المحيطة به،والمحصلة النهائية هي أن الطبيعة الإنسانية من خلق الله.

أما الطبيعة في المصطلح الغربي الذي قامت عليه مدارس علم النفس هناك، فهي الأشياء المادية المحسوسة حولنا من جماد وحيوان ونبات، ففي الاصطلاح اليوناني: «الفيزيقا» هي الطبيعة، و«الميتافيزيقا» ما وراء الطبيعة أي الأمور الغيبية وغير المحسوسة.

وكما يقول الدكتور محمد رشاد خليل فقد أخذت الطبيعة معاني فلسفية لدى فلاسفة الإغريق، وأصبحت هي الأساس في الفكر الغربي الحديث.

فالطبيعة هي الجوهر المادي الأول الذي تصنع منه الأشياء، وهذا الجوهر المادي هو أصل الوجود، والعلة الأولى في وجود هذا الكون، وهي عند أفلاطون المثال، وعلة الوجود، والنفس الكلية. وعند أرسطو هي أصل الأشياء ومصدر الحركة والمادة التي تصنع منها الأشياء.

وقد استخدمت الفلسفات الغربية الحديثة مفهوم الطبيعة بهذا المعنى الإغريقي القديم، فالطبيعيون والمثاليون والواقعيون يرون «الطبيعة هي الأشياء، وهي القانون الطبيعي الذي يعمل في الأشياء. والطبيعة هي أصل الأشياء»[(١)].

إذن فالطبيعة في الفلسفات الغربية ومدارس علم النفس القائمة عليها ليست من خلق الله، بل هي خالقة الكون وسبب وجوده الأول. وبذلك يتصادم مفهوم الطبيعة في هذه المدارس مع مفهوم الطبيعة في الإسلام.

### مكونات الإنسان:

لقد بين القرآن أن الله خلق الإنسان من طين الأرض، ثم نفخ فيه من روحه. ومن الطين تكوّن جسد الإنسان: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص].

---

(١) المرجع السابق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عوف، حدثنا أسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**» (رواه أبو داود والترمذي)(1).

كان هذا بالنسبة لآدم -عليه السلام-، أما بالنسبة لذريته، فإن الروح تخلق لكل جنين بعد أن يتم تخليق النطفة في الرحم: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)**﴾ [**المؤمنون**]

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك، وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾. ويقال: إن نفخ الروح في المنطقة إنما يكون بعد أربعة أشهر. قال الإمام أحمد في مسنده، أنه رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أحدكم ليجمع خلقه (نطفة) في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح**»... إلى آخر الحديث الذي أخرجه الشيخان(2).

ففي الإسلام إذن، الإنسان كائن مخلوق لله خلقا مستقلا متميزا متفردا، وهو أكرم خلق الله على الله، وقد نوه الله بذلك، حين جعل الإنسان خليفته في الأرض: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ..(30)**﴾ [**البقرة**].

أما الإنسان عند فرويد وعند التحليليين وعند الطبيعيين عموما، فليس هو الإنسان المخلوق من الله، بل هو الحيوان المتطور عن الطبيعة التي هي أصل الأشياء وسبب وجودها، وهذا ما تدّعيه نظرية التطور التي لا تعدو- كما يقول الدكتور محمد رشاد خليل- «أن تكون أسطورة يونانية قديمة قال بها الطبيعيون اليونانيون، وأحياها ملاحدة

---

(1) تفسير ابن كثير: جـ 3، ص 240.

(2) تفسير ابن كثير: جـ3، ص 241.

التطوريين الطبيعيين حديثا، وزينوا لها الأدلة، أو لووا أعناق بعض النتائج التي أسفرت عنها البحوث الطبيعية والحيوية»(١).

إذن فالإنسان هنا ليس مخلوقا لله، مكونا من جسد وروح كما هو الشأن في الإسلام، وإنما مرده إلى وحدة الأصل الحيواني للإنسان، فوحدة الإنسان في علم النفس الحديث ترجع إلى كون الإنسان قد جاء نتيجة تطور الأحياء من الطبيعة. وهنا يتصادم الإسلام مرة أخرى مع الفلسفات التي تقوم عليها مدارس علم النفس الحديثة فيما يتصل بمفهوم الإنسان.

**مكونات النفس:**

والنفس في الإسلام هي جماع شخصية الإنسان. «والروح هي أصل النفس ومادتها، فالنفس مركبة منها من اتصالها بالبدن»(٢).

والنفس الإنسانية واحدة لا ثلاث كما يقول ابن القيم. فقد قسم بعض العلماء النفس إلى: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة بالسوء.

«والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه، والنفس اللوامة فهي كثيرة التقلب والتردد وهي من أعظم آيات الله؛ فهي تتلون وتتقلب بأشكال مختلفة؛ فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتتقى وتفجر، وهي على هذا طوال العمر، أما النفس الأمارة بالسوء، فإنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وأعانها، فما تخلص أحد من شر هذه النفس إلا بتوفيق من الله. قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٥٣﴾﴾ [**يوسف**].

وتمتد وحدة النفس في الإسلام لتشمل الإنسان كله، بما فيه جسمه وروحه. فالنفس في الإسلام هي الإنسان كله، وبما أن الروح في الإسلام لا تعمل مستقلة عن الجسم- رغم أن لها وجودا مستقلا عنه، فهو ليس سجنا لها- فكذلك النفس لا تعمل مستقلة خارج مركب الروح والجسد.

---

(١) محمد رشاد خليل: مرجع سابق، ص ٦٨.
(٢) تفسير ابن كثير: جـ٣، ص٦١.

أما في علم النفس الحديث فليس للإنسان نفسٌ مخلوقة، وإنما له نفس طبيعية تصنَعها الظروف والمؤثرات الخارجية. فالسلوكيون يرون أن النفس تصنعها التربية والمؤثرات الخارجية. والتحليليون وعلى رأسهم فرويد يرون أن النفس بأجزائها الثلاثة عنده وهي: الهي، والأنا، والأنا الأعلى، يصنعها الكبت «فالكبت هو النفس بمختلف أجزائها، وعليه فنحن لسنا أمام علم بالنفس، وإنما نحن أمام فلسفة طبيعية إلحادية في النفس تقابل الفلسفة المثالية الإلحادية في النفس عند أفلاطون وأرسطو، وهي أسوأ منها؛ إذ لا تعترف بمصدر للنفس خارج العالم. فليس هناك في هذه الفلسفة إذن روح ولا عقل مخلوق، ولا نفس تكونت من الروح والجسد وحصلت على صفاتها وأحوالها بالخلق والفَطْر كما هو الشأن في الإسلام»[1].

## علم النفس الإسلامي وعلم النفس الغربي:

بناء على ما سبق فإن علم النفس الإسلامي يتصادم مع علم النفس الغربي لاختلافهما في المصدر وفي الغاية، حيث إن علم النفس الإسلامي يتعامل مع الإنسان المخلوق الذي هو من خلق الله، في حين يتعامل علم النفس الغربي مع الإنسان الطبيعي الذي جاء نتيجة تطور الأحياء. وعلم النفس الإسلامي يعامل النفس المخلوقة من مركب الروح والجسد متفاعلين، لكن علم النفس الغربى يتعامل مع النفس الطبيعية التي تصنعها الظروف والمؤثرات الخارجية.

وإذن كان علم النفس العام والتربوي قد جاءا متلازمين من مصدر واحد هو كتاب الله وسنة رسوله، فإنهما قد جاءا وبينهما فاصل زمني في علم النفس الغربي بسبب اعتماده على تطور الفكر في مصادر شتى ونظريات مختلفة ومتناقضة. وإذا كان علم النفس الإسلامي العام والتربوي قد صدرا من علم شامل محيط بالنفس الإنسانية من الأبد إلى الأزل؛ لأنه صادر من الخالق الذي يعلم من خلق وما تكون عليه أحواله في كل زمان ومكان، فإنه في علم النفس الغربي قد اعتمد على آراء ونظريات شتى. وهو وإن استعان بالتجريب، فإن التجريب في العلوم الإنسانية يختلف تماما عن التجريب في العلوم الطبيعية، كاختلاف الإنسان عن الجماد والحيوان.

والخلاصة أنه لما كانت التربية هي تطبيق لمفاهيم علم النفس، فإن التربية في الإسلام تختلف عن التربية في الغرب بقدر الاختلاف بين علم النفس الإسلامي وعلم النفس الغربي في حقيقة النفس.

---

(١) محمد رشاد خليل: مرجع سابق، ص١٣٠.

«وبمعنى آخر فإن علم النفس التربوي هو تطبيق لنظريات التحليليين والسلوكيين والجشتلطيين وغيرهم من المؤمنين بالمذهب الطبيعي على اختلاف أشكالهم. . . . وهذه المدارس كلها لا تعرف الإنسان المخلوق، وإنما تتكلم عن إنسان طبيعي لا روح له، ولا يتميز عن بقية الأشياء والأحياء. كما أن هذه المدارس بالتالي لا تعترف بالخالق ولا بإرادته ولا بتدبيره ولا بقدرته ولا بالعوامل المغيبة التي يصرف بها العالم»[1].

وهذا كله سوف ينعكس على نظريات التعلم والممارسات التربوية التابعة لها، كما سينعكس على دوافع السلوك وغاياتها وما يترتب عليها من نتائج وآثار.

**الخير والشر في الطبيعة الإنسانية:**

سبق أن قلنا: إن المنهج التربوي يتأثر - إلى حد بعيد- بنظرة المخططين له والقائمين على تنفيذه إلى الطبيعة الإنسانية. ولقد اختلفت الفلسفات حول ما إذا كانت الطبيعة الإنسانية خيرة أم شريرة. ويمكن بلورة الآراء التي طرحت في ثلاث نظريات مختلفة، هي كما يلي:

**الطبيعة الإنسانية شريرة:**

اعتقد بعض الفلاسفة الغربيين أن الطبيعة الإنسانية طبيعة شريرة أصلا، وأن الإنسان شرير بطبيعة غرائزه المتأصلة فيه، كما أن رغباته شريرة أكثر منها خيرة؛ ولهذا إذا ما تركناه حرا يفعل ما يشاء، فإنه سوف يسلك طريق الشر لا محالة.

وانعكاسا لهذه النظرة، فإن التربية هي مجموعة من الأوامر والنواهي والضوابط الاجتماعية القاهرة والمعدلة والمهذبة للغرائز الشريرة في الإنسان. فالتربية قوة إلزام للفرد كي يتخلى عن سلوكه الشرير[2] والتربية التي أخذت بهذه النظرية حاولت أن تضع منهجا يقوم على أساس التكفير عن الخطايا والسيئات ومحاربة النفس الأمارة بالسوء[3].

**الطبيعة الإنسانية خيرة:**

وهناك من الفلاسفة- وعلى رأسهم سقراط- من نظر إلى الطبيعة البشرية على أنها خيرة أصلا، وأن المجتمع هو المسئول عن كل مظاهر الشر والظلم في النفس

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) محمد أحمد كريم: بحوث ودراسات في التربية، جدة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص ١٥.

(٣) الدمرداش عبد المجيد سرحان: المناهج المعاصرة، ط٣، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص٢١.

البشرية، فغرائز الإنسان واستعداداته تقوده إلى فعل الخير والحق دائما. وقد قام هذا الافتراض عند هؤلاء الفلاسفة على أساس أنه لا يمكن تصور أن الطبيعة الإنسانية التي نفخ الله فيها من روحه تكون شيئا مختلفا عن ذات الله.

ولعل جان جاك روسو هو أكبر من دعى لهذه النظرية ونماها في كتابيه «العقد الاجتماعي» و «إميل». فقد نادى روسو في كتابه إميل إلى ضرورة العودة إلى الطبيعة، على أساس أن الطبيعة الإنسانية خيرة كل الخير، وأن الفساد كل الفساد إنما يأتي من المجتمع. فإذا أردنا أن نصلح الحياة الاجتماعية فعلينا أن نربي الناشئة تربية طبيعية بعيدة عن مؤثرات المجتمع وشروره.

وقد تأثر بهذه النظرة كل من بستالوتزي وفروبل، اللذين كانا يؤيدان ما قاله روسو وأكد عليه كثيرا من «أن الإنسان خير بطبيعته لأنه جاء عن طريق خالق الكون، فإذا ما مسته يد البشر أحالته إلى شرير»[1] فالأطفال يولدون مزودين بقدرات فطرية واستعدادات طبيعية، وعلى التربية أن تتناولها بالتنمية- دون ضغط- في أحضان الطبيعة حيث لا أوامر ولا نواهي ولا كتب ولا مناهج مخططة: «إن الطبيعة يجب أن تتناولهم أطفالا قبل أن يصبحوا رجالا»[2] حتى تعطي الفرصة أمام النفس الخيرة لكي تتفتح وتحقق إمكاناتها الكامنة وطبيعتها النقية[3].

وهكذا يبدو التناقض والقصور واضحا في هذه النظرة التي رأت الإنسان خيّرا والمجتمع شريرا، وعزلت الطفل عن المجتمع كي يقوم بإصلاح المجتمع بعد ذلك، فكيف يصلح المجتمع من لا يعرفه؟! فالتربية هنا تهمل التراث الثقافي والحضاري للأمة، والمتعلم يبدأ دائما من الصفر ولا يتعلم إلا عن طريق الخبرة المباشرة، أما الخبرة غير المباشرة فلا قيمة لها لأنها موجودة في المناهج والكتب أي في تراث الأشرار!

### الطبيعة الإنسانية إما سامية وإما وضيعة:

ويطلق على هذا الإفتراض أحيانا «الافتراض ذو الجوهرين» كما يقول الأستاذ محمد أحمد كريم[4]، وهو يجمع في مجمله بين النظرتين السابقتين، إذ يعتبر أن الطبيعة

(1) Rousseau, J.J., Emile, B. K. 1. trans. B. Fox ley Dent. 1911, P. 28.

(2) Ibid P. 45.

(٣) الدمرداش عبد المجيد سرحان، مرجع سابق، ص ٢١.

(4) Shermis, S., Philosophical Foundations of Education, N. Y. American Bool Company, 1967, PP. 206-207.

الإنسانية هبة، وأن القـلة قد وهبوا طبيعة إنسانيـة سامية، بينما الكثرة قـد وهبت طبيعة إنسانية تتسم بالوضاعة والشر.

وقد أرسى كل من أفـلاطون وأرسطو قواعـد لتأكيـد هذا الافتراض. وقـد أشار أفلاطون إلى ذلك في قـوله: «بأن الناس قد ولدوا بقدرات فطرية مخـتلفة تؤهلهم لأن يتقلدوا وظائف تتفق وهذه القـدرات المتباينة. فالملوك والفلاسـفة ولدوا ولديهم الحكمة والفضيلة، والحـراس لديهم الشجاعة، والفلاحـون والحرفيون يتمـيزون بضبط النفس. وتعتـبر هذه المجمـوعات الثـلاث بما تسهم به من فضـائل ذات أهمية بالـنسبة لرفـاهية الدولة[1].

وبناء على هذه النظرية الأفلاطونية فـإن الأطفال يولدون متمايزين ومتـميزين منذ لحظة الميلاد! فالقلة تولد ولديها الحكمة والفضيلة والسمو الخلقى وهؤلاء ينتظرهم الملك والرئاسة ودراسـة الفلسفة. والكثـرة تولد مزودة بالمهارات الدونيـة الوضيعـة والقدرات الجسمية الحقيرة، وهؤلاء تنتظرهم الأعمال اليـدوية والحرفية الشاقة، كالصناعة والتجارة والحراسة وغيرها!

والكون- في نظر أفلاطون- يتكون من عالمين: عـالم الروح، وهو العالم المثالي الحقيقي، الـذي يتسم بالثبات والاستقـرار.. وعالم المادة، وهو عالمنا الأرضي هذا، وهو عالم غير حقيقي، بل هو خيـال أو ظل لعالم الروح الذي هو عالم الحقيقة، لكن عالم المادة هذا عالم مضطرب، وغير مستقر.

والإنسان وفـقا لهذه النظرة مكون من عـنصرين: العقل، والجـسم. والعقل من عالم الحقيقة، عالم الروح، المثـالى، الثابت. أما الجسم، فهو من عالم المادة المضطرب المتغير الحقير!

ولقد نشأ عن هذه الثنائية الأفلاطونية نظريته في التعلم. تلك النظرية التي تركت بصماتها على النـظم التربوية في معظم بلاد العالم، فبما أن العـقل من العالم المثالى، فعملية التعلم ما هي إلا عملية تذكر لما كان يعلمه العقل قبل ذلك، أي قبل النزول إلى الجسم في عـالم المادة؛ فالتربيـة هي عملية تنمـية للعقل، أمـا الجسم فلا قيـمة له ولا نصيب في هذه العملية لأنه حقير، بل ومعطل لعمل العقل.

وهكذا، تكون العلوم النظرية التي تتـصل بتنمية العـقل أسمى وأرفع من العلوم العـملية أو اليـدوية التي تتـصل بالجسم. ويكون مـن الضرورى على المدرسـة والمناهج التعليمية أن تقمع المناشط الجسمية حتى يصبح الجسم خاضعا تماما للمناشط العقلية.

---

(1) في محمد أحمد كريم، مرجع سابق، ص ١٩-٢١ Plato. Repulic, ii, 367, E-327.



ولقد أدت هذه النظرية إلى أن تعيش المدرسة في برج عاجي، بعيدة عن المجتمع الإنساني بواقعه الحاضر، وتطلعاته المستقبلية. كما أدت إلى إغفال تنمية الطاقات الجسمية واستثمارها في العمل وبذل الجهد من أجل عمارة الكون، وحتى العقل الذي مجدته هذه النظرية، جعلته أداة سلبية، فبدلا من أن تطلق له العنان ليفكر فيما حوله ويعدله ويطوره، وبذلك يشارك في تطوير الحياة وترقيتها... بدلا من ذلك قصرت وظيفته على التطلع إلى داخله كي يسترجع ويتذكر لا أن ينشئ ويبدع.

## أصول التصور الإسلامي للطبيعة الإنسانية :

إذا كانت التربية عملية متشعبة، ذات نظم وأساليب متنوعة، تهدف إلى إيصال المربَّى إلى مرحلة الكمال التي هيأه الله لها، فإنه لا يمكن أن نضع منهج التربية لذلك المربَّى إلا إذا عرفنا طبيعته الكلية والجزئية على حد سواء، حتى لا يُصمَّم المنهج لتربية جزء على حساب جزء آخر، بل يُصَمَّمُ لكل الأجزاء، حتى ينمو الكل «الإنسان» بجميع أجزائه في مستوى متكامل متعاضد، لا مفترق ومتناقض.

وتقوم القاعدة النفسية لمنهج التربية في الإسلام على الأصول التالية:

١- أن الإنسان مفطور على الإيمان بالألوهية والوحدانية.

٢- أن الطبيعة الإنسانية طبيعة مزدوجة.

٣- أن الإنسان خلق باستعدادات متساوية للخير والشر.

٤- أن الإنسان خلق بقدرة واعية كامنة قادرة على الاختيار الحر.

٥- أن تبعة أعمال الإنسان ومسئولياته تقع عليه وحده.

٦- أن حاجات الإنسان مزدوجة بازدواج طبيعته.

والآن نتناول هذه الأصول بشيء من التفصيل فيما يلي:

### الإنسان مفطور على الإيمان بالله وحب الخير:

لاشك أن الله خلق الإنسان مفطورا على الإيمان بالله وحب الخير، فالله- سبحانه- أحسن كل شيء خلقه، ويفهم هذا صراحة من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين].



فالحقيقة الرئيسية في هذه الآيات هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فطرة واستعدادا- كما يقول الأستاذ سيد قطب- ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه، وبينه له، وتركه ليختار أحد النجدين. ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة، ويملكونها بالإيمان والعمل الصالح، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال(١).

وتتضح نفس هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف].

هنا تعرض قضية التوحيد من زاوية عميقة، وهي زاوية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر! فالاعتراف بربوبية الله فطرة في الكيان البشرى، ولقد شهد الكيان البشرى على نفسه بهذه الحقيقة وذلك بحكم وجوده فوجوده يعني هذه الحقيقة، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى.

فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق. لكن رحمة الله اقتضت ألا يكلهم إلى أنفسهم، فقد تنحرف عن الفطرة وألا يكلهم إلى عقولهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل(٢).

فحقيقة التوحيد مركوزة في الفطرة الإنسانية، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها، عامل يستغل الاستعداد البشرى للهدى والضلال، وهو استعداد كامن تخرجه إلى حيز الوجود الملابسات والظروف التي ينشأ فيها الإنسان. يوضح هذا صراحة قول رسول الله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»** (رواه البخاري ومسلم).

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ٦، ص ٣٩٣٢ - ٣٩٣٣.
(٢) المرجع السابق: جـ ٩، ص ١٣٩٣.



## ازدواج الطبيعة الإنسانية:

الطبيعة الإنسانية في الإسلام طبيعة مزدوجة، فالإنسان مكون من جسم وروح. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك صراحة، في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)**﴾ [ص].

يقول الأستاذ سيد قطب، في تفسيره لهذه الآية: «لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين» كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين. فمن الطين كل عناصرها. فيما عدا سر الحياة الذي لا يدرى أحد من أين جاء ولا كيف جاء. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر. وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنسانا... فهو من أمه الأرض، ومن عناصرها تكون. وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهي المجهول وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التي حددت خط سيره في الحياة.

«ونحن نجهل كنه هذه النفخة، لكننا نعرف آثارها، فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض.. ميزته بخاصية القابلية للرقي العقلي والروحي.. هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي، ويصمم خطط المستقبل. وجعلت روحه تتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ليتصل بالمجهول للحواس والعقول.

«وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصية إنسانية بحتة، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض. وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء. ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس- ولا أحد أفراده- عقليا أو روحيا. حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي.

لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري؛ لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض، وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له. حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات.

لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة. ومن يومها وهو يرتقي كلما اتصل بمصدر تلك النفخة، واستمد من هذا المصدر في استقامة. فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي، فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق، ولا تتجه الاتجاه

المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام، وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه، إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي، ولو تضخمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة»[1].

### خلق الإنسان باستعدادات متساوية للخير والشر:

لقد خلق الله الإنسان مفطورا على الإيمان وحب الخير، لكنه خلقه- في نفس الوقت- مزودا باستعدادات متساوية للخير والشر، كما خلقه مزودا بقدرات كامنة فيه قادرة على توجيهه إلى الخير وإلى الشر سواء. وجعل تبعة أعماله ومسئولياته تقع عليه وحده. ولقد أكد القرآن الكريم هذه القواعد في كثير من الآيات:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير الآيات الثلاث الأولى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

«إن الإنسان يغتر بقوته، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة. ويضن بالمال. والله هو المنعم عليه بهذا المال. ولا يهتدي ولا يشكر وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات: جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار. وميزه بالنطق، وأعطاه أداته المحكمة: «ولسانا وشفتين»... ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، الهدى والضلال، والحق والباطل: «وهديناه النجدين»... ليختار أيهما شاء، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين. والنجد: الطريق المرتفع. وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على

(١) المرجع السابق، ج٣٠، ص٣٠٢٧.



سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله في الخلق، وإعطاء كل شيء خلقه، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود»(١).

**﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾[الإنسان].**

«هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير، ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة، وسلطت عليه النور، وجعلته شيئا مذكورا، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا؟... والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال. ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى «الإنسان»... حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان!.

أما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه، فكانت له قصة أخرى: **﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾** والأمشاج: الأخلاط. وربما كانت هذه إشارة إلى تكوين النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح. وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة، والتي يمثلها ما يسمونه علميا «الجينات» وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا، ولصفات الجنين العائلية أخيرا، وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان لا جنين أي حيوان آخر، كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة...

«خلقته يد القدر هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثا ولا جزافا ولا تسلية، ولكنه خلق ليبتلي ويمتحن ويختبر. والله -سبحانه- يعلم ما هو؟وما اختباره؟ وما ثمرة اختباره؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود، وأن تتبعه آثاره المقدرة. ويجري وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه.

ومن ثم جعله سميعا بصيرا. أي زوده بوسائل الإدراك والمعرفة، ليستطيع التلقي والاستجابة. وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار، ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار...(٢)

---

(١) المرجع السابق، ج٣٠، ص ٣٩١٠ - ٣٩١١.
(٢) المرجع السابق، ج٢٩، ص ٣٧٧٩ - ٣٧٨٠.

ثم زوده إلى جانب المعرفة، بالقدرة على اختيار الطريق، وبين له الطريق الواصل. ثم تركه ليختاره، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وعبر عن الهدى بالشكر؛ لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا. ووهب له السمع والبصر، وزوده بالقدرة على المعرفة، ثم هداه السبيل، وتركه يختار... الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة. فإذا لم يشكر فهو الكفور...[1].

ثم يلخص لنا الأستاذ سيد قطب كل ما سبق- في سياق تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]... فيقول: وهذه الآيات الأربع بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾... وآية سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾... تمثل القاعدة النفسية للإسلام... وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان، كقوله تعالى في سورة «ص» ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[ص]... كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية: كقوله تعالى في سورة المدثر: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾... والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان، كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.. ﴿١١﴾ ﴾.

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها... «إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه. ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٨٠.

وإلى الشر سواء. وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: ﴿ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (٨)﴾... ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾... فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد... والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك.

«وهناك إلى جانب الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان. هي التي تناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر... فقد أفلح. ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾»(١).

## تبعة أعمال الإنسان تقع عليه وحده:

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء، فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب...

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موحيات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله... وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه. وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان. وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام.

## حقائق أساسية:

تنبثق من هذه القواعد الأساسية لأصول الإسلام النفسية مجموعة حقائق ذات قيمة كبيرة في منهج التربية الإسلامية. ونتناول هذه الحقائق فيما يلي:

**الحقيقة الأولى** هي أن الإنسان من خلق الله وأنه مفطور على توحيد الله، وأن الاعتراف بربوبية الله فطرة في الكيان البشري.

---

(١) المرجع السابق، ج٣٠، ص ٣٩١٧ - ٣٩١٨.

الحقيقة الثانية هي أن الطبيعة الإنسانية طبيعة مزدوجة. وازدواج الطبيعة الإنسانية يعني أربعة أمور أساسية:

١- إن الإنسان مكون من جسم خلقه الله- بجميع مكوناته- من طين الأرض، ثم نفخ فيه من روحه، فكان الإنسان. فهو مكون من جسم ومن روح. أما الجسم فهو مكون من جميع الأجهزة والأعضاء، بما في ذلك السمع والبصر والعقل. نعم العقل، فالعقل ما هو إلا جهاز من الأجهزة التي خلقها الله في الجسم، لتقوم بوظيفة من وظائف الجسم، مثله في ذلك مثل جهاز السمع، وجهاز البصر، وجهاز النطق، وجهاز الهضم... إلى آخره. إلا أن هذا الجهاز... العقل... جهاز مسيطر ومنظم للأجهزة الأخرى. ومع ذلك فأداؤه لوظيفته يتأثر بمدى صحة وكفاية الأجهزة الأخرى كالسمع والبصر مثلا. ونظرا لوظيفة العقل الحاكمة والمسيطرة على أجهزة الجسم الأخرى، فسنفرد له- تجاوزا- مكانا خاصا بجانب الجسم والروح، ونقول: إن الإنسان مكون من جسم وعقل وروح.

ومنهج التربية الإسلامية يعني بتربية الجسم كله: بجميع طاقاته وأجهزته، بما فيها السمع، والبصر، والفؤاد أو العقل. وهو ينمي في هذا الجسم المعرفة، وينمي فيه المهارة وينمي فيه المشاعر والعواطف والقيم الإنسانية التي تساعده في القيام بمهمته في عمارة الأرض، واستغلال خيراتها وطاقاتها لترقية الحياة وفق منهج الله.

فالإسلام- على سبيل المثال- يربي الجسم على أساس أنه جزء في كيان واحد ممتزج الأجزاء. يربيه بالرياضة، بجميع أنواعها، فهي جزء من منهج التربية الإسلامية، الذي يقصد إلى توفير الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة الإنسانية، بما فيها من كد وكدح واستمتاع. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف] ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]، فإذا كان المقصود من تربية الجسم هنا أن يكون قويا قادرا على احتمال المشاق وبذل الجهد، فإن الهدف أيضا هو إقداره على الحياة، والاستمتاع بخيراتها. فالغاية النفسية هنا مقامة على قاعدة جسمانية بقصد تحقيق الاعتدال والاتزان داخل الطبيعة الإنسانية المزدوجة.

والجسم به طاقات هامة لابد من تعليمها وتدريبها كي تقوم بوظائفها الحاسمة في الحياة الإنسانية، فالسمع، والبصر، والعقل، أجهزة لها طاقات معجزة، ولابد من إعداد

هذه الأجهزة الإنسانيـة وتدريبها كي تساعد الإنسان في التـفكير والتدبر وحسن الأداء: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

فاسـتخدام هذه الأجـهزة بأقصى طاقاتـها وقدراتها هو سـبب التقدم والحـضارة وإهمالها هو سبب التخلف والانهيـار- كما يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي -ولذلك ينعي الله على كـثير من خـلقه أن. . . ﴿ .. لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف]. فهذه طاقات لا تؤدي وظيفتـها لمجرد وجودها. ووظيفة المنهج هو شحذ هذه الطاقات والقدرات بحيث تعطي أقصى ما لديها في إعمار الحياة(١).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: هل يعني منهج التربية الإسلامية بتربية الروح أيضـــا؟ أغلب الـظن- عندي- أن الروح لا تربـى وإنما الذي يربى هو الـنفس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]. والنفس هي جمـاع الشخـصية الإنسـانية، أي الإنسان كله، بجميع مكوناته: الجسمية، والعقلية والوجدانية.

أمـا الروح، فـهي شيء من روح الله، وسـر من أسـراره، لا نعلم مـاهيـتـهـا وتكوينها، ولقد أمرنا ألا نسأل عنها، أو نناقش فيها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء]. فإذا كنا لا نعلم عن الروح شيئا، ولا نعلم مـاهيتها، ولا تكوينها، فكيف نضع منهجا لتـربيتها؟ وإذا كانت روح الإنسان ما هي إلا نفخة من روح الله -سبحانه-، فهل هي في حاجة إلى تربية؟.

أغلب الظن أن الذي يربى في الإنسان هو جـسمه، بجميع أجهـزته، وأعضائه، وعقله، ووجدانه ومـشاعره وانفعالاته وأحـاسيسه. إننا لو ربينا السمع والبـصر والفؤاد والوجدان تربية سليمة صحيحـة وفق منهج الله، فإننا نكون قد أزحنا الحواجز والعقبات التي تعـوق الروح عن الانطلاق بالنفـس الإنسانيـة نحـو الخـير والحق، نحـو الهـدى والرشاد. وبذلك ينطلق الإنسان في عمارة الأرض، واستخـدام طاقاتها، والتحليل فيها والتركيب بقـصد ترقيتـها، فوظيفة منهج التـربية الإسلاميـة هو تربية كل قوى الإدراك

(١) انظر: علي أحمـد مدكور: المفاهيم الأسـاسية لمناهج التـربية، الفصل الخـاص بتربية الطاقات الإنسـانية وتدريبها.

والشعـور التي خلقها الله في الإنسـان، تربية ربانية، ،وبذلك يفـسح المجال للروح من أجل السمـو الإنساني الذي يتحقق بأداء الإنسـان لوظيفته، التي خلق لهـا، على أكمل الوجوه.

٢- الأمر الثـاني الذي يعنيه ازدواج الطبيعـة الإنسانية، أن الإنسان قـد خلقه الله مزودا باسـتعدادات متـساوية للخيـر والشر على السواء. فـفي طبيعـته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين.

٣- الأمر الثالث الذي يعنيـه ازدواج الطبيعة الإنسانيـة، أن الله قد خلق الإنسان مزودا بقدرات كامنة فيه قادرة على توجـيهه إلى الخير وإلى الشر. فقد أودع في نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر والهدى والضلال، والحق والباطل. كـما زوده بكل وسائل الإدراك والتمـييز والتدبر، وأهمهـا السمع والبصر والفؤاد والنطق. . . وكل الوسائل التي تسهل له الاختيار، وتيسر له وظيفته في الحياة.

٤- الأمر الرابع التابع لازدواج الطبيعة، والناتج عنها في نفس الوقت هو التبعة، أو المسئولية الإنسانية. فالإنسان لم يخلق عبثا ولا جزافا، ولكنه خلق ليبتلى ويختبر. وثمرة اختباره لابد أن تظهر في صورة نتائج إيجابية عملية في واقع الأرض. فهناك إلى جانب الاسـتعدادات الفطرية فيه، قوى واعـية مدركة. وموجهة، هي التي يناط بها التبعة. فمن استخدام هذه القوى المدركة الواعية كالسمع والبصـر والفؤاد في تزكية نفسه وتطهـيرها، فقد أفلح، ومن أهمل هذه القوى وأعماها وأضعفها، فقد خاب.

هنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القـوة الواعية القادرة على الاختيار الحر وتوجـيه الاستعـدادات الفطرية القابلة للنمو في حـقل الخير وفي حـقل الشر على السواء. فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب.

**الحقيقة الثالثة** من الحقائق التي تنبثق من أصول نظرية الإسلام النفسية هي أن هذه الأصول «ترتفع بقـيمة هذا الكائن الإنسـاني، حين تجعله أهلا لاحتـمال تبعـة اتجاهه، وتمنحه حرية الاختـيار. فالحرية والتبعة يضعـان هذا الكائن في مكان كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عاليـة تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها مـن روحه، وسواها بيده، وفضلها على كثير من العالمين»(١).

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩١٨.

**الحقيقة الرابعة**، هي أن هذه الأصول لنظرية الإسلام النفسية «تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا) وتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى. وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ﴿.. **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿١١﴾ ﴾[الرعد].

**الحقيقة الخامسة**، هي أن الإنسان محكوم بطبيعته، وهي أنه مخلوق حادث، ليس كليا ولا مطلقا، وليس أزليا ولا أبديا. ثم إنه مخلوق ضعيف، تغلبه الشهوة أحيانا، ويلازمه جهله بنفسه وبكثير من الأحوال حوله في كل حين. سخر الله له ما في السموات والأرض، لكن أمورا كثيرة صغيرة غير مسخرة له، وغير مذللة له، هي آية ضعفه وعجزه وحاجته الدائمة إلى الله. ثم هو مخلوق مدرك. لكن إدراكه محدود بما تمده به طبيعته، ومحدود بحدود وظيفته، وهي القيام بحق الخلافة في الأرض، أي عبادة الله، عن طريق عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، بلا زيادة ولا نقصان؛ ولهذا فإن هناك أمورا لا يحتاج إليها في وظيفته، ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها، أو إدراك ماهيتها.

**الحقيقة السادسة**، هي أن الإنسان لا يستطيع أن يضع منهجا لنفسه، ولا أن يشرع لحياته، لأنه ليست لديه القدرات والإمكانات التي تمكنه من ذلك فهو- كما يقول الأستاذ سيد قطب- يجهل كثيرا من حقائق الكون حوله، وهو يجهل نفسه، ويجهل نتائج تصرفاته، ويخضع لشهواته ونزواته، وهذه كلها عوامل تجعل من الخطر على وجوده وعلى الأرض الذي جاء لعمارتها، أن يتولى هو وضع شريعته ومنهج حياته. فهو معفى من هذا. فالذي خلقه وخلق الوجود من حوله وخلق جميع الكائنات، من حقه أن يشرع لهم منهج حياتهم الذي به يحققون غاية وجودهم ومقصد خلقهم؛ لأنهم غير قادرين على ذلك لجهلهم وضعفهم: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية]. ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة].

**الحقيقة السابعة**، أن هذه الأصول «تشعر الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه.



وبذلك يظل قريبا من الله، يهتدي بهدية، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق![1].

**الحقيقة الثامنة**، وهي بديهية بعد كل ما سبق- هي أن الإسلام يرفض رفضا باتا فكرة عزل الإنسان عن المجتمع الإنساني بحجة إبعاده عن مصدر الشرور والآثام! لأن الله خلق الإنسان، وبين له طريق الهدى والضلال، وزوده بالإرادة الحرة، وقوى الإدراك الواعية، كي يقوم على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله وشريعته، وهذا يتعارض مع القول بعزله عن المجتمع أو إبعاده عنه.

**الحقيقة التاسعة**، وهي مترتبة على كل ما سبق- هي أن مهمة منهج التربية الإسلامية هي تربية الإنسان (عن طريق تعلمه لمنهج الله وشريعته) وتنميته تنمية شاملة متكاملة، بحيث يصل إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها. وبذلك يكون قادرا على تطبيق منهج الله في واقع الأرض: سياسة، واقتصادا، واجتماعا، وتربية. وبذلك يرتبط الفرد بالمجتمع، وترتبط الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة.

**الحقيقة العاشرة**، هي أن النفس يقصد بها في الإسلام جماع الشخصية الإنسانية. أي أن الإنسان كله، بجميع مكوناته: الروحية والجسمية- بما في ذلك العقل، والوجدان، والدوافع الفطرية، والانفعالات والحاجات- يسمى نفسا. ولا شك أن هناك اتصالا وثيقا، وتفاعلا مشتركا بين الكل (النفس) وجميع مكوناته. فنحن لا نستطيع- كما يقول الأستاذ محمد قطب- أن نتحدث عن نشاط جثماني واحد لا يدخل في نطاق النفس، فالسمع والبصر والعقل والذوق والشم واللمس... إلخ، كلها حواس وأجهزة. لكننا حين نتحدث عنها في مجالها الحيوي الشامل، نتحدث عنها كحواس وأجهزة موصلة إلى غاية. موصلة إلى أثر نفسي معين، يتحقق عن طريق استخدامها، فالعين ذاتها بلا وعي، والأذن ذاتها بلا سمع، والعقل ذاته بلا فهم. والذوق والشم واللمس... إلخ، كلها لا قيمة لها في حياة الإنسان إذا لم يكن لها انعكاسات مؤثرة في محيط النفس[2]: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ١٧٩**﴾ [**الأعراف**]، فالغافلون هنا لهم حواس وأجهزة سليمة وصحيحة من حيث تركيبها العضوي، وبالرغم من هذا فهم «غافلون»- كما يقول

---

(١) المرجع السابق.

(٢) محمد قطب، مرجع سابق، جـ١، ص ١٠٤ .

القرآن- ﴿ .. وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾،لأن حواسهم لا تؤدي وظيفتها النفسية. وبذلك فهي لا تعين الإنسان على أداء وظيفته التي خلقه الله من أجلها، ألا وهي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

### دوافع السلوك:

السلوك الإنساني ذهنيا كان أو معرفيا أو وجدانيا أو حركيا لابد له من دوافع تحركه نحو غايات يحققها. فدوافع السلوك هي كل ما يدفع إلى السلوك من أجل تحقيق هدف أو أهداف معينة.

وقد اختلفت مدارس علم النفس في تفسير دوافع السلوك باختلاف الفلسفات المؤمنة بها، والمنطلقات التي تبدأ منها.

### نظرية الغرائز:

«يرى مكدوجل أن جميع الدوافع التي تثير نشاط الفرد يمكن أن ترد إلى دوافع أساسية نهائية هي الغرائز. فالغرائز هي المحركات الأولى لكل نشاط حركي أو عقلي أو وجداني، فردي أو جماعي.. وهي لا تزود الإنسان بالقوة الدافعة فقط، بل تحدد غايات سلوكه أيضا.

«والغريزة كما يعرفها هي استعداد فطري نفسي جسمي يدفع الفرد إلى أن يدرك ويتنبه إلى أشياء من نوع معين، وأن يشعر بانفعال خاص عند إدراك هذه الأشياء، وأن يسلك نحوها مسلكا خاصا، إذن فلكل غريزة مثير ينشطها، وانفعال يصاحبها، وسلوك يصدر عنها.

ويشترك الإنسان مع الثدييات العليا في مجموعة من الغرائز كالتماس الطعام، والراحة، والتنفس، والجنس، والإخراج، والوالدية، والاستطلاع، والاجتماع، والسيطرة، والمقاتلة... إلخ».

«والغرائز عامة يشترك فيها الناس جميعا، في كل سلالة، وفي كل حضارة، وفي كل عنصر. وهي دوافع فطرية لا تكتسب ولا يمكن استئصالها أو القضاء عليها».

«وتتعدل الغرائز عند الإنسان، فتشتق منها العواصف والعادات والميول والحاجات الفرعية المختلفة، فهي ليست المحركات الوحيدة للسلوك، لكنها الأساسية الأولى».

إن ارتقاء الحيوان وزيادة ذكائه نتيجة للنمو والتدريب لا تؤدى إلى ضمور الغرائز أو زوالها، بل إلى زيادة قدرة الحيوان على التحكم فيها[1].

---

(١) محمد رشاد خليل: المرجع السابق، ص ١١٦، ١١٧.



**المدرسة السلوكية:**

إن مدرسة الغرائز فرع (مكدوجل) خاصة هي أقرب مدارس علم النفس إلى علم النفس الإسلامي بسبب تأكيدها على أن الغرائز هي دوافع فطرية موروثة لا تكتسب، ولا يمكن استئصالها أو القضاء عليها. وهي لهذا السبب قد تعرضت لهجوم شرس من المدرسة السلوكية أدى إلى اختفائها تقريبا من كتب علم النفس الغربي.

وهجوم المدرسة السلوكية على نظرية الغرائز لا يقوم على أساس أن هناك حقائق علمية موضوعية تصادم هذه النظرية، بل يقوم على أساس أن المدرسة السلوكية لا تؤمن بالفطرة، ولا تؤمن بالسجايا التي فطر الله الناس عليها، بل تؤمن بأن البيئة هي التي تصنع الإنسان، وهي التي تكسبه دوافعه وميوله وشخصيته، فالنقد قائم إذن على أساس اعتقاد معين وليس على أساس حقائق قررها العلم. وهذا الاعتقاد يقوم أساسا على إنكار أن الله خلق كل إنسان بقدرات واستعدادات كامنة فيه تجعله يختلف عن غيره، وأن كل إنسان كماله الخاص به، الذي وهبه الله له.

«إذن فالمدرسة السلوكية تنطلق من إنكار الخلق والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وذلك لحساب البيئة والمجتمع. وسيادة هذه المدرسة في ميدان علم النفس الغربي لا يرجع إلى تفوقها العلمي وإنما يرجع إلى التفوق الأمريكي والروسي، وإلى الإمكانيات الهائلة التي وضعت في خدمة هذه المدرسة من أجل تحقيق السيطرة على العالم.

إن المدرسة السلوكية تنكر كل دافع خارج حدود البيئة والمجتمع. وبذلك تنكر وجود قوى داخلية في النفس التي هي- كما سبق أن قلنا- جماع شخصية الإنسان بروحه وجسمه. وبذلك تنكر الإيمان بالله كدافع للسلوك وكذلك كل ما هو غيبي، كالجن، والملائكة، والنفس الأمارة، والنفس اللوامة، والضمير الإنساني، والإرادة.

وتتبنى المدرسة السلوكية بدلا من الغرائز ما يسمى بالحافز. فالحافز هو نمط من الاستثارة الملحة تنتج عن حاجة في الجسم أو في الأنسجة... وكل الحوافز تنشأ من ظروف جسمية فسيولوجية مثل الجوع والعطش وغيرها. ويتساءل الدكتور محمد رشاد خليل متعجبا: تُرى ما هي الحاجة الملحة التي تدفع لصا ليس جائعا إلى السرقة؟! والحافز الجسمي الذي يدفع الأمريكي الأبيض إلى قتل الأسود وسرقته؟ وما المثير البدني الذي يدفع الروس إلى قتل الأفغان واحتلال أرضهم؟! ترى ما الذي يدفع المتعبد إلى العبادة، والمتدين إلى التدين، والشاعر إلى الشعر، والكريم للبذل، والأمين للأمانة، والصادق للصدق... إلخ؟!



إن موضوع التربية- بناء على مفاهيم هذه المدرسة- هو الإنسان الحيوان، التي لا تربو تصرفاته عن أن تكون ردود أفعال أو استجابات آلية لمثيرات خارجية. فلا ضمير، ولا حرية، ولا إرادة إنسانية، ولا إرادة إلهية، ولا نفس أمارة بالسوء، ولا نفس لوامة، ولا شيء غير التفاعلات الكيميائية والنبضات الكهربائية!

وأهداف التعليم كلها منصبة على تكوين عادات ذهنية وحركية واجتماعية، تمكن الإنسان الحيوان من أن يعيش في القطيع الاجتماعي، وأن يتصرف مع الأشياء حسب مفاهيم الفلسفة البراجماتية النفعية، التي ترى أن المصلحة هي المقياس لكل شيء، فلا أخلاق خارج حدود المصلحة الاجتماعية القومية، ولا معايير ثابتة للحكم على السلوك والأخلاق، ولا حقائق إلهية، ولا دين ولا شرائع سماوية!

«أي إهدار للعقل جاءت به المدرسة السلوكية، وكيف تنازل العقلاء عن عقولهم ليتبعوا ما جاءت به من أكاذيب وضلالات وسخافات؟ كيف تنازل الناس عن إنسانيتهم وقبلوا طائعين أن يكونوا كالحجارة والحيوانات، إنها الفتن التي تأتي كقطع الليل المظلم وتحول بين العاقل وعقله، وبين الإنسان وإنسانيته، وبين المسلم وإسلامه»(١).

**مدرسة الإسلام:**

في علم النفس الإسلامي هناك عوامل غيبية، وهناك عوامل مشهودة كلها تعمل كدوافع للسلوك. وإذا أخذنا التقسيم المشهور للدوافع إلى دوافع غريزية، ودوافع مكتسبة، ودوافع غير شعورية. فإننا نجد ما يلي:

**أولا:** بالنسبة للدوافع الغريزية فإن مدرسة الغرائز وإن كانت قد اتفقت مع الإسلام في أنها فطرية وموروثة إلا أنها لم تقل بأن الله غرزها في النفس الإنسانية، وإنما هي مغروزة في الإنسان بحكم الطبيعة. وهذا إلحاد صريح، لكن الإسلام يقول: إن الله قد أودعها في خلق النفس وفطرتها: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)**﴾ [الشمس].

**ثانيا:** بالنسبة للدوافع المكتسبة، فإن الإسلام يفرق بين العواطف والميول مثل الحب والكره والرضا والسخط... إلخ، فكل هذه غرائز فطرية خلقها الله في الإنسان: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)**﴾ [الروم] ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)**﴾ [آل عمران].

(١) انظر: المرجع السابق، ص ١١٨.



وهكذا، فالعواطف والميول خلقها الله في النفس، لكن توجيهها إلى أشخاص أو أشياء بعينها هو المكتسب. فالإنسان مفطور على الحب، لكن البيئة قد توجهه إلى حب الله ورسوله، وقد توجهه إلى حب صنم أو دجال أو فنان.. إلخ.

**ثالثا:** يطلق على الدوافع غير الشعورية عموما بأنها الدوافع التي لا يشعر الفرد بها أثناء قيامه بالسلوك مثل الحاجات النفسية والاتجاهات النفسية، والعادات القوية، ومستوى الطموح- بالإضافة إلى الدوافع المكبوتة وهي التي يشعر الفرد بوجودها ولا يعترف بها لنفسه، مثل عقدة النقص لأدلر وهي من أقوى دوافع السيطرة، ومثل عقدتي أوديب وإلكترا.. إلخ.

ويرى الدكتور محمد رشاد خليل أنه لا يوجد «لا شعور» في الإسلام، وإنما هناك جانب مغيب من النفس، وهو الجانب الذي لا نعرف عنه إلا القليل؛ لأن النفس أصلها الروح، وهي علمها عند الله- وقد بين الإنسان أن النفس تتأثر بالمؤثرات الخارجية، وأن الأحداث تترك أثرها في النفس، وأن هذا الأثر قد يكون حميدا وقد يكون سيئا، وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا حسية لهذا الأثر بالنكتة البيضاء والنكتة السوداء. كما ضرب لنا المثل في حديث القلوب الثلاثة والتي هي الأحوال الثلاثة للنفس. فالقلوب تمرض ويكون من أمراضها الكره والحقد، والغيرة والحسد والقلق والاكتئاب، كما أنها تصح ومن علامات صحتها حب الخير، والإيثار، والاطمئنان والرضا. وأساس ذلك كله أن الله قد ابتلى الإنسان بالخير والشر فتنة ﴿.. **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً..** ﴿٣٥﴾﴾[**الأنبياء**]، وأنه أمد الإنسان بأسباب هذا وذاك، فمن سلك طريق الخير صحت نفسه، ومن سلك طريق الشر مرضت نفسه.

وعلى هذا فليس في الإسلام ما يسمى «باللاشعور» وليس هناك ما يسمى «بالعقد المكبوتة» وإنما هي أمراض تغلب على النفس من أحوال الشر التي تصيبها، وأنه يستعان عليها بالأدوية التي وصفها الإسلام بعلاج النفوس والقلوب كما يقول ابن تيمية في الحسد والغيرة وغيرهما.

### ضبط الدوافع لا كبتها:

ليس الضبط في الإسلام هو الكبت لدى مدرسة التحليل النفسي. وإنما الضبط هو عملية نفسية: عقلية وإرادية، وليس مجرد عملية بيولوجية شعورية أو غير شعورية. فقصر الضبط على الجانب البيولوجي يعني قصر الضبط على الجسم وحده، في حين أن الأصول الصريحة تدل على أن الضبط هو وظيفة النفس التي هي جماع شخصية الإنسان

بما في ذلك عقله وإرادته: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس].

ويشبه ابن القيم ضبط الدوافع الفطرية بالنهر الذي يهدد حياة قرية مجاورة، ويختلف أهلها حول ما يجب عمله لدرء خطره، الفئة الأولى ترى ترك النهر على ما هو عليه، وهذه سوف يجرفها النهر عاجلا أو آجلا. وهذه الفئة حالها كحال من يسمح للدوافع الفطرية بالتعبير عن نفسها بغير ضبط ولا تهذيب.

وترى الفئة الثانية درء الخطر عن طريق سد منابع النهر تماما. وهؤلاء حالهم كحال من يكبت الدوافع الفطرية التي هي غريزة في خلق الإنسان وفطرته، وكبتها لا يعني القضاء على وجودها ولذلك تظل تتحين الفرص للظهور والإشباع، فإذا ما قاومها الإنسان طويلا فإنها قد تورثه الأمراض النفسية جسمية أو عقلية.

وتعتقد الفئة الثالثة أن درء الخطر يكون عن طريق بناء سد في مجرى النهر لحجز المياه فترة من الزمن. وهؤلاء يؤجلون الغرق بعض الوقت، وقد ينهار السد ويصبح الانهيار محققا.

والفئة الرابعة ترى درء الخطر عن طريق تحويل مجرى النهر إلى مكان آخر صالح للزراعة(١)، وهذا هو الاقتراح الذي ينجي القرية من الغرق. فقد حولوا المياه (أو الدوافع الفطرية) عن طريق الضبط إلى قوة مثمرة خيرة.

وهكذا نرى أن هناك فرقا جوهريا بين الكبت الذي يمنع الدوافع الفطرية من التعبير عن نفسها مما يؤدى إلى الأمراض النفسية، وبين الضبط الذي يوجه الدوافع إلى التعبير عن نفسها بطريقة فيها خير الإنسان والناس جميعا(٢).

إن العقل هو الأداة الأساسية في النفس للضبط، «ولذا سماه العرب عقلا... لأنه يكف ويضبط... يضبط العلم، ويضبط الأهواء والشهوات والغرائز... وتمده من الداخل النفس اللوامة بما فطرت عليه من كراهية الفجور والشر، وتمده من الخارج الشريعة والتربية السليمة»(٣)؛لذا كان من السنة أن يكون أول ما يستقبل الطفل وأول

---

(١) ابن قيم الجوزية مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق، محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٧٢م، ثلاثة مجلدات الجزء الثاني ص ٣١٠ - ٣١٢.
(٢) انظر عبد الرحمن صالح عبد الله: المنهاج الدراسي أسسه وصلته بالنظرية التربوية.
(٣) محمد رشاد خليل: مرجع سابق، ص ١٣٢.



صوت يسمعه هو صوت التكبير، الذي يسن التأذين به في أذنه؛ لأنه ينزل مدركا واعيا، لكنه يحتاج إلى نمو الأعضاء الجسمية التي تسمح له بالتعبير عن وعيه وإدراكه(١).

### الحاجات الإنسانية:

ترتبط حاجات الإنسان بأهداف الحياة الإنسانية وغاياتها عموما، لكن الناس يختلفون في طرق إشباع حاجاتهم. كما يختلفون في أهدافهم، وفي طرق تحقيقها تبعا لاختلاف عقائدهم التي من خلالها يرون الكون والحياة، وعلى أساسها يفسرون السلوك الإنساني وغاياته.

وتندرج الحاجات الأساسية للإنسان من وجهة نظر الإسلام في مجموعتين: مجموعة الحاجات العضوية المتصلة بجانب الجسم، وإن كان لها بعض الغايات الوجدانية، ومجموعة الحاجات الشعورية والانفعالية المتصلة بجانب الوجدان والضمير. وهذان النوعان من الحاجات ضروريان لقوة النفس وأمنها واستقرارها: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾**﴾ [قريش] فالحرمان منهما لون من ألوان العقاب والفزع للنفس الإنسانية: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾**﴾ [النحل].

### الحاجات العضوية:

إن إشباع الحاجات العضوية- كالحاجة للطعام والشراب والإخراج والجنس والراحة- أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه. لكن الإسلام لا يعتبر إشباع هذه الحاجات غاية في ذاته، بل لإمداد الإنسان بالمتعة والقوة اللتين تحققان له التوازن وتعينانه على عبادة الله، عن طريق أدائه لوظيفة الخلافة في الأرض أحسن الأداء، فإشباع الحاجة الجنسية- مثلا- ليس من أجل المتعة فقط، بل أيضا من أجل ضمان حفظ النوع البشري، وتنظيم حياة الفرد والأسرة والمجتمع: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ [النحل].

---

(١) المرجع السابق.

إن إشباع الحاجات العضوية يؤدي إلى تحقيق بعض غايات النفس الإنسانية، وهي تحقيق المتعة والقوة والطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة كما أرادها الله: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [**الأعراف**].

**الحاجات الوجدانية:**(١)

أما الحاجات الوجدانية فهي حاجات ضرورية أيضا، ويستحيل إغفال إشباعها مع الإبقاء على توازن الكل الإنساني أو النفس الإنسانية، ومن أهم هذه الحاجات وأولاها هي الحاجة إلى الإيمان بوحدانية الله وألوهيته، وإلى الاعتماد عليه، والاستنجاد به. فهذه حاجة فطرية في النفس الإنسانية، فطر الله الناس عليها: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴿١٧٢﴾ ﴾ [**الأعراف**].

فالإنسان مفطور على الإيمان بالله الواحد، وهو لا يميل عن التوحيد إلا إذا فسدت فطرته بعوامل خارجية، ومهما طالت فترة الانحراف عن الفطرة، فلابد من العودة إليها، وإلا انعدم التوازن النفسي.

ومن الحاجات الوجدانية الهامة: الحاجة إلى الأمن والاستقرار، والحاجة إلى الحب وتقدير الآخرين، والحاجة إلى التقدير الذاتي والاجتماعي، والحاجة إلى تحقيق الذات، فالحاجة للأمن والاستقرار أساسية لعطاء الإنسان وإنتاجه ومساهمته في عمارة الأرض؛ ولذلك أمر الله الإنسان أن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه، وألا يلجأ إلى الإفساد في الارض، فمن شأن هذا أن يوفر الأمن والاستقرار في نفوس الناس: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٧٧﴾ ﴾ [**القصص**].

ويهدف إشباع الحاجة إلى الحب إلى تحقيق الود والتعاون، وتخليص النفس من أوشابها وأدرانها. ولقد حرص الرسول ﷺ حينما هاجر إلى المدينة أن يقيم مجتمعا على أساس المحبة والإخاء. فكان أول شيء فعله هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فكان ذلك الحب والإخاء في الله الذي لم يشهد له التاريخ مثيلا. وقد كانت النتيجة هي العزة والقوة والمنعة والنصر: ﴿ **وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ**

---

(١) لم أسم هذه الحاجات بالحاجات «النفسية» كما هو شائع؛ لأن النفس كما سبق أن عرفنا هي جماع شخصية الإنسان، وعلى هذا فكلا النوعين من الحاجات العضوية والوجدانية هما حاجات نفسية.



بنصره وبالمؤمنين ﴿٦٢﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال].

أما حاجة تحقيق الذات، فهي من أهم الحاجات، وإشباعها ضرورة ملحة للشخصية السوية. والهدف من إشباعها هو تحقيق إنسانية الإنسان، عن طريق احترام الفرد لذاته، وشعور الآخرين معه بإيجابية دوره وفعاليته في واقع الأرض.

ولقد يسر الإسلام كل السبل أمام الإنسان كي يحقق ذاته:

- فزوده بالاستعدادات الكامنة فيه والقابلة للخير والشر.
- وزوده بالقدرات الكامنة والموجهة لاستعداداته.
- سخر له ما في البر والبحر لخدمته وتيسير مهمته في عمارة الأرض.
- كرمه وفضله على كثير ممن خلق: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]
- زوده بالإرادة الحرة التي تعمل في إطار المشيئة الإلهية الكبرى.
- جعله خليفته في الأرض ليعمرها ويرقيها.

إنَّ هذا أكثر مما يحتاجه أي مخلوق كي يحقق ذاته. وقد وفره الإسلام للإنسان. إنَّ هذا يلقى على عاتق التربية- بصفة عامة- والمنهج- بصفة خاصة- تبعة كبيرة. وتتمثل هذه التبعة في كيفية استثمار كل هذه الاستعدادات والإمكانات والطاقات الكامنة في ذات الإنسان، وفي الأرض حوله من أجل تحقيق ذات الإنسان. وتحقيق ذات الإنسان يتمثل في حسن أدائه لوظيفته كخليفة لله في الأرض، وفق الفطرة التي فطره الله عليها.

### النمو والتعلم:

إن نمو الإنسان إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها هو الهدف الأسمى لمنهج التربية الإسلامية. فلكل إنسان درجة كمال يمكن أن يصل إليها لو توفرت له الظروف البيئية والتربوية المناسبة.

إذن فالنمو ليس غاية في ذاته في منهج التربية الإسلامية، لكنه وسيله لغاية هي: إيصال كل فرد إلى درجة كماله المهيأ لها من قبل الله. وعلى العكس من ذلك يقف جون ديوى- أحد أبرز المؤسسين للفلسفة البراجماتية- فهو يرى أن «الفكرة القائلة بأن



النمو والتقدم يرميان إلى هدف نهائي لا يتغير ولا يتبدل، هي آخر أمراض العقل البشري في انتقاله من نظرة جامدة إلى الحياة إلى نظرة مفعمة بالحركة»[1]، فليس للتربية هدف نهائي على حد زعم جون ديوى؛ فالتربية- في رأيه- هي عملية نمو، ولا شيء يحدد النمو سوى مزيد من النمو!

لكن النمو قد يسير في اتجاهات غير مرغوب فيها، فعصابات المافيا والحكومات العنصرية تنمي لدى أعضائها المهارة والقدرة على السرقة والاغتصاب والاحتيال، وكلما زاد نموهم في هذا الاتجاه ازداد قيامهم بمؤامراتهم بسهولة ويسر. إذن فلابد من وجود معيار للحكم على قيمة النمو واتجاهه. «ولا يستطيع المرء إصدار حكم على نوعية النمو في قدرة معينة، إلا إذا توفرت لديه معايير تقع خارج تلك القدرة. فالنمو في حد ذاته ليس قيمة؛ وانما تعرف قيمته بعد تحديد الاتجاه الذي يسير فيه»[2].

ومن هنا كان إصرارنا على ضرورة اشتمال التعريف الخاص بمنهج التربية الإسلامية على الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة مع الخبرات الإنسانية المتغيرة، حيث إن اتجاهات النمو في القدرات والمهارات المختلفة، وكذلك في الخبرات الإنسانية المتغيرة، لابد وأن تخضع كلها للمعايير والقيم الإلهية الثابتة، وإلا صارت الأمور إلى فوضى مدمرة وهلاك محقق.

**ومن أهم خصائص النمو ما يلي:**

- أنه نتيجة للتفاعل بين العوامل الوراثية والخبرات المكتسبة من البيئة المحيطة بما في ذلك الخبرات التربوية، وبذلك فالإنسان لا يصل بالنمو إلى درجة كماله الإنساني نتيجة للعوامل الوراثية وحدها، بل لابد من تفاعل هذه العوامل مع العوامل البيئية بصفة عامة، والعوامل التربوية بصفة خاصة.
- أنه متصل اتصالا وثيقا بالنضج. فالنمو لا يسير في الاتجاه الصحيح ولا بالسرعة المطلوبة إلا إذا وصل الإنسان إلى مرحلة النضج المناسبة لذلك. فنمو الطفل في تعلم المشي أو القراءة أو الكتابة لا يسير في سهولة ويسر إلا إذا وصلت الأعضاء الخاصة بذلك الى مرحلة النضج المناسبة.

---

(١) جون ديوي: الديمقراطية والتربية، ط٢، ص٥٨، اقتبسها عنه عبد الرحمن صالح عبد الله: المنهج الدراسي، أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٨٦.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله، في المرجع السابق، ص ٨٧.



- أنه يتجه من العام إلى الخاص، فكل الحيوانات والنباتات بدأت خلية واحدة، ثم انقسمت إلى أعضاء متمايزة.
- أن هناك فروقا فردية في النمو، فالأفراد جميعا لا ينمون بدرجة واحدة، كما أنّ درجات النمو الجسمي والعقلي والنفسي للفرد الواحد لا تسير بسرعة واحدة.

**مراحل النمو:**

تتشابه مراحل النمو والتطور لدى بني الإنسان. ولا عجب في ذلك، فالخالق واحد هو الله -سبحانه وتعالى-. والأب واحد هو آدم -عليه السلام- الذي خلقه الله من طين، ونفخ فيه من روحه. ويمكن القول: إن التصنيف العام لمراحل النمو الإنساني واحد تقريبا، والاختلافات الموجودة بين العلماء في تفسير السلوك والعوامل الكامنة خلفه في كل مرحلة من هذه المراحل إنما ترجع إلى العوامل الاعتقادية والاختلافات الثقافية والاجتماعية(١).

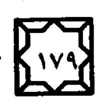
وعملية النمو تتصف بالتدرج والاستمرار. ويمكن تقسيم مراحل النمو وفق المنهج الإسلامي إلى ما يأتي:

- مرحلة الحمل.
- مرحلة الرضاعة.
- مرحلة الطفولة.
- مرحلة البلوغ والمراهقة.
- مرحلة الشباب.
- مرحلة الرجولة والنضج.
- مرحلة الشيخوخة.

**﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۝٥﴾** [الحج].

---

(١) إسحق أحمد فرحان وزملاؤه: نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص٤٦.



**العلاقة بين النمو والتعلم:**

يختلف العلماء في تفسير العلاقـة بين النمو والتعلم، فبينما يهتم برونر Bruner وبياجيه بالنمـو العقلي للمتعلم ومـراحل تفكيره المختلفة، فـإن جانيـه Robert Gagne يهتم أكثر بشروط التعلم، وبالمحتوى المنهـجي، وبكيفية ترتيب الموضوعات بحيث تلائم المتعلم.

فالاستـعداد للتعلم عند جانيـه يعتمد على كـمية ما لدى المتعلـم من معلومات وخبرات سابقة، كما يعتمد على طريقة تنظيم الموضوع أو المعلومات الجديدة، فالشخص يكون مسـتعدا لتعلم فكرة أو مـفهوم مـا إذا كانت لديه أفكار أو خبرات أو مـعلومات سابقة متصلة بالمفهوم أو الفكرة التي يريـد تعلمها. كما أن طريقة تنظيم وعرض الأفكار أو المفهـومات أو المعلومات الجـديدة له دخل كبيـر في إظهار استـعداد المتعـلم للتعلم، ولذلك فنظرية جانييه لا تنظر إلى مراحل النمو العقلي، وإنما تنظر إلى أنواع التعلم التي تعتمد إلى حد كـبير على نوعية الموضوع المعروض للتعلم، وعلـى الخبرات السابقة لدى المتعلم.

والأمر على عكس ذلك عند بيـاجيه وبرونر، فالاستـعداد للتعلم عندهما يعـتمد على النضج العقلي للشخص وطريقة تفكيره بغض النظر عن كمية المعلومات التي لديه. فالشـخص يكون مسـتعدا لتـعلم فكرة أو مفـهوم ما إذا كـان لديه القدرة العقـلية على استـيعاب هذه الفكرة، يعـني إذا كانت طريقة تفكيـره ملائمة لتـقبل الفكرة أو المفـهوم الجديد.

وهكذا يقف أبرز علمـاء هذا العصـر من المربين الغربيين على طرفي نقـيض في تفسـير العـلاقة بين نمو الشـخص المتعلم، ومـحتوى التـعلم أو الموضوع المراد تـعلمه، وحدوث عمليـة التعلم ذاتها. فبينما يـرى البعض أن الاستعداد للتعلم وحـدوث عملية التعلم تتم اعـتمادا على الموضـوع المراد تعلمه، ومدى الخـبرات السابقـة الموجودة لدى المتعلم والمتـصلة بهذا الموضوع، نجد البـعض الآخر يركز على درجة النمـو العقلي التي وصل إليـها المتعـلم وطريقة تفكيـره، بغض النظر عن الموضوع المـراد تعلمه والخـبرات السابقة المتصلة به.

إن الإسلام لا يرى لهـذا التطرف سبـبا ولا داعـيا، فـالتعلم يحـدث لو توفرت الشروط التالية:



- أن يكون المتعلم في مرحلة النمو المناسبة.
- أن يشعر بحاجته إلى الاستعانة بهدى الله.
- أن يستخدم طريقة التفكير المناسبة لموضوع التعلم.
- أن تتوفر لديه الخبرات السابقة التي تعينه على فهم الموضوع الجديد.
- أن يُنظم الموضوع ويُعرض بالشكل المناسب لدرجة النمو العقلي للمتعلمين ولنوعية الموضوع نفسه.

إن الإنسان من وجهة نظر الإسلام ليس جهازا أو حاسبا آليا، تزوده بالمعلومات والمواد الدقيقة من جانب ليعطيك النتائج من جنب آخر. إنه كائن عظيم، خلقه الله في أحسن تقويم. وبث فيه من روحه. فهو يتعلم عن طريق العمل والخبرة المباشرة، ويتعلم عن طريق استخدام العقل في التفكير، ويتعلم أيضا عن طريق الإلهام. يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]: إن القرآن «يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل»(١).

فالإنسان مخلوق عظيم، أعده الله ليكون خليفته في الأرض، وزوده بقوى وإمكانات وقدرات للعمل والتوجيه، نعلم عنها شيئا ونجهل منها أشياء كثيرة.

**خصائص الإنسان المسلم:**

من التصور الإسلامي السابق للفطرة الإنسانية، يمكن القول: إن أبرز خصائص هذا الإنسان الذي يعمل منهج التربية الإسلامية على بنائه، ما يلي:

### هو عبد رباني

الإنسان المسلم عبد رباني مصدرا وغاية، يفهم الإسلام على أنه النظام أو المنهج العام الذي يحكم الحياة. وأن هذا النظام أو المنهج صادر من الله وأن عمل الإنسان فيه تلقيه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في واقع الحياة على الأرض. وأن وظيفته هي الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبادة فيها. وأن العلم عنده هو إدراك قوانين الله في الكون وتطبيقاتها في إعمار الحياة. وأن مهمة العلم والمعرفة هي إقداره على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٢١٨٦.

### وهو حر مسئول

إنه إنسان حر، مكرم على سائر الخلائق في الأرض؛ ومن ثم مسئول ومستخلف من الله فيها، معان من الله، ومسخر له كل ما في الأرض، وعلى هذا فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل تعلو قيمته، أو تهدر من أجلها قيمته.

### وهو يتطور ويرتقي حول محور ثابت

بما أنه عبد رباني صادر من الله وعائد إليه، وأن وظيفته القيام بحق الخلافة في الأرض وفق منهج الله، فهو يحتكم إلى منهج الله في كل شيء، وهو يتغير ويتطور ويتحرك داخل إطار ثابت وحول محور ثابت من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، ويستفيد من كل الخبرات الإنسانية التي لا تتناقض مع هذه الحقائق والمعايير والقيم الإلهية.

### وهو إنسان موحد الاتجاه

والإنسان المسلم موحد الاتجاه، فنشاطه كله حركة واحدة، متجه نحو تحقيق غاية الوجود الإنساني، وهي العبادة، التي تتمثل في عبوديته لله في كل ما ينهض به من شئون الخلافة. وهو مؤمن بأنه لا يوجد نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة. وأن غاية المنهج التربوي هي إعداد الإنسان لتحقيق معنى العبادة.

### وهو إنسان متوازن

وتوازن الإنسان المسلم مسحوب عليه من توازن منهج الله له. فهو يقوم بالتوازن بين ما يتلقاه من الله فيدركه ويسلم به غيبا، وبين ما يتلقاه فيدركه ويحاول معرفة علله وبراهينه وغاياته العملية، وتطبيقاته الواقعية.

وهو يوازن بين المشيئة الإلهية الطليقة، كما يقول الأستاذ سيد قطب، وبين مشيئته هو المحدودة، على اعتبار أن وجوده، وإرادته وعمله، وحركته ونشاطه داخل في نطاق المشيئة الإلهية الطليقة المحيطة بهذا الوجود بما فيه ومن فيه، فهو ما يقرأ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد] وهو يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.. (١١)﴾ [الرعد]. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾ [الأنفال].



وهو يوازن بين عبوديته المطلقة لله، ومقامه الكريم في الكون، فهو بعبوديته لله، كريم على الله، فيه نفخة من روح الله، ومعان من الله، ومسخر له كل ما في الكون، حتى أن الله- سبحانه- أمر الملائكة- وهم عباده المقربون- أن يسجدوا له سجود التكريم، وهذا هو ما جعل ابن تيمية يؤكد أنه: «كلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية، ازداد كماله وعلت درجته»(١).

وهو إنسان متوازن في المصادر التي يعرف منها. فهو يعرف عن طريق النصوص الموحي بها، على اعتبار أن الوحي هو المصدر الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو أيضا يعرف عن طريق النظر والتفكير والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وصفحات الحياة المتغيرة. فهو لا يلغي عقله، ولا يهمل المؤثرات والمحسوسات والأحداث والخبرات في الحياة من حوله، فالكون هو كتاب الله المفتوح الذي يصب المعرفة في الكينونة الإنسانية، كما يصبها الوحي، مع فارق واحد: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون، قابلة للخطأ والصواب... أما ما يتلقاه من الوحي فهو الحق اليقين.

فهو يقرأ في الاتجاه إلى المعرفة عن طريق الوحي قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.. (٩)** ﴾ [الإسراء]... ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)** ﴾ [الجاثية].

وهو يقرأ في الاتجاه إلى المعرفة عن طريق كتاب الكون المفتوح، وصفحات الحياة المتجددة، قول الله تعالى: ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)** ﴾ [الذاريات]... ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)** ﴾ [فصلت].

### وهو إنسان إيجابي

إن الإيجابية الفاعلة هي إحدى خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. فالله سبحانه- إيجابي في علاقته بالكون كله، وبكل ذرة، وكل انبثاقة، وكل حركة فيه. إليه يرجع الأمر كله، وهو- سبحانه- المباشر بعلمه وإرادته وتدبيره لكل عبد، ولكل حي، ولكل شيء في هذا الوجود كله. وقد حفل القرآن بتقرير هذه الحقيقة في كثير من الآيات: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**

---

(١) ابن تيمية: العبودية، تاليف أحمد بن عبد الحليم الحراني، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٥٩، ص ٨٠.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]. ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد].

ولأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض لإعمارها وترقيتها، فلابد وأن يكون إيجابيا إيجابية فاعلة سوية. ويرسم لنا المرحوم الأستاذ سيد قطب صورة الإنسان المسلم الإيجابي، على نحو فريد، فيقول في كتابه القيم، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته:

إن التصور الإسلامي ما يكاد يستقر في الضمير حتى يتحرك ليحقق مدلوله في صورة عملية، وليترجم ذاته في حالة واقعية. والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة، فاعلة في ذات نفسه، وفي الكون من حوله.

إن التصور الإسلامي ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير، قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية! أو تصوفية روحانية! إنما هو «تصميم» لواقع مطلوب إنشاؤه، وفق هذا التصميم. وطالما هذا الواقع لم يوجد، فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته، إلا باعتباره حافزا لا يهدأ لتحقيق ذاته.

هذا ما يثيره التصور الإسلامي في شعور المسلم،ومن ثم يجد دائما هاتفا ملحا في أعماقه يهيب به إلى تحقيق هذا التصور في دنيا الواقع، ويؤرقه، حتى يهب للعمل، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء. وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.

«وحيثما ذكر الإيمان في القرآن، وذكر المؤمنون، ذكر العمل الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان» فليس الأمر مجرد مشاعر. إنما هو مشاعر تفرغ في حركة، لإنشاء واقع، وفق التصميم الإسلامي للحياة»:



﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

فليس هنالك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان أو تصوات في الذهن، لا ترجمة لها في واقع الحياة، وليس هناك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية، ليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله.

وفي طبيعة المنهج الإسلامي ذاته ما يحفز الإنسان على الحركة الإيجابية لتحقيق هذا المنهج أو التصميم في واقع الحياة. فالمسلم يعرف- من تصوره الإسلامي- أن الإنسان قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وأنه ليس عاملا سلبيا في نظامها. فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية: لينشئ ويعمر، وليغير ويطور، وليصلح وينمي. وهو معان على هذه الخلافة: معان من الله -سبحانه- بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه معاونة له:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً

لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل].

وهو معان من الله كذلك بما وهبه من القوى، والاستعدادات الذاتية، والقدرات الإدراكية، وهو يكلفه أمر الخلافة:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

وشعوره بأنه مكلف بالعمل، ومعان عليه، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون... وانتفاء الشعور بالسلبية يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية، غير أن الإسلام لا يكتفي بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية. بل يمده بدوافع الحركة الإيجابية كذلك. إذ يعلمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله، عن طريق حركته هو ذاته:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة]

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة].

**وهو إنسان واقعي:**

الإسلام نظام واقعي. فهو «تصميم» وضعه الله للحياة البشرية، أي للتحقيق في عالم الواقع. «فهو يتعامل- كما يقول الأستاذ سيد قطب- مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المؤكد والأثر الواقعي الإيجابي لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع «مثاليات» لا مقابل لها في عالم الواقع: أو لا وجود لها في عالم الواقع.



إنه تصميم يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية، ويتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدها المحسوسة المؤثرة والمتأثرة. ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناسي كما هو في عالم الواقع.

ولما كان الإنسان- دون خلق الله جميعا- هو المكلف بإنشاء هذا «التصميم» وتحقيق هذا «النظام» في واقع الحياة على الأرض، كان لابد وأن يكون هو نفسه واقعيا، لا يقف دوره في هذا المنهج عند حفظه ذهنيا ومعرفته نظريا بل يقوم على تحقيقه عمليا والاحتكام إليه في كل جوانب الحياة.

والمنهج الإسلامي للحياة- على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته- هو في الوقت نفسه منهج لهذا الإنسان في حدود طاقاته الواقعية: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.. ﴿٢٨٦﴾**﴾ [البقرة] ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. ﴿١٦﴾**﴾ [التغابن].

وهو منهج يأخذ في اعتباره فطرة الإنسان، وطاقاته واستعداداته وفضائله ورذائله، وقوته وضعفه. فهو لا يستقذر دوافع فطرته، ولا مقتضيات تكوينه:

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ.. ﴿١٤﴾**﴾ [آل عمران].

لكن منهج الله لا يترك الإنسان لنوازع الشر فيه، بل يهديه ويرشده ويرده إلى الطريق المستقيم عن طريق العبادة في كل ما ينهض به من شئون الخلافة.

فالإسلام في واقعيته يعرف- كما يقول الأستاذ محمد قطب- أن مزية الإنسان الكبرى هي الاستعداد الدائم للصعود، الاستعداد لأن يتفوق على نفسه، ويرتفع على «الواقع» ليبلغ «المثال». وقد لا يبلغه في كل مرة، بل قد لا يبلغه أبدا، ولكنه يظل يحاول، وما دام يوجه إلى الطريق القويم، فإنه في محاولته تلك يظل يرتقي ويرتفع. وتمر عليه لحظات معجزة، يحقق فيها انتصارات رائعة على نفسه وعلى كل قوى الأرض من حوله، وذلك حين يرتفع إيمانه بالطاقات التي وهبها الله له، فيحاول أن يحقق ذاته كاملة كما أرادها الله له... وهذه اللحظات في حياة الإنسان هي «الواقع»، وهي في نفس الوقت «المثال»[١].

هذه هي أبرز سمات الإنسان المسلم، الذي هو الهدف الأسمى لمنهج التربية الإسلامية[٢].

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) لمزيد من التفصيل عن واجبات المنهج المدرسي نحو طبيعة الإنسان في التصور الإسلامي، انظر كتاب المؤلف: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، القاهرة، دار الفكر العربي.

# الحياة في التصور الإسلامي

## الحياة:

الحياة في التصور الإسلامي، دنيا وآخرة، شهود وغيب. وهما مرتبطتان.

والحياة الدنيا هي مجموع أنشطة الكائنات التي خلقها الله خلال أعمارها الزمنية. وعمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها إنما يكون باستثمار ما أودعه الله في الكائنات من طاقات استثمارا صالحا، وتوجيه ألوان النشاط البشري لاستخدام تلك الطاقات بالرفق واللطف وفق منهج الله. وبذلك يتحقق التناسق والتكامل بين أنشطة الكائنات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد في أعمارهم الزمنية، من أجل إعمار الحياة.

وكل شأن من شئون الحياة ينبغي أن يسير وفق منهج الله. فسياسة الاقتصاد والمال، ونظام السياسة، ونظام الأسرة، وجميع ألوان التشريعات المدنية والإدارية، يجب أن تسير وفق هذا المنهج حتى تكون الحياة إسلامية حقا. إن الضابط الوحيد للحركة البشرية، والتطورات الحيوية- حتى لا تمضي شاردة على غير هدى- هو أن تسير كل هذه الأوضاع وفق الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، ومع اعتبار الخبرات الإنسانية المتغيرة تبعا لمقتضيات الزمان والمكان والناس: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٥٣) ﴾ [الأنعام].

## تربية الإنسان وعمارة الأرض:

لاشك أن هناك علاقة ضرورية بين إعداد الإنسان وتربيته وفق منهج الله وبين عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها[1]. ويمكن تأصيل هذه العلاقة من عدة جوانب:

### الجانب الأول:

إن الله قد كرم الإنسان وجعله أفضل مخلوقات الوجود: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** (٧٠) ﴾ [الإسراء]. وسخر له كل ما في السموات وما في الأرض لخدمته:

---

(١) هذه العلاقة يشار إليها هذه الأيام عادة بـ «التربية والتنمية» وهي عبارة قاصرة عن إدراك المعاني التي نتحدث عنها هنا.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

**الجانب الثاني:**

إن الإنسان ليس مستهلكا فقط، بل هو منتج لنفسه ولغيره. فالأمة التي يعمل أبناؤها بجد وإتقان- ولا أقول يحسن أبناؤها العمل، فالإحسان في العمل أدق وأشمل من مجرد الجد والإتقان فيه- تكفي نفسها وتصدر فائض إنتاجها للآخرين من الجهلة والكسالى والمتواكلين. والأمثلة على ذلك كثيرة: فألمانيا بدأت من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، وهي الآن من أقوى الدول اقتصادا على الأقل. واليابانيون وصلوا بجدهم وإتقانهم إلى أن حولوا العالم كله إلى سوق لتصريف منتجاتهم. وكوريا وهونج كونج وتايوان في سباق على نفس الطريق!

**الجانب الثالث:**

هو أن الله قد أودع الإنسان طاقات كثيرة، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي، ليستخدمها في العمارة وترقية الحياة. كما أنه قد أودع الكون من الخيرات ما يكفي حاجة البشر وزيادة. وما الندرة النسبية للموارد الطبيعية إلا نتيجة للفقر في استخدام الطاقات الإنسانية بكفاءة وفاعلية وفي استخراج طاقات الكون وكنوزه المدخورة فيه!

ويسود الحياة- عموما- نظامان متكاملان: نظام اجتماعي، ونظام معرفي. وهذا يحتم علينا ضرورة وتحديد طبيعة المجتمع الإسلامي، وطبيعة المعرفة التي يجب أن تسود في هذا المجتمع، وفيما يلي نفصل القول في القضية الأولى.

## طبيعة المجتمع الإسلامي

هذا هو الشق الأول للأساس الرابع من أسس بناء منهج التعليم للصغار والكبار على السواء في التصور الإسلامي، وهو طبيعة المجتمع الإسلامي، والفرق بينه وبين المجتمعات الأخرى، والخصائص التي تميزه عن هذه المجتمعات، وطبيعة التغيير وكيفية حدوثه في هذا المجتمع، والسمات الثقافية والحضارية لهذا المجتمع. وهذا ما سنفصل الحديث فيه فيما يلي:

### مكونات المجتمع:

لقد فطر الله الإنسان على الاجتماع، فليس بوسع إنسان أن يعيش وحده أو ينفرد بنفسه انفرادا تاما. وليس هناك حادثة نفسية واحدة يمكن أن تتم دون أن يكون لها صلة بأفراد المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، فكل حادثة نفسية لابد لها من مجال اجتماعي تتم فيه. والعكس صحيح أيضا، فكل حادثة اجتماعية لابد لها من أصل نفسي[1].

إن الصلة قوية بين علم النفس وعلم الاجتماع. فعلم النفس يدرس خصائص الأفراد من حيث إنهم أفراد لهم سلوك. وهذه الخصائص وذاك السلوك كل منهما لا يمكن أن يتم إلا في في محيط اجتماعي. أما علم الاجتماع فيدرس الصلات بين الأفراد من وجهة النظر الاجتماعية، مع أخذ أسسها النفسية، ومعاييرها العقائدية في الاعتبار.

مما سبق يمكن القول إن المجتمع يقوم على أربعة عناصر:

**العنصر الأول**، هو الأفراد الذين يكونون الجماعة.

**والعنصر الثاني**، هو ما ينشأ بالضرورة عن وجود الجماعة من الصلات بين أفرادها. فالمجتمع نسيج مكون من صلات اجتماعية.

**والعنصر الثالث**، هو النظام، فالصلات الاجتماعية تنظم وتنسق، وفق نظام غايته أن يضبط سلوك الجماعة ويوجهه. وتتخذ الجماعة وسائل شتى لاحترام نظامها وتطبيقه. ومهمة هذا النظام أن يطلق نشاط الأفراد في مجالات ويحبسه في مجالات أخرى، وأن يضع لهم معايير للسلوك تقوم الأمور وفقا لها، فيُحرِّم بعض الأمور ويُحِلّ بعضها الآخر.

**والعنصر الرابع** هو العقيدة، وهي أعظم العناصر السابقة على الإطلاق وأكبرها خطرا؛ ذلك أنها تتحكم فيها كلها، وتوجهها جميعا الوجهة التي ترضاها، فهي التي

(١) محمد أمين المصري : المجتمع الإسلامي، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ص ٨ - ٩.

تحدد الصلات الاجتماعية، وهي التي توجد الشعور بالانتماء، وهي التي ترسم نهج السلوك، وهي التي تضع قواعد المجتمع وتقيم نظمه وتهدي إلى مثله.

والعقيدة تتمثل في شريعة الله كما هو الحال في الإسلام. كما تتمثل في الفلسفات الوضعية والنظريات السياسية والاقتصادية التي توجه السلوك والعمل في كثير من المجتمعات الأخرى.

**نظام المجتمع الإسلامي والنظم الأخرى:**

المجتمع الإسلامي مجتمع متفرد بنظامه الخاص الذي لا يتفق في شيء مع النظم الاجتماعية الأخرى التي عرفتها البشرية. فبينما عرفت البشرية نظم الرق، فالإقطاع، فالرأسمالية، فالاشتراكية، فالشيوعية- التي لم تتحقق في واقع الحياة، ولن تتحقق أبدا- وهي نظم أقامها بعض العباد لبعض، فإن المجتمع الإسلامي هو مجتمع رباني، يقوم على شريعة محكمة من عند الله، قوامها كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

لم يعرف المجتمع الإسلامي عصر الرق، ولا عصر الإقطاع، ولم يكونا أحد الأطوار التاريخية التي مر بها كما يقول الأستاذ سيد قطب. فقد جاء الإسلام والرق نظام عالمي، وعرف دولي، فلم يسر المجتمع الإسلامي وفقا لذلك النظام. ولم يعترف به بل بدلا من ذلك أخذ يعالج الموضوع على طريقته التحريرية واتجاهاته الإنسانية، فبدأ بوضع الوسائل الكفيلة بتجفيف منابع الرق وموارده في المستقبل.

أما المجتمع الإقطاعي الذي قام على أنقاض مجتمع الرق فقد كان يتكون من طبقتين: الطبقة الأولى هم ملاك الإقطاعيات والأبعديات، والطبقة الثانية هم المزارعون من صغار الملاك، والعمال الزراعيين، والعبيد. وتقوم العلاقة بين هاتين الطبقتين على التبعية الدائمة والالتزام المطلق، الذي يلتزم فيه أفراد الطبقة الثانية وهم المنتجون بأداء مطالب اقتصادية معينة لأفراد الطبقة الأولى، في صورة نقدية أو عينية أو خدمات أو استحقاقات. . . إلخ.

وقد كان أفراد الطبقة الأولى يمثلون السلطات الثلاث: التشريعية، والقضائية والتنفيذية، فالمفروض أنه كان هناك التزام متبادل بين الطبقتين.

لم يمر الإسلام منذ بدأ حتى الآن بهذا العصر أيضا؛ لأن الإسلام قد أخذ عليه الطريق. ولا شك أنه قد وجدت في أزمان مختلفة ملكيات كبيرة نتيجة الانحراف عن سياسة المال وسياسة الحكم في الإسلام. ولكن لم يحدث أن كانت هناك علاقة إنتاج والتزام على النحو الذي كانت عليه في المجتمع الإقطاعي.



لقد كرهت أوربا النظام الإقطاعي وأقامت النظام الرأسمالي على أنقاضه بعد أن اطلعت على النظم الاجتماعية الإسلامية وتأثرت بها أثناء الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي.

وبالرغم من أن هناك بعض أوجه الشبه بين بعض النظم الإسلامية وبعض خصائص النظام الرأسمالي كحق الملكية الفردية، وحق الاستثمار الفردي، وحق الإرث إلا أنها ظواهر جزئية تقوم على أصول مختلفة، بل ومتناقضة، فالربا، والاحتكار- مثلا- قاعدتان أساسيتان من قواعد الملكية الفردية ومن قواعد الاستثمار الفردي والجماعي في النظام الرأسمالي، والربا والاحتكار محرمان تحريما قاطعا في النظام الإسلامي.

وانقسام المجتمع الإنساني إلى دول قومية، ومناطق إقليمية «كان من المظاهر السياسية اللازمة لنشأة النظام الرأسمالي. وهذه القومية الحادة هي التي حملت معها نظام الاستعمار للاستيلاء على الخامات، واحتكار الأسواق، باعتبار «الاستعمار أعلى مراتب الرأسمالية» كما يقول لينين، بينما الإسلام ينكر الشعور القومي الحاد، ويتجه اتجاها عالميا، ويجعل حدوده هي حدود الفكرة لا تخوم الأرض، ومن ثم يستبعد فكرة الاستعمار لاحتكار الأسواق، وبذلك يتجه اتجاها مضادا للتفكير الرأسمالي»[(1)].

والملكية الفردية مطلقة في النظام الرأسمالي، فالفرد يتصرف كيفما شاء فيما يملك، في حياته أو بعد مماته. لكن الملكية الفردية في الإسلام «ليست سوى وظيفة اجتماعية، أما أصل المال فهو لله، والجماعة كلها مستخلفة فيه عن الله، والأفراد نائبون عن الجماعة في استثماره بطرق تحددها الشريعة، وليست مطلقة من كل قيد، وحق الجماعة فيه ثابت، فهو يد على الجماعة كلما احتاجت إليه وبقدر الحاجة وحسبها، ومن ثم فالملكية الفردية في الإسلام شيء آخر غير الملكية الفردية في النظام الرأسمالي»[(2)]، شيء مختلف في مصدره وفي غايته.

أما الاشتراكية التي تبنتها كلية دول الكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفيتي، واتجهت إليها- جزئيا- بعض أقطار الكتلة الغربية، فقد جاءت تابعة ونتيجة للتطور الاجتماعي، ولم تكن قوة دافعة للتطور، وهي تمثل تلبية لحاجات وقتية وبيئية.

---

(١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، الطبعة السادسة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ٨٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٨.

إن الاشتراكية تلتقي مع الإسلام في بعض الجوانب الاقتصادية. فهي تلتقي معه في ضرورة ضمان حد أدنى لائق للأفراد في التربية والعمل والمسكن والصحة. وتوفير فرص العمل المناسبة للجميع. وتلتقي معه في أنها لا تدعو إلى القضاء المطلق على الملكية الفردية، وفي تأمين المرافق العامة للدولة كالمناجم وآبار البترول، وفي التقريب بين مختلف طوائف المجتمع، وفي منع الإسراف والترف، واتخاذ التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي قاعدتين أساسيتين للتكافل الاجتماعي.

ومع ذلك يبقى أن نعي أن نظام المجتمع الإسلامي مختلف عن نظام المجتمع الاشتراكي في المصدر والغاية، للأسباب التالية:

١- النظام الاجتماعي في الإسلام قائم على أصول ربانية تضمنتها الشريعة الإسلامية يوم جاءت قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، فهو مجتمع قائم على أساس هذه الشريعة، وليس نتيجة للتطورات الاجتماعية أو تبعا لها، كما هو الحال بالنسبة للنظم الأخرى.

٢- إن النظام الإسلامي وإن التقى مع بعض جزئيات النظم الرأسمالية والاشتراكية، إلا أنه سابق عليها، فهي قد تأخذ منه ولكنه لم يأخذ منها على وجه اليقين. وأسبقية الإسلام تمنعنا من إعطائه وصفا لاحقا للنظم الأخرى فلا يجوز أن نستخدم تعبيرات مثل: «رأسمالية الإسلام» أو «اشتراكية الإسلام» أو «ديموقراطية الإسلام»... إلى آخره.

٣- الاشتراكية مذهب اقتصادي مادي وضعي بحت، يمكن أن يقوم في ظله استعمار أو احتكار خبيث دونما حرج. أما النظام الإسلامي فهو نظام رباني يحرم الاستعمار والاحتكار.

٤- النظام الاجتماعي الاشتراكي نظام قومي ومحلي، أما النظام الاجتماعي الإسلامي فهو نظام إنساني عالمي، حدوده هي حدود الفكرة لا تخوم الأرض.

أما النظام الاجتماعي الشيوعي الذي يدّعي أن العالم صائر إليه يوما ما، فهو نظام يصطدم مع الإسلام منذ البداية إلى النهاية. فهو نظام يقوم على المادية الجدلية التي تنفي كل مؤثر في حياة البشر، بل وفي الكون كله خارج الطبيعة المادية لهذا الكون. وبذلك تنفي وجود إرادة عليا في الكون تصرفه وفق ناموس ثابت من خلق هذه الإرادة.



كما أن الشيوعية تحتقر الدور الإيجابي للإنسان على الأرض، وتغفل القيمة الحاسمة لإرادته وحريته ومشاعره. فهي تجعل أداة الإنتاج هي صاحبة الدور الأساسي في تطوير الحياة، وتطوير نظمها وقوانينها وعلاقاتها الاجتماعية، فالأسباب النهائية لكافة التغيرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس، أو سعيهم الدائب وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج. بينما الإسلام يعد الإنسان خليفة الله في الأرض ويجعل له الدور الأساسي في كل ما ينشأ على وجهها من تغيرات وتطورات:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]، ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ..** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال].

إن النظام الاجتماعي الشيوعي يقوم على مجرد فرض لا ترتقي الأدلة عليه إلى درجة الإثبات العلمي، فهي أدلة تستند إلى أسس تتناقض مع الفطرة الإنسانية السليمة التي فطر الله الناس عليها؛ لذلك فهو مجتمع لم يتحقق حتى الآن، ورأى أنه لن يتحقق أبدا؛ لأن فكرته «تناهض طبيعة الفطرة البشرية ومقتضياتها»(١).

**دراسة مقارنة:**

فإذا كانت النظم البشرية قد نشأت نشوءا ذاتيا قاصرا، ثم تطورت وفقا لحاجات أرضية واقعية، وثمرة للصراع بين الطبقات، وللمصالح المتعارضة داخل الجماعات البشرية، فإن شريعة الله التي قام على أساسها المجتمع الإسلامي «وجدت كاملة منذ نشأتها غير مدّرجة تدرجا تاريخيا»(٢).

«ومن ثم كانت جميع الأحكام والقوانين التي تنطبق على نشأة النظم الاجتماعية الغربية وتطورها غير منطبقة على المجتمع الإسلامي، لاختلاف نشأته عن نشأة تلك النظم، ولاختلاف القاعدة التي ترتكن عليها نشأته، ولاختلاف القانون الذي يحكم نموه وتطوره»(٣).

وإذا كانت الجماعات البشرية هي التي صنعت المجتمع غير الإسلامي ووضعت له القوانين والنظم، فإن الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة) هي التي صنعت المجتمع الإسلامي، وحددت له سماته ومقوماته، وهي التي وجهته وطورته.

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، بيروت، دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص٥.
(٢) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، مرجع سابق، ص ٦٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٤.

وإذا كانت التشريعات البشرية بقوانينها الوضعية ليست أكثر من مجرد استجابة للحاجات المحلية والإقليمية الموقوتة، فإن الشريعة الإسلامية التي صنعت المجتمع الإسلامي «كانت منهاجا إلهيًّا لتطوير البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق المجتمع الإسلامي المنشود... وكلما انقضى الزمن وارتفعت درجة المعرفة البشرية كانت أقرب إلى تحقيق المجتمع المنشود»(١).

وإذا كانت المجتمعات البشرية في وسعها دائما أن تنمو وتتغير وفق تشريعات متأثرة بالواقع المتغير وغير مقيدة بأصل ثابت، فإن التشريع في المجتمع الإسلامي- ممثلا في الفقه، وخاصة فقه المعاملات- كان دائما محكوما بأصل ثابت هو الشريعة الإسلامية، ممثلة في الكتاب والسنة، «وبذلك تقوم الشريعة دائما مقام السياج الواقي، الذي يسمح للمجتمع الإسلامي بالنمو والتجديد، ولكن داخل هذا السياج، ووفق مقومات أصيلة ثابتة، وبذلك يظل الطابع الأصيل للمجتمع الإسلامي واضحا مميزا»(٢).

وإذا كان المجتمع الإسلامي في تطوره منذ عصر الخلافة كان ينحرف عن هذه القاعدة يمينا ويسارا بفعل عوامل غريبة عليه، أو منساقا مع تطورات المجتمعات البشرية هنا وهناك، فإنه في كل الحالات ظل مشدودا بقوة إلى هذه القاعدة الأساسية، التي تطبعه بطابع خاص، وتحدد طريقة نموه، وتجعل لنموه وتطوره من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل تاريخا خاصا «لا يندرج تحت تاريخ التطور الاجتماعي في أوربا، ولا تصدق عليه القوانين الاجتماعية التي تصدق هناك...»(٣).

وإذا كانت المجتمعات القائمة على تشريعات وضعية تقوم فترة من الزمان ثم تنتهي، فإن المجتمع الإسلامي الذي عاش أربعة عشر قرنا من الزمان، سيعيش، بل سيكون هو مجتمع المستقبل، «لأن سياج الشريعة سيظل يحرس هذا المجتمع» مهما كانت قوة عوامل المقاومة والعداء.

وإذا كانت المجتمعات البشرية القائمة على تشريعات وقوانين وضعية ومؤقتة، هي مجتمعات محلية، وقومية، وعنصرية، وقائمة على أساس الحدود الجغرافية، فإن المجتمع الإسلامي هو مجتمع عالمي مفتوح لجميع بني الإنسان دون نظر إلى جنس أو لون أو لغة. «بل دون نظر إلى دين أو عقيدة»، فغير المسلمين يعيشون مع المسلمين في ظل المجتمع الإسلامي، على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٥، ٦٦.

وعالمية الدعوة الإسلامية، وبالتالي النظام الاجتماعي القائم عليها، مقررة بوضوح في قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** (٢٧)﴾ [التكوير]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** (١٠٧)﴾ [الأنبياء]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً..** (٢٨)﴾ [سبأ].

وقد نفى الإسلام كل نعرة عنصرية أو جنسية، أو قومية، أو إقليمية، وما يترتب على ذلك من اختلاف اللغات والألوان، وجعل الأفضلية في ميزان الله الثابت هي تقوى الله، والعمل الصالح لخير عباده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣)﴾ [الحجرات]. «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**».

والشريعة الإسلامية ترد البشرية كلها إلى أصل واحد. «ومن ثم تملك جميع الأجناس البشرية، وجميع الألوان، وجميع اللغات أن تجتمع في حمى الإسلام وفي ظل نظامه الاجتماعي، وهي تحس آصرة واحدة تربط بينها جميعا.. آصرة الإنسانية، التي لا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين شمالي وجنوبي، ولا بين شرقي وغربي؛ لأنهم يلتقون جميعا عند الرابطة الإنسانية الكبرى»(١).

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ..** (١)﴾ [النساء]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**» (أخرجه أبو داود).

وأخيرا، فإن أهم ما يجب أن يظل ماثلا في الذهن هنا حقيقتان: **الأولى** هي أن مبادئ الإسلام العليا «التي تسبق اليوم آخر ما وصلت إليه البشرية في خلال أربعة عشر قرنا، كانت قائمة فيه منذ اليوم الأول. وأنه منذ ذلك اليوم قد أخذ بيد البشرية في طور الترقي إلى الآفاق المرسومة خطوة خطوة فكان التطور، لا في مبادئه وأهدافه، ولكن في قرب البشرية يوما بعد يوم من هذه المبادئ والأهداف، وهذا ما ينفي فكرة التطور التاريخي من أساسها بالقياس إلى الفكرة الإسلامية، وإلى نظام المجتمع الإسلامي»(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.



الحقيقة الثانية التي يجب أن تظل ماثلة في الذهن- كما يقول الأستاذ سيد قطب- هي «أن النظام الإسلامي ليس هو الرق، وليس هو الإقطاع، وليس هو الرأسمالية، وليس هو الاشتراكية، وليس هو الشيوعية... إن النظام الإسلامي هو فقط.. النظام الإسلامي»(١).

ومنهج التربية الإسلامية معنيٌّ بإفهام الأجيال بحقيقة الفلسفات والنظريات الوضعية المعاصرة كالبراجماتية والماركسية والوجودية والواقعية... إلى آخره، وذلك لبيان حقيقة وزيف هذه الفلسفات وما ترتب عليها من تيارات عالمية فكرية واجتماعية، ولبيان الأوضاع الاجتماعية المتردية نتيجة الأخذ بهذه الفلسفات. فعرض هذه الفلسفات وما ترتب عليها بصورة موضوعية وواقعية وفقا للمعايير والقيم الإسلامية هو الضمان الوحيد لفهم حقيقة هذه الفلسفات، وعدم الانبهار ببريقها الزائف.

## مقومات المجتمع الإسلامي

إذن فالقاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي هي أنه نظام رباني، عالمي، يقوم على أساس القواعد العامة والأصول الكلية لشريعة الله، المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن هذه القاعدة العريضة للنظام الاجتماعي الإسلامي تنبثق أربعة مقومات رئيسية يعتمد عليها البناء الاجتماعي كله، وتؤثر في كل خلاياه وجزئياته الداخلية. وهذه المقومات أو العمد الأربعة هي: العلم، والعدل، والعمل، والحرية المنضبطة بقواعد منهج الله.

ونتناول كل مقوم من هذه المقومات الأربعة بشيء من التفصيل فيما يلي:

### أولا: العلم

العلم شعار الإسلام وفطرة الله في الإنسان، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض ليعمرها ويرقيها وفق منهج الله. وهي منزلة اشرأبت لها أعناق الملائكة- كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي- وتشوفت إليها نفوسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان(٢).

وعمارة الأرض وترقيتها لا تكون إلا بالعلم؛ ولذلك عندما أراد الله أن يعد الإنسان لحمل أمانة تنفيذ منهجه في الأرض، هيأه لها بالعلم: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**

---

(١) المرجع السابق، ص ٩١.

(٢) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، ط٢، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ص٦٧.



﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

ولا عجب في أن العلم هو شعـار الإسلام الأول، فأولى الآيات التي نزلت على رسول ﷺ هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

كما جعل الإسلام طلب العلم فريضة، وطالب العلم مجاهد في سبيل الله. كما أكد الإسلام هذا الشـعار في كل مناسبة حتى يُذكِّـر الإنسان، ويحرك أحاسيسـه، ويثير مشـاعره كلما تبلد أو ابتـعد عن منهج الله. والآيات والأحاديث في ذلك أكـثر من أن تحصى في هذا المقام.

أمـا كون العلم فطرة الله في الإنسـان، فهـذا يمكن فـهمـه من القرآن في قـوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف].

فالآية ترجع مسألة العلم بوحدانيـة الله، والاعتراف بربوبيته إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأخذ بـها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وذات تكـوينهم، ولقد شهد الكيان البشري على نفسه بهذه الحقيقة، وذلك بحكم وجوده فوجوده يعني هذه الحقيقة.

فإذا كان العلم بوحدانية الله، والاعتراف بربوبيته- وهما غاية كل علم- فطرة في الكيان الـبشري، فـإن تعلم كل العلوم القديمة والحـديثة يجب أن تكون الغـاية منه هي الحفاظ على فطرة الله في الإنسان. وحتى الرسـالات والكتب السماوية ما هي إلا تذكير وتحذير وتقويم لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فقد اقتضت رحمة الله ألا يكل الناس إلى أنفسهم، فـقد تنحرف عن الفطرة، وألا يكلهم إلى عقولهم فـقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل».

هنا يأتي دور المناهج التربوية. فالعلم ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة للحفاظ على فطرة الله في الإنسان حتى لا ينحرف عن العلم بوحدانية الله، والاعتراف بربوبيته.



والمعرفة ما هي إلا وسيلة لإقدار الإنسان على القيام بحق الخلافة في الأرض بإيجابية وفاعلية. فالتقاعس عن التعليم والتعلم، وانتشار الجهل هما سير ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وضد مقتضيات القيام بحق الخلافة في الأرض؛ لأنهما سبيلا الخراب والتخلف لا العمار والرقي. وهنا ترتبط قضية العلم، بقضية الإيمان بالألوهية والوحدانية وبقضية خلافة الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها برباط واحد. وأي منهج للتربية لا تظهر فيه هذه العلاقة الوطيدة فهو منهج منحرف، ولا علاقة له بالإسلام.

والخلاصة أن المجتمع المسلم يتخذ العلم وسيلة للحفاظ على فطرة الله في الإنسان وهي العلم بالألوهية والوحدانية والاعتراف بالربوبية، كما يتخذه وسيلة لإقدار أبنائه على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله.

### ثانيا: العدل

وظيفة العلم- إذن- هي عمارة المجتمع الإنساني وترقيته. لكن العلم إذا لم يكن مستندا إلى عدل الله، ينقلب إلى وسيلة للخراب والدمار للمجتمع البشري كله! فالعدل- إذن- هو القيمة التي توجه غايات العلم، نحو خير الإنسان والبشرية جميعا.

والعدل كما وضحه بعض الفقهاء والمفسرين هو تنفيذ حكم الله، أي أن يحكم الناس وفقا لما جاءت به الشرائع السماوية. ولما كانت الشريعة الإسلامية هي كمال هذه الشرائع، فإن العمل بها إذن هو تحقيق للعدل الذي أمر الله به. ويندرج تحت هذا المعنى العام للعدل معانيه الخاصة، فهناك العدل في الحكم.. والعدل في النظام الاجتماعي للدولة.. والعدل في القضاء.. والعدل الاقتصادي.. والعدل بين الرجل والمرأة.. والعدل في الحقوق والواجبات والمعاملة... إلخ.

#### العدالة في الحكم:

يقوم نظام الحكم في الإسلام على أربعة أسس: اختيار المحكومين للحكام، والعدل من الحكام، والطاعة من المحكومين، والشوري بين الحكام والمحكومين[1].

١- العدل من الحكام فرض لا يقوم الحكم الإسلامي إلا به؛ ولذلك ورد الأمر بالعدل في القرآن صريحا، فحثت عليه آيات كثيرة، وجعله الله غاية الحكم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ط٩، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص٨٠.



بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾[النساء] وقد ورد في تفسير الرازي لهذه الآية قوله: «أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل»[1] واستشهد بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، وقوله: ﴿.. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴿١٥٢﴾﴾[الأنعام] وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[ص] وهذه الآية الأخيرة تدل على أن العدل واجب حتى على الأنبياء. والعدل واجب حتى للأعداء، وهذه من أعظم فضائل الإسلام، وقد ورد النص على ذلك صريحا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

٢- والطاعة من المحكومين للحكام واجبة إذا سار الحكام وفق منهج الله وشريعته، وحكموا بالعدل المفروض عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]. فإذا لم يعترف الحكام بأن الحاكمية لله. ولم ينفذوا شريعة الله. سقطت طاعتهم، ولم يجب لأمرهم النفاذ.

٣- والشورى بين الحكام والمحكومين هي الأساس الثالث لنظام الإسلام في الحكم. قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]... ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى]؛ فلأن الإسلام دين ودولة، ونظام كامل للحياة، فقد كفل لأتباعه حريتهم السياسية، وهي أن يكون لكل إنسان قادر الحق في الاشتراك في توجيه سياسة أمته، ومراقبة السلطة فيها. وقد كفل الإسلام للإنسان هذا الحق حين جعل نظام الحكم قائما على الشورى.

---

(١) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ج٣، ص٣٥٥.



**العدالة في السياسة الاقتصادية:**

تقوم العدالة في السياسة الاقتصادية في الإسلام على ثلاثة أسس:

**أولا:** إن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه: ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه..** ۝٧﴾ [الحديد] ويقول الله في شأن المكاتبين من الأرقاء: ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ۝٣٣﴾ [النور].

**ثانيا:** كراهية أن يحبس المال في أيدي فئة قليلة من الناس يتداول بينهم بينما يمنع عن الآخرين: ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ۝٧﴾ [الحشر]، حتى أن الإسلام قد أجاز للحاكم بشريعة الله أن يأخذ بعض المال من الأغنياء ويملكه للفقراء، وذلك عندما يرى أن المجتمع قد اختل توازنه بظهور آفة الغنى إلى حد الترف الشديد في جانب، والفقر المدقع في جانب آخر، وهذا ما فعله الرسول ﷺ حين أعطى فيء بني النضير كله للمهاجرين.

ومن أجل منع المال من أن يحبس في أيدي فئة قليلة، لجأ الإسلام إلى وسائل أهمها الزكاة، والإرث، والصدقات، والمال العام أو الملكية العامة، وتربية الضمير الإنساني.

**ثالثا:** الملكية الفردية، فالمال مال الله، والناس مستخلفون في ملكية التصرف فيه والانتفاع به، لكنه التصرف والانتفاع الذي لا يصل إلى السفه. والناس يملكون المال بالعمل والكسب: ﴿**للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ..** ۝٣٢﴾ [النساء: ٣٢] وبالإرث: ﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون..** ۝٧﴾ [النساء].

**العدالة بين الفرد والمجتمع:**

كما أن الفرد كل له أجزاء فهو أيضا جزء من كل هو المجتمع. وقد جسّم الرسول ﷺ العلاقة بين الفرد والجماعة في حديثه الشريف:

«**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» (أخرجه الشيخان).

فالعدالة تقتضي أن يساهم الفرد في حركة عمارة وترقية المجتمع؛ لأنه لن يصلح أمر الفرد إذا ساءت أحوال المجتمع وحركة العمارة في حياة المجتمع ليست واحدة،

فالمجتمع لا يريد جميع أفراده أطباء أو مهندسين أو قضاة أو مدرسين أو عمالا أو مزارعين، بل يريد كل هؤلاء. ومن رحمة الله بالناس أن جعل لهم مواهب وميولا ومهارات واهتمامات مختلفة ومتعددة؛ لأن حركة المجتمع تحتاج إلى هذا التنوع والاختلاف في الاهتمامات والمهارات والقدرات حتى تتكامل الحركة فيه. فحركة الأجزاء في المجتمع الواحد كحركة الأعضاء في الجسد الواحد، فلكل فرد مهمة، كما أن لكل عضو مهمة، وبتكامل عمل الأعضاء يصح الإنسان ويقوى، وكذلك الحال في المجتمع.

أما فيما يتصل بحركة كل فرد ونوعيتها، وعلاقتها بغيرها داخل المجتمع، فيصورها القرآن تصويرا دقيقا في قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** ﴿٣٢﴾﴾ [**الزخرف**].

وهنا لا يجب أن نفهم- كما يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي- أن أسس الرفعة هو المال فقط، فالصحيح أن كل فرد في المجتمع مرفوع مرة، ومرفوع عليه مرة أخرى[1]، فالفرد في المجتمع مرفوع فيما يجيد وفيما يحسن، ومرفوع عليه غيره فيما لا يجيده ولا يحسنه. إذن فكل فرد فاضل في جهة ومفضول عليه في جهة أخرى، والمفضول عليه يسخر الفاضل لخدمته. إذن فكل فرد في الكون مسخر لكل فرد، وعلى هذا فلا يجب تفسير قوله تعالى: ﴿**لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ على أساس أن الطبقة الأعلى تسخر الطبقة الأدنى.

إن المجتمع الإسلامي مجتمع غير طبقي، والقرآن دقيق في تعبيره، فقوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ...**﴾ جعلك لا تستطيع أن تحدد البعض المرفوع، ولا البعض المرفوع عليه؛ لأن كلمة «بعض» مبهمة، فكل بعض مرفوع وكل بعض مرفوع عليه. والاختلاف والتفاوت إنما هو في قدر الدرجات في كل زاوية وفي كل علم وفي كل فن، وفي كل مهارة. فالفاضل مرفوع بقدر مهارته في العمل ودرجة إتقانه له.

وبذلك ينسجم المجتمع ولا يتصارع، وإنما يتعاون ويتعاضد. فلو تساوى الناس في علم واحد أو فن واحد أو مهارة واحدة لتدافعوا وتصارعوا. ولكن كلا منهم يحتاج

---

(١) محمد متولى الشعراوى: منهج التربية في الإسلام، القاهرة، دار المسلم، بدون تاريخ، ص٣٦.

إلى الآخر، وعجز هذا تكمله قدرة ذاك، وخير الناس أنفعهم للناس، وهذه من أجمل معاني العدالة.

وهنا يأتي دور مناهج التربية التي لا يجب أن تقف عند أدنى درجات العدالة، وهي تحقيق المساواة بين الطلاب بوضعهم في مدارس موحدة المستوى من حيث المباني والمناهج والمدرسين، بل يجب أن ترتفع إلى مستوى العدالة الحقيقية فتصمم المباني والمناهج التي تناسب فطرة الله في البنت وفي الولد فتعطي كل جنس نوع التعليم الذي يناسبه، ويناسب وظيفته في الحياة، وتكتشف القدرات والإمكانات الخاصة بكل جماعة من الطلاب، وتعطيها نوع التعليم الذي يناسبها ويفيدها في حياتها على المستويين الفردي والاجتماعي.

**العدالة بين الرجل والمرأة:**

لقد كفل الإسلام المساواة للمرأة مع الرجل في الجنس والحقوق الإنسانية، ولم يقر التفاضل- كما يقول الأستاذ سيد قطب- إلا في بعض الملابسات الخاصة بالاستعداد والخبرة والدربة والتبعة. مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين، فحيثما تساوى الاستعداد والدربة والتبعة تساويا، وحيثما اختلف شيء من ذلك كان التفاوت بحسبه.

فالرجل والمرأة من الناحية الدينية والروحية يتساويان: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]. ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وفي أحقية كل منهما وأهليته في الملك والتصرف الاقتصادى يتساويان: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ..** ﴿٧﴾﴾ [النساء]، ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ..** ﴿٣٢﴾﴾ [النساء].

وأما جعل نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث، فمرده إلى التبعة التي يضطلع بها الرجل في الحياة، فهو يكفل إعالة زوجته، وإعالة أبنائها، ويتحمل كل مستلزمات بناء الأسرة، ويتحمل كل أعبائها ومسئولياتها؛ لذلك كان من حقه أن يكون نصيبه ضعف نصيبها، فهو حق يقابله تبعة. وعلى العكس من ذلك وضع المرأة، فهي



مكفولة الرزق من زوجها إذا تزوجت، ومكفولة بما ورثت من مال إذا عنست أو ترملت، وإذا لم تكن هذه ولا تلك، فكلفالتها مفروضة على أقربائها من الرجال. وعلى هذا فالمسألة هنا مسألة تفاوت في التبعة اقتضى تفاوتا في الإرث.

أما أن الرجال قوامون على النساء: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء]. فالرجل جعلت له القوامة على المرأة بحكم الاستعداد والدربة لهذه الوظيفة، بالإضافة إلى أنه المكلف بالإنفاق، فهو حق مقابل تكليف ينتهي في حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف في محيط الجنسين ومحيط الحياة.

ومنهج التربية الإسلامية يرى أن الأسرة هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية. فهي الأولى من حيث إنها نقطة البداية، وهي الأولى من حيث الأهمية؛ لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، وهو أكرم عناصر هذا الكون في المنهج الإسلامي.

ولاشك أن ميدان إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، هو ميدان عمل المرأة بالدرجة الأولى. ويقارن الشيخ محمد متولي الشعراوي بين ميدان عمل المرأة هذا وبين ميدان عمل الرجل خارج البيت، ويرى أن ميدان عمل المرأة أهم وأدق من ميدان عمل الرجل؛ لأن الرجل- بحكم عمله خارج البيت- إنما يتعامل مع «أشياء» هي كلها مسخرة لخدمة الإنسان الذي هو أكرم ما في الوجود كله؛ أما المرأة فمهمتها هي التعامل مع هذا المخلوق الراقي الكريم على الله وهو الإنسان. فتتعامل معه كزوج فيسكن إليها وتريحه، ثم تتعامل معه جنينا في بطنها، ووليدا في حضنها، ورضيعا تطعمه وتحنو عليه، وطفلا وصبيا وشابا تربيه وترعاه وتضرب له المثل.

إن ترك المرأة لهذا الميدان الذي هو مجال عملها الرئيسي، والذي خلقت وهيئت لتحسن الأداء فيه- إلى ميدان آخر لهو مأساة بكل المقاييس. يقول الأستاذ عباس العقاد: «فالمجتمع الذي يتزاحم فيه الرجال والنساء على عمل واحد، في المصانع والأسواق، لن يكون مجتمعا صالحا، مستقيما على سواء الفطرة، مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه؛ لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل، على غير طائل. ويختل فيه نظام العمل والسوق كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت.

«فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة. والقدرة على فهمها وإفهامها، والسير على رعايتها في أطوارها الأولى، لتهجر البيت، وتلقي بنفسها في غمار الأسواق والدكاكين. . . وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا، ولا بأخطر عاقبة، من

سياسة البيت؛ لأنهما عالمان متقابلان: عالم العراك والجهاد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان، وتدبير الجيل الحاضر، يقابله تدبير الجيل المقبل... وكلاهما في اللزوم وجلالة الخطر سواء»[1].

وإذا كان ميدان المرأة الحقيقي هو البيت بمن فيه وما فيه، فإن تركها لهذا الميدان وخروجها للعمل في المجتمع الخارجي على اتساعه يعد تخريبا للميدان الحقيقي الذي تركته، وللميدان الجديد الذي لم تعد له بالفطرة والاستعداد والدربة. «ولولا مركب النقص، لكان للمرأة فخر بمملكة البيت، وتنشئة (المستقبل) فيه، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة (الحاضر). وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح. وهي لو رجعت إلى سليقتها، لأحست أن زهوها بالأمومة، أغلى لديها، وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان- فليس في العواطف الإنسانية شعور يملأ قلب المرأة، كما يملؤه الشعور بالتوفيق في الزواج، التوفيق في إنماء البنين الصالحين والبنات الصالحات...»[2].

ولا خلاف على أن للمرأة أن تعمل خارج بيتها. بل إن هناك أعمالا يجب أن تكون مخصصة لعمل المرأة بالدرجة الأولى، كتعليم البنات، وطب النساء.. وغير ذلك. لكن المشكلة هي متى تعمل المرأة، وأين، وكيف؟

## ثالثا: العمل

الأساس الثالث من أسس بناء المجتمع وعمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله- بعد العلم والعدل- هو العمل. فباستثناء الميراث، جعل الإسلام العمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك. والمقصود بالعمل هنا العمل بكل أنواعه وألوانه المباحة من استصلاح للأرض وزراعتها، واستخراج ما في باطنها من خيرات، وكذلك الصناعة بجميع أنواعها وألوانها، والتجارة بكل صنوفها وضروبها، والعمل للآخرين بأجر... إلى آخره. قال تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴿١٠٥﴾﴾ [**التوبة**] ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب العبد المؤمن المحترف**» (ذكره القرطبي) ويقول: «**ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من عمل يده**» (رواه البخاري).

---

(١) عباس العقاد: المرأة في القرآن، ص ٤٦ - ٤٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٧.

والإسلام يقدر العمل وبذل الجهد ويجعلهما السبب الرئيسي للملك والربح. ويحرم الإسلام أن يلد المال المال، وإنما يلدُ المالَ الجهدُ. وعلى أساس هذه القاعدة حُرِّم الربا؛ لأن المرابي يمتص نتيجة عرق وجهد الآخرين بينما هو قاعد لم يبذل جهدا، مما يورث العداوة والبغضاء، ويؤدي إلى هدم الحياة الاجتماعية النظيفة.

ولأن الإسلام يقدس العمل وبذل الجهد ويجعلهما أساس عمارة الأرض وترقيتها على أساس من القيم النظيفة، فهو يحاول دائما أن يجعل الإنسان قادرا دائما على العمل وبذل الجهد، وبكي يكون كذلك فإنه يجب أن يحافظ على قوته، وأن يبتعد عن الترف والترهل.

ولأن الإسلام يقدس العمل ويجعله أساسا للحياة النظيفة، فهو يكره الإسراف والترف كراهية شديدة، ويعدهما مصدر شر للفرد وللجماعة التي يعيش معها، فالترف منكر يجب على الجماعة نبذه وتغييره وإلا كانت عرضة للهلاك بسببه: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)** ﴾ [**الإسراء**].

إن هذا يفسر لنا حرص الإسلام على جعل المسلم قويا قادرا دائما على العمل والجهاد، بعيدا عن الإسراف والترف. فالمترف أناني مترهل ضعيف الإرادة، ناعم الرجولة. لم يعتد بذل العمل والجهد فسقطت همته، وسيطرت عليه شهواته الحيوانية الرخيصة.

وما دام هناك مترفون فهناك مستضعفون يمالقونهم ويحققون شهواتهم، ويفنون فيهم فناء الحشرات؛ ولذلك كان المترفون على مر التاريخ حريصين على هذه «الامتيازات»، فكانوا دائما يقفون في سبيل الهدى لأنفسهم ولأتباعهم من المستضعفين: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)** ﴾ [سبأ]. فالديانات تحرم المترفين من متعهم الرخيصة، وترفع قيم الناس جميعا، فلا يكون للمترفين ذلك السلطان المطلق على المستضعفين؛ ولذلك كان الدين والهدى مرفوضا دائما من المترفين.

والترف الطويل الذي يرثه الأبناء عن الآباء ينسي الذكر ويؤدي إلى التفاهة والضحالة: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ**



وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان] وهنا نجد أن التعبير بأنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ تعبير مصور عميق الدلالة، فالأرض البور هي الأرض المجدبة التي لا تنتج ولا تثمر، وكذلك تكون حياة هؤلاء ونفوسهم جدبة بائرة صلدة، لا ثمرة لها ولا نتاج.

**العمل ومفهوم العبادة:**

وليس المراد بالعمل على كل حال الانصراف عن أمور الدنيا وقضاياها والكد والكدح فيها والاشتغال بأمور ثانوية في الدين، كالخلافات المذهبية والدروشة- كما يسميها الأستاذ فهمي هويدي- وبحث مدى إخلاص أو عدم إخلاص بعض المفكرين من أعلام المسلمين. وليس من العمل الجاد الذي تعمر به الحياة وترقى أن يترك كل ذي تخصص تخصصه في الطب والهندسة والعمارة والطبيعة والكيمياء والرياضيات وعلوم الحرب، وعلوم الإدارة وعلوم ارتياد الفضاء وكل العلوم التي نحن فقراء إلى النابغين فيها، إلى الاشتغال بأحكام التلاوة وعلامات الساعة. والخلافات المذهبية[1].

إن العمل الجاد الذي تعمر به الحياة وترقى، هو أن ينصر كل منا الإسلام في ميدان تخصصه بالإنجاز فيه والإنتاج والإبداع. يقول الشيخ محمد الغزالي: «من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا عجزة عن الحياة... وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظا عندما خبنا في ميادين الحياة. وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال، ومظاهر تقاوم... إن الله لا يقبل تدينا يشينه هذا الشلل المستغرب، ولا أدري كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعاني من هذه الطفولة التي تجعل غيرنا يداوينا، ويمدنا بالسلاح إذا شاء»[2].

وربما كان من أهم أسباب هذه المشكلة عدم فهم معنى «العبادة» في الإسلام. فالبعض لا يفهم من معنى العبادة إلا أنه الصلاة والزكاة والحج والصدقة وبعض الأذكار والأدعية. مع أن هذا جانب واحد فقط من جوانب العبادة، فالعبادة تشمل النشاط الإنساني كله؛ لأن نشاط الإنسان المسلم كله حركة واحدة متجه نحو تحقيق غاية وجوده. وغاية وجود الإنسان هي العبادة عن طريق القيام بحق الخلافة في الأرض، والقيام بحق الخلافة في الأرض يعني عمارتها وترقيتها وفق منهج الله.

---

(١) فهمي هويدي: هؤلاء الدراويش، الأهرام في ٢٥ / ٨ / ١٩٨٧.
(٢) محمد الغزالي : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص ٢٦.



ويقول الدكتور يوسف القرضاوى في كتابه «العبادة في الإسلام»: إن الزارع في حقله، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، وكذلك الطبيب والمهندس والمخترع والمدرس والطالب والفراش والوزير والرئيس وكل ذي حرفة في حرفته يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاة وجهادا في سبيل الله إذا التزم فيه الشروط التالية:

١- يكون العمل مشروعا في نظر الإسلام.

٢- أن تصحبه النية الصالحة بنفع نفسه وأمته وعمارة الأرض وفق منهج الله.

٣- أن يلتزم الإتقان والمهارة والإحسان في العمل.

٤- أن يلتزم فيه حدود الله، بالبعد عن الظلم والغش والجور.

٥- أن لا يشغله عمله هذا عن أداء التزماته التعبدية الأخرى(١).

وبهذا فإن العبادة ليست مجرد إقامة الشعائر، إنما العبادة هي الحياة. فالحياة كلها خاضعة لشريعة الله. والإنسان في الحياة عابد طالما أنه متجه بكل نشاطه إلى الله مهما كان نوع العمل أو النشاط. قال رسول الله ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**» (رواه الشيخان). وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلا في يوم حار. أكثرنا ظلا صاحب الكساء. فمنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال الرسول ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله**» (أخرجه الستة).

وبهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم وربه. وتصبح هي التربية الدائمة للإنسان كله، جسمه وعقله وضميره ووجدانه.

وبهذا المعنى يصبح من الواجب على منهج التربية الإسلامية أن يتنازل عن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات»، وهو التقسيم الذي ورد في التأليف الفقهي في مرحلة متأخرة- كما يقول الأستاذ سيد قطب. فهذا التقسيم- مع الأسف- قد أنشأ آثارا ضارة في التصور الإسلامي، تبعته- بعد ذلك- آثار ضارة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصوات الناس أن معنى «العبادة» إنما هو خاص بالنوع الأول من النشاط الذي يسمى «فقه العبادات»، بينما أخذ المعنى ينزوي رويدا رويدا عن النوع

---

(١) يوسف القرضاوي : العبادة في الإسلام، ط٤، القاهرة، مكتبة وهبة، ص٦٢.



الثانـي من النشاط الذي يتناوله «فـقه المعـاملات»[1] وهو انحراف بالتـصور الإسلامي لمفهوم العبادة لا شك فيه.

إن منهج الإسلام في التربية يجب أن يتناول كل النشاط الإنساني بالدراسة، ابتداء من الشعـائر التعـبدية كالصـلاة والصيام والزكـاة والحج إلى البرامج الدراسـية في نظام الحكم ونظام الاقتصاد. والتشـريعات الجنائية والمدنية ونظام الأسرة، ونظام الإدارة، إلى المواد المختلفة في الرياضيات والطبيعـة والكيمياء، والعلوم الإنسانية إلى آخره- يجب أن يتناول المنهج كل هذه المواد والبرامج على أساس أنها لا تهدف إلا إلى غاية واحدة، هي تحقيق معنى «العبادة» كما سبق إيضاحه.

إن غيـاب المناهج التـربوية التي تقوم على هذا الأسـاس في معظم أقطار الـعالم العربي والإسلامي هو مـن أهم أسباب البلاء والتخلف الذي نعـاني منه. وحتى المناهج التي تحاول علـى هذا الطريق يشوب بعضـها الخلط، ويعـوز بعضهـا الآخر الكثـير من التخطيط الدقيق. ففي الأزهر مثلا، كنا- حتى الستينيات من القرن العشرين- نتخصص مع بداية المرحلة الثانوية في المذاهب الأربعـة. حيث يقسم الطلاب على هذه المذاهب، فـالبـعض يدرس المذهب الحنفي، والبـعض يدرس المذهب الشـافـعي والبـعض يدرس المذهب المالكي. وهكـذا كان الطـلاب في هذه المرحلة المبكرة من العـمـر، يتـعلمـون التعصب للمذاهب، والغوص في الخلافات والجزئيات والتفصيلات التي لا تجدى، وهم بعد لم يفهموا أصول ومقومات التصور الإسلامي العام.

إن أئمة المذاهب الأربـعة لم يختلفـوا في أصل من الأصول، ولا في أي مـسألة ورد فيها نص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وإنما اختلفوا في الجزئيات والتفصيلات التي لا يضر معها الخلاف. وحتى أبو حنيفـة - وهو المشهور بالقياس- قد بنى مذهبه- كمـا يقول ابـن القيم في «أعـلام الموقعين»- على أن ضـعيف الحـديث عنده أولى من القياس والرأي[2].

فمنهج التـربية الإسلامية لا يركـز على الخلافات، ولا على التفـصيلات التي لا قيمة لها، وخاصة في مراحل التـعليم قبل الجامعي، وإنما يهتم بالأصول وبالمجرى العام

---

(١) سيد قطب : خصائص التصور الإسـلامي ومقوماته، ط٧، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢، ص١٠٩.

(٢) ضعـيف الحديث عند المتقدمين، هو مـا يسميه المتـأخرون: بالحديث الحـسن. انظر في ذلك ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، جـ، ص١٣٠ وما بعدها.



لمنهج الله في حكم الحياة. ويترك هذا الترف العقلي والعلمي، وهو الخوض في الجزئيات والثانويات والاختلاف حولها، لخاصة المتخصصين في هذا الميدان.

## رابعا: الحرية

### الحرية: طبيعتها ومظاهرها:

لقد فطر الله الإنسان على الحرية. فالحرية فطرة في الطبيعة الإنسانية، فالله- سبحانه -خلق الإنسان حرا؛ لأنه جعله مسئولا عن تنفيذ منهجه في الأرض، فالإنسان حر لأنه مسئول. فالحرية تستتبع المسئولية، والمسئولية تستلزم الحرية، فنشاط الإنسان المسلم كله حر، وهو كله عبادة لله، طالما كان هذا النشاط حركة واحدة موجهة نحو هذه الغاية.

ومعنى كون الحرية فطرة فطر الله الإنسان عليها، أنها ليست مجرد منحة يمنحها النظام الاجتماعي للإنسان، أو يمنعها عنه، وإنما هي قيمة غريزية غرزها الله في خلق الإنسان حين خلقه. ويعبر عن هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟.

فالحرية حاجة أساسية من حاجات النفس لابد من إشباعها، وهي حق من حقوق الإنسان لابد من ممارسته. فلا عجب- إذن- أن ينحرف سلوك الإنسان ويسوء عمله، وتهبط أخلاقه، ويتدهور حال مجتمعه كله، إذا حرم ومنع من ممارسة حريته، أو إذا انفلت في ممارستها دون ضبط أو تنظيم وفق معايير المنهج الإلهي.

#### مظاهر الحرية:

وللحرية مظاهر كثيرة في المجتمع المتحضر الإسلامي:

فهناك حرية النصح والإرشاد، وإبداء الرأي، والنقد والتقويم. والأصل في ذلك قول الرسول ﷺ، وهو من جوامع الكلم: «**الدين النصيحة**»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: **لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**» (رواه البخاري ومسلم). ويتمثل ذلك- واقعيا- في قول الأعرابي لعمر- رضي الله عنه-: «والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا»، وفي رد الفاروق عليه بقوله: «الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من يقوم اعوجاج عمر بسيفه».

وهناك حرية التملك والكسب عن طريق السبل المشروعة. وما دام المسلم يؤدي حق ماله، فلا سبيل لأحد عليه. والأصل في ذلك قول الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ



مّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنّسَاءِ نَصِيبٌ مّمَّا اكْتَسَبْنَ.. ﴿٣٢﴾﴾ [النساء]. ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنّسَاءِ نَصِيبٌ مّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ.. ﴿٧﴾﴾ [النساء]. وقول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

وهناك حية العمل والكسب في الأرض التي ولد فيها، أو الهجرة في أرض الله الواسعة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]. فإذا كانت حرية المسلم في العمل والكسب مكفولة له في أرض الله الواسعة، فإن ذلك مكفول له من باب أولى في كل أرض تحكّم الإسلام في شئون حياتهم، لا يمنعه من ذلك حاكم، ولا قانون، ولا يحتاج إلى إذن أو رخصة، فآصرة العقيدة تغني الإنسان المسلم عن كل هذا.

وهناك حرية التفكير والاختيار في كل شيء... حتى في العقيدة: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

ويتصل بحرية التفكير والاختيار، حرية العقيدة. والأصل في هذا قل الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]. فالإسلام لا يفرض نفسه بالإكراه من أي نوع، فلا إكراه ماديا ولا إكراه معنويا، ولا إكراه عقليا. إن كل ما على المسلمين هو الجهاد حتى يوصلوا فكرة الإسلام واضحة ناصعة مفصلة لغير المسلمين في أي مكان. وعلى هؤلاء أن يتدبروها ويفهموها، فمن شاء منهم فليؤمن، ومن شاء فليبق علي ما هو عليه، وهو آمن بشرط ألا يعوق المسلمين عن نشر دينهم: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس].

والإسلام يسير في هذا مع مقتضى فكرته عن فطرة الإنسان على الإيمان بالله وحده، فالإنسان غير المسلم الذي تصل إليه فكرة الإسلام واضحة جلية دون ضغوط أو حصار أو رفض قائم على مقدرات سابقة، لابد أن يعود إلى فطرته السليمة التي فطر الله الناس عليها، لكن الإسلام يريده أن يعود إلى الله بإرادته الحرة الواعية.. فهذا هو الطريق الوحيد الذي يستوجب المسئولية.

وهناك الحرية السياسية المنضبطة وفقا لمعايير نظام الشورى في الإسلام. وهذا ما نفصل القول فيه فيما يلي:

**المنظومات الحضارية ومصطلحاتها:**

إن مفهوم الشورى في الإسلام هو أحد العوامل المنظمة لحركة الإنسان الحرة في الحياة. ولقد احتدم النقاش بين كتابنا الإسلاميين منذ زمن طويل حول أوجه الشبه والخلاف بين مصطلح «الشورى» في النظام الإسلامي، ومصطلح «الديموقراطية» في النظام الغربي الحالي. وكان الصراع بين كثرة- في حالة دفاع عن النفس- يحاولون أن يوجدوا لكل عنوان براق في الحياة الغربية مثيلا في الإسلام، عن طريق عقد مقارنات شكلية لا تبدأ من الأصول والبنى التحتية التي تقوم عليها النظريات الحضارية ومصطلحاتها الخاصة. وغالبية هذا الفريق من المثقفين في العالم الإسلامي يعيشون في إطار المنظومة الحضارية الغربية، وداخل مصطلحاتها، ولا يتصورون أن يتم العيش إلا بما نشأوا عليه.

وعلى الطرف الآخر يقف هؤلاء الذين يرون أننا يجب أن نختار مصطلحاتنا بالشكل الذي يساعدنا على تأكيد هويتنا، واسترجاع خصوصية حضارتنا المؤسسة على منهجية الإسلام ونظامه العام.

وأصحاب هذا الرأى الثاني يقيمون حجتهم من منطلقين متكاملين: المنطلق الأول، هو منطلق رباني، يرى أن الإسلام هو منهج الله للكون، وهو نظام متكامل لا يحتاج إلى «قطع غيار» من خارجه: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

والمنطلق الثاني هو منطلق عقلي وعلمي. وهذا المنطلق يرى -كما يقول الاستاذ محسن عبد الحميد- : «أن من القضايا المسلمة في الدراسات الإنسانية الحديثة أن المصطلح الحضاري يعبر تمام التعبير عن منظومته الحضارية، ويأخذ مفهومه من جميع الجزئيات المترابطة التي يشكل نسيجها الباطن؛ ولذلك فهو جزء لا يتجزأ من تلك المنظومة. وإخراج مصطلح ما من منظومته، واستعماله منفردا في منظومة حضارية أخرى، يؤدي إلى التداخل في المفاهيم، وزعزعة المنطلق الداخلي فيها. ومن هنا فإن تصورنا لا يكون سديدا للمصطلحات إلا إذا فهمناها من خلال تطورها الحضاري داخل منظوماتها وأنماطها».

«ولا شك أن كل حضارة لابد أن تكون لها «نظرية حضارية» أو أيديولوجية عامة أو «مذهبية» ذات منطلقات محددة مترابطة. وهذه النظرية الحضارية لا تتوضح قط إلا



من خلال مصطلحاتها، فهي ومصطلحاتها متلازمتان، لا تنفصلان، إلا إذا أردنا تفكيك تلك الحضارة وتغيير خط سيرها وبنائها من جديد»[1].

إنَّ هذه القاعدة لم تكن ذات خطورة يوما ما كما هي الآن، وفي هذا العصر بالذات الذي تقدمت فيه وسائل المواصلات والاتصالات إلى حد جعل النظريات والمذاهب الحضارية تتشابك، والينابيع تختلط. وعليه فإن التفاهم بين هذه الأصول والنظريات الحضارية لا يمكن أن يتم إلا على أساس الوضوح التام في استعمال المصطلحات في كل منها.

إن التطور الحضاري إذا أسس على الخلط بين عدد من المصطلحات المنتمية إلى نظم حضارية متباينة في أصولها وتطورها التاريخي، فإنه يصاب بالاضطراب الشديد في الفكر والممارسة، كما يفقد التوازن، وتتزعزع حركته وتدور في حلقة مفرغة، ويفقد الاتجاه الصحيح صوب الهدف المرغوب.

وتأسيسا على القاعدة السابقة، فإن القول بأن «الديموقراطية» في النظام الغربي هي «الشورى» في النظام الإسلامي، أو أنه من الممكن استخدام مصطلح «ديموقراطية» بإضافته إلى الإسلام، كأن نقول: «ديموقراطية الإسلام» يعتبر تسطيحا شديدا للموضوع، وتعميما غامضا يحتاج إلى مقارنة موضوعية شاملة للأصول والبنى التحتية للنظم ولكل جزئياتها؛ لأنه يقطع المصطلح الحضاري من نظامه ويضعه بمقابلة مصطلح حضاري آخر، دون اعتبار لأصول النظام في كل منهما، ودون الالتفات إلى دراسة الجزئيات المترابطة التي يجمع بينها منطق واحد داخل كل نظام.

ومقارنة «الشورى» في النظام الإسلامي و«الديموقراطية» في النظم الأخرى، تظهر لنا فروقا جوهرية سبعة:

**أولا : الحاكمية لله وليس للإنسان**

الفرق الأول هو أن النظام الإسلامي نظام رباني من صنع الله، فهو يقوم على أساس أن الحاكمية لله وحده، فهو المشرع وحده دون البشر. أما النظم الأخرى، ومنها تلك التي يمثل مصطلح «الديموقراطية» جزءا في بنائها الحضاري فهي من صنع البشر. وتقوم على أساس أن الحاكمية للإنسان، فالإنسان هو الذي يشرع لنفسه بنفسه. وتبعا لهذا فإن التشريعات والقيم في أصولها وفروعها في النظام الديموقراطي هي من صنع

(١) محسن عبد الحميد: «الفروق الجوهرية بين نظام الشوري ومصطلح الديموقراطية» الشرق الأوسط، العدد رقم ٢٣٠٥ .

الإنسان. فالنظام العام الذي ينبثق منه مصطلح الديموقراطية هو النظام العلماني الذي يفصل الدين عن المجتمع والدولة. ومن ثم فالنظام الإسلامي لا يلتقي مع هذه النظم، لأنهما يقومان على قاعدتين متناقضتين في الأصل.

**ثانيا: الشورى جزئية في نظام عالمي النزعة:**

الفرق الثاني: هو أن «الشورى» جزئية في النظام الإسلامي العالمي النزعة، الذي ينظر إلى العالم على أنه وحده متكاملة، ويرمي إلى ضم البشرية وقيادتها تحت لوائه متساوية متآخية متكاملة. كما ينظر الى الإنسانية على أنها وحده في الجنس، والطبيعة، والنشأة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾﴾ [**الأنبياء**]. ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٢٧﴾﴾ [**التكوير**]. ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾﴾ [**آل عمران**].

أما «الديموقراطية» فهو حكم الشعب نفسه بنفسه. وكلمة «شعب» أو «أمة» هنا في هذا النظام تعني شعبا محصورا في حدود معينة، في إقليم معين. تجمع بين أبنائه أواصر اللغة والجنس والعادات والتقاليد والمنطقة الجغرافية... إلى آخره. أي أن فكرة الديموقراطية مقترنة بالوطنية والقومية والعنصرية. وليس الإسلام كذلك، فلأنه رباني وعالمي، فإن «الأمة» في الإسلام يرتبط أبناؤها برباط واحد، هو رباط العقيدة والسير وفق منهج الله، فكل من اعتنق الإسلام وسار وفق منهجه في الحياة، فهو عضو في أمة الإسلام بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو وطنه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..** ﴿١٣﴾﴾ [**الحجرات**].

ولأن «الشوري» هي جزئية في نظام رباني، عالمي، فهي إذن جزئية في نظام يقوم على مبادئ وقيم ومعايير ثابتة وغير قابلة للتغير أو التناقض. وهو نظام يقوم على الإيمان بوحدة الإنسانية، ووحدة الكون، ووحدة المصير: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ [**المائدة**].

أما «الديموقراطية» فهي جزئية في نظم بشرية وقومية ومحلية، تحمل طابع البشر من الثبات والتغير، والنقص والكمال، والخطأ والصواب، ولكون النظام الإسلامي من عند الله، فهو كامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإدخال أي عنصر غريب فيه يؤدي إلى سوء فهمه والانحراف عن مقصده.



### ثالثا : الشورى جزئية في نظام يقوم على الأصول الربانية وليس مجرد الأكثرية:

والفرق الثالث: هو أن النظام الديموقراطي يقوم على مبدأ «الأكثرية» فالحزب الذي يحصل على أعلى نسبة من الناخبين هو الذي يحكم. والرأي الذي يفوز بأعلى الأصوات هو الذي يحترم، والمرشح الذي يؤيده غالبية الناس هو الذي يصل إلى المجالس النيابية. . . وهكذا. ولا شك أن الأمر كله في النهاية مرهون بتأثير القوى الأقتصادية والسياسية وجماعات الضغط المختلفة على توجيه الرأي العام إلى الوجهة التي يرغبونها.

أما نظام الشورى فهو- على العكس من ذلك- لا يتبع نظام «الأكثرية» لو كانت على ضلال. فالشريعة- وهي القرآن والسنة- هي المعيار سواء تبعها الأكثرية أم الأقلية. فالأكثرية ليست حجة، فإن أكثر الناس غالبا على ضلال، والله يقول: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام]. ويقول: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف].

فالحق المتمثل في شريعة الله هو المعيار، وليس كثرة الناس، فالرجال تعرف بالحق، والحق لا يعرف بالرجال. والمسلمون في المجتمع القائم على الشورى لا يقدمون واقع الناس على حقيقة دينهم، وهم ليسوا أمة يقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساءوا أسأنا، وإن تعامل الناس بالربا تعاملنا، وإن كشف الناس العورات كشف نساؤنا العورات! لا. . ولكن يتبعون الحق كما تمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إنَّ الحق أحق أن يتبع، والرأي الواحد، إن كان معه الدليل الساطع، أولى بالاتباع، وإن خالف أو أغضب أصحاب ألف رأي ليس معهم دليل صحيح. . وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**إن من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي عنه الله، وأرضى عنه الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط عليه الله، وأسخط عليه الناس**» (رواه الترمذي).

### رابعا : "الإنسان الصالح" وليس مجرد "المواطن الصالح"

الفرق الرابع: -وهو مترتب على ما سبق- هو أن «الديموقراطية» جزء من نظام يؤمن «بالمواطنة» ويهتم بتربية «المواطن الصالح». هذا المواطن الذي يتحول- عندما يترك حدود وطنه ومصالح مواطنيه- إلى شخص آخر تتنازعه كل مشاعر الأنانية والقسوة والاستبداد. ويشهد بذلك واقع المستعمرات في آسيا وأفريقيا في الماضي والحاضر. أما «الشورى» فهي جزئية في نظام يؤمن بتربية «الإنسان الصالح» أيا كان موطنه. فالإنسان

الصالح هو عنوان الإسلام أينما ذهب، وحيثما حل، وهو قدوة الآخرين في كل مكان. فلا عجب- إذن- إن ساد الإسلام وقاد البشرية نحو التقدم والرقي عندما كان المسلمون- بفكرهم وسلوكهم- قدوة معبرة عن منهج الله في واقع الأرض.

**خامسا : الغايات الخلقية للأعمال وليس الغايات النفعية للأخلاق**

الفرق الخامس: هو أن أهداف الديمقراطية في النظم الغربية هي أهداف نفعية خاصة ومتغيرة، لا تستند إلى قيم أخلاقية وإنسانية عامة وثابتة، فالقرارات الديموقراطية، قد تهدف إلى تحقيق سعادة شعب أو أمة وإنماء الثروة وكسب عناصر القوة عن طريق الضغوط والمؤامرات واحتلال الأراضي واحتلال العقول بقوة السلاح أو بقوة التآمر أو بهما معا. فالمهم هو تحقيق الأهداف مهما كانت الوسائل. أما «الشورى» فهي جزئية في نظام يقوم على أساس الغايات الخلقية للأعمال؛ ولهذا فإن الوسائل لتحقيق هذه الغايات لابد وأن تكون مشروعة وفق منهج الله.

فالعلم ضار إذا لم تكن غايته تحقيق النفع للناس جميعا، والحرب دمار إلا إذا كانت غايتها رفع الظلم وتحقيق العدل والأمن والاستقرار لخير الناس جميعا، واكتشاف الذرة خراب إلا إذا كانت تهدف الى إمداد الناس بالطاقة اللازمة لصناعتهم وزراعتهم وعمارة الأرض من حولهم... وهكذا كل عمل وكل نشاط إنساني.

والنتيجة- كما يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب- هي «أن أسلوب التفكير الإسلامي القائم على الغايات الخلقية للأعمال، لا يستطيع الالتقاء بأسلوب التفكير الغربي الحاضر القائم على الغايات النفعية للأخلاق»[1].

**سادسا : فصل السلطة التشريعية عن السلطتين التنفيذية والقضائية**

الفرق السادس: أن «الديموقراطية» القائمة على النظم والتشريعات الوضعية تعتبر «التشريع» من حقها، فهو إحدى سلطاتها الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية. والتشريع الوضعي بهذا الشكل لا يعطي أية ضمانة لحرية الشعب عندما يحتل مقعد السلطة حاكم يضع القوانين، ويضع المجالس التي تضع القوانين، وبذلك يصبح الطغيان صورة من صور الديموقراطية، فهذا النظام لا يعطي أي ضمان فعال يحمي الناس من استبداد السلطتين التشريعية والتنفيذية معا، وخاصة إذا اتفقت إرادتهما وقراراتهما على ذلك.

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام: مرجع سابق، ص ١٩٥ .



أما «الشوري» فهي جزئية في نظام حصن المجتمع ضد الطغيان- كما يقول الدكتور توفيق الشاوي- حين جعل التشريع الإسلامي مستقلا في جوهره عن الدولة. ففصل بذلك بين السلطة التشريعية ممثلة في الكتاب والسنة، وبين السلطة التنفيذية بما فيها السلطة القضائية.

صحيح أن الإسلام يعتبر طاعة السلطة التنفيذية فضيلة مأمورا بها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء]. غير أن هذه الطاعة- كما هو واضح من الآية- معلقة على التزام السلطة التنفيذية بأحكام الشريعة في الكتاب والسنة.

وقد عقد ابن القيم فصلا في «أعلام الموقعين» بعنوان «انتفاء الإيمان بانتفاء «الرد» يقول فيه- تفسيرا لقوله تعالى: ﴿ ... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٥٩) ﴾[النساء] إن الله «جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإن انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ثم يقول: «ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولو لم يكن كافيا، لم يأمر بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء]. يقول ابن القيم: «أقسم -سبحانه- بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسول الله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل. ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضا بذلك حتى يسلموا تسليما. وينقادوا انقيادا. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ. (٣٦) ﴾[الأحزاب] فأخبر -سبحانه- أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضلالا مبينا(٢).

---

(١) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين ج١، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ، ص٤٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.



إنَّ جعل السلطة التشريعية من اختـصاص القرآن والسنة، وجعل السلطة التنفيذية والقضائية من اختصاص الدولة بشرط التزامها بأحكام الشريعة، إن هذا مؤداه- كما يقول الدكتور محمد طه بدوي- سلخ السلطة التنفيذية عن أشخاص القائمين عليها، لإخضاع ممارستها لدستور مسبق، هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ثم يتساءل: أليس هذا بعينه هو مضمون مفهوم الدولة الحديثة التي يدعي الغربيون أنه من ابتداع فكرهم؟! ألا يعني هذا أن الإسلام هو أول من قدم في التاريخ صورة للسلطة المنظمة تنظيما قانونيا يحمى الحريات والحقوق والواجبات؟!.

**سابعا: سلطة الدولة مقيدة وليست مطلقة**

الفرق السابع- وهو مترتب على ما سبق- هو أن سلطة الدولة في الديموقراطية الغربية سلطة مطلقة، فالدولة هي صاحبة السيادة عن طريق البرلمانات والمجالس النيابية والقوانين التي تضعها أو تلغيها. فالدولة- عن طريق البرلمان- تضع قوانين واجبة النفاذ، حتى لو كانت منافية للأخلاق، أو متعارضة مع المصالح الإنسانية، فالديمقراطية الغربية- مثلا- قد تعلن الحرب من أجل سيادة شعب على شعب، أو الاستيلاء على طرق التجارة وأسواقها، أو احتكار منابع الطاقة... إلى آخره. لكن نظام الشورى في الإسلام لا يعطي للدولة سلطة مطلقة هكذا، وإنما هي مقيدة بالقوانين الأخلاقية والإنسانية التي نصت عليها الشريعة الإسلامية أو «السلطة التشريعية».

إذن فالدولة لا تستطيع أن تتصرف إلا في حدود هذه القوانين المشروعة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وعلى هذا لا يتطابق نظام الشورى في الإسلام مع نظام الديموقراطية الغربية، فليست السيادة للدولة وحدها، ولا للأمة وحدها، ولا للقانون وحده، ولا لرجال الدين وحدهم، وإنما السيادة في نظام الشورى الإسلامي تكون على النحو التالي: هي أولا وقبل كل شيء لشريعة الله «السلطة التشريعية»، ثم للأمة التي ارتضت شريعة الله منهجا ونظاما لها في الحياة، ثم للحكام والدولة (السلطة التنفيذية والقضائية)، فالحاكم وكل القائمين على السلطة التنفيذية والقضائية، هم أصحاب سيادة، طالما أنهم يحكمون وفقا لمبادئ الشريعة، ثم وفقا لشروط التعاقد بينهم وبين الأمة أو المحكومين.

لكل ما سبق نقول: إن مضمون مصطلح «الشورى» في النظام الإسلامي يختلف عن مضمون مصطلح «الديموقراطية» في النظم الأخرى، اختلافا جوهريا؛ لأن كلا منهما يتبع منظومة حضارية تتناقض مع الأخرى في المصدر وفي الوسيلة، وفي الغاية.

ومن ثم، فإذا أردنا- نحن المسلمين- أن نستعيد هويتنا، ونسترجع خصوصية حضارتنا، فعلينا أن نتمسك باستخدام المصطلحات والمفهومات التي تمثل جزئيات متكاملة مع منهج الله ونظامه العام لحكم الحياة.

**نظام الشورى للجمع بين القيادات الفكرية والقيادات السياسية:**

يؤكد التاريخ الإسلامي أن الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم كانوا يجمعون بين القيادة الفكرية والفقهية للأمة، وبين القيادة السياسية. لكن بعد وقوع الفصام النكد بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية للأمة، مع بداية عصر الخلافة الأموية، أصبح للأمة قيادات سياسية مستقلة في بعض الأحوال في قرارها السياسي عن الأمة وعن قياداتها الفكرية. وأصبحت القرارات السياسية متأثرة إلى حد كبير بمؤثرات خارجية، ليس بينها قيادات الأمة المثقفة، ولا الحاجات المباشرة للأمة التي يعبر عنها مثقفوها وقادة الرأي فيها.

وكان من أهم الآثار المباشرة لهذا الفصام النكد أمران: الأمر الأول هو انفصال التاريخ السياسي للأمة رويدا رويدا عن تاريخها الثقافي والحضاري العام. وهو الأمر الذي أدى إلى أن توصم الأمة الإسلامية بسوءات تاريخها السياسي وحده دون اعتبار للتاريخ الثقافي والحضاري المشرق بكل المقاييس.

الأمر الثاني هو الانحراف عن الشريعة، فانفصال القيادة السياسية عن القيادة الفكرية أدى إلى حدوث فجوة أخذت تتسع قليلا قليلا بين التشريع والاجتهاد، وبين التطبيق العملي، أي بين النظرية والتطبيق، حيث بدأ الفكر النظري يجد صعوبة في التحول إلى واقع عملي على وجه الأرض؛ لأنه يحتاج إلى قرارات سياسية. وهذه كانت- في أحوال كثيرة- بيد أقوام غير فاهمين، أو غير مقتنعين،أو غير مؤمنين، أو كل هذا في آن. وهكذا انفصل عقل الأمة عن واقعها، وبدأ الانحراف.. رويدا رويدا عن شريعة الله فيها.

إن الحل الوحيد، إنما يكون في العودة إلى نظام الشورى، فالشورى هو النظام الوحيد القادر على الربط بين القيادات الفكرية والسياسية، فالقرارات السياسية لا تؤخذ إلا نتيجة للمشاورات بين القيادات السياسية وبين القيادات الفكرية المتخصصة في فهم التصور العام لمنهج الله بكل خصائصه ومقوماته، وفي مجالات العلم والحياة المختلفة، والقادرة على تصور وفهم الحاجات والمشكلات المتجددة لأبناء الأمة.



فعلى منهج التربية الإسلامية أن يوضح لأبنائه أصول الحكم في الإسلام على أسس الشورى، ويوضح لهم صور الحكم التي يمكن أن تقوم على هذه الأصول. ويقارن لهم ذلك بالديموقراطية التي توشك أن تتداعى بسبب إفلاسها في عالم «القيم» التي يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية في ظلالها نموا سليما، وتترقى ترقيا صحيحا. ويقارن ذلك كله بأنظمة الحكم الجماعية التي تقوم على أساس فكرة المادية الجدلية والتطور المادي للتاريخ، وهي الفكرة التي تناهض طبيعة الفطرة الإنسانية ومقتضياتها؛ حيث تلغى القيمة الحاسمة لحرية الإنسان وإرادته في تغيير الحياة، وترقية نظمها وقوانينها وعلاقاتها الاجتماعية.

## منهج الإسلام في التغير الاجتماعي

### قاعدة التغير:

الإسلام هو نظام الله للكون. ومفهوم الدين في هذا النظام هو المنهج العام الذي يحكم الحياة. ويقوم هذا النظام أو المنهج على أسس أن الحاكمية لله وحده، وأن الإنسان هو خليفة الله في أرضه، وأن حق الخلافة يقتضي أن يساهم الإنسان- بإيجابية وفاعلية- في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وأن كل فكر أو شعور أو قول أو عمل يقوم به الإنسان- أثناء حركته الدائبة المخلصة لله- في عمارة الكون، هو جزء من عبادة الإنسان لله -سبحانه- يثاب عليه في الدنيا، ويرصد له في الآخرة.

والتغير الذي يحدثه الإنسان في الأرض أو في المجتمع، يتم وفق الإرادة المطلقة لله. وهذا التغير إما أن يكون في اتجاه يهدف إلى تدبير شئون الخلق وفق منهج الله، وإما أن يكون في أي اتجاه آخر، وفي كل الأحوال فإن التغير الاجتماعي الذي يحدثه الإنسان، إنما يخضع لقاعدة ثابتة تمثلت في قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**.. ﴿١١﴾﴾ [**الرعد**]، وقوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**.. ﴿٥٣﴾﴾ [**الأنفال**].

هاتان الآيتان من أصرح آيات القرآن تبيانا لسنة الله في التغير. ففي سياق تفسيره للآية الأولى يقول الحافظ ابن كثير أنه يروى أن الله -سبحانه وتعالى- أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا**

﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ . . . وروى عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-أن رسول الله ﷺ حدثه عن ربه -عز وجل- قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»(١).

ويقول الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن تفسيرا للآية الأولى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، فالله -سبحانه وتعالى- يتعقب عباده بالحفظة من أمره؛ لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم. فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى، ولا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة. . إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم. وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم من قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس إليهم»(٢).

وفي الآيتين التاليتين يرينا الله -سبحانه وتعالى- كيف تمضي سنته هذه في الخلق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال].

يقول ابن كثير: يخبر الله -تعالى- عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. فآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآيات الله أهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين(٣).

فالآيات السابقة إذن تقرر حقيقة كلية، وسنة من سنن الله في الكون يمضي بها قدره، فما أصاب المشركين يوم بدر، هو ما يصيب المشركين في كل وقت، وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم: كفروا بآيات الله، عقيدة وعملا، فأخذهم الله بذنوبهم.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، الجزء الرابع، ص ٧٥ .

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة العاشرة، الجزء الثالث عشر، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٢٠٤٩ .

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٣٣٦-٣٣٧ .

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..﴾ يدل على أن الله أهلك آل فرعون، وكذلك الذين من قبلهم بعد أن أخبروا بآيات الله وكذبو بها، فهو لم يهلكهم قبلها، مع أنهم كانوا كافرين؛ لأن هذه سنته: ﴿..وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾[الإسراء].

**ما يستفاد من قاعدة التغير:**

مما سبق تتضح لنا مجموعة من الحقائق أهمها ما يلي:

**أولا:** أن كل تغير في الكون يتم في إطار الإرادة المطلقة لله، بما في ذلك حركة الإنسان بالطبع، وهذا أصل ثابت بالنص: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ...﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا ...﴾. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس]، وحول هذه القاعدة تدور حركة الإنسان في جميع اتجاهاتها فحركة الإنسان- كحركة كل شيء في الكون- تدور وفق الإرادة المطلقة لله.

**ثانيا:** تقرر الآيتان السابقتان «عدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم ويقلبو أوضاعهم. ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها».

**ثالثا:** تفيد الآيات تكريم الإنسان إلى حد بعيد، إذ جعل الله قدره ينفذ بالإنسان عن طريق حركة الإنسان نفسه وعمله هو، وجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم العملي، وأوضاعم التي يختارونها لأنفسهم.

**رابعا:** أن الله يلقي على الإنسان تبعة عظيمة، تقابل التكريم العظيم الذي منحه له. فالإنسان وحده- دون كل خلق الله- يملك أن يستبقي نعمة الله عليها، وأن يزاد له عليها، إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه، فانحرفت خطاه.

وهنا تظهر إيجابية الإنسان في صياغته لمصيره- وفق الإرادة المطلقة لله- «وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تفرضها عليه المذاهب المادية، التي تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة: حتمية الاقتصاد، وحتمية التاريخ، وحتمية التطور... إلى آخر



الحتميات التي ليس للكائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول»[1].

خامسا: أن هناك تلازما بين العمل والجزاء في حياة الإنسان ونشاطه الوجداني والعملي، فمن عدل الله المطلق، أن جعل هذا التلازم سنة وقاعدة يجري بها قدره وإرادته: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف].

سادسا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وشريعة الإسلام من عقيدته.. «بل إن شريعته هي عقيدته... إذ هي الترجمة الواقعية لها»[2] وهذا يعني أن إحياء الشريعة لا يمكن أن يحدث بصورة فعالة إلا بإحياء العقيدة أولا، فالمستوى الاعتقادي يجب أن يسبق في الإحياء قبل المستوى التشريعي.

### إحياء الإسلام- عقيدة ونظاما:

إن منهج الرسول ﷺ في تغيير المجتمع، ما يزال منهجا صالحا للتغيير اليوم. فقد بدأ بالدعوة وبناء العقيدة في نفوس الجماعة الأولى في مكة، ثم انتقل إلى بناء الدولة ووضع التشريعات على أساس العقيدة في المدينة. «إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقر «وجوده» لم تكن هي المعركة من الإلحاد، حتى يكون مجرد «التدين» (هو الهدف)، ولم تكن معركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي- فهذه معارك تالية لمعركة «وجود» هذا الدين... لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر «وجوده» هي معركة «الحاكمية»، وتقرير: لمن تكون ؟.. لذلك خاضها وهو في مكة، خاضها وهو ينشئ العقيدة، ولا يتعرض للنظام والشريعة، خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده، لا يدعيها لنفسه مسلم، ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم... فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة»[3].

وفي مرحلة بناء الدولة لم يتوقف الرسول ﷺ- بالطبع- عن بناء الدعوة في نفوس الداخلين الجدد في الإسلام، ولا عن تعميق الدعوة وصقلها في نفوس الجماعة الأولى التي تولت بدورها مهمة بناء الدعوة وإقامة الدولة معا وفي آن واحد.

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ١٠، ص ١٥٣٥-١٥٣٦ .
(٢) المرجع السابق، جـ ٨، ص ١٢١٦ .
(٣) المرجع السابق، جـ ٨، ص ١٢١٧ .



وعلى هذا النهج النبوي الكريم سار رواد حركة الإحياء في العصر الحديث. فبعد أن حاد المسلمون عن الإسلام، واحتكموا إلى شرائع أخرى غير شريعة الله، وانتشرت بينهم البدع والخرافات، وفسد فهم غالبيتهم للإسلام عقيدة وشريعة، ضعفوا وذلوا، وضاعت هويتهم وهيبتهم بين الأمم.

فلما جاء رواد الإحياء في العصر الحديث رأوا أن الحل الإسلامي إنما يتأتى عن طريق إحياء العقيدة، واستدعاء الشريعة لتحل مكانها الحاكم في المجتمع، بحيث تظل علاقات الناس بالله، وعلاقات الناس بالناس، وإطلاق سراح الإسلام ليؤدي دوره الفاعل في حاضر الناس ومستقبلهم. وقد بدأت أولى محاولات هذه المدرسة على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، ثم على يد السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وقد تبنت مدرسة الإخوان بريادة الأستاذ حسن البنا هذا الطرح، ونقلت دعوة الإحياء في مصر من مجامع المثقفين ومنتدياتهم إلى الشارع والمجتمع على اتساعه[1]- ولا شك أن من أكبر المساهمين في حركة الإحياء المباركة- بعد حسن البنا- هو الأستاذ سيد قطب.

وبالرغم من أن جمال الدين الأفغاني قد رأى أن إحياء الإسلام عقيدة وشريعة إنما يبدأ بالثورة على الظلم، والتغيير بالقوة إن استدعى الأمر، إلا أن الشيخ محمد عبده ومن أتى بعده من رواد هذه الصحوة كالإمام حسن البنا والأستاذ سيد قطب، قد بدأوا- وفقا للنهج النبوي- بتكوين العقيدة الصحيحة في نفوس ثلة صالحة من أبناء الأمّة.

فقد اعترض الشيخ محمد عبده على أسلوب جمال الدين الأفغاني قائلا: «إن هذه السياسة لا يأتى منها خير؛ لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مُصلحة، لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط، فخير لنا أن نذهب معا إلى مجهل من مجاهيل الأرض، لا سلطان للسياسة فيه، ونحاول تربية أفراد على ما نحب، فإذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون أنفسهم لخدمة الأمة، لا يعدل بهم عن ذلك الجثوم في وطن، ولا الإخلاد إلى الأهل والسكن، بل يكون همهم الأكبر الضرب في الأرض، لتربية أمثالهم على ما ربوا عليه، فلا يبعد أن يربى الواحد منهم عشرة ليكون لنا في زمن قريب مائة رجل يعملون للإسلام»[2].

---

(١) فهمي هويدي: لغز الحل الإسلامي: الأهرام، العدد ٣٦٦٨٦، ١٩ / ١ / ١٩٨٧م، ص٧.

(٢) أنور الجندي: اعلام واصحاب اقلام، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، بدون تاريخ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

إن هذا هو ما عبر عنه الأستاذ سيد قطب بقوله: «لابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة: وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة... وعدم محاولة فرض النظام الإسلامي... قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي؛ لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به»(١).

**الفصل التعسفي بين العقيدة والشريعة:**

يقول الشيخ محمود شلتوت: لقد عرفنا من القرآن «أن الإسلام له شعبتان أساسيتان، لا توجد حقيقته، ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقيق والوجود في عقل الإنسان قلبه وحياته، وهاتان الشعبتان هما: العقيدة والشريعة»(٢).

«إن العقيدة في النظام الإسلامي «هي الأصل الذي تبنى عليه الشريعة، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة، ومن ثم فلا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة، كما لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة؛ ذلك أن الشريعة بدون العقيدة علو ليس له أساس، فهي لا تستند إلى القوة المعنوية التي تدفع إلى احترام الشريعة، ومراعاة قوانينها، والعمل بموجبها دون حاجة إلى معونة أي قوة من خارج النفس.. وعليه فمن آمن بالعقيدة، وألغى الشريعة، أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة، لا يكون مسلما عند الله، ولا سالكا في حكم الإسلام سبيل النجاة»(٣).

إن الفصل التعسفي بين العقيدة والشريعة في تغيير المجتمع عمل لا مبرر له؛ لأن المسلمين لن يأخذوا بالشريعة ويقيموا عليها نظاما اجتماعيا قويا، ويحتكموا إليها في حياتهم إلا إذا كانوا يفهمونها فهما صحيحا، ويعتقدون فيها مصدرا وغاية.

وبالرغم من أن الفصل في الإسلام بين العقيدة والشريعة فصل تعسفي، إلا أن التغيير في المجتمعات الإسلامية يجب أن يبدأ بالعقيدة، فيزيل الرواسب والأتربة التي تراكمت عليها عبر أزمان الجهل والتخلف والبدع والخرافات. فإذا ما عادت لامعة براقة

---

(١) سيد قطب: لماذا أعدموني، الطبعة الثالثة، جدة، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، بدون تاريخ، ص٢٩ .

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٥م، بيروت، دار الشروق، ص٩ .

(٣) المرجع السابق، ص١١ .



في نفوس المؤمنين أو ثلة صالحة منهم، فلن تكون هناك مشقة تذكر في إقامة نظام على أساس الشريعة، حيث إن ذلك سيكون مطلبا شعبيا.

### تغيير الأنماط العقائدية والمعيارية قبل النظم والمؤسسات:

إن الآيتين السابقتين في صدر هذا الحديث، وهما آية سورة الرعد: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿١١﴾ ﴾، وآية سورة الأنفال: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿٥٣﴾ ﴾ يدلان دلالة قاطعة على أن التغير الاجتماعي إنما يبدأ من الداخل، أي من داخل النفس، وذلك بتغيير الأنماط العقائدية والمعيارية والقيمية والفكرية للإنسان، فإذا ما تغير ذلك، فإنه ينعكس على السلوك الخارجي للفرد والمجتمع على السواء، أي أنه ينعكس على النظم. والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية... إلى آخره. لكن العكس غير صحيح. فتغيير النظم والمؤسسات على غير أسس معيارية واضحة وعميقة في نفوس الناس، هو تغير سطحي هش، يطير مع أول نسمة هواء.

إن هذا المنهج القرآني في التغير الاجتماعي، هو ما طبقه النبي ﷺ حين أقام العقيدة قوية راسخة في مكة، ثم أقام النظام على أسسها في المدينة. ومما يؤثر في هذا المقام عن الأستاذ حسن البنا قوله: «أقيموا الإسلام في أنفسكم يقم على أرضكم».

إن هذا المنهج تقوم على أساسه نظريات الآن لبعض علماء الغرب في التغير الاجتماعي والتربوي، وقد ذهب الكثير منا وتعلم هذه النظريات على أيديهم، على أساس أنها نظريات غربية ونتاج فكر عبقري غير مسبوق![1].

إن المستوى الحضاري المتميز المتفرد الذي يثبت خصوصية الأمة الإسلامية، ويرد إليها ذاتها واعتبارها، ويعتقها من أسر الانسحاق والتبعية هو غاية المنهج الإسلامي الذي دعا إليه رواد الصحوة الإسلامية المعاصرة وتلاميذهم الذين يقودون حركتها ويوجهون نشاطها حاليا في شتى أقطار الأمة الإسلامية.

ولن يأتي هذا إلا بدءا بتثبيت العقيدة في نفوس الناشئة، وتصحيحها، وإزالة الغبار عنها في نفوس الكبار، ومن ثم يمكن وضعها ليحل مكانها الحاكم في المجتمع. وليس في هذا رد للمسلمين إلى مرحلة ما قبل الإسلام، وإنما هو- ببساطة- تطبيق للمنهج القرآني في التغيير الراسخ القويم، وهو المنهج الذي طبقه النبي ﷺ، وثبتت

(١) انظر: Brain Holmes, problem Approach in Comparative Education,London, Rutledge and Kegan Paul,1965.



صحته- واقعيا- على المستويين الفردي والجمعي، فالفرد المؤمن بمبدأ أو عقيدة، غالبا ما يبذل كل ما في وسعه في سبيل تنفيذها. وكذلك يفعل المجتمع. وعلى العكس من ذلك، فإنه كثيرا ما يفشل المجتمع في تنفيذ القوانين والنظم؛ لأن أفراده لا يؤمنون بها، أو لا يفهمونها، أو هما معا.

**الخلاصة:**

وباختصار فإننا يمكن أن نخرج من هذه المناقشة بأمرين هامين:

**الأمر الأول:** أن تطبيق المجتمع لمنهج الله، دون فهم أصوله الاعتقادية فهما صحيحا، والاقتناع بأصوله التشريعية في حكم الحياة، كثيرا ما يؤدي إلى نكسة للنظام كله، وإلى إلصاق تهم الضعف، والقصور، والبعد عن الحياة به، وهو منها بريء. وكثيرا ما تأتي هذه النكسات على يد هؤلاء المسلمين غير الفاهمين أو بواسطتهم.

**الأمر الثاني:** أن عملية بناء العقيدة الإسلامية في نفوس الناشئة، وتصحيح مفاهيمها نظريا وعمليا في نفوس الكبار، هي عملية مستمرة لا ينبغي أن تتوقف. وأن هذا لا يمنع أن تقوم المجتمعات المسلمة الحاضرة بتطبيق مبادئ الشريعة في حياتها العملية بطريقة تدريجية ومتوازنة ابتداء من المبادئ التي رسخت في ضمائر الناس وعقولهم.

ويحتاج الأمر الثاني إلى عدة إجراءات أهمها ما يأتي:

١- إعادة بناء مناهج التربية والتعليم: نظريا وعمليا على أساس من العقيدة الإسلامية، ومن النظام أو المنهج المستمد منها.

٢- وضع خطة محكمة لوسائل الإعلام والإعلان والاتصال على نفس النسق.

٣- تغيير الدستور والقانون على أساس الشريعة، أي تحويل الشريعة إلى نظام أو منهج لحكم الحياة. بحيث يكون هذا الإجراء (تغيير الدستور) هو أساس الإجراءين السابقين، وهو المظلة التي تحمي كل العاملين في النظام الجديد، وتهيئ المجال كله كي يكون معدا للعمل في اتجاه واحد، هو تطبيق منهج الله في الحياة[١].

* * *

(١) لمزيد من التفصيل عن المبادئ المستفادة من طبيعة الحياة في التصور الإسلامي وتطبيقاتها في مناهج التربية انظر: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، للمؤلف، دار الفكر العربي، القاهرة.





# الفصل الخامس
## الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي

**مدخل:**

منذ ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة في بداية النهضة الأوربية الحديثة، ومع توارى القيم الإنسانية والخلقية رويدا رويدا لحساب المنافع والمصالح المادية... منذ ذلك الوقت والعالم يعيش عصرا رديئا، تسحق فيه «إنسانية» الإنسان، وتعلو قيمة كل شيء على قيمته. ولم يحل التقدم العلمي الهائل وتطبيقاته التقنية التي لا حدود لها دون ذلك، بل العكس هو ما حدث وما يحدث إلى الآن... لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من المذاهب المعاصرة؟

إن عالم اليوم يشهد أعمالا بالغة العنف والبشاعة والقسوة، وهي وإن اختلفت في أشكالها وألوانها من حروب مدمرة، وقتل للأبرياء، وغزو للأراضي بالقوة، وحرق للمؤسسات، وتدمير عشوائي للأحياء وساكنيها، ونسف للسكان.. إلخ، هذه كلها تعود لنفس الأسباب: النزاعات الطائفية والعرقية، والتعصب القومي، والولاء الإقليمي، وما يترتب على ذلك من رغبة في الاحتكار والاستغلال، ونزعة إلى الهيمنة وفرض السيطرة على الآخرين... لكن ما علاقة كل هذا بمفهوم الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من الفلسفات والنظريات؟

إن غياب وحدة الأسرة «المتخصصة»، وتخلي المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الناشئة، وإفراغ طاقتها في «الإنتاج المادي» و«صناعة الأدوات» على حساب «صناعة الإنسان».. كل ذلك قد أدى إلى غياب البيئة الصالحة التي تنشأ وتنمى فيها القيم والأخلاق «الإنسانية»- التي تتمثل في الجيل الجديد- والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة «المتخصصة».. والنتيجة أجيال من الشباب الضائع الحائر الذي يفتقر إلى الحب والحنان والولاء والانتماء، اللهم إلا إلى عصابات القتل، والاغتصاب، ،والانتحار.. بالهيروين أو بالإيدز، أو بغيرهما... لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي.. وفي غيره؟

إن غياب المعيار الإلهي الثابت لقيم الحرية، والعدالة. والعلم والمعرفة، والعمل،... إلخ قد أدى إلى ما يمكن أن يسمى بـ «غرور القوة»، وما يستتبع ذلك من محاولات فرض الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب ماديا ومعنويا، بقوة السلاح، أو بقوة التآمر، أو بآليات العولمة، أو بكل ذلك.. لكن ما علاقة هذا بمفهوم الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التصور الإسلامي وفي غيره؟

إن الإجابة عن التساؤلات السابقة وغيرها ستأتي- إن شاء الله- من خلال العرض التالي لمفهوم كل من الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التضور الإسلامي، ومقارنتهما بالثقافات أو «الحضارات» المعاصرة.

## الثقافة في التصور الإسلامي

### أصول الثقافة في التصور الإسلامي:

تقوم الثقافة في التصور الإسلامي على قاعدة أساسية هي إفراد الله- سبحانه وتعالى- بالعبودية، ومن ثم إفراده بالحاكمية. وإفراد الله بالعبودية يتمثل في اتخاذ الله وحده إلها، وإفراده- سبحانه- بالحاكمية يعني تحكيم شريعة الله في كل مجالات الحياة.

وانطلاقا من هذه القاعدة، فإن الثقافة في التصور الإسلامي ذات شقين: الأول: الشق المعياري، ويتمثل في شريعة الله، أي كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ. والثاني: الشق التطبيقي ويتمثل في التطبيق العملي الواقعي الصحيح للشق المعياري.

إذن، فالشق المعياري يتمثل في شريعة الله، وشريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية. وأهم ما يمثل هذا الجانب- كما يقول الأستاذ سيد قطب- ما يلي:

١- أصول الاعتقاد: كتصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون: غيبه وشهوده، وحقيقة الحياة: غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها كلها.

٢- أصول الحكم: ويتمثل في الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. كما تتمثل في التشريعات القانونية التي تنظم هذه الأوضاع.

٣- أصول الأخلاق والسلوك: وتتمثل في المعايير والقيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص، وتؤدى بها الأعمال في الحياة الاجتماعية من جميع جوانبها.



٤- أصول المعرفة: وتتمثل في أصول العلم، وفي أصول النشاط الفكري، والتربوي، والفني، والأدبي، جملة وتفصيلا(١).

هذه هي مكونات الشريعة الإسلامية على الإجمال. والشريعة الإسلامية بمكوناتها هذه تمثل الشق المعياري للثقافة في التصور الإسلامي. ومعنى أن هذا الشق «معياري» أن كل ما عداه- من المناهج والنظم والتشريعات والقوانين وأنماط السلوك الفكري والقولي والعملي- الفردي والجمعي- يقاس عليه، لكنه هو لا يقاس على شيء من خارج ذاته. وما ذلك إلا لأنه شق رباني، ثابت، لا يمكن التلقي فيه إلا عن الله.

أما الشق الآخر للثقافة في التصور الإسلامي، فهو الشق التطبيقي، أي التطبيق العملي الواقعي في الحياة للشق المعياري وبمعنى آخر، هو كل أنماط الشعور، والتفكير، والقول، والعمل والسلوك، التي تأتي تطبيقا عمليا واقعيا صحيحا للجانب المعياري.

وعلى هذا، فإن كل المبادئ والقوانين والتشريعات التي تتناقض مع قوانين الشريعة الإسلامية في مصدرها أو في غايتها، لا تعتبر جزءا من الثقافة الإسلامية. وكل التطبيقات والممارسات التابعة لها لا تدخل في مضمون الثقافة الإسلامية. وكل القوانين والعادات والتقاليد وأنماط التفكير والسلوك والعمل التي تشيع في المجتمعات الإسلامية، لكنها تختلف، أو تتناقض مع مبادئ وقوانين الشريعة، لا تعتبر من مكونات الثقافة الإسلامية، ولا تمت لها بأية صلة. بل إن القوانين والعادات والتقاليد تعد من عوامل محاربة هذه الثقافة.

**مفهوم الثقافة في التصور الإسلامي:**

وبناء على ما سبق يمكن تعريف الثقافة في التصور الإسلامي بأنها شريعة الله الشاملة لأصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول المعرفة، وأصول الأخلاق والسلوك، وكل التشريعات والنظم والقوانين التي تخضع لها، وجميع أشكال التطبيق العملي الواقعي، وأنماط السلوك الفردي والجمعي، التي تتسق معها نصا وروحا.

**خصائص الثقافة في التصور الإسلامي:**

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم، هي ثقافة ربانية، تعتمد على الشريعة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهي من هذا المنطلق ثقافة عالمية إنسانية، لا تحدها الحدود

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص-١٣٥ - ١٣٦.



الجغرافية أو الخرائط السياسية، أو تخوم الأرض وأنماط حدودها هي حدود فكرتها. فالإنسان المسلم والجماعة المسلمة يجب أن تمارس حياتها، وأن توجه حركتها ونشاطها وَفْقا لمنهج الله، في كل مكان، وفي كل زمان.

إن الجانب المعياري في هذه الثقافة، وهو جانب الشريعة، جانب إلهي ثابت، يصف ما يجب أن تكون عليه الحياة على الأرض، بمن عليها وما عليها؛ ولذلك فهو جانب مطلق ومُلزمٌ. أما جانبها التطبيقي العملي، فهو لازم لزوما حتميا للجانب المعياري، وإن تغيرت صوره وأشكاله- وهي لابد أن تتغير- بتغير الزمان والمكان، ولكن في ضوء الموجهات المعيارية، وفي نطاق محورها.

والثقافة الإسلامية- بالمفهوم السابق وبالإضافة إلى ما سبق- تؤكد الصلة الدائمة بين المسلم وربه، وذلك من خلال تمرسه بها يوميا. وهي ثقافة عابدة؛ لأنها تجعل الإنسان يفرد ربَّه بالعبودية، ويخصه وحده بالحاكمية؛ ولأنها ثقافة عابدة تفرد الله بالعبودية، ومن ثم، بالحاكمية، فهي ثقافة حرة؛ لأنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى.

وهي أيضا ثقافة عادلة، حيث إنها ربانية وعالمية وليست قومية ولا محلية ولا إقليمية، ومن ثم- فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان، وفي كل مكان، وفي جميع أنماط السلوك الإنساني، حتى لو كان هذا السلوك صادرا من الأنبياء: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] وحتى لو كان مع الأعداء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة].

وهي ثقافة متعادلة: فيها التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وبين ما يتلقاه، فيبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر في مقتضياته العملية، وتطبيقاته في حياته الواقعية. وفيها التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الكونية. وفيها التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. وفيها التوازن بين عبودية الإنسان، المطلقة لله، وبين مقام الإنسان الكريم في الكون. وفيها التوازن في



مصادر المعرفة بين التلقي من الوحي والنص، والتلقي من الكون والحياة، وفيها التوازن بين حاجات الإنسان الروحية وبين حاجاته المادية والاجتماعية(١).

يقول الأستاذ محمد أسد: إن الثقافة التي لا تستطيع أن تقيم توازنا بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية، لا تستطيع- مهما بلغت من تقدم- أن تتغلب على استعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي، أو نداء للحرب. وإذا فقدت الثقافة توازنها، فإنها تصبح صورة قاسية من صور القلق والحيرة الذهنية، والتمزق النفسي، وفقدان الهدف الحقيقي للحياة(٢).

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم وبهذه الخصائص تختلف في مصدرها وفي غايتها عن الثقافات البشرية الأخرى اختلافا بيّنا. فالثقافات البشرية عموما، والغربية منها على وجه الخصوص، تُعرَّفُ لدى بعض علماء الغرب بأنها «الأسلوب الكلي لحياة الجماعة». وهذا التعريف للثقافة يشمل جميع أنماط التفكير والعمل والسلوك المعرفي والوجداني والحركي فطريقة تفكير الجماعة، وطريقتهم في العمل، وأساليبهم في التعليم والتعلم، وطرائقهم في التعامل، ومعتقداتهم وقيمهم ونظمهم، وحتى الطرق التي يأكلون ويشربون بها والكيفية التي يمشي الناس بها في الطرقات أو يقودون بها السيارات... إلى آخره، كل هذه أنماط ثقافية، تختلف باختلاف المجتمعات، وباختلاف الفلسفات والنظريات التي تغذي هذه الثقافات، وتوجه أنماط السلوك فيها.

وهذه الثقافات وصفية، أي أنها تصف الأسلوب الكلي لحياة الجماعة في زمن معين. وهي متغيرة، في جانبيها: الاعتقادي الفلسفي، والسلوكي الواقعي، ولكن مع اختلاف في النسبة فقط. وليس هناك التزام مطلق بين الجانبين، وهي بحكم بشريتها في المصدر، قومية وإقليمية وشعوبية. كما أنها ثقافات مفروضة، حيث إن القوى أو الطبقات الاجتماعية القوية، هي التي تنجح في فرض ثقافتها عن طريق وسائل الإعلام والإعلان والمناهج التربوية والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشرع للمجتمع، وتنظم حركه نشاطه.

وفيما يلي نعقد موازنة موجزة بين خصائص الثقافة الإسلامية، وخصائص الثقافات الأخرى:

---

(١) انظر سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، بيروت، دار الشروق،الطبعة السابعة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م الفصل الخاص بالتوازن ص١١٤ .

(٢) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام، في أنور الجندي، أخطاء المنهج الغربي الوافد، بيروت، دار الكتاب اللبناني رقم (٦) ص٢٤٢ .



| خصائص الثقافة الإسلامية | خصائص الثقافات الأخرى |
|---|---|
| ١- ربانية: مصدرها القرآن والسنة. | ١- بشرية: مصدرها الفلسفات والنظريات الوضعية. |
| ٢- عالمية، وإنسانية. | ٢- قومية، وإقليمية، وشعوبية[1]. |
| ٣- جانبها المعياري ثابت. وجانبها التطبيقي الواقعي لازم لزوما مطلقا للجانب المعياري، وإن تغيرت صور هذا الجانب التطبيقي وأشكاله. | ٣- جانبها المعياري متغير نسبيا. وجانبها التطبيقي متغير دائما، وغير ملتزم التزاما كليا أو مطلقا بالجانب المعياري. |
| ٤- يجب أن تتغير وتتطور الأشكال والصور الثقافية، ولكن في ضوء الموجِّهات المعيارية وحول محورها. | ٤- لا حد لتغير الأشكال والصور الثقافية، مع غياب المعايير والقيم الإنسانية التي توجهها. |
| ٥- تعقد الصلة الدائمة بين الإنسان وربه، فيفرد الإنسان ربَّه بالعبودية، ومن ثم، بالحاكمية. | ٥- تُعبِّدُ العبادَ للعباد. |
| ٦- ثقافة حرة؛ حيث إنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله. | ٦- ثقافات مفروضة بواسطة الطبقات أو الجماعات المسيطرة اقتصاديا وسياسيا. |
| ٧- ثقافة متوازنة: فيها توازن بين الغيب والشهادة، وبين الروح والمادة. | ٧- تفتقد التوازن. |
| ٨- ثقافة عادلة، حيث إنها ثقافة ربانية وعالمية، ليست قومية ولا إقليمية، فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان وفي كل مكان، وفي جميع أنماط السلوك. | ٨- لأنها ثقافة بشرية، فهي قومية وشعوبية، تقوم على الاحتكار والاستغلال والظلم. |

(١) انظر: رشدي أحمد طعيمة: «اهتمامات الأجانب نحو الثقافة العربية الإسلامية» في دراسات تربوية جـ٣، يونيو ١٩٨٦م، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص٢٢٢ - ٢٢٣ .

## أسس التغير الثقافي في الإسلام:

يقوم التصور الإسلامي السابق للثقافة على أساسين هامين:

**الأساس الأول:** أن الثقافة ليست تراثا إنسانيا لا وطن له ولا جنس ولا دين، إلا فيما يتعلق بالعلوم البحتة[1] وتطبيقاتها العملية فقط، ودون تجاوز لهذه المنطقة من المعرفة إلى التفسيرات الفلسفية لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية للإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفنون والآدب والتعبيرات الشعورية جميعا.

**والأساس الثاني:** لتصور الإسلام للثقافة- كما يقول الأستاذ سيد قطب- «هو عدم فصل «العلم» عن صاحبه فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمقومات التصور، المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود، والحياة، والنشاط الإنساني، والأوضاع، والقيم، والموازين، والتقاليد، والعادات، وسائر ما يتعلق بحياة الكائن الإنساني من هذه النواحي. .»[2].

إن الإسلام يعتبر- فيما عدا العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية- أن هناك نوعين من الثقافة: الثقافة الإسلامية، القائمة على أساس التصور الإسلامي- كما سبق أن بينا- والثقافة البشرية القائمة على أساس فلسفات ومناهج شتى، ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، ومصدر واحد، هو العقل البشري، والفكر البشري، الذي لا يخضع في حكمه إلى ميزان الله.

فما موقف الإسلام- إذن- من تأثر الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى؟ لقد بنى الإسلام موقفه فيما يتصل بالتأثر الثقافي والتغير الثقافي على الأساسين السابقين.

فالتغير الثقافي قد ينبع من داخل الثقافة نفسها، وقد يكون وافدا عليها من خارجها. فإذا كان التغير نابعا من داخل الثقافة، وموجها بمعاييرها فإنه لا توجد مشكلة. لكن المشكلة توجد عندما يكون التغير وافدا عليها من خارجها. وهنا نجد أن الثقافة الإسلامية تقبل المتغيرات المتصلة بالعلوم والمعارف البحتة والتطبيقات المتصلة بها الوافدة من الخارج، مع الحذر مما يكون قد علق بها من التفسيرات الفلسفية.

إن الثقافة الإسلامية ثقافة ربانية، وهي- لذلك- إنسانية وعالمية، فيها ما يستوعب النشاط البشري كله؛ لأن فيها من المناهج والقواعد والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط

---

(١) المقصود بالعلوم البحتة هنا: الرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، والجوانب الفنية لعلوم الصناعة وعلوم الزراعة وعلوم الإدارة.

(٢) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ، ص٢٠٢.

البشري وحيويته. ولقد ساد المسلمون، وكانوا أساتذة العالم عندما كان سلوكهم موجَّها بأصول ثقافتهم، وكانت المتغيرات والمبتكرات الثقافية في العالم نابعة منهم.

إنه ليس بخاف الآن أن الاتجاه التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة قد نشأ ابتداء في الجامعات الإسلامية، مستمدا أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية، ومدخراته وأقواته. يقول بريفولت في كتابه «Making of humanity»: «إن ما يدين به علمنا لعلم (العرب)[1] ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب، إنه مدين له بوجوده نفسه»[2].

لكن الذي حدث بعد ذلك أن أوربا قد استقلت بهذا المنهج، ثم أخذت في عصر النهضة تنميه وترقيه، بينما كان قد تُرِك وهجر نهائيا في العالم الإسلامي؛ بسبب بُعد هذا العالم تدريجيا عن عقيدته وتصوره الأساسي، بفعل عوامل كامنة في محيطه، وبفعل الكيد والهجوم الصهيوني والصليبي عليه من خارجه.

«ثم قطعت أوربا بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله؛ في أثناء شرودها عن الكنيسة التي كانت تستطيل على الناس- بغيا وعدوا باسم الله!»[3].

ومنذ ذلك الحين أصبح نتاج الفكر الأوربي في جملته شيئا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات الدين عامة، ومقومات التصور الإسلامي خاصة.

ولذلك فإنه يجب على المسلم ألا يأخذ إلا من المصدر الرباني، وألا يرجع إلا إلى أصول هذا المصدر، وأن يعتمد في تفسير الأصول على أهل الذكر وأهل الخبرة ممن يوثق في علمهم وتقواهم.

إن الأشكال والصور العملية والتطبيقية للثقافة الإسلامية تتغير- ويجب أن تتغير- من آن لآخر ومن مكان لآخر. وتخضع عملية التغير الثقافي- في كَمها وكيفها- لمدى تمسك المجتمع بالقيم والمبادئ الأصيلة فيه. فالمجتمع الذي يؤمن باجتماعية القيم والنظم، واجتماعية الثقافة: عمومياتها وخصوصياتها ومتغيراتها، تجتاحه رياح التغير

---

(١) لاحظ أنه حتى المنصفين من الكتاب الغربيين لا ينسبون أي تقدم للعرب باعتبارهم مسلمين وإنما باعتبارهم عرب فقط، وذلك حتى لا ينسبوا للإسلام أي نجاح.

(٢) عن نص لتوينبي في كتابه «الحضارة في فترة اختبار» ونقله عنه أنور الجندي: أخطاء المنهج الغربي الوافد، مرجع سابق، ص-٧ ٨، ٢٣٣ .

(٣) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٢ .

السريع المتلاحق، ويظل الإنسان فيه يلهث وراء المتغيرات، ولا يكاد يستقر إلى قرار. أما المجتمع الإسلامي الذي تقوم معايير الثقافة فيه على مجموعة النظم والقيم والأصول الإلهية الثابتة، فإنه عادة ما يتغير بسهولة، ودون مشقة ودون انتقال من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض لأن التغير يحدث وفقا لمجموعة من النظم والقيم الإلهية الخالدة الذي وضعها الله لترقية حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والمتغيرات هي كل الأفكار والمبتكرات أو المخترعات الجديدة على المجتمع سواء كانت نابعة من داخل المجتمع أم كانت وافدة عليه من الخارج. وهذه المتغيرات تأخذ فترة اختبار، تطول أو تقصر، تبعا لمدى أهميتها وحساسيتها. وهي تظل طوال فترة الاختبار في حالة قلق وتردد وحيرة. فإن ثبت أن ليس وراءها فلسفة ما، أو نظرة مغايرة لتصور الإسلام للوجود والكون، وتفسيره للسلوك الإنساني ومفهومه لوظيفة الإنسان في الأرض، قُبِلت وصارت جزئية من جزئيات الثقافة الإسلامية . أما إذا اختلفت أو تناقضت مع منهج الإسلام، أو مع أية جزئية من جزئياته، فإنها تُرفض وتُنبذ إلى أن تضمر وتموت.

وهذه المتغيرات هامة جدا، وخطرة جدا في مفهوم منهج التربية الإسلامية. . أما أنها هامة جدا؛ فلأنها الباب المفتوح لترقية عمارة الأرض وفق منهج الله. فالابتكارات والاختراعات- مثلا- من أهم وسائل رقي الحياة على وجه الأرض، وذلك إذا ما استخدمت نتائجها في خير الإنسان والبشرية جميعا. لكن المتغيرات خطرة جدا أيضا؛ لأن المسلمين إذا لم يكونوا واعين بها، وبالفلسفات والنظريات الكامنة خلفها، وبمدى اتفاقها أو تناقضها مع أصول الإسلام نصا وروحا، وإذا لم يكونوا قادرين على فهم وتحليل وتفسير وتقويم المتغيرات وفقا للمفهومات الإسلامية، فإنها تحيد بهم لا محالة عن منهج الله، كما حدث في القرنين الماضيين.

وهنا تكمن القيمة الحقيقية لمنهج التربية الإسلامية الذي يعد الإنسان المسلم كي يكون قادرا على النظر إلى الكون كله على أنه كتاب مفتوح ينهل منه، ويستعين بكل ما يساعده فيه على تحقيق غايته الكبرى، وهي عبادة الله، والقيام بحق استخلاف الله له في الأرض، بعمارتها واستغلال طاقاتها ومدخراتها، وترقية الحياة فيها بالإبداع المادي، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وبعد، فهل بعد ذلك يمكن أن يوصم الإسلام بأنه ليست له ثقافة خاصة، أو أن ثقافته إغريقية في أساسها؟!



# الحضارة في التصور الإسلامي

## مفهوم الحضارة في التصور الإسلامي:

عندما يكون الجانب التطبيقي في الثقافة الإسلامية ترجمة عملية وواقعية صحيحة للجانب المعياري فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان... تكون الحضارة. إذن فالحضارة هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها: إنسانيا، وخلقيا، وعلميا، وأدبيا، وفنيا، واجتماعيا، وفق التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة.

وبناء على هذا المفهوم، فإن «المجتمع الإسلامي»- وهو المجتمع الذي يطبق شريعة الله في كل جوانب الحياة- هو وحده «المجتمع المتحضر». أما المجتمعات الأخرى التي تنكر وجود الله أصلا، أو تجعل له ملكوت السموات وتعزله عن ملكوت الأرض أو لا تطبق شريعته في نظام الحياة ولا تُحكِّم منهجه في حياة البشر، فهذه كلها مجتمعات جاهلية أو متخلفة[1] لأنها لا تدخُل في دين الله الذي حدده- سبحانه- في قوله: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴿٤٠﴾﴾ [**يوسف**].

وقد أقسم -سبحانه وتعالى- بنفسه -كما يقول ابن القيم- على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحكِّموا رسول الله ﷺ في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف منهم بذلك حتى يسلموا تسليما[2] ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٦٥﴾﴾ [**النساء**].

إن من أبرز سمات الحضارة في التصور الإسلامي هي- كما يقول الأستاذ محمد أسد-«ذاتية الحضارة الإسلامية»[3] فالحضارة الإسلامية ليست ثمرة تقاليد متوارثة، ولا نتيجة تطورات وتيارات فكرية آتية من الماضي، وإنما هي انبعاث ذاتي مباشر من القرآن الكريم، ومن سنة الرسول ﷺ ومن تطبيقهما تطبيقا عمليا صحيحا في واقع الحياة.

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص١١٦، ١١٧.

(٢) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيوت، دار الجيل، جـ١، ص٥١.

(٣) انظر: محمد أسد، الطريق إلى الإسلام، مرجع سابق.



## أصول الحضارة في التصور الإسلامي:

فالحضارة الإسلامية- كما يقول الأستاذ سيد قطب-: يمكن أن تتخذ أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، لكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة؛ لأنها هي مقومات هذه الحضارة. وهذه الأصول والمقومات هي:

١- أن تكون الحاكمية العليا في المجتمع لشريعة الله.

٢- أن تكون آصرة التجمع الأساسية في المجتمع هي العقيدة.

٣- أن تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع.

٤- أن تكون الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي.

٥- أن يقوم الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل.

ونتناول هذه الأصول بشيء من التفصيل فيما يلي:

**الأصل الأول: هو أن تكون الحاكمية في المجتمع لله**؛ وبذلك يتحرر الإنسان فيه من العبودية لغير الله. «فحين تكون الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده- متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية- تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر، وتكون هذه هي «الحضارة الإنسانية» لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع... ولا حرية- في الحقيقة- ولا كرامة للإنسان- ممثلا في كل فرد من أفراده- في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون!»[(١)].

إن الشعور بالحرية والكرامة هو الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في تصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص وإفراد الله بالعبودية، ومن ثم- إفراده بالحاكمية يؤدي إلى الشعور بالاستعلاء، وهو شعور «يجب أن تستقر عليه نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان»[(٢)].

لقد تمثل الشعور بالاستعلاء.. استعلاء الإيمان في موقف ربعى بن عامر عندما أرسله سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرها فدخل عليه، وقد جلس على سرير من ذهب، في مجلس مزين بالنمارق

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص١١٨، ١١٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.



والزرابى، وكان رستم يتلألأ في تاجه، ويواقيته الثمينة، دخل ربعى بثياب صفيقة، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. «فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

إن هذا الشعور، الشعور بالحرية والكرامة، أو «استعلاء الإيمان»، لا يتأتى إلا حين تكون العبودية في المجتمع لله وحده، ومن ثم تكون الحاكمية فيه لله وحده... عندئذ- فقط- يكون هذا المجتمع متحضرا.

أما المجتمع الذي تكون الحاكمية فيه لغير الله؛ فهو مجتمع جاهلي متخلف؛ إذ لا حرية حقيقية، ولا كرامة حقيقة للإنسان فيه؛ لأن بعضه أرباب يشرعون، وغالبيته عبيد يطيعون.

ويؤكد هذا المعنى الدكتور يوسف العش في بحثه عن روح الحضارة الإسلامية، إذ يقول: إن أبرز اختلاف بين مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي ومفهومها في الفكر الغربي يقوم على تفسير «التقدم». «فالغرب يرى التقدم ماديا خالصا، بينما يرى الإسلام أن التقدم معنوي ومادي، وأنه إنساني أصلا، وتوحيدي أساسا. فكل تقدم في مفهوم الإسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله، ومن عبادة ما سوى الله، فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوحدانية هو التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله»[2].

### الحكم بما أنزل الله

إن مجمل آراء جمهور العلماء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة] أن الحاكم أو القاضي أو المجتمع أو الفرد الذي يحكم بغير ما أنزل

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٣ .

(٢) نقل عنه أنور الجندي، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

الله جاحـدا أو منكرا أو معتـقدا أن قوانين البـشر أفضل وأولى بالاتبـاع من قانون الله، فـهذا هو الكافـر. أمـا من أهمل الحكم بما أنزل الله ترددا أو خـوفـا، أو تراخيـا، أو تكاسلا، لكن مـع الاعتقـاد فيهـا وفي أحقيـة تنفيذهـا، فهؤلاء عـصاة أو ظالمون، أو فاسقون لكنهم ليسوا بكافرين.

وعلى هذا فالمجتمعات التي نسميها إسلامية، لكنها تحكم في أمور كثيرة أو قليلة بغير ما أنزل الله هي مجتمعات إسلامية ظالمة أو عاصية أو فاسقة، ولكن لا يجوز لنا أن نسميها مجتمعات كافرة.

### العودة إلى النبع الصافي

إن حال الإسلام وحـال المسلمين بعد أن انحرفوا عنه وبعدوا عن طريقـه، كحال الماء الذي يخرج من النبع الصافي عند رأس العين، وهذا الماء بعد أن يعد في مجراه عن منبعه عشرات الأميال، وقد علقت به الأقذار والأكـدار، فتغير لونه وطعمه ورائحته[1] فلا يجوز لأحد أن يحكم على الإسلام بحـال المسلمين اليوم، كما لا يجوز الحكم على مـاء النبع الصافي عنـد رأس العين بحال الماء بعـد أن علقت به الأقـذار والأكدار بعـد عشرات الأميال من النبع.

إذن لا يجوز الحكم على الإسـلام بحال المسلمين. لكن هذا مـا يحدث للأسف الشديد. وللشيخ محمد عبده في ذلك تعبير مُصور، حيث قال: «إن الإسلام محجوب بأهله»، فالإسلام مثل لوحة فنية رائعـة علقت على جدار معرض، ولكن منظم المعرض وقف أمامها بوجهه الكالح وثوبه القذر، فسـتر عن الرائين جمال اللوحة وروعتها، فلما رأوه قالوا: ما دام هذا هو ممثل المعرض، فلا تكون اللوحة إلا على شكله؛ فلا خير إذن في النظر إليها والتعرف عليها!

ومن ذلك فالنبع موجود على حاله، وعلى صفائه، فمن شاء استقى منه مباشرة، أو سحب الماء منه في أنابيب لا يصل إليها قـذر، ولا يخالطها كدر، والنبع الصافي هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة القولية والعملية لرسول الله ﷺ. وكل شعور أو قول أو عمل صدر من المسلمين، فرادى وجماعات، منذ عهد الرسول ﷺ وإلى أن تقوم القيامة وكان تصديقا عمليا للقرآن والسنة فهو كالنبع الصافي واستمرارا لمجراه.

---

(١) ورد هذا التشبيه في كتاب الأستاذ سيد قطب: معالم في الطريق، وفي مقالة للشيخ على الطنطاوي في الشرق الأوسط عدد ٣٤٣٢ في ٢١/٤/١٩٨٨ .

**الأصل الثاني: هو أن تمثل العقيدة رابطة التجمع الأساسية في المجتمع**، وبذلك أيضا يكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد المتحضر؛ لأن العقيدة- وحدها- تمثل رابطة التجمع الأساسية فيه، فالعقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، والعربي والفارسي، والرومي والحبشي. فسائر أجناس الأرض يجتمعون في أمة واحدة، ربها واحد هو الله، ومنهجها واحد لأنه من الله، والأتقى فيها هو الأكرم عند الله. وبذلك فإن جنسية المسلم هي عقيدته التي تجعله عضوا في «الأمة الإسلامية».

والعقيدة هي الوطن؛ فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله. إذن فالارتباط على أساس العقيدة هو الذي يجعل المسلم عضوا- أيضا في «دار الإسلام».

إنه لا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله. إنه على أساس من العقيدة، طرد الإسلام أبا لهب- عم الرسول العربي، القرشي الهاشمي. من «الجنسية الإسلامية»- كما يقول الشيخ على الطنطاوي- بل وجعل سبه عبادة، وشتمه صلاة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد]. وعلى العكس من ذلك نجد الرسول ﷺ يضم عبدا فارسيا، غير عربي- لا إلى الإسلام فقط، بل إلى بيت النبوة، فيقول «سلمان منا أهل البيت»[1].

وعلى أساس العقيدة يفرق الإسلام بين نوح ولوط وامرأتيهما: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾** [التحريم].

والعكس يحدث مع امرأة فرعون:

**﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾** [التحريم].

أما وشائج اللحم والدم والأرض والطين، كالجنس واللون والقومية، والقرابة، والإقليمية... إلخ فإن الإسلام يرفع الإنسان عن مستواها والرسول ﷺ يقول للمهاجرين والأنصار: «**دعوها فإنها منتنة**».

إذن، فالأصرة واحدة وهي «العقيدة»، إذا انعقدت فالمسلم عضو في «الأمة الإسلامية»، وعضو في «دار الإسلام»، والمؤمنون كلهم «إخوة»، ولو لم يجمعهم نسب

(١) الشيخ على الطنطاوي «سوُّوا صفوفكم» الشرق الأوسط، العدد رقم ٩ في ١٠/ ١٢/ ١٩٨٧م، ص١٠.

ولا صهر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..﴾ (١٠) [الحجرات] بالتوكيد والقصر. ولا ولاية لأحد عليهم من خارجهم، بل بعضهم أولياء بعض: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ (٧٢) [الأنفال].

إن التاريخ الإسلامي يذكرنا أنه حين انعقدت آصرة العقيدة في نفوس المسلمين، تحطمت الهجمات الصليبية عليهم. فالقواد الذين نسوا وشائج اللحم والدم والأرض والقوم، قادوا المسلمين إلى النصر، ومنهم صلاح الدين وتوران شاه والظاهر بيبرس وسيف الدين قطز وغيرهم. إن هذه القيادات نسيت القوم والأرض، وتمسكت بالعقيدة، فانتصرت تحت راية «لا إله إلاّ الله».

ولآصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامي حكمة «ربانية» بالغة، ومن ثم، فهي «عقلية» و«علمية»! يقول الأستاذ سيد قطب: حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، يكون ذلك ممثلا لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص. أما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض.... وما إلى ذلك من روابط، فإن هذه الروابط كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، وذلك لسببين حاسمين:

**السبب الأول**: هو أن الإنسان يبقى إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض، لكنه لا يبقى إنسانا بعد العقيدة، والفكرة، وحرية الإرادة[(١)].

**والسبب الثاني**: هو أن الإنسان يملك- بمحض إرادته الحرة- أن يغير عقيدته وتصوره وفكره، ومنهج حياته- فهذه مزايا شخصية يستطيع من شاء اكتسابها- كما يقول الشيخ علي الطنطاوي[(٢)] ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض.

والخلاصة أن «المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر... أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية، فهو المجتمع المتخلف... أو بالمصطلح الإسلامي... هو «المجتمع الجاهلي»![(٣)] وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على النظم الاجتماعية المختلفة نجد ما يلي:

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص١٥٣ .

(٢) علي الطنطاوي: مرجع سابق.

(٣) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص١١٩، ١٢٠ .

بالنسبة للرأسمالية، لقد أقامت المجتمعات الرأسمالية إمبراطورية على أساس قومي، وجنسي، وجغرافي، فكانت النتيجة أن ساد الاحتكار والاستغلال والإذلال لإنسانية الإنسان على يد الإمبراطورية القديمة والحديثة.

أما الشيوعية فإنها ترمى إلى إقامة مجتمع على أساس روابط أخرى تتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللون واللغة، لكنها لم تحاول أن تقيمه على قاعدة «إلهية»، أو حتى «إنسانية» عامة، بل بدلا من ذلك تحاول إقامته على قاعدة طبقة «البروليتاريا»، فجاءت صورة هذا التجمع وجها آخر للتجمع الروماني القديم الذي كان يقوم على قاعدة طبقة «الأشراف». والنتيجة أن هذا التجمع لا يبرز إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني، وهو الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى، بينما اختفت إرادة الإنسان في التغير، وحريته في عمارة الأرض وترقية الحياة على وجهها.

والوضع في الإسلام على العكس من ذلك تماما. فلقد كان من النتائج الباهرة لإقامة المجتمع على آصرة العقيدة القائمة على الإرادة الحرة والاختيار الحر للإنسان، -أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات فانصهرت في بوتقته خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها وطاقاتها وأخرجت حضارة إنسانية رائعة، تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة. «ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية وإنما كانت دائما «إسلامية»، ولم تكن يوما ما «قومية»، إنما كانت دائما «عقيدية»[١].

**الأصل الثالث** من أصول ومقومات الحضارة الإسلامية هو **أن تكون «إنسانية» الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع**.. وأن تكون الخصائص «الإنسانية» فيه هي موضع التكريم والاعتبار فعندئذ يكون المجتمع متحضرا.

أما «حين تكون «المادة» -في أية صورة- هي القيمة العليا... سواء في صورة «النظرية» كما في التفسير الماركسي للتاريخ! أو في صورة الإنتاج المادي كما في سائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة تُهدر في سبيلها القيم والخصائص الإنسانية... فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا»[٢] مهما بلغت درجة تقدمه العلمي والاقتصادي والصناعي.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩ - ٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢١ .

لكن المجتمع المتحضر الإسلامي لا يحتقر المادة- كما يقول الأستاذ سيد قطب-، «ولكنه فقط لا يعتبرها القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص «الإنسان» ومقوماته!... وتهدر في أجلها هوية الفرد وكرامته. وتهدر فيها قاعدة «الأسرة» ومقوماتها، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقيق الوفرة في الإنتاج المادي»(١).

إن المجتمع المتحضر هو الذي تكون «القيم الإنسانية» و «الأخلاق الإنسانية» التي تقوم عليها، هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تنمي خصائص إنسانية الإنسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات. وهذه القيم في المجتمع الإسلامي ثابتة، وليست متغيرة كما هو الحال عند التطوريين وأصحاب التفسير المادي للتاريخ. فهي ليست وليدة البيئة، ولا مختلفة باختلاف البيئات الزراعية والصناعية والرأسمالية والاشتراكية... وإنما هي قيمة إنسانية ذات ميزان ثابت، وهي مقررة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها: حضرية كانت أم بدوية، صناعية كانت أم زراعية، فالمهم- في كل الأحوال- هو الارتقاء صعدا بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التي تؤدي إلى التخلف أو الجاهلية.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم وبهذه الأخلاق في كل مكان وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلا، وتنميها وفقا لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله.

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. حيث ينتقل الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده، وتكتسي أجسامهم العارية وفقا لتوجيه الله، وينتقلون من الخمول والبلادة إلى النشاط والعمل الموجه لاستغلال كنوز الأرض وخيراتها، ويخرجون من طور القبيلة والعشيرة إلى «الأمة الإسلامية»، ومن وشيجة الأرض والطين إلى وشيجة العقيدة والدين، ومن طور الأمية والجهل إلى طور العلم وإعمال العقل. هذه هي الحضارة الخاصة بهم.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعيا أو زراعيا أو غير ذلك، فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات، ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيدا مما لديها.

---

(١) المرجع السابق.



وهكذا يقيم المجتمع الإسلامي أشكالا مختلفة ومتنوعة من الحضارات بناء على قيمه الثابتة، وأصوله المستقلة، بحيث يبقى للمجتمع طابعه الخاص، وميزته الفريدة النابعة من أصله الرباني، وصبغته الإنسانية(١).

إن هذه «الصبغة الإنسانية» النابعة من العقيدة الإسلامية هي التي تفسر لنا اجتياح الإسلام لفكر الإمبراطوريات التي فتحها، وثقافاتها، وعاداتها وتقاليدها، وصياغتها صياغة جديدة، حتى لكأن الثقافات والموروثات المعمرة التي كانت بها لم تكن- كما يقول الأستاذ أنور الجندي(٢).

إن أهم خصائص الحضارة الإسلامية على الإطلاق هي اتصال العقيدة الإسلامية والقيم الإنسانية النابعة منها بالنظام الاجتماعي القائم عليها، فالفصل بينهما يؤدي إلى سقوط الأخلاق، الذي يؤدي- بدوره- إلى تحلل النسيج الاجتماعي، وضعفه.. وموته، مهما كانت القوة الاقتصادية أو العسكرية السائدة في هذا المجتمع.

إن التخلف الحقيقي- في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي- هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غير الأخلاقية بدلا من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية، وفي خدمة الإنسان دون بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم- في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي- ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها، فالطبيعة ما خلقها الله لتقهر، بل لاستخراج خيراتها ومكنوناتها التي أودعها الله فيها، وجعلها مسخرة لخدمة الإنسان، المسخر له الأرض وما فيها، والمحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية]
﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

(١) المرجع السابق، ص-١٣١ ١٣٣ .
(٢) أنور الجندي، مرجع سابق، ص٢٢٧ .



**الأصل الرابع: هو أن تكون «الأسرة» هي قاعدة البناء الاجتماعي، وأن تقوم على أساس «التخصص» بين الزوجين في العمل**، وأن تكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة، فالمجتمع الذي هذا شأنه هو المجتمع المتحضر.. ذلك أن الأسرة على هذا النحو- في ظل المنهج الإسلامي- كما يقول الاستاذ سيد قطب: «تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنمّى فيها القيم والأخلاق «الإنسانية».. ممثلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة. فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هو قاعدة المجتمع... حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة.. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة.. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد، وتؤثر هي- أو يُؤثر لها المجتمع- [أن تكون عاملة في أي مكان، بالنهار أو بالليل].. حين تنفق طاقتها في «الإنتاج المادي» و«صناعة الأدوات»، ولا تنفقها في «صناعة الإنسان لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من «الإنتاج الإنساني» عندئذ يكون هذا هو «التخلف الحضاري» بالقياس الإنساني.. أو تكون هي الجاهلية بالمصطلح الإسلامي»[(1)].

لقد شاءت فطرة الله أن يكون ميدان إنشاء العنصر الإنساني وتنشئته هو ميدان عمل المرأة بالدرجة الأولى. ويقارن الشيخ محمد متولى الشعراوي بين ميدان عمل المرأة هذا وبين ميدان عمل الرجل خارج البيت. ويرى أن ميدان عمل المرأة أهم وأدق من ميدان عمل الرجل؛ لأن الرجل- بحكم عمله خارج البيت- إنما يتعامل مع «أشياء» هي كنها مسخرة لخدمة الإنسان، الذي هو أكرم ما في الوجود كله. أما المرأة فمهمتها هي التعامل مع هذا المخلوق الراقي، الكريم على الله، وهو الإنسان. تتعامل معه كزوج فيسكن إليها، وتتعامل معه جنينا في بطنها، ووليدا في حضنها، ورضيعا تغذوه وتحنو عليه، وطفلا، وصبيا، وشابا تربيه وترعاه وتضرب له المثل[(2)].

إن ترك المرأة لهذا الميدان الذي هو مجال عملها الرئيسي- والذي خلقها الله وفطرها لتحسن الأداء فيه- إلى ميدان آخر لهو مأساة بكل المقاييس، يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: إن «المجتمع الذي يتزاحم فيه الرجال والنساء على عمل واحد في المصانع والأسواق، لن يكون مجتمعا صالحا، مستقيما على سواء الفطرة مستجمعا

---

(١) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص-١٢٣ ١٢٤ .

(٢) عبد الغنى عبود: الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة، الكتاب الثامن: الإسلام وتحديات العصر، القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٧٩م، ص١٤٣ .

لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه؛ لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل، على غير طائل، ويختل فيه نظام العمل والسوق، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت.

«فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة، والقدرة على فهمها وإفهامها، والسهر على رعايتها في أطوارها االأولى لتهجر البيت، وتلقى بنفسها في غمار الأسواق والدكاكين.. وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا، ولا بأخطر عاقبة، من سياسة البيت؛ لأنهما عالمان متقابلان: عالم العراك والجهاد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان وتدبير الجيل الحاضر يقابله تدبير الجيل المقبل.. وكلاهما في اللزوم وجلالة الخطر سواء»[١].

وإذا كان ميدان المرأة الحقيقي هو البيت بمن فيه وما فيه، فإن تركها لهذا الميدان وخروجها للعمل في المجتمع الخارجي على اتساعه يعد تخريبا للميدان الحقيقي الذي تركته، وللميدان الجديد الذي لم تعد له بالفطرة والاستعداد والدربة. «ولولا مركب النقص، لكان للمرأة فخر بمملكة البيت، وتنشئة (المستقبل) فيه، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة (الحاضر)، وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح. وهي لو رجعت إلى سليقتها، لأحست أن زهوها بالأمومة، أغلى لديها، وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان- فليس في العواطف الإنسانية شعور يملأ قلب المرأة، كما يملؤه الشعور بالتوفيق في الزواج، والتوفيق في إنماء البنين الصالحين، والبنات الصالحات...»[٢].

إذن فقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين، قضية حاسمة- كما يقول الأستاذ سيد قطب في تحديد صفة المجتمع-... فالمجتمعات التي تسود فيها النزعات الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي[٣].

إن هذه المجتمعات متخلفة أو جاهلية. . من وجهة نظر «الإسلام» وبمقياس خط التقدم «الإنساني»، مهما كانت درجة تفوقها العلمي أو الاقتصادي.

والخلاصة أن الإسلام هو الحضارة، والمجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، لأنه يؤمن أن إعداد جيل يترقى في خصائص «الإنسانية»، ويبتعد عن خصائص

---

(١) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، القاهرة، دار الإسلام ١٩٧٣، ص-٤٦ ٤٧ .
(٢) المرجع السابق ص٤٧ .
(٣) سيد قطب: معالم في الطريق، مرجع سابق ص١٢٤ .



«الحيوانية»، لا يمكن أن يتم إلا في محضن «أسرة» قائمة على أساس الواجب والتخصص، ومحوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي، فهذا ما يوفر للمجتمع مقومات الترقى على خط التقدم الإنساني؛ ولذلك جعل الله الزوجة شق النفس، ومحضن السكينة والأمن والاستقرار، فهذا هو المحضن «الإنساني» الوحيد الذي يعد الأجيال التي تسير صعدا على خط التقدم الإنساني، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢١) ﴾ [الروم].

**الأصل الخامس: هو أن يقوم الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل.** ولكن ما المقصود بالعمل في التصور الإسلامي؟ العمل صورة من صور «العبادة»، ويتضح ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** (٣٠) ﴾ [الكهف]، فالحضارة في التصور الإسلامي لا تقوم على مجرد العمل؛ بل تتطلب ضرورة «الإحسان في العمل».

والإحسان في العمل ذو شقين: الشق الأول هو استخدام أقصى درجات المهارة والإتقان فيه. يؤكد هذا قول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**». ولكن هل يكفي الإتقان في العمل والمهارة في أدائه لبناء حضارة حقيقية؟ الإجابة الصحيحة، هي أن ذلك بالتأكيد لا يكفي. وهنا نصل إلى الشق الثاني لمعنى «الإحسان في العمل»، وهو التوجه بالعمل إلى الله، فالعمل عبادة، والإحسان في العمل مرتبط بمفهوم «الإحسان» في التصور الإسلامي، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، إذن فالإنسان المتحضر والمجتمع المتحضر هو الذي يؤدي العمل بأقصى درجات المهارة والإتقان، مع مراعاة الله في أدائه؛ فالعامل المتحضر المسلم يرى الله في عمله، أو يؤمن بأن الله يراه.

والأصل في هذا هو أن الإنسان خليفة الله في الأرض، والعمل من أهم وسائل الإنسان لتحقيق مقتضيات الخلافة، ألا وهي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، إذن فالعمل إنما هو لخير الإنسان والإنسانية جمعاء.

لكن المؤكد هو أنه لا ضمانة على الإطلاق أن يؤدي الإتقان في العمل، وأن تؤدي المهارة فيه إلى هذه الغاية، إذا انقطعت صلة العامل بالله، فالإنسان المقطوع الصلة بالله، لن يراعي في عمله وفي نتائج عمله إلا ما يراه من مصالحه المباشرة، ومصالح الأولياء عليه، مهما كانت الوسائل، ومهما ترتب على ذلك من دمار لمصالح الآخرين!

أما حين يصبح وهو يصنع وينتج هذا كله «ربانيا» يقوم بالخلافة عن الله على عهد الله وشرطه، فيومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة



الحضارة»[1] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

وعليه، فإن وفرة الإنتاج وحده، أو الإبداع المادي- وحده- لا يسمي في الإسلام حضارة... فقد يكون ويكون معه التخلف، وتكون معه الجاهلية: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء].

**خاتمة:**

والخلاصة هي أن الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي مرتبطتان ارتباطا عضويا. فعندما يكون الجانب العملي للثقافة تطبيقا واعيا وعمليا صحيحا للجانب المعياري فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان... تكون الحضارة. فالحضارة.. كما سبق أن قلنا هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها إنسانيا وخلقيا وعلميا وأدبيا واجتماعيا، وفق منهج الله وشريعته.

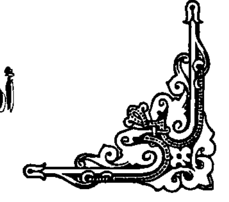
وعندما يصل المجتمع المتحضر الاسلامي إلى هذه الدرجة، ويظل متمسكا بمقومات حضارته وهي: إفراد الله بالعبودية- ومن ثم- إفراده بالحاكمية، واعتبار العقيدة هي آصرة التجمع الرئيسية، واعتبار إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، واعتبار الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي، وقيام الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل... عندئذ يتبوأ المجتمع المتحضر الإسلامي مكانته اللائقة به في تربية الإنسانية وقيادتها إلى الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون، وفي فطرة الإنسان:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

* * *

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٦ .



# الفصل السادس
# أهداف منهج التربية في التصور الإسلامي

## عناصر المنهج

في الفصول السابقة تم استعراض مفهوم منهج التربية في الإسلام وخصائصه المشتقة من خصائص ومقومات التصور الإسلامي. واعتمادا على هذا المفهوم وخصائصه تم تحديد الأصول أو الأسس الفنية لمنهج التربية الإسلامية والتي تتمثل في التصور الإسلامي للألوهية والكون، والإنسان، والحياة.

وانطلاقا من كل ما سبق، وتمشيا مع مفهوم المنهج كنظام مكون من عناصر، يتم في الفصول التالية اشتقاق عناصر المنهج ألا وهي:

- الأهداف.
- المحتوى.
- طرائق وأساليب التدريس والوسائل المعينة.
- طرائق وأساليب التقويم.

وفي هذا الفصل سنتعرض بالتفصيل المناسب للأهداف التربوية في منهج التربية الإسلامية، من حيث: أهمية الأهداف وتحديد معنى الهدف، وأنواع الأهداف شكلا ومضمونا، ومعايير جودة الأهداف. ثم نعرض بالتفصيل للأهداف التي يجب أن يعمل منهج التربية الإسلامية، بكل برامجه ومقرراته وخبراته على تحقيقها في المتعلمين على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم، وبذلك يساهم مساهمة فعالة في بناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم الذي يسير وفق منهج الله، ويعمل على تحقيق مقتضيات الخلافة في الأرض.

### أهمية تحديد الأهداف:

إن من أهم عوامل فشل المناهج التربوية في بلادنا هو عدم تحديد أهدافها، وعدم ارتباط هذه الأهداف بغاية وجود الإنسان في الحياة على الأرض، والطريق القويم في

التعـرف على غاية وجـود الإنسان، ومن ثم التعـرف على أهداف تربيتـه، هو الرجوع مباشـرة إلى مصدر وجود الإنسان، إلى من خلق الإنسان، لـنعرف منه الغاية من صنع هذا الإنسان، ومن ثم نعرف المحتويات والطرق والوسائل التي تحقق هذه الغاية.

إن المنطق البـسيط يقـول: إن الذي خلق هو الأولى، والأقـدر على وضع المنهج الصحيح لمن خلق؛ فصانع السيـارة- وكذلك كل آلة أخرى- هو الذي يحدد الهدف من صناعتها ويضع قواعـد استعمالها، وإدارتها، وصيانتهـا، وقطع غيارها، فإذا كان ذلك كذلك على المستوى النظري والمادي البسيط، إذن فـهو الأولى على المستوى المعقد جدا، وهو مستوى خلق للإنسان ووضع منهج حياته.

إن الإنسان هو أكرم مخلوق في الوجود، وذلك باعـتباره خليفة الله في الأرض، والقائم على تنفيذ منهج الله فـيها. وقيام الإنسان بواجبات الخـلافة في الأرض، وقيامه بتنفيذ منهج الله فيـها يمثل مضمون العبادة في الإسلام جـملة وتفصيلا. وهنا نصل إلى الغاية من وجود الإنسان، ومن ثم نصل إلى محور أهداف المناهج التربوية.

ولما كان الإنـسان هو أكرم مـخلوق على الله في الوجود كـله؛ لأنه خليفـته في الأرض، والقائم على تنفيـذ منهجه فيهـا، فقد أعانه الله في القيام بمهـمته، وذلك بأن سخـر له كل ما في الكون لخدمـته وتيسـير مهـمته. فجـعل مكونات الكون تصب في خدمته- كما يقـول الشيخ محمد متولي الشعراوي. فالجمـاد في خدمة النبات، والجماد والنبات في خـدمة الحيـوان، والجماد والنبات والحـيوان في خدمـة الإنسان. إذن فكل جنس من أجناس الـكون، وكل مكون من مكوناته خـلق- بأمـر الله وقـدرته وإرادته- لمهـمة وغـاية وهي خدمـة هذا السـيد. . . الإنسـان. . خليفـة الله في الأرض. وهذه المكونات والأجناس تؤدي مهمـتها وتحقق غايتهـا بالشكل الذي أمر به الله وقدره وأراده دون أدنى انحراف.

لكن الانحراف والاخـتلال الذي يحدث في الأرض، إنما يحدث عندمـا ينحرف الإنسان عن غاية وجوده؛ أي عندما يتدخل في أمور الأرض مستخدما منهجا غير منهج الله.

وعلى هذا فإن مناهج التربية التي لا تعرف الغاية من وجود الإنسان، وبالتالي لا تعرف كيف تساهم من جانبها وحسب طبيعتها، على إقدار المتعلم على حسن أداء مهمته في الأرض، وتحقيق الغـاية من وجوده، فإنها تكون قد جـانبت الطريق القويم. . . بل وأكثر من ذلك فإنها تكون ضالعة في إحداث الخلل والفساد في فطرة الإنسان وإنسانيته، ومن ثم في عمارة الأرض.



### الأهداف بين الثبات والتغير:

لا شك أن تعلم كل الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، يمثل أهدافا ثابتة لمنهج التربية الإسلامية، كما أن الدقة والمهارة في إجراء كل ما تقتضيه صور التطبيق الثقافي والحضاري في المجتمعات الإسلامية يمثل أهدافا متغيرة لهذا المنهج.

وهناك من المفكرين الغربيين من لا يروق لهم القول بوجود أهداف ثابتة للمنهج «جون ديوي» على سبيل المثال- يؤكد بشكل قاطع أن «الفكرة القائلة بأن النمو والتقدم يرميان إلى هدف نهائي لا يتغير ولا يتبدل، هي: آخر أمراض العقل البشري في انتقاله من نظرة جامدة للحياة إلى نظرة مفعمة بالحركة والتغير»(١).

لكن هذا القول يجانبه الصواب. فالحقيقة التي يؤكدها واقع عالمنا المعاصر أن جعل الأهداف التربوية كلها متحركة ومتغيرة قد أطاح بكثير من القيم الخلقية التي تتفق مع مقتضيات الفطرة الإنسانية ومتطلباتها. والنتيجة هي أن الحياة الإنسانية في عالمنا المعاصر قد أصبحت كقشة معلقة في الهواء تسيرها أهواء التغير كيف شاءت، وحياة كتلك لا يطمئن لها الإنسان، ولا يستقر فيها ولا يعمرها.

### تعريف الأهداف وأنواعها:

الهدف التربوي هو وصف للسلوك المتوقع من المتعلم نتيجة لاحتكاكه ببعض الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والخبرات التربوية المتغيرة وتفاعله معها.

وللأهداف التربوية تقسيمات من حيث الشكل، ومن حيث المضمون، أما من حيث الشكل فهي تنقسم إلى أهداف عامة، وأهداف خاصة. فالهدف العام هو وصف للتغير السلوكي المتوقع من المتعلم نتيجة لاحتكاكه وتفاعله مع مضمونات وخبرات منهجية واسعة ومتنوعة. فمن أهم الأهداف العامة لمنهج التربية الإسلامية مثلا: «إعداد الإنسان الصالح القادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله». إن هذا هدف عام يمكن تحقيقه من خلال كل المناهج والدراسات الإسلامية. وقولنا: إن الهدف من تعليم اللغة العربية هو «إكساب المتعلم القدرة على التعبير الواضح الجميل كلاما وكتابة» أو «تربية الملكة اللسانية» لدى المتعلم هذا هدف عام أيضا ويمكن تحقيقه من خلال دراسة مناهج اللغة العربية المختلفة.

---

(١) جون ديوي: الديموقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوي وزكريا ميخائيل، ط٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤م، ص٥٨.



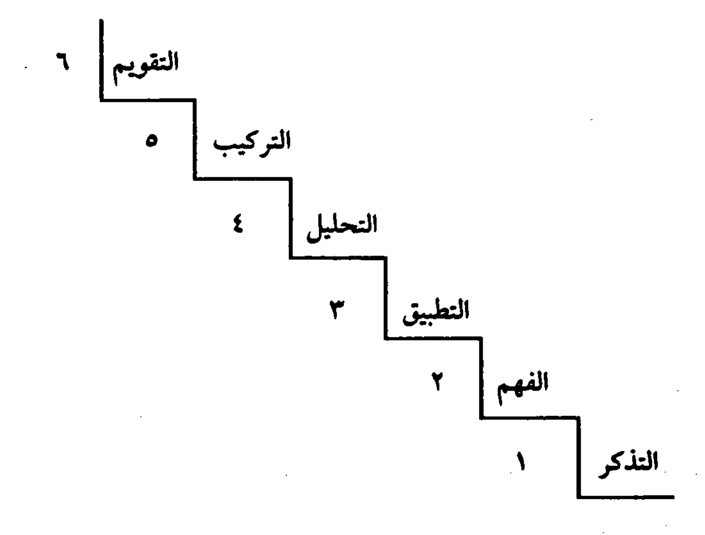
وهكذا، فإن الأهداف العامة إنما توضح للمناهج والبرامج والكتب الدراسية المختلفة، حيث تساهم المحتويات المختلفة والمتنوعة في تحقيقها، وهذه الأهداف يجب أن تكون في كل الأحوال واضحة ومحددة.

أما الأهداف الخاصة فهي تلك التي تصاغ في بداية وحدة دراسية أو في بداية درس معين أو موضوع من الموضوعات. وهذا النوع من الأهداف هو الذي يمكن وصفه بأنه «هدف إجرائي» ومن أهم صفات هذا الهدف أنه يمكن ملاحظته، ويمكن قياسه.

وهذا النوع من الأهداف يصاغ عادة وفقا للمعادلة التالية: أن + فعل سلوكي + المتعلم + مصطلح من المادة + الحد الأدنى للأداء. ومثال ذلك قولك: «أن يقرأ التلميذ الفقرة الأولى من الدرس قراءة جهرية بما لا يتجاوز ثلاثة أخطاء نحوية»، وقولك: «أن يحفظ التلميذ الربع الأول من سورة البقرة بما لا يتعدى ثلاثة أخطاء من أي نوع» وهكذا نرى أن هذا النوع من الأهداف لا يصاغ إلا لدرس معين أو لوحدة دراسية خاصة.

أما تقسيم الأهداف من حيث المضمون، فلقد صنف «بنجامين بلوم» هذا النوع من الأهداف إلى ثلاثة أنواع، هي:

١- الأهداف المعرفية، وتركز على جانب السلوك العقلي، ولها ستة مستويات يمكن وضعها على النحو التالي:



فمستويات الجانب المعرفي هي: التذكر، والفهم، والتطبيق، والتحليل، والتركيب- ويسمى أحيانا بالقياس- والتقويم، وهو أعلى مستويات المجال المعرفي. والمستويات الثلاثة الأولى هي المستويات الدنيا، أما المستويات الثلاثة الأخيرة فهي المستويات العليا لأهداف الجانب المعرفي. وكل مستوى من هذه المستويات يعتمد على المستوى الأقل منه وليس العكس، فالفهم يعتمد على التذكر، والتطبيق يعتمد على الفهم والتذكر... وهكذا.

٢- أهداف الجانب الوجداني، وهذه تتعلق بالجانب العقدي والشعوري، كالإيمان بالله ورسوله، والإيمان بأهمية تنفيذ منهج الله في الحياة، والاقتناع بالحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، وكل مشاعر الحب والتقدير والميول والاتجاهات، والتذوق الأدبي والجمالي.. إلخ.

ويشيع هذا النوع من الأهداف الوجدانية عموما في دراسة القرآن والسنة، وعلوم التشريع، وعلوم الآداب والفنون والإنسانيات عموما.

٣- الأهداف الحركنفسية، وتتعلق بكل أنواع السلوك الحركي والمهاري ابتداء من البسيط غير الإرادي كسماع صوت، أو طرفة عين، إلى المهارة الحركية مثل الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة، إلى قيادة السيارات والطائرات والأقمار الاصطناعية.

وتشيع هذه الأهداف بصفة عامة في كل التطبيقات العملية للفكر الإنساني، وتشيع بصفة خاصة في مناهج التربية الرياضية، والاقتصاد المنزلي، وتعليم اللغات، والمواد المهنية عموما كمناهج علوم الصناعة والزراعة والتجارة، والتدريب المهني... إلخ.

**معايير الأهداف:**

وسواء كانت الأهداف عامة أو خاصة فإنها يجب أن تتوافر فيها المعايير التالية:

**أولا- الوضوح:**

يجب أن تكون الأهداف العامة والخاصة للمنهج محددة تحديدا واضحا؛ بحيث لا يكون هناك اختلاف في تفسيرها؛ ومن ثم في اختيار الخبرات أو المحتويات التي تتحقق من خلالها(١).

---

(١) محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص٩٦ .

إن منهج التربية في الإسلام- كما سبق أن قلنا- لا يعترف بالمعرفة الذهنية، بل ويعتبرها معرفة ميتة لا قيمة لها إلاَّ إذا ترجمت إلى سلوك عملي وإيجابي فاعل في واقع الأرض. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت أهداف المنهج واضحة ومحددة.

والهدف الخاص يكون واضحا ومحددا إذا توافرت فيه الشروط التالية:

١- أن يمكن ملاحظة الهدف التدريسي الخاص في أثناء تحقيقه وفي نتائجه. وبذلك يمكن تعديل وتطوير العملية التربوية.

٢- أن يمكن قياس الهدف التدريسي؛ لأن ذلك يساعد على قياس مدى تحققه، أو مدى تعلم التلميذ وتعديل سلوكه.

٣- أن يتضمن الهدف التدريسي الخاص ما يعرف بالحد الأدنى للأداء، حيث إن ذلك يساعد في قياس مدى تعلم التلميذ ومدى تحقق الهدف فيه.

**ثانيا- الشمول:**

إن الدين في المفهوم الإسلامي- كما سبق أن قلنا- هو النظام العام أو المنهج الذي يحكم الحياة. فلا يوجد عمل، أو فكر، أو سلوك؛ ولا توجد صغيرة، ولا كبيرة في هذا الكون، وفي هذه الحياة إلا وتخضع للأصول، أو الروح المنظمة للكليات والجزئيات في هذا النظام أو المنهج.

والأهداف التربوية «كلها»، والتي تكوِّن جزئية في النظام أو المنهج الإسلامي هي أهداف دينية، فتدريب التلميذ على تلاوة آية من القرآن أو حفظها، أو فهمها هو هدف ديني، وقراءة المتعلم لحديث من أحاديث الرسول ﷺ وفهمه هو هدف ديني، وتدريب التلميذ على حل مسألة حسابية هو هدف ديني. وإعانة المتعلم على فهم معادلة رياضية، أو إجراء تجربة علمية هو هدف ديني، ومساعدة المتعلم في عمل تدريبات في الرياضة البدنية، أو في إتقان مهارة رياضية هي هدف ديني، وتدريب التلاميذ على القراءة الصامتة مع السرعة، أو على القراءة الجهرية مع الطلاقة هو هدف ديني.

إنه- باختصار- لا يوجد في منهج التربية الإسلامية هدف ديني وهدف غير ديني. إنه ليحلو للكثير في مدارسنا أن يقسموا الأهداف إلى أهداف دينية، وهي تلك التي تتصل بالقرآن والحديث والسيرة النبوية وأمثال ذلك؛ وإلى أهداف أخرى، وهي تلك التي تتصل بأهداف تعليم كل المواد الأخرى كاللغات، والمواد الاجتماعية، والعلوم والرياضيات. . . إلى آخره. إن هذه النظرة لا تمت إلى الدين الإسلامي بصلة، ولا



علاقة لها به؛ لأنها ببساطة تفصل بين الدين والدنيا. وهذا ليس من الإسلام في شيء. وذلك لأن نشاط الإنسان المسلم كله عبادة لله، طالما كان متجها به إلى الله.

إن مفهوم العبادة في الإسلام، كما سبق أن ذكرنا، مفهوم شامل، فكل عمل أو فكر أو سلوك يقوم به الإنسان في ليل أو نهار، يبتغي به وجه الله، فهو عبادة لله. فالعبادة في الإسلام تشمل الشعائر والشرائع معا، أي أنها تشمل ما درج الفقهاء على تسميته- عادة- بالعبادات والمعاملات. إن العبادة في الإسلام تشمل كل فكر وسلوك الإنسان؛ لأن الإسلام وحدة لا تتجزأ.

وعلى هذا، فكل هدف يقصد من ورائه تدريب التلميذ على تعلم شعيرة أو تشريعا، أو مهارة، أو فكرة، أو اتجاها، فهو هدف ديني، ما دام القصد هو إقدار المتعلم على المساهمة في عمارة الأرض وترقيتها بإيجابيته وفاعلية وفق منهج الله.

إن تقسيمنا للأهداف إلى أهداف دينية، وأهداف أخرى غير دينية، ما هو إلا أثر من آثار اتباعنا لمناهج الغرب التي تفصل بين الدين والدنيا، وبالتالي بين تعليم الأمور الخاصة بالشعائر الدينية، والأمور التي تتصل بالتشريع للحياة. وهذا التقسيم لا يتفق مع الإسلام جملة وتفصيلا.

وإذا كان الشمول يعني كل جوانب النشاط الإنساني: المعرفي والوجداني والحركي، فإنه يعني أيضا كل جوانب النفس الإنسانية: العقلية، والوجدانية، والجسمية.

### ثالثا- التكامل:

إن تكامل أهداف منهج التربية في الإسلام، يعتمد على أساسين هما:

١- تكامل جوانب النفس الإنسانية. فالأهداف يجب ألا تركز على العقل دون الجسم أو الشعور والوجدان أو العكس؛ فإن ذلك يحدث الخلل وعدم التوازن فيه.

٢- تكامل جوانب المعرفة الإنسانية. وهذا يتطلب أن تكون أهداف منهج التربية في الإسلام مشتملة على الجانب المعرفي في الخبرة الإنسانية، وعلى الجانب الوجداني، وعلى الجانب الحركي. إن إغفال أي جانب من هذه الجوانب في أهداف المنهج يؤدي إلى إغفال المحتوى والخبرات الخاصة به. وهذا يؤدي بدوره إلى تركيز المنهج على جانب من جوانب الطبيعة الإنسانية وإغفال جانب آخر، أو الجانبين الآخرين؛ مما يؤدي إلى الخلل وعدم التوازن في

طبيعة الفرد، وهو الأمر الذي يؤدي إلى عدم قدرة الإنسان على المساهمة الفعالة في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وهو الهدف الأسمى للتربية في هذا المنهج.

وتكامل الأهداف في منهج التربية الإسلامية لا يقف عند حد تكامل الجوانب الثلاثة السابقة للمعرفة الإنسانية، وهي الجانب المعرفي، والجانب الوجداني، والجانب الحركي. إنه لابد من تكامل المستويات المتضمنة داخل كل جانب من هذه الجوانب. فالتركيز في الجانب المعرفي ليس منصبا على مستوى التذكر، أو الفهم، أو التطبيق، أو التحليل، أو التركيب، أو التقويم وحده، بل هو منصب على جميع هذه المستويات، بحيث تتكامل فيما بينها. والتركيز في الجانب الحركي ليس منصبا على التدريب على المهارة البسيطة وحدها، ولا على المهارة المركبة وحدها، ولا على مهارة التناول، بل هو منصب على جميع هذه المهارات التي تكون الجانب الحركي في المعرفة الإنسانية بطريقة متكاملة.

## أهداف منهج التربية في الإسلام(١)

سبق أن قلنا: إن مناهج التربية التي لا تدرك الغاية من وجود الإنسان، لا تستطيع أن تساهم في إعداده لوظيفته وتحقيق غاية وجوده، وهذا يعني أن هذه المناهج تكون ضالعة في إحداث الخلل في فطرة الإنسان، ومن ثم في عمارة الأرض.

ومنهج التربية الإسلامية هو منهج إعداد الإنسان وفق شريعة الله ونظامه للكون والحياة. ولكي يقوم المنهج بهذه المهمة فإنه يعمل على تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها ما يلي:

### ١- إعداد الإنسان الصالح القادر على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله:

بينما تلتقي مناهج التربية الأرضية كلها تقريبا على هدف متشابه، وهو إعداد «المواطن الصالح» رغم الاختلاف في وسائل تحقيقه المتأثرة بالبيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... إلخ، نجد أن الإسلام منذ البدء مفترقا عنها في هذا الهدف، مغايرا لها في الاتجاه.

فالإسلام -كما يقول الأستاذ محمد قطب- لا «يحصر نفسه في تلك الحدود الضيقة، ولا يسعى لمجرد إعداد «المواطن» الصالح. وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر

---

(١) لمزيد من التفصيل عن أهداف منهج التربية في التصور الإسلامي،انظر: المفاهيم الأساسية لمناهج التربية، للمؤلف، فصل الأهداف.

وأشمل هو إعداد «الإنسان» الصالح. . الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل. . . الإنسان من حيث هو «إنسان»، لا من حيث هو «مواطن»[1] في بيئة محدودة معينة من الأرض، وفي مكان وزمان معينين.

والإسلام في إعداده «للإنسان الصالح» لا يترك الناس يتخبطون في التيه، كل منهم يرسم الصورة على هواه، وإنما يحدد لهم مواصفات هذا الإنسان في دقة ووضوح، ويرسم لهم المنهج الذي يسيرون على هديه في إعداد هذا الإنسان.

فسمات «الإنسان الصالح» هي نفس السمات التي حددها الإسلام للطبيعة البشرية التي سبق الحديث عنها، فالإنسان الصالح- هو الذي يتسم بما يلي:

- أن يكون عبدا ربانيا تقيا، دائم الصلة بالله في كل فكر أو عمل أو شعور.
- أن يكون شموليا ومتكاملا.
- أن يكون حرا مسئولا.
- أن يكون متوازنا.
- أن يرتقي حول المحور الإلهي الثابت.
- أن يكون إيجابيا.
- أن يكون واقعيا.
- أن يكون نشاطه كله حركة موحدة الاتجاه إلى الله.

والإسلام عندما يتناول تربية الإنسان الصالح الذي يعرف الله ويتقيه ويؤمن بعبوديته له، فإنه يأخذ بعين الاعتبار جميع المكونات التي تدخل في تركيبه: الروح، والعقل، والجسم. ويشبه الشيباني الإنسان في الإسلام بمثلث متساوى الأضلاع. فوجود المثلث يعتمد على وجود الأضلاع الثلاثة. وإذا ما حذف منها ضلع أو ضلعان، انتفى وجود المثلث[2]، وهذه الأضلاع الثلاثة تتمثل في :

### أ- تربية الإرادة والضمير والوجدان:

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة] لابد من أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص١٣ .
(٢) عمر الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية، طرابلس، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ١٩٧٥، ص٩٢ -٩٣.

وتصميم، فعهد الله منهج حياة، منهج يستقر في القلب تصورا وشعورا، ويستقر في الحياة وضعا ونظاما، ويستقر في السلوك أدبا وخلقا، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير(١).

«وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان، فهي مناط العهد مع الله وهي مناط التكليف والجزاء... إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه، ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه، وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لاشك فيه..

كما أن فيه تذكيرا دائما بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!(٢).

ومنهج التربية الإسلامية يربي الإرادة الإنسانية عن طريق إشعار المتعلم بضرورة التقيد بعهد الله، والالتزام بكل ما فيه من المبادئ والأوامر والنواهي، فبغير التقيد بفعل ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه لا تنبت الإرادة، ولا يمتحن ضمير الإنسان على الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، فالإرادة هي مفرق الطريق بين عالم الإنسان وعالم الحيوان.

والمنهج الإسلامي يربي ضمير الإنسان ووجدانه عن طريق عقد الصلة الدائمة بينهما وبين الله في كل فكر أو عمل أو شعور، فيدعو الإنسان إلى فتح بصيرته على آيات الله في الكون، واستشعار يد القدرة الخلاقة المبدعة من ورائها ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

والعبادة خير وسيلة لتربية ضمير الإنسان ومشاعره. بما في ذلك الشعائر المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج، وكذلك كل عمل أو فكر أو شعور طيب يتوجه به

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ١، ص٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٦١.



الإنسـان إلى الله، وكل عمل أو فكر أو شـعور خـبـيث يتركـه الإنسان تقـربا إلى الله واحتسابا.

والفنون هي إحدى أساليب تربية الوجـدان وتهذيب النفس، والوقوف على آيات الجمـال والإبداع في الكون. فـالفنون نوع من أنواع العـبادة طالما أنهـا تلفت النظر إلى جمال الكون ودقة نظامه، على أنها مظاهر لجمال الله ودقته وقدرته وإبداعه.

**ب- تربية الطاقات العقلية:**

أما بالنسبة لتربية العقل، فإن الإسلام هو دين الفطرة، فهو يحترم الطاقات كلها. ويعطي لكل منها حقها، ويستثمرها إلى أقصى حد لصالح الإنسان؛ ولذلك فهو يحترم الطاقة العـقلية ويشجعـها ويربيهـا التربية التي تجعلـها تختار طريق الخـير، ولكي يصل الإسـلام إلى هذا الهدف فـهو يربي العـقل في نفس التـربة التي يربي فيـها الضـميـر والوجدان.

والعـقل هو مناط التكليف، وأداة التفـكير. فـقد احـترم الإسلام مـبدأ «حـرية التفكير»، واهتم بأحقـية الإنسان في التفكير المستقل، والأخـذ بالنتائج التي توصل إليها عقله مهـتديا في ذلك بروح الإسلام ومنهجه. وهذا هو المبـدأ الذي يعرف في الإسلام بـ«الاجتـهاد». والاجتهاد مـصدر من مصادر القـانون الإسلامي، ومبدأ انـفرد الإسلام بتقريره، فلم يسبق إليه، ولم يلحق فيه إلا في عصر النهضة في أوربا.

وبما أن العقل هو امتـياز الإنسان وخاصته وشـرفه، وأنه مناط التكليف والخطاب الإلهي، وبما أن التفكيـر والاجتهـاد هما رسالة العقل؛ لذلك كـله فإن التفكير فـريضة إسلامية، وإن تربية العقل الذي هو أداة التفكير فريضة إسلامية أيضا.

ويحدد الإسلام مـجال النظر العقلي. فيرى أن طريق العقل في مـعرفة الله وفي الوصول إلى الحق هو تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل دون إغراق في الغـيبيات أو ما وراء الطبيعـة، حيث إن ذلك من شأن الوجدان وحده، ويدرب الإسلام الطاقـة العقلية عن طريق الاستدلال المثمر والتعرف على الحـقيقة. ويصل إلى ذلك بطريقتين: الطريقة الأولى هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي. والطريقة الثانية هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط(١).

أما بالنسبـة للطريقة الأولى وهي وضع المنهج الصحيح للنظر العـقلي، فالإسلام يحقق ذلك عن طريق وضع مجموعة من التـدريبات وإرساء مجموعة من الأسس للنظر

---

(١) انظر إلى ما سبق ذكره في مجال تربية العقل.



العقلي، فهو يبدأ أولا بتفريغ العقل من كل المفردات السابقة التي لم تقم على دليل يقيني وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن. فينعي على المقلدين الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]. وينعي على الذين يتبعون الظن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم] ثم يأمر بالتثبت من كل شيء قبل الاعتقاد به واقتفائه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

والطريقة الثانية لتربية العقل، هي تدبر نواميس الكون، فالنواميس الكونية تجرى في دقة عجيبة، ونظام لا يختل. والتدبر والفكر في هذه النواميس يرشدان العقل إلى تقوى الله الصانع المدبر، وتعوده على دقة النظر، وانضباط الأحكام، وتطبعه بطابع الدقة والتنظيم. فعن طريق النظر إلى الدقة والتنظيم والترابط في الكون يحاول العقل ربط أفكاره وإيجاد العلاقات، والوصول إلى الكليات التي تحكم الجزئيات.

ولكن الإسلام يؤكد على أن التأمل والتفكير في نواميس الكون وآياته ليس غاية في ذاته، بل غايته إصلاح القلب البشرى، وإقامة الحياة في الأرض على أساس القيم الثابتة في منهج الله وشريعته كالحق والعدل والخير.

وهكذا، فإن المنهج التربوي للتأمل في ملكوت الله، يبدأ بالتفكير وينتهي بالعمل. العمل بمقتضى منهج الله، والجهاد في سبيل إقرار هذا المنهج، والعمل بمقتضاه في كل أمر من أمور الحياة. ثم يصل إلى الغاية القصوى وهي الثواب في الآخرة، فيصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والبشر بالله.

ومنهج التربية الإسلامية يربى العقل أيضا عن طريق توجيهه إلى النظر في حكمة التشريع كحكمة تشريع القصاص، والطلاق، والدين، ونظام الحكم ونظام المال وغيرها.

ويربى منهج التربية الإسلامية العقل عن طريق توجيه الطاقة العقلية إلى النظر في سنة الله في الأرض، وأحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ



الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم].

هذه الدعـوة المتكررة تلفت النظر بإلحـاحها عـلى الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عـوامل البقاء والتقدم، وعـوامل التأخر والفناء في المجتمـعات دراسة واقعية.

على أن هذه ليست دعوة «لحفظ» التاريخ من أجل الامتـحان-كما سبق أن ذكرنا- بل هي دعوة للنظر والتـفكير في ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

ومنهج التربية الإسلامية يوجه العقل إلـى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان. فهو الذي يشرف عليها ويوجهـها، وهو صاحب السلطان عليها، وليس جرما صغيرا لا يكاد يبين بجوارها.

وهكذا، يعد منهج التربية الإسلامية الإنسان الصالح، المتكامل، المتزن، الإيجابي الفعال، المسيطر على كل ما حوله؛ لأنه يستمد قوته من الله، ويتوجه بكل عمله إليه.

على أنه لابد من أن يراعي في هذا الإعداد فطرة الله التي فطر الناس عليها، فيعد الولد كي يكون رجلا، وتعد البنت كي تكون أنثى ماهرة في إدارة بيتها، وتدبير شئونه، وفي تربية أطفالها وإعدادهم كي يكونوا رجالا وإناثا صالحين.

### جـ- تربية الطاقات الجسمية:

من أهم أهداف المنهج، العنايـة بالجسم الإنسـاني، واستـثـمار طاقـاته، وتنميـة المهارات الحركية، والإلمام بالصناعات. فمن مـبادئ الإسلام الأساسية أن «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمـن الضعيف». والقوة هنا شاملة، فـيجب أن يكون المؤمن قويا في عقيدته، وقويا في جسمه، وقويا في عقله وتفكيره، وقويا في عمله. والوصول إلى القوة تقتضي تربية النشء تربية رياضيـة. يقول ابن سينا في سالته في السياسة: «إذ فرغ الصـبي من تعلم القرآن وحـفظ أصول اللغة، نظر عند ذلـك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه... بعد أن يعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه».

في هذا النص لابن سينـا اهتمام بالجـانبين: الجانب الجسـمي، والجانب المهني. فالطفل يجب أن يوجه إلى نـوع المهنة والحرفة التي تتفق مع قدراته واستـعداداته. وفي الجزء الثـاني من البيان والتـبيين للجاحظ، يروى أن عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه-



كتب إلى ساكني الأمصار يقول: «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر». وروى الجاحظ في البيان والتبيين، أيضا، عن الحجاج يخاطب معلم أولاده، فقال له: «علم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم»(١).

وكان الغزالي يرى ضرورة ترك الفرصة للصبي كي يلعب لعبا جميلا يحبه ويستريح إليه؛ لأن منعه من اللعب يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، وقد يدفعه إلى أن يحتال على المعلم ويتخلص من التعليم نهائيا.

وبما أن الحواس هي أبواب المعرفة، فإن الغرض من تربيتها وتدريبها هو الوصول إلى الكمال في الإدراك والملاحظة والفهم والتحليل والتفسير والتقويم.

ولقد ظهر هذا واضحا في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾ ﴾ [**النحل**]. كما يظهر ذلك واضحا أيضا في تنديد الله بمن يهمل استخدام حواسه، أو يستخدمها بطريقة خاطئة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴿١٧٩﴾ ﴾ [**الأعراف**].

إن في رياضة الجسم وتدريب الحواس توفيرا للطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق الاستمتاع، وتحقيق الجمال في الأداء، وجمال الأداء يتمثل في إتقان الأداء، لا مجرد الأداء.

وفي أهمية تدريب الأعضاء على القراءة والكتابة، ورد في فتوح البلدان للبلاذري، أن الشفاء العدوية (نسبة إلى عدي، رهط عمر بن الخطاب)، كانت كاتبة في الجاهلية، ومنها تعلمت الكتابة حفصة بنت عمر، فلما تزوج النبي ﷺ حفصة، طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه، كما علمتها أصل الكتابة، ولقد حرر الرسول ﷺ بعض أسرى بدر بعد أن علَّموا طائفة من المسلمين القراءة والكتابة.

---

(١) علي عبد الواحد وافي وآخرون: أصول التربية ونظام التعليم، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م، ص١٨ .

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم].

هذه الدعوة المتكررة تلفت النظر بإلحاحها على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل البقاء والتقدم، وعوامل التأخر والفناء في المجتمعات دراسة واقعية.

على أن هذه ليست دعوة «لحفظ» التاريخ من أجل الامتحان -كما سبق أن ذكرنا- بل هي دعوة للنظر والتفكير في ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

ومنهج التربية الإسلامية يوجه العقل إلى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان. فهو الذي يشرف عليها ويوجهها، وهو صاحب السلطان عليها، وليس جرما صغيرا لا يكاد يبين بجوارها.

وهكذا، يعد منهج التربية الإسلامية الإنسان الصالح، المتكامل، المتزن، الإيجابي الفعال، المسيطر على كل ما حوله؛ لأنه يستمد قوته من الله، ويتوجه بكل عمله إليه.

على أنه لابد من أن يراعي في هذا الإعداد فطرة لله التي فطر الناس عليها، فيعد الولد كي يكون رجلا، وتعد البنت كي تكون أنثى ماهرة في إدارة بيتها، وتدبير شئونه، وفي تربية أطفالها وإعدادهم كي يكونوا رجالا وإناثا صالحين.

### جـ- تربية الطاقات الجسمية:

من أهم أهداف المنهج، العناية بالجسم الإنساني، واستثمار طاقاته، وتنمية المهارات الحركية، والإلمام بالصناعات. فمن مبادئ الإسلام الأساسية أن «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». والقوة هنا شاملة، فيجب أن يكون المؤمن قويا في عقيدته، وقويا في جسمه، وقويا في عقله وتفكيره، وقويا في عمله. والوصول إلى القوة تقتضي تربية النشء تربية رياضية. يقول ابن سينا في سالته في السياسة: «إذ فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه... بعد أن يعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه».

في هذا النص لابن سينا اهتمام بالجانبين: الجانب الجسمي، والجانب المهني. فالطفل يجب أن يوجه إلى نوع المهنة والحرفة التي تتفق مع قدراته واستعداداته. وفي الجزء الثاني من البيان والتبيين للجاحظ، يروى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-



كتب إلى ساكني الأمصار يقول: «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر». وروى الجاحظ في البيان والتبيين، أيضا، عن الحجاج يخاطب معلم أولاده، فقال له: «علم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم، ولا يصيبون من يسبح عنهم»(١).

وكان الغزالي يرى ضرورة ترك الفرصة للصبي كي يلعب لعبا جميلا يحبه ويستريح إليه؛ لأن منعه من اللعب يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، وقد يدفعه إلى أن يحتال على المعلم ويتخلص من التعليم نهائيا.

وبما أن الحواس هي أبواب المعرفة، فإن الغرض من تربيتها وتدريبها هو الوصول إلى الكمال في الإدراك والملاحظة والفهم والتحليل والتفسير والتقويم.

ولقد ظهر هذا واضحا في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)** ﴾ [**النحل**]. كما يظهر ذلك واضحا أيضا في تنديد الله بمن يهمل استخدام حواسه، أو يستخدمها بطريقة خاطئة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)** ﴾ [**الأعراف**].

إن في رياضة الجسم وتدريب الحواس توفيرا للطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق الاستمتاع، وتحقيق الجمال في الأداء، وجمال الأداء يتمثل في إتقان الأداء، لا مجرد الأداء.

وفي أهمية تدريب الأعضاء على القراءة والكتابة، ورد في فتوح البلدان للبلاذري، أن الشفاء العدوية (نسبة إلى عدي، رهط عمر بن الخطاب)، كانت كاتبة في الجاهلية، ومنها تعلمت الكتابة حفصة بنت عمر، فلما تزوج النبي ﷺ حفصة، طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه، كما علمتها أصل الكتابة، ولقد حرر الرسول ﷺ بعض أسرى بدر بعد أن علَّموا طائفة من المسلمين القراءة والكتابة.

---

(١) علي عبد الواحد وافي وآخرون: أصول التربية ونظام التعليم، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م، ص١٨ .

وهكذا، نرى أن اهتمام منهج التربية الإسلامية بالجسم والترية الجسمية لم تكن أقل من الاهتمام الذي حظيت به التربية العقلية والتربية الخلقية والوجدانية، فشمولية الإسلام ترى أنه لا يمكن أن يوجد نشاط جثماني واحد لا يدخل في نطاق الروح والعقل، فالحواس رغم أنها جسمية إلا أنها لا تؤدي وظيفتها منفصلة عن الكيان النفسي كله(١).

**٢- الاهتمام بالفرد ككل مركب من أجزاء متكاملة:**

وبما أن طبيعة الإنسان مكونة من كل مركب من أجزاء متكاملة، هي الجسم والعقل والروح، فإن منهج التربية الإسلامية ينصب على هذه الأجزاء المتكاملة، ولا يؤكد جزءا على حساب الآخر، حتى لا ينمو الإنسان بطريقة متنافرة أو غير متوازنة.

وأما الهدف الخاص، فهو الإعداد للجهاد في سبيل الله. والهدفان يلتقيان في النهاية. فالإسلام دين قوة وغلبة، وقد نزل ليحكم الأرض، ويقيم فيها حكم الله، ويزيل منها الطواغيت. ومن هنا فإن الجهاد الذي يُعَدُّ المسلم له، قد يكون جهادا في ميدان القتال: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴿٩﴾ ﴾ [التحريم]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة]. ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]. وقد يكون جهادا بقوة العقل وقوة الفكر وقوة الروح وذلك من أجل إعلاء كلمة الله، لا إعلاء كلمة حاكم، أو جنس، أو قوم؛ لأن هؤلاء جميعا أمام الله سواء. والمعيار الوحيد الذي يفرق بين صالحهم وطالحهم هو تقوى الله.

«وهكذا لا تنفصل تربية الأجسام في منهج التربية الإسلامية عن تربية الضمير والوجدان وتكون الأجسام القوية وسيلة لنشر الخير في الأرض، لا لنشر الشر والفساد. وفي ذلك يتفرد المنهج الرباني عن مناهج البشر كلها خلال التاريخ»(٢).

---

(١) انظر: عبد الرحمن صالح عبد الله: «خصائص الاهداف التربوية في الإسلام»، في مجلة كلية التربية جامعة الملك عبد العزيز، العدد الخامس، رجب ١٤٠٠هـ، مايو ١٩٨٠م.

(٢) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

ويعني منهج التربية الإسلامية بالعقل. والعلم من أهم الوسائل المعنية على تغذية العقل. ولقد كان المسلمون هم أهل العلم في الأض عندما كانوا مسلمين حقا. وحث القرآن الكريم على تنمية العقل وشحذ قدراته، وتنمية مهاراته عن طريق التفكير والتأمل والإحاطة بما في الكون من نظام واتساق:

﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية].

ويدرب الإسلام الطاقة العقلية عن طريق الاستدلال المثمر، والتعرف على الحقيقة. ويصل إلى ذلك بطريقتين الأولى هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي، والثانية هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط فالمنهج الكامل للتأمل في ملكوت الله يبدأ بالتفكير وينتهي بالعمل.

ولهذا يؤكد منهج التربية الإسلامية على تربية الحواس وتدريبها، باعتبارها نوافذ للمعرفة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]، ويندد بمن يهمل استخدامها، أو يستخدمها بطريقة خاطئة: ﴿.. لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، إن هذا التنديد يدل دلالة قاطعة على ضرورة الاهتمام بتربية الحواس والعقل بكامل طاقاتها التى هيئت لها.

ويهتم منهج التربية الإسلامية بتربية الوجدان عن طريق توجيه المتعلم إلى حب الله وخشيته، فهذان الخيطان هما اللذان يربطان القلب البشري بالله، كما أنهما خلاصة العبادة وثمرتها. الوسيلة هي ممارسة العبادة بكل ألوانها دون قهر، ولكن بالترهيب والترغيب. وقراءة القرآن بتدبر، حبذا لو تمت القراءة مع الاستعانة بأحد التفاسير. وقراءة أحاديث الرسول ﷺ، وسير الصحابة. فهذه نماذج بشرية عالية فائقة كانت تعيش كل حياتها مع الله.

لكن منهج التربية الإسلامية لا يعمق الجانب الوجداني بالتركيز على جانب السلوك الوجداني المجرد، أو الذكر أو الاعتكافات الروحية المنصرفة إلى إقامة الشعائر. إن منهج التربية الإسلامية ليلفت نظرنا بشدة إلى حقيقة أساسية في الإسلام، وهي أن التذكر والتفكير والتدبر بالقلب أو بالقلب واللسان كلها لا تكفي وحدها لإقامة الحياة الإسلامية الإيجابية الفاعلة في الأرض. انظر إلى وصف الله للجيل الأول من المسلمين.



﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

تقرر الآيات السابقة أن الله استجاب لضراعة أولى الألباب، فكفَّر عنهم سيئاتهم، وغفر لهم ذنوبهم، وأدخلهم الجنة. ولكن متى استجاب لهم؟ هل استجاب لمجرد التذكر والتفكر والتدبر؟ هل استجاب لضراعتهم الإيمانية الحارة؟ إنه استجاب -سبحانه- حين تحول هذا إلى عمل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ...﴾.

فالدرس إذن هو أن تتحول الأفكار والمشاعر إلى عمل مشهود في واقع الأرض. والتربية الوجدانية الصحيحة ينبغي أن تهدف إلى ذلك. فلا تكتفي بذكر اللسان والقلب، ولا بالشعائر التعبدية لتعميق الإيمان. إنما تسعى إلى تكوين تلك الشفيفة التي يصفها القرآن. أن يحدث الذكر بالعمل لا بالشعائر التعبدية وحدها، إلا في عزلة عن العمل الواقعي»[1].

لاشك أن الخلوة ضرورية بين الحين والحين، وأن التفكير والتذكر باللسان والقلب في حالة السكون هو أولى مراحل السمو. لكن السمو العميق هو أن يتحرك الإنسان به في واقع الأرض فلا يشغله عن العمل، ولا يشغله العمل عنه، بل يصير هو الحافز إلى العمل وإلى التمكن منه.

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص٣٠٣.



### ٣- إيصال الإنسان إلى مرتبة الكمال التي هيأه الله لها:

إن هدف المنهج الإسلامي هو إيصال المربَّى إلى مرتبة الكمال التي هيئ لها. فالتربية حيثية من حيثيات إيماننا بالله فنحن آمنا بالله معبودا لأننا آمنا به ربا، فهو الذي ربَّانا وربَّى جميع العالمين بنعمته، والدليل قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢﴾ ﴾ [**الفاتحة**]. وشريعة ربِّنا هي مصدر تربيتنا، قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [**البقرة**].

وإذا كانت التربية في الإسلام تعني إيصال المربّى إلى الكمال الذي هيئ له، فلابد لمنهج التربية الإسلامية من أن يراعي ميول المربَّى واتجاهاته وقدراته. ولابد له من أن يأخذ في الاعتبار طبيعة هذا المربى من حيث إنه جسم وعقل وروح، وذلك حتى لا يربِّي ميلا على حساب ميل، أو اتجاها على حساب اتجاه، أو قدرة على حساب قدرة. أو يهتمٍ بالعقل على حساب الجسم، أو هما معا على حساب الوجدان، فيحصل التمزق في المربى، والقلق النفسي، والتضارب وعدم التكامل بين أجزائه.

والتربية في الإسلام تتعلق بالإنسان منشأ، وحملا، وإرضاعا، وحضانة، وطفولة، وشبابا، ورجولة، أي حتى يبلغ المستوى الذي يهيئ له كماله الإنساني. فمنهج تربية الفرد تبدأ حتى قبل وجود الفرد نفسه. وذلك بحسن اختيار الوالدين. يقول الرسول ﷺ: «**تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس**». الخيار هنا من حق الرجل والمرأة أيضا. والله -سبحانه وتعالى- يضع لنا معايير الاختيار الصحيح في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور]. وفي قوله: ﴿ **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** ﴿٢٢١﴾ ﴾ [**البقرة**]. والرسول ﷺ يقول: «**تنكح المرأة لأربع خصال: لمالها، ولحسبها، ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**» (أخرجه الشيخان) فذات الدين هي الأقدر على إقامة البيت المسلم والأسرة المسلمة.

وعلى هذا فمنهج التربية في الإسلام يبدأ حتى قبل أن يوجد الوليد الإنساني؛ وذلك لأن الإسلام يؤكد على أهمية الموروثات من النوعين الذكر والأنثى في تهيئه أكبر قدر من الكمال الإنساني للفرد. فلقد نادى الإسلام بالتكافؤ بين النوعين الذكر والأنثى. وليس معنى التكافؤ هنا هو التكافؤ المادي أساسا، وإنما هو التكافؤ في جواهر الأشياء، أي التكافؤ النفسي، والصحي، والخلقي والقيمي، فالإسلام يريد أن يضمن للوليد وعاء

صالحا ينتج منه، والمراد بالوعاء الصالح هو العوامل البيئية، والعوامل الوراثية في أبويه، حيث ستكون هذه العوامل محورا من محاور التربية في الفرد فيما بعد.

ولذلك حبذ الإسلام- على سبيل المثال! عدم الزواج من القريبات؛ لأن القريبات حين يتزوج منهن الإنسان يئول أمر النسل إلى الضعف. وأما إذا اغترب فإنه يئول أمر النسل إلى القوة؛ لذلك يقول عمر -رضي الله عنه-: «**اغتربوا لاتضووا**»، أي لا تهزلوا وتضعفوا. وفي ذلك يقول الشاعر العربي في وصف فتى بالشجاعة:

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى     وقد يضوى سليل الأقارب

وبعد ذلك ينطلق الإسلام انطلاقة لها تأثيرها على نفسية الوليد بعد أن يكبر وهي اختيار اسم الوليد. قال ﷺ: «**أحسنوا أسماءكم، فإنكم ستدعون يوم القيامة بأسمائكم**» (رواه أبو داود بإسناد حسن صحيح). وكان الرسول ﷺ ينفر من الأسماء التي لا معنى لها، أو لها معنى لا تسر له النفس. وهذا يدل على أن من حق الوليد أن يحسن أبواه اختيار اسمه.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الرضاعة، قال تعالى: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ... ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [**البقرة**]. وقد دلت الدراسات النفسية والطبية على أن ذلك هو الزمن الضروري لتغذية الطفل من لبن أمه، وعلى ضرورة أن تكون الأم هي المرضعة؛ ولذلك يعطي الشرع حق حضانة الطفل للأم في مرحلة الرضاعة والحضانة والطفولة المبكرة؛ لأن الطفل في هذه المرحلة لا يحتاج إلى العقل الحازم، ولكنه يحتاج إلى العاطفة والحنان والرقة التي تناسب تكوينه. ثم بعد ذلك ينتقل إلى المدرسة، حيث المعلم أو المعلمة، أو الخبرات التعليمية المنظمة.

### ٤- تربية الأم المتخصصة في إعداد الجيل الناشئ:

إذا أردنا أن نربي أطفالنا تربية إسلامية- وذلك هي النتيجة الطبيعية لكوننا مسلمين- فلابد أن يكون لدينا البيت المسلم، والشارع المسلم، والمدرسة المسلمة، والمجتمع المسلم. لكن البيت هو أقوى هذه المصادر الأربعة؛ وذلك بحكم التصاق الطفل به، وقضائه فيه أطول فترة من طفولته الطويلة. وبحكم أنه أول من يتسلم خامة الطفل ويؤثر في تشكيلها.

ولذلك اهتمت التشريعات الإسلامية بتوفير جو الاستقرار والاطمئنان في البيت. فقد كفلت التشريعات قيام الأسرة على رباط شرعي معلن قائم باسم الله، لما في ذلك

من حفظ الأنساب، واطمئنان الأب إلى أبنائه، واطمئنان الأبناء إلى أبويهم. ولكي يهيئ المحضن الذي ينشأ فيه الأطفال نشأة سليمة، فإن الإسلام يستثير عواطف المودة والمحبة بين الزوجين: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم] ﴿.. هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. (١٨٧)﴾ [البقرة]. وفي هذا معاني الملامسة والمكاشفة والالتصاق الجسدي والوجداني والروحي كلها في آن واحد.

وقد كلفت التشريعات قيام الزوج بكفالة الزوجة وإراحتها- في الظروف العادية- من جهد الكدح من أجل الحصول على متطلبات الحياة، وذلك لكي تتفرغ لمهمتها العظمى وهي تربية الأطفال.

إن الأطفال جميعا يحتاجون الحب والحنان والرعاية والأمن في حضن الأم أو بقربها، والأم بفطرتها تعطي ذلك الحنان والحب، وتؤدي تلك الرعاية المطلوبة: ﴿..فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠)﴾[الروم]. «ولكن الجاهلية الحديثة تسيرها ضد فطرتها وضد حاجة الطفل الفطرية حين تفرض عليها أن تعمل، وأن توزع نفسها بين مطالب العمل ومطالب الأمومة، وهي مطالب متضاربة في الوقت والجهد والاتجاه النفسي والعصبي كذلك! ثم تروح تزعم أنها تعمل على حل مشاكلها بتيسير المحاضن لأطفال الأم العاملة! وما أبأسه من حل، يضيف إلى تعاسة الأم العاملة وتوزع وقتها وجهدها وطاقتها العصبية، مشكلة التشرد النفسي لأطفال المحاضن، الذي تنشأ عنه أجيال مشردة من الشباب، تصنع في نفسها ما نراه اليوم من ألوان الانحراف والفساد»(١).

والأم المسلمة- في المجتمع المسلم- في ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهجه في الحياة- عليها أن تدرك هذه الحقيقة إدراكا واضحا عميقا: إن الطفل- في سنواته الأولى على الأقل- يحتاج إلى أم متخصصة لا يشغلها شيء عن رعاية الطفولة وتنشئة الأجيال... وأن كل ما تقوم به خلافا لتدبير أمر البيت ورعاية أطفاله إنما يتم على حساب هؤلاء الأطفال، وعلى حساب الجيل القادم من البشرية. فأما حين تكون الضرورة قاهرة، فهي الضرورة القاهرة، نخضع لها بلا اختيار... وكل الضرورات... لا تبرر ذلك الدمار الذي يصيب البشرية في أنفسها من جراء إلغاء وظيفة «الأم

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص١٠٨.



المتخصصة» من المجتمع، ووضع «الأم العاملة» بدلا منها... وما أيسر الحل لو أرادت الجاهلية المعاصرة الحل بالفعل «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»(١)، فلنجرب أن نعطي الشاب الذي لا يتزوج موظفة، أو لا يوظف زوجته إعانة زواج تساوي أجر الزوجة الموظفة. ولننظر بعد ذلك كم ينتظم الإنتاج في الدواوين والمصانع والمصالح، وكم تصان للأسرة والمجتمع من حرمات، وكم تتهيأ الظروف لتنشئة أجيال من البشر مطمئنة مستقرة، غير قابلة للانحراف عن سواء السبيل.

فالأم المسلمة -في المجتمع المسلم، وفي ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهجه في الحياة- أم متخصصة في تدبير شئون بيتها وتربية أطفالها، ولا شيء غير ذلك إلا في حالة الضرورة القاهرة، وهي ضرورة نادرة الحدوث في المجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وهذا كله يلقي على عاتق المنهج تبعة تربية البنت تربية تؤهلها لكي تكون مدبرة بيت ومربية أجيال في المقام الأول، ثم يأتي أي شيء آخر بعد ذلك.

فمنهج التربية الإسلامية- في المجتمع المسلم الذي يلتزم بتنفيذ شريعة الله- يعد الفتاة المسلمة في مرحلة الشباب الباكر لمهمتها العظيمة المرتقية، حتى إذا جاءت الخطبة وجاء الزوج كانت مهيأة لدورها بطريقة ملائمة.

أما في مناهجنا الحالية، فالفتاة لا تتدرب على عمل البيت... لأنها في البيت مشغولة بالاستذكار للمدرسة، وفي المدسة مشغولة بمناهج البنين التي لا تدرب الفتاة على كيفية إدارة شئون البيت! بل إن بعض البنات يستنكرن أن يدخلن المطبخ، أو يقمن بأي عمل من أعمال البيت على الإطلاق! فإذا فاجأهن الزواج في نهاية المطاف، وجدن أنفسهن بلا عدة ولا تدريب.

ولا شك أن هناك علوما مشتركة في منهج التربية الإسلامية بين الفتيات والفتيان: صغيرهم وكبيرهم على السواء. وهذا القدر المشترك من المنهج هو ما يتصل بالجانب الثابت في حياة البشرية. وهو العلم بالدين، ابتداء من قضية الألوهية وما يتفرع عنها، وما يترتب عليها من مبادئ وقيم، وأداء الشعائر، وتنفيذ منهج الله وشريعته بما تشمل عليه من نظم وأخلاقيات وسلوك.

وإلى جانب هذا القدر المشترك في المنهج، هناك «التربية النسوية» التي تعد الفتاة لوظيفتها، وتعلمها أصول هذه الوظيفة من إدارة شئون المنزل ورعاية شئون الأطفال،

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.



والطرق المثلى لتربيتهم، وهكذا، فإن الغرض الأساسي من هذه الدراسات هو تحويل مشاعر الجنس الفطرية في الفتاة إلى تهيؤ عملي لاستقبال حياة الزوجية المرتقبة.

ويحق للفتاة بعد ذلك أن تتعلم ما ترغب في تعلمه من العلوم الأخرى التي تتصل بالجوانب المتغيرة في حياة البشرية، كالعلوم الاجتماعية، أو الاقتصادية أو السياسية، أو الآداب، أو العلوم، أو الرياضيات... إلخ، ولا قيد عليها في ذلك إلا قيدا واحدا، هو ألا تصرفها دراسة هذه العلوم عن وظيفتها الرئيسية التي ينبغي أن تعد من أجلها.

### ٥- تربية القدرة على الضبط

وكما أن الطفل يجب أن يأخذ حقه من الحب والحنان، فإنه يجب أيضا تنمية قدرته على الضبط. ولا شك أن الطفل في حاجة إلى معونة أمه وأبيه، ثم معلمه لكي يتعلم الضبط ويتعوده. فالمسلم في حاجة إلى أن يتعلم الضبط ويتعوده منذ باكر عمره، لأن الجهاد في سبيل الله لا يستقيم في النفس التي لا تستطيع ضبط رغباتها: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد].

فالضبط هو وسيلة الإنسان للاستقامة على ميزان الله، كما أنه وسيلة من وسائل تربية الإرادة، فكلما تدرب عليه وهو صغير، كان أقدر عليه وأكثر تمكنا منه، فيجد القدرة على الضبط حاضرة لديه في كل لحظة تفاجئه فيها الأحداث.

هكذا، فإن هذين المبدأين من مبادئ التربية: «الحب والحنان والرعاية من جانب، وتنمية القدرة على الضبط من الجانب الآخر، هما من الخطوط الأصيلة والدائمة في منهج التربية الإسلامية لا يختصان بمرحلة من مراحل العمر، وإنما يظلان عاملين ما دام هناك تربية وتوجيه. والحق أنهما- يمثلان- معا- أصلا من الأصول الإسلامية وهو التوازن. فالمنهج الإسلامي منهج متوازن. وهدفه هو إنشاء «الإنسان المسلم الصالح» الذي هو ذات الوقت إنسان متوازن»[(١)].

فالأم المسلمة والأب المسلم والمربي المسلم عليهم جميعا أن يدركوا أنه لا شيء على الإطلاق ينبغي أن يحول بينهم وبين منح الطفل حاجته الطبيعية من الحب والحنان والرعاية. كما أن عليهم أن يدركوا في نفس الوقت أن هناك قدرا مضبوطا من هذه المشاعر وأنماط السلوك هو المطلوب، وأن الزيادة فيها كالنقص، كلاهما مفسد لكيان الطفل.

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص١١٣ - ١١٤.



وكذلك الأمر بالنسبة لعملية الضبط، فهي حين تزيد فهي عرضة لأن تزيد على حساب حيوية الإنسان وقدرته على الانطلاق والإيجابية الفاعلة في الأرض. وحين تنقص فإنها تعطي مجالا للرخاوة والترهل أو الفوضى. وكل هذه الأمور يرفضها الإسلام لأنها لا تتفق مع الميزان المضبوط الذي يريد أن يتربى عليه المسلم، وأن يكون عليه واقع الحياة على الأرض.

## ٦- تربية القدوة الحسنة والنماذج الفاضلة:

القدوة مبدأ إسلامي، له عظيم الأثر في نفوس الصغار والكبار على السواء. ولا أدل على ذلك من توصية الله للمؤمنين بالاقتداء برسول الله ﷺ **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].**

أما بالنسبة للأطفال، فإن القدوة إذا كانت حسنة فهناك أمل راجع في صلاحهم، وإن كانت القدوة سيئة فهناك احتمال أرجح بفسادهم. وهذا هو ما دعى الرسول ﷺ إلى أن يوصي الرجل الذي هو بصدد الزواج، أن يظفر بذات الدين، فيقول له: **«تنكح المرأة لأربع خصال: لمالها، ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك»** (أخرجه البخاري ومسلم) فذات الدين هي الأقدر على إقامة البيت المسلم والأسرة المسلمة، وتنشئة الأطفال- بالقدرة قبل التلقين- على قيم الإسلام ومبادئه منذ صغرهم فتصبح عادة لهم، وطبيعة فيهم، وجزءا من شخصياتهم ليس من السهل أن يحيدوا عنه.

والحقيقة أن وجود القدوة الحسنة والنماذج الفاضلة حق للأطفال على والديهم ومربيهم. فمن حق الأطفال أن يكون هؤلاء قدوة حسنة يقتدون بها، وصورة حية للعقيدة الراسخة، والأخلاق الفاضلة، والسلوك القويم، روى الجاحظ أن عقبة بن أبي سفيان لما دفع ولده إلى المؤدب، قال له: «ليكن أول ما تبدأ به إصلاح بني إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت...»[1].

ويمكن القول: إن القدوة الحسنة هي دائما قيمة موجبة، يحذف بإزائها قدر مساو من الجهد، فهي تجعل الجهد الذي يبذل في تنشئة الأطفال على الإسلام جهدا ميسرا

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة: ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦م، ص ٧٥.



وقريب الثمـرة في ذات الوقت؛ لأن الأطفال سيتعلمون القـيم الفاضلة والسلوك السوى بطريقة تلقائية ودون جهد كبير في التوجيه والإرشاد عن طريق التلقين.

**٧- إعداد المربية المسلمة والمربي المسلم:**

«المفروض في المجتمع المسلم، الذي يتحاكم إلى شريعة الله ويطبق منهج الله، أن تكون المدرسة إسلامية، بمعنى أن تربي تلاميـذها ليكونوا مسلمين صالحين، وتتمشى مع التربية الإسلامية التي بدأها الطفل في المنزل وتسيـر بها خطوات جديدة نحو الاكتمال. بل المفروض- وفيـها مدرسون متخـصصون في التربية- أن تصحح وتُقـوِّم ما عسى أن يكون البيت المسلم قـد نسيه، أو لم يحسن التوجـيه فيه... وسيكون منـهج التربية في المدرسة الإسـلامية بطبـيعة الحال هو منهـج التربية الإسلامـية، وسيكون المدرسـون قد درسوه في المعاهد التي تتولى تخريج المعلمين، وتخصصوا فيه، وأصبحوا على دراية به ودربة عليه»(١).

وإذا كـان أي منهج تربوي على الأرض يحتـاج إلى أن يكون المدرس مـؤمنا به ومتحمسـا لتطبيقه، فإن المنهج الإسلامي هو أولى المناهج جمـيعا أن يكون كذلك؛ لأن ذلك أصل من أصوله العميقـة: أن يكون قول الإنسان وعمله متطابقين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)**﴾ [**الصف**].

ومقتـضى ذلك كله أن يكون المدرسون في المدرسة الإسلاميـة مسلمين ومؤمنين، حيث المجال هو التربية، والتربية في حاجة إلى إيمان حقيقي بالمنهج، وليس إلى التظاهر بالإيمان به، أو ادعاء الإيمان به.

«المدرسة الإسلامية تقوم على مدرس مسلم، يمارس الإسلام حقيقة ويتخلق بخلق القرآن في سلوكـه وتعامله وسمـته ومظهره وسـائر شأنه. وهو فـوق ذلك عليم بمبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه. وعليم بمنهج التربيـة الإسلامية في صورته النظرية والتطبيقية، ومدرب على طريقة تطبيقه قبل أن يتخرج ويمارس عمله في المدرسة إلى جانب تخصصه العلمي في المادة التي يدرسها»(٢).

وعلى هذا، فلابد أن تهتم مـعاهد إعداد هؤلاء المدرسين بتعليمـهم منهج التربية الإسلامية، وتدريبهم عليـه تدريبا كافيا قبل تخريجهم، كمـا أنها لابد أن تختار طلابها

---

(١) انظر: محمد قطب، مرجع سابق، ص١٧٣ وما بعدها.
(٢) محمد قطب مرجع سابق، ص١٧٤ .



من بين المتقدمين على أساس الأفضلية في الأخلاق، والقدرة على حمل رسالة الإسلام والتربية الإسلامية، إلى جانب التفوق العلمي العام.

والمدرس المختار على هذه المعايير والمدرب على هذه الصورة هو الذي سيكمل رسالة الإسلام التي بدأت في البيت، وسيتعامل مع الأطفال بقدر ما تتسع مداركهم، وسيطبعهم بالطابع الإسلامي المتميز، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله، إلى جانب تعليمهم العلوم الأخرى الضرورية لهم من علوم ورياضيات ولغات وإنسانيات ومواد عملية وفنية وبدنية.

والمدرسة الإسلامية هي التي تمارس شعائر العبادة بصورة جماعية في وقتها. فالنظار أو الناظرات، والمدرسون أو المدرسات والطلاب أو الطالبات يشتركون جميعا في أداء فريضة الصيام أو الصلاة إن جاء وقتها أثناء وجودهم بالمدرسة؛ وذلك ليكون جو العبادة شاملا، وأفعل تأثيرا في نفوس التلاميذ.

والمدرسة الإسلامية هي التي تكون أخلاقيات الإسلام هي قاعدة التعامل فيها بين الناظر والمدرسين والتلاميذ وبقية العاملين. فالمدرسة المسلمة لابد وأن تكون صورة مصغرة للمجتمع الإسلامي الكبير، بل وأيضا قائدة لحركة الإصلاح الخلقي فيه.

إن منهج الإسلام للحياة جاد لا يهزل، يرفض التميع والانحلال والتسيب من البنين والبنات على سواء. ويرفض المتشبهين والمتشبهات بتوجيه صريح من سول الله ﷺ: **«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»** (رواه البخاري).

إن ما أراده الله فطرة لا ينبغي للبشر أن يحيدوا عنه؛ لأنهم حين يحيدون عنه يفسدون لا محالة؛ ولذلك ففي المدرسة المسلمة قد يختلط البنون والبنات في سنوات الطفولة الأولى في المدرسة الواحدة إذا دعت الضرورة لذلك، لكنها تجعل مدرسة للبنين متخصصة، ومدرسة للبنات متخصصة منذ يبدأ الفتى يستعد نفسيا وجسديا لمعالم الرجولة، وتبدأ الفتاة تستعد نفسيا وجسديا لمعالم الأنوثة، وذلك فيما يوازي المرحلة الإعدادية أو المتوسطة في مدارسنا الحالية.

وليس المهم هنا أن يشترك البنون والبنات في مواد دراسية واحدة، لكن المهم هو «الجو» الذي يسيطر على المدرسة وعلى الدراسة. حيث جو الرجولة هو الذي يجب أن يسود في مدارس البنين، وجو الأنوثة هو الذي يجب أن يكون سائدا في مدارس البنات. فالإسلام دين الفطرة الحريص على إعطاء الرجل المسلم شخصية الرجل الكامل الرجولة، وإعطاء المرأة المسلمة شخصية المرأة الكاملة الأنوثة.

### ٨- ربط النظرية بالتطبيق والقول بالعمل:

إن حديث «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» حديث صحيح، لكن بيان حقيقة «لا إله إلا الله» التي تدخل الجنة، هي صلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله، وتطبيق شريعة الله ومنهجه. فالرسول ﷺ اشترط فيها إخلاص القلب لله. وبين إخلاص القلب بأنه عدم الشرك. وبين أن من أنواع الشرك التحاكم إلى غير شريعة الله.

وكان الوحي قاطعا في رده على المنافقين: إن كنتم مؤمنين حقا فآية إيمانكم هي تنفيذ أحكام الله: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ [النساء].

ولذا فلا يكفى أن يقول المربون وأن يعلِّموا، وإنما ينبغي أن يعملوا ويسلكوا وفقا لما يقولون ويعملون، وإلا حق عليهم قول الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)** ﴾ [الصف].

إن الدين الإسلامي دين واقعي، ونظام واقعي، قابل للتطبيق الكامل في عالم الواقع. وقد طبق بالفعل وعلى مدى قرون عديدة من الزمان في عالم البشر. إن هذا الدين لا يفرق بين المثال والواقع؛ لأن مثله موضوعة بحيث يستطيع تطبيقها البشر: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا.. (٢٨٦)** ﴾ [البقرة]، ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. (١٦)** ﴾ [التغابن]. وعلى هذا فالإسلام ليست فيه تلك الفجوة المعهودة بين المثال والواقع، أو بين النظرية والتطبيق، كما يعبرون عنها في أوربا.

لابد إذن أن تكون المناهج الدراسية عملية ونظرية معا لا نظرية فقط. وأن توجد في مدرسة البنين «ورشة» كبيرة إلى جانب الكتب والحجرات الدراسية. وأن يوجد في مدرسة البنات بيت متكامل يدبرن شأنه»(١).

إن المنهج الإسلامي لا يهدف إلى تحفيظ المعلومات للامتحان فيها آخر العام، بل الهدف منه طبع التلاميذ بالطابع الإسلامي عن طريق تعلمهم العلوم المختلفة بالإضافة إلى القرآن والسنة، كما أمرنا بذلك رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة**» (رواه ابن ماجه).

والطابع الإسلامي الذي يهدف إليه المنهج الإسلامي يتوفر في الشخصية المتزنة، العاملة، الإيجابية الفاعلة في الأرض، المفكرة المدبرة، المخططة، المسئولة المتحملة لتبعة

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ص ١٧٧.

أعمالها، الجريئة المقدامة، المستقلة امتثالا لقول الرسول ﷺ: «**لا يكن أحدكم إمعة، يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تظلموا**» (أخرجه الترمذي).

فالمنهج هنا- بكل مقوماته وعناصره- يهتم بتكوين الشخصية الإسلامية بطابعها المتميز. والتحصيل العلمي ما هو إلا جانب واحد من جوانب هذه الشخصية. وبالرغم من أهميته إلا أن الأهم منه هو كيفية الاستفادة بهذا العلم، وكيفية التصرف في الحياة العملية، وكيفية التعامل مع الناس والأحداث، وهذا يحتاج إلى تدريب عملي وخبرة مكتسبة بالإضافة إلى التحصيل النظري.

والعلماء الذين وصفهم الله بأنهم أكثر الناس خشية لله: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]، والموصوفون بأنهم ورثة الأنبياء، ليسوا هم حفظة العلم، فما أكثر الحفاظ وأقل العلماء! إنما العلماء هم العاملون بالعلم. الذين يستخدمون علمهم في تربية الآخرين. ويعطون في سلوكهم الواقعي ترجمة عملية لما يقولونه لطلابهم من أمور هذا الدين.

ولقد كان من أثر اتباعنا لمناهج الغرب البشرية أن شاع الاتجاه إلى تفضيل الأعمال والوظائف المكتبية على غيرها من الأعمال اليدوية.

أما الإسلام فهو يربي أبناءه على جميع ألوان العمل الجاد الهادف الذي يعين على عمارة الأرض بمقتضى منهج الله؛ ولذلك فهو يضع دستورا شاملا للعمل، هو جزء من منهج التربية الإسلامية وخاصة في مرحلة النضج. فهو يحث على العمل والإتقان فيه، ويكره الكسل والتراخي والفراغ: «**من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له**» (أخرجه الطبراني). ويقبل الرسول ﷺ يدا تورمت من كثرة العمل ويقول: «**هذه يد يحبها الله ورسوله**». وقد استعاذ عليه الصلاة والسلام بالله من علم لا ينفع.

وسواء كان العمل يدويا أو عقليا أو فنيا فإن الخبرة والمهارة فيه مطلوبة. فالمجتمع يحتاج إلى العامل الماهر، كما يحتاج إلى السياسي الماهر والمفكر المقتدر، كما يحتاج إلى المهندس الماهر، والطبيب الماهر، والمعلم الماهر. يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب المؤمن المحترف**» (أخرجه الطبراني والبيهقي). ويقول: «**لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي للجبل فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**» (أخرجه البخاري). ويدعو الرسول ﷺ إلى الإتقان في العمل الذي لا يتأتى للشخص إلا نتيجة للخبرة والمهارة، فيقول: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**» (رواه أبو يعلى والعسكري).



إن «العلم» في المنهج الإسلامي يقصد به المنهج العلمي، ولا يوجد في الإسلام إلا منهج علمي واحد ،وإن اختلفت تقنياته وأساليبه. فالعلم له رجلان هما النظرية والتطبيق أو التفكير والعمل بلا انفصال بينهما.

وبناء على هذه النظرية لا يوجد عالم «نظري» وآخر «عملي» أو تطبيقي. وليس هناك صراع بين النظريين والتطبيقيين. وليست هناك كليات «نظرية» وأخرى «عملية». فجميع الكليات تدرس «العلوم» ذات الجانبين النظري والعلمي. فكما نقول: كلية العلوم الهندسية، وكلية العلوم الطبية، يجب أن نقول: كلية العلوم الشرعية، وكلية العلوم الأدبية، وكلية العلوم الاجتماعية، وكلية علوم اللغة العربية، وكلية العلوم الإنسانية... إلخ. وبذلك نمحو الفوارق بين الكليات، وبين الخريجين، ونؤكد الاتجاه العلمي وهو أن لكل كلية جانبا نظريا وجوانب أخرى عملية لا تنفصم عن الجانب النظري.

ويجب أن نغير مسمى الشهادات؛ فـ «الإجازة الجامعية»؟ بدلا من «البكالوريوس» و«الليسانس»، و«العالية» أو «التخصص» بدلا من «الماجستير»، و«العالمية» بدلا من «الدكتوراه»...

إن الأمة الإسلامية عندما كانت تحافظ على هذا الدستور وعلى الروح الإسلامية الحقيقية، كانت أعظم الأمم إنتاجا، وأعظمها خبرة وإتقانا، فلما انحرفت عن مفهوم العمل هذا كما انحرفت عن غيره من المفاهيم ضعف الإنتاج وضعفت الأمة كلها.

### ٩- استثمار الطاقات والمواهب الفطرية بعد ضبطها وتوجيهها:

لقد اقتضت فطرة الله لتي فطر الناس عليها، أن يكون الإنسان مزودا بمجموعة من الطاقات والاستعدادات. واقتضت الفطرة أن تتجمع الطاقات لتبذل وتصرف في منصرفاتها الطبيعية. فإذا لم تبذل وتصرف تضمر، ويمرض الإنسان.

وحين نظن أننا ساعدنا إنسانا على حل مشكلاته، حينما وفرنا عليه الجهد الطبيعي الذي يجب أن يبذله، فإننا بذلك نكون قد خلقنا له مشكلة حقيقية؛ لأننا تسببنا في تخزين جهد فائض لا يجد منصرفه الطبيعي، فإما أن ينصرف في الفساد وهو الأرجح، وإما أن يترهل صاحبه ويمرض.. وكلاهما فساد.

ولقد خلق الله الجنس- ككل طاقة حيوية في كيان الإنسان- ليعمل ثم رتب وهيأ له في منهجه الإلهي من التشريعات والتنظيمات ما يحقق له أهدافه في أسلم وأنظف وضع، كطريقة الإسلام في كل شيء، وعلى هذا فالجنس ليس محرما في ذاته في الإسلام،،كما أن الإسلام لا يمارس أي لون من ألوان الكبت لهذه الطاقة.



إن الكبت- كما يقول فرويد الذي سعى إلى تلويث الدين بكل ما أوتى من جهد- «ليس هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي- فذلك مجرد «تعليق» للعمل- لكن الكبت هو استقذار الدافع الغريزي والشعور بأنه دنس لا ينبغي للإنسان أن يفكر فيه، فيكبته في اللاشعور. وهذا الكبت- بمعنى الاستقذار- يظل قائما في النفس ولو أتى الإنسان الفعل الغريزي في اليوم عشرين مرة! فلا علاقة له بالممارسة، إنما علاقته بالشعور»(١)، وعلى هذا فمجرد الامتناع عن إتيان العمل الجنسي ليس كبتا، بل هو تعليق للعمل الغريزي أو إرجاء له.

ومع التسليم بأن الكبت ينشأ من استقذار الدافع الغريزي، فإن الإسلام لا يستقذر الطاقة الجنسية في ذاتها، ومن ثم لا يكبتها ألبتة. إنما الذي يستقذره الإسلام ويستنكره هو جريمة الجنس، لما فيها من انتهاك للأعراض واعتداء على الحرمات.

وجريمة الجنس كغيرها من الجرائم كالسرقة والقتل، كلها دنس يستقذره الإسلام، لأنها مخالفة لشريعة الله ومنهجه، واعتداء على حقوق وحرمات الآخرين.

وإذا كان الجنس في الإسلام يتم في ستر عن العيون، فليس ذلك نتيجة استقذاره، ولكنه مقتضى الرفعة والتكريم الذي كرم الله به الإنسان أن لا يكون كالبهائم والسائمات: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وعلى هذا، فالجنس- كدافع من دوافع الفطرة، وكاستجابة واقعية لدافع الفطرة- لم ينكره الإسلام ولم يستقذره على الإطلاق. بل على العكس: انظر إلى قول الرسول ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**» (رواه أحمد والنسائي) وإلى قوله: «**وإن في بضع أحدكم لأجرا:** قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: **أرأيتم إن وضعها في حرام، أليس عليه فيه وزر؟ فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر!**» (رواه مسلم).

وهكذا، فالجنس كغيره من الدوافع خلقها الله لتعمل وتصرف في منصرفاتها الطبيعية لا لتكبت. بل إن الإسلام استنكر تحريمها وكبتها: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]. «**ما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم**

(١) محمد قطب: مرجع سابق، ص٢١٥ .



**وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني»** (أخرجه البخاري).

والإسلام لا يستقذر الجنس، ولكنه لا يطلق له العنان فيصير الإنسان عبدا لشهوته. بل يضبطه فيبيحه في الحدود التي شرعها الله، ويدعو إليه عندئذ ويشجع عليه: «**تناكحوا تكثروا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**» (رواه البيهقي).

ويضبطه فيجعله مشاعر مودة رحمة لا مجرد هياج بهيمي: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢١) ﴾ [الروم].

ويضبطه... فيجعل له تقيما هو عبارة عن إثارة للعواطف الإنسانية وتهيئة نفسية وشعورية، حتى لا يكون اللقاء دفعة جسد بلا عقل ولا روح: ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ..** (٢٢٣) ﴾ [البقرة].

ويتناول منهج التربية الإسلامية المسألة بجميع جوانبها: الأخلاقية، والاقتصادية والاجتماعية، والجسدية، والنفسية، والروحية. فهو يربي الطفل من البداية على حب الله وخشيته من ناحية، وعلى القدرة على الضبط والحسم من ناحية أخرى.

وعندما يفاجأ الفتى والفتاة بطاقة الجنس الدافعة، فإنهما يعتصمان بحب الله وخشيته وبقدرتهما على الضبط الذي تعوداه وتدربا عليه منذ الطفولة وبالإضافة إلى ذلك تستجد أمور تساعدهما على مزيد من الضبط. إذ تصبح الصلاة والصيام فرضا بعد أن كانت الصلاة عادة تبنى. هنا إذن إشعار للفتى والفتاة بالتكليف الحق من قبل الله، وبالتعرض الحق للثواب والعقاب.

وتصاحب الطاقة الجنسية الفوارة شحنة نفسية، هي رغبة الفتى أن يكون رجلا قويا ورغبة الفتاة أن تكون أنثى كاملة. وهنا يمسك المنهج الرباني بهذا الخيط، ويستخدمه استخداما جيدا في معالجة الطاقة الجنسية الدافعة. فيحاول أن يحقق الرغبة النفسية بكل الطرق والوسائل. ويضيف إلى التكاليف الشرعية بعض التكاليف والمسئوليات الدنيوية فيعطي الفتى والفتاة بعض المسئوليات في البيت وفي المجتمع ويعهد إليهما بما يستطيعان القيام به من الأمور. ويمد الفتى والفتاة بالمعلومات والمفهومات والمهارات والتدريبات التي تعين كلا منهما على ما هيئ له: الفتى في العمل وتحمل الأعباء في الخارج، والفتاة في تدبير وتنظيم البيت وتربية الأطفال.

ثم يلجأ المنهج إلى استثمار الفائض من الجهد والفائض من الوقت، فأما الفتى فيستغرق جهده الفائض ووقت فراغه في ألوان الرياضة المختلفة التي تضفي على الفتى مظهرا من مظهر القوة والفتوة. وأما الفتاة فتكلف بتدبير البيت ورعاية شئونه. وكل هذه الألوان من الأنشطة تعلم الإيجابية الواقعية، وتحقق الرغبة النفسية المصاحبة للفورة الجنسية الضاغطة فتخفف من وقعها وتستنفذ قدرا هائلا منها.

إن منهج التربية الإسلامية ينمي في عقل وروح الفتى والفتاة معايير محددة لاختيار كل منهما الآخر. فتقوى الله، وحسن الخلق، وحسن إدارة البيت وحسن التهيؤ للأمومة هي وسيلة الفتاة إلى الحصول على إعجاب الشاب. كما أن تقوى الله، وحسن الخلق، وحسن التفكير، وحسن التصرف في المواقف الواقعية والاتزان، والإيجابية الواقعية، كل هذه هي وسائل الشاب في الحصول على إعجاب الفتاة.

وبما أن الإنسان كل متكامل، فلا عجب أن تنطلق أيضا مع الطاقة الجنسية المتفجرة- بالإضافة إلى الشحنة النفسية- شحنة روحية، كي تضبط الطاقة الجنسية وتسيطر عليها.

وهذه الشحنة الروحية التي تتفجر في مرحلة البلوغ قد تأخذ صورة الفهم الصحيح لشريعة الله. وقد تجنح ببعض الشباب إلى مشاعر صوفية صافية لكنها سلبية، تأخذ بعض معاني الإسلام، لكنها تهمل أهم ما فيه: وهي الإيجابية الفاعلة في الأرض. ومهمة المنهج هنا هى توجيه هذه المشاعر الوجهة الصحيحة. وقد تأخذ هذه الشحنة الروحية صورة النزعة المتسامية إلى المثل العليا. وعلى المربي أن يستغل هذه النزعة بتحويلها إلى حقيقة واقعة. وقد تأخذ هذه الشحنة صورة التأمل الصامت الذي يشبه أحلام اليقظة. ومهمة المربي المسلم هي أن يشبع هذه الأحلام بمثل واقعية من سير الجماعة الأولى، فبذلك يلتقي المثال بالواقع.

لكن الإسلام لا يقصد بكل هذه الضوابط أن تكون بديلا للاستجابة الفطرية لطاقة الجنس. بل إنما كان ذلك كله تمهيدا للاستجابة الفعلية بعد الضبط والتنظيف؛ لذلك يدعو الإسلام إلى التعجيل بالزواج والتبكير فيه، ولا يقيم حاجزا واحدا أمام تنفيذه، ولا يجعل شيئا من الأشياء تحول دونه إلا في الظروف القهرية التي تستعصى على الحل. وهنا يستخدم مزيدا من الضبط: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴿٣٣﴾﴾ [النور] «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» (أخرجه مسلم).



تبدأ المواهب والاستعدادات في الظهور في مـرحلة البلوغ والمراهقة ثم يبدأ اعتزاز الشاب بها وتنميتها في مرحلة الشباب.

والإسلام حريص على تنمية المواهب والاستعدادات وتربيتها. فهو لا يكبتها لأنها هبـة من الله للإنسـان ينبـغي أن تُنمّى وتُستغل. وهو لا يـبددها لأن تبـديد الطاقـات والمواهب مخـالف لتعـاليم الإسلام نصا وروحـا، وإنما يوجههـا وجه الخيـر التي تنفع صاحبها وتنفع الناس.

والأصل في الإسـلام، أن الموهبة طاقـة لابد أن تبذل. فـإذا لم تبذل ضـمرت، وماتت. الموهبة يمكـن استخدامهـا في الخير، كما يمكن اسـتخدامها فـي الشر. فليست هناك موهبة خيرة بذاتها، ولا موهبة شريرة بذاتها. وإنما التربية والتوجيه اللذان تتلقاهما هما اللذان يجعلانها خيرة أو شريرة.

فالشـاب المسلم ذو الموهبة الفنية طاقـة ثمينة ينبـغي الحرص عليها وتـشجيعـها، وتنميـتها لخـدمة الشاب نفـسه ولخدمـة المسلمين على النحو الذي كـان رسول الله ﷺ يفعـله. فقد كـان يعرف كل مـوهبة من مـواهب أصحـابه، ثم يستـخدمـها في خـير مجالاتهـا. وكان يقرب إليه حـسان بن ثابت، ويشجعه، ويسـتحثه على قـول الشعر، ويقول له : «قل وروح القدس معك»(١) .

والإسلام لا يقر مـا يسمى «بالفن للفن»، فهذه صـيحة جاهليـة لا يقبلها. وإنما الفن لابد وأن يكون «ملتزما» بالدفاع عن إنسانيـة الإنسان الذي كرمه الله. وبيان الطريق الذي يتم به تحرير الإنسان من طواغيت الأرض، وعبادة الله وحده، وإقامة منهج الله في الأرض.

وبذلك يهدف منهج التـربية الإسلامية إلى تنمـية المواهب والاستعـدادات لتخدم غـاية الوجود الإنسـاني، ألا وهي العبـادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] والمقصود بالعبادة هنا، معناهـا الشامل الذي لا ينحصر في شعائر التعـبد كمـا صار في حس الأجيـال المتأخرة من المسلمين، بـل يشمل الحيـاة كلها بكل فكرها وشعورها وأعـمالها، كما فـهمت الأجيال الأولى من الصحـابة والتابعين. فهي تشـمل الخـلافة في الأرض، وعـمـارة الأرض على أسـاس القـيم والمبـادئ التي تليق بالإنسان، وعلى أساس إقامة الحق والعدل الإلهيين بين الناس. وباختصار، على أساس تطبيق منهج الله في الأرض.

---

(١) انظر : محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢٧٥ - ٢٧٨.



ثم يلجأ المنهج إلى استثمار الفائض من الجهد والفائض من الوقت، فأما الفتى فيستغرق جهده الفائض ووقت فراغه في ألوان الرياضة المختلفة التي تضفي على الفتى مظهرا من مظهر القوة والفتوة. وأما الفتاة فتكلف بتدبير البيت ورعاية شئونه. وكل هذه الألوان من الأنشطة تعلم الإيجابية الواقعية، وتحقق الرغبة النفسية المصاحبة للفورة الجنسية الضاغطة فتخفف من وقعها وتستنفذ قدرا هائلا منها.

إن منهج التربية الإسلامية ينمي في عقل وروح الفتى والفتاة معايير محددة لاختيار كل منهما الآخر. فتقوى الله، وحسن الخلق، وحسن إدارة البيت وحسن التهيؤ للأمومة هي وسيلة الفتاة إلى الحصول على إعجاب الشاب. كما أن تقوى الله، وحسن الخلق، وحسن التفكير، وحسن التصرف في المواقف الواقعية والاتزان، والإيجابية الواقعية، كل هذه هي وسائل الشاب في الحصول على إعجاب الفتاة.

وبما أن الإنسان كل متكامل، فلا عجب أن تنطلق أيضا مع الطاقة الجنسية المتفجرة- بالإضافة إلى الشحنة النفسية- شحنة روحية، كي تضبط الطاقة الجنسية وتسيطر عليها.

وهذه الشحنة الروحية التي تتفجر في مرحلة البلوغ قد تأخذ صورة الفهم الصحيح لشريعة الله. وقد تجنح ببعض الشباب إلى مشاعر صوفية صافية لكنها سلبية، تأخذ بعض معاني الإسلام، لكنها تهمل أهم ما فيه: وهي الإيجابية الفاعلة في الأرض. ومهمة المنهج هنا هى توجيه هذه المشاعر الوجهة الصحيحة. وقد تأخذ هذه الشحنة الروحية صورة النزعة المتسامية إلى المثل العليا. وعلى المربي أن يستغل هذه النزعة بتحويلها إلى حقيقة واقعة. وقد تأخذ هذه الشحنة صورة التأمل الصامت الذي يشبه أحلام اليقظة. ومهمة المربي المسلم هي أن يشبع هذه الأحلام بمثل واقعية من سير الجماعة الأولى، فبذلك يلتقي المثال بالواقع.

لكن الإسلام لا يقصد بكل هذه الضوابط أن تكون بديلا للاستجابة الفطرية لطاقة الجنس. بل إنما كان ذلك كله تمهيدا للاستجابة الفعلية بعد الضبط والتنظيف؛ لذلك يدعو الإسلام إلى التعجيل بالزواج والتبكير فيه، ولا يقيم حاجزا واحدا أمام تنفيذه، ولا يجعل شيئا من الأشياء تحول دونه إلا في الظروف القهرية التي تستعصى على الحل. وهنا يستخدم مزيدا من الضبط: ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور] «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» (أخرجه مسلم).



تبدأ المواهب والاستعدادات في الظهور في مرحلة البلوغ والمراهقة ثم يبدأ اعتزاز الشاب بها وتنميتها في مرحلة الشباب.

والإسلام حريص على تنمية المواهب والاستعدادات وتربيتها. فهو لا يكبتها لأنها هبة من الله للإنسان ينبغي أن تُنمّى وتُستغل. وهو لا يبددها لأن تبديد الطاقات والمواهب مخالف لتعاليم الإسلام نصا وروحا، وإنما يوجهها وجه الخير التي تنفع صاحبها وتنفع الناس.

والأصل في الإسلام، أن الموهبة طاقة لابد أن تبذل. فإذا لم تبذل ضمرت، وماتت. الموهبة يمكن استخدامها في الخير، كما يمكن استخدامها في الشر. فليست هناك موهبة خيرة بذاتها، ولا موهبة شريرة بذاتها. وإنما التربية والتوجيه اللذان تتلقاهما هما اللذان يجعلانها خيرة أو شريرة.

فالشاب المسلم ذو الموهبة الفنية طاقة ثمينة ينبغي الحرص عليها وتشجيعها، وتنميتها لخدمة الشاب نفسه ولخدمة المسلمين على النحو الذي كان رسول الله ﷺ يفعله. فقد كان يعرف كل موهبة من مواهب أصحابه، ثم يستخدمها في خير مجالاتها. وكان يقرب إليه حسان بن ثابت، ويشجعه، ويستحثه على قول الشعر، ويقول له : «قل وروح القدس معك»(١) .

والإسلام لا يقر ما يسمى «بالفن للفن»، فهذه صيحة جاهلية لا يقبلها. وإنما الفن لابد وأن يكون «ملتزما» بالدفاع عن إنسانية الإنسان الذي كرمه الله. وبيان الطريق الذي يتم به تحرير الإنسان من طواغيت الأرض، وعبادة الله وحده، وإقامة منهج الله في الأرض.

وبذلك يهدف منهج التربية الإسلامية إلى تنمية المواهب والاستعدادات لتخدم غاية الوجود الإنساني، ألا وهي العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] والمقصود بالعبادة هنا، معناها الشامل الذي لا ينحصر في شعائر التعبد كما صار في حس الأجيال المتأخرة من المسلمين، بل يشمل الحياة كلها بكل فكرها وشعورها وأعمالها، كما فهمت الأجيال الأولى من الصحابة والتابعين. فهي تشمل الخلافة في الأرض، وعمارة الأرض على أساس القيم والمبادئ التي تليق بالإنسان، وعلى أساس إقامة الحق والعدل الإلهيين بين الناس. وباختصار، على أساس تطبيق منهج الله في الأرض.

---

(١) انظر : محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢٧٥ - ٢٧٨.

### ١٠- إرشاد المتعلم إلى نوع العلوم التي تناسب طاقاته واستعداداته:

وإذا كان الرسول ﷺ يشجع المواهب ويرعاها، ويعرف كل موهبة من مواهب أصحابه ويستثمرها لصالح الإسلام والمسلمين. فإن هذا يعني ضرورة عناية منهج التربية الإسلامية بالمواهب والاستعدادات المختلفة.

فلقد رأى علماء التربية الإسلامية- وخاصة ابن سينا- ضرورة مراعاة ميول المتعلم واستعداداته وقدراته عند إرشاده إلى نوع العلوم التي تناسبه أساسا لتربيته وإرشاده. فقال: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه. وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة، ما كان أحد غفلا من الأدب وعاريا من صناعة، وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب، وأرفع الصناعات وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات يعلق عليها بشيء؛ ولذلك ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار صناعة، أن يزن أولا طبع الصبي، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك»[1].

وهكذا يرى ابن سينا أن من الواجب على القائمين على العملية التربوية، أن يبحثوا عما يناسب ميول المتعلم واستعداداته وقدراته من العلوم التي يرغب في التخصص فيها مستقبلا، فإذا كان يميل إلى دراسة العلوم النظرية وجه إليها، وإذا رغب في العلوم العملية شجع عليها. ولابد من إعطاء المتعلم الفرصة الكاملة لاختيار ودراسة ما يريد تحت إشراف معلميه. وقد أوصى الزرنوجي ألا يختار الطالب وحده المادة التي يريد أن يتخصص بدراستها، بل لابد وأن يشترك معه المعلم بما أوتى من خبرة وتجربة ومعرفة بالميول والاستعدادات الحقيقية للمتعلم[2]، وهكذا نرى ضرورة مراعاة أن تكون مواد المنهج ملائمة لدرجة النمو الفكري للمتعلم، ولميله واستعداده، ولدرجة نفعها له من النواحي العقلية والعملية والخلقية.

ويتفق هذا مع ما ذكره الفارابي في هذا الصدد في رسالته «السياسة» عندما قال في شأن المتعلمين إن: «منهم أولو الطبائع الرديئة، يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها في الشرور، فينبغي على المرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق، ولا يعلمهم شيئا من العلوم التي إذا عرفوها استعملوها فيما لا يجب، ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم

---

(١) محمد عطيه الإبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة ، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص١٩٠ - ١٩١ .

(٢) الزرنوجي: تعليم المتعلم، ج٣، ص١٦٣ .

وبراعتـهم، فينبـغي أن يحثـهم على ما هو أعـود عليهم ومنهم ذوو الأخـلاق الطاهرة والطبائع الجيدة، فيجب ألا يدخر عنهم شيئا مما عنده من العلوم»(١).

### ١١- الاهتمام بمنهج التفكير:

إذا كان الـعلم هاما في تنمـية الشـخصـية الإنسـانية، فـإن الأهم من العلم في الحقيقة، هو منهج التفكير؛ لأن منهج التفكير- إن صح- أدى إلى العلم الحقيقي، وإلى الثقافـة العميقة، و إلى الـنظام الشامل، وإلى حسن النظر في الأمور، ثم- باختـصار- إلى معرفة الله وتقواه.

وعندما كان المسلمـون مسلمين حقا، كانوا هم أهل العلـم، وأهل مناهج التفكير والتعلم. يقـول بعض المفكرين الغربيين- من المنصـفين-: «إن أهم ما تعلمـته أوربا من المسلمين في بدء نهضتها هو المنهج التـجريبي في البحث العلمي، الذي بنت عليه أوربا كل تقدمها العلمي فيما بعد.

والمنهج التـجـريبي في البـحث العلمي هو بلا ريب نتـاج الإسـلام والتـوجيـه الإسلامي للعـقل البشري. فـقد كان المنـهج- قبل المسلمين- هو منهج اليـونان العقلي الفلسفي، الذي يكتفي بالإثبات العـقلي وحده، ويعتبر القضية صـحيحة إن صحت في الذهن، بصرف النظر عن موضعها من الواقع! فجاء الإسلام بتوجيهاته وتطبيقاته فحول العلم إلى مجراه التجريبي الواقعي»(٢).

وإذا كان الإسلام هو مكتـشف المنهج التجريبي، فإن له منهجا عـقليا أيضا، هو المنهج العقلي المتجرد من هوى النفس المحـتكم إلى شريعة الله، وهو المنهج الذي أخرج تلك الثروة الهائلة من الفـقه الإسلامي وأصوله: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص].

وإذ كان إرسـال أبنائنا إلى الجامعـات الغربية لتـعلم المنهج التجـريبي في البحث العلمي ضرورة لا محيص عنهـا اليوم، إلى أن نسترد حاستنا العلمـية التي فقدناها حين فقدنا حـقيقة الإسلام في حـياتنا ونفوسنا، فإن واجب منهج التـربية الإسلام- على أي حال- هو العودة بالشباب إلى معـينهم الأصلي في تنمية منهج تفكيرهم، وذلك بالعوْدة إلى كتـاب الله، وكتب الفقه والأصـول. وحتى أولئك الذين يتعلمـون الطب والهندسة

(١) نقلهـا عنه، علي عبـد الواحد وافي وآخرون: أصـول التربيـة ونظام التعليم، الـقاهرة، مكتبـة الانجلو المصرية، ١٩٥٥، ص١١٢ .

(٢) محمد قطب، مرجع سابق، ص ٢٩٥.



والكيمياء والفيزياء والرياضيات وخلافه، هم في حاجة إلى أن يكون لديهم منهج فكري سليم(١).

فالمسلم يجب أن يتربى على تمحيص الحقيقة، وعدم التأثر بمقررات سابقة، ولا مقررات ذاتية لا برهان عليها، ولا بمجرد الظن: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴿٢٨﴾ ﴾ [**النجم**] وقال ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» (رواه البخاري).

إن المنهج العلمي للنظر العقلي دقيق دقة متناهية. فهو يحث العقل على طلب الدليل في كل اعتقاد: ﴿ **هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ** ﴿١٥﴾ ﴾ [**الكهف**] كما يوجه العقل إلى عدم التسرع في إصدار لأحكلم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴿٦﴾ ﴾ [**الحجرات**] وإلى عدم نشر ما سمع، قبل دراسة المختصين له، وإصدار الحكم عليه: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [**النساء**].

وهكذا فإن المسلم الذي يتربَّى على منهج الله وشريعته يكون في مأمن من الاستهواء بجانبيه العقلي والعاطفي على السواء؛ لأنه يملك المحك الذي يميز به بين الدعوات الحقة والدعوات الزائفة. كما أن المنهج العقلي الإسلامي يعين الشاب المسلم على التعرف على التيارات العالمية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون أن ينخدع بمظاهرها، وصورها الخادعة المقنعة؛ ذلك لأنه يملك المنهج الذي يبصره بحقائق الأمور.

### ١٢- تحقيق العدالة في التربية:

يتفق منهج التربية الإسلامية- بالطبع- مع مفاهيم الإسلام الرئيسية، كما يتفق مع طبيعة الفرد المسلم، وطبيعة المجتمع المسلم. فالمسلم حر في عمله وتصرفه وتفكيره وتدبيره، طالما لم تخرجه هذه الحرية عن اتباع منهج الله وقيمه الثابتة. وكذلك يكون المجتمع. وإذا كانت العدالة هي الميزان الذي يوزن به كل عمل وكل تفكير، وكل تدبير، وكل سلوك في الإسلام، فإن ذلك ينسحب على التربية أيضا. ولا تعني العدالة هنا أن يدرس الذكور والإناث منهجا واحدا، في مدرسة واحدة، فإن هذا مخالف لما توجه

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٥ - ٢٩٦ .

فطرة الله التي فطر الناس عليها، كما لا يعني هذا أن يـدرس الذكور جميعا نفس المواد دون اختلاف، وأن يدس البنات جميعا نفس المواد دون اختلاف.

وإنما على الجـميع أن يدرسـوا مجـمـوعة المواد اللازمـة لمعرفـة أصول الإسـلام وأحكامه بالقدر الذي يتناسب مع نموهم والمراحل التي يمرون بها، ثم يدرس الذكور من المواد ما يؤهلهم للرجولة، ويدرس البنات ما يؤهلهم للأمـومة، ثم يختار كل منهم بعد ذلك من المواد ما يراه مناسبا لمواهبه وقدراته واستعداداته.

ومناهج التربيـة الإسلاميـة لا تخضع لنظام طبـقي، فلا توجد مـدارس للأغنياء وأخـرى للفقـراء. وبالتـالي لا توجـد مناهج للأغنيـاء ولتخـريج من يريدون التـحكم والسيطرة عـلى المجتمع، كـما لا توجد مناهـج أخرى للفقـراء ولتخريج مـن يعملون بأيديهم في الحـقول والمزارع والمصانع وغـير ذلك. فـلا يوجد في الإسلام عـمل عظيم وعمل حقير، وإنما يوجد عامل عظيم وعامل حقير.. فالأول يؤدي عمله- أيا كان نوعه- بإتقان وإخلاص لوجـه الله، ونفع الناس. . . والثاني يؤدي عمله- أيا كان نوعـه- بغير إتقان ولا إخلاص لله.

والذكاء في الإسـلام ليس وقفا على الأغنيـاء، كما أنهم لم يوجدوا ليـحكموا. والغبـاء ليس من حظ الفقراء، كمـا أنهم لم يوجدوا ليستـعبدوا، فالذكـاء هبة من الله يمنحها لمن يشاء من عباده.

والأساس فـي الإسلام أن طلب العلم فـريضة على كل مـسلم ومسـلمة، فـهو فريضة تؤدي لخير الدنيا والآخرة. ومن هنا فلا بأس من أن تفرض الدولة المسلمة الإلزام في مرحلة معينة على كل طفل- ذكرا كان أو أنثى- بحيث ينتظم بها حتى نهايتها. على أن يتمكن كل طفل خـلال هذه المرحلة من معـرفة أصول الإسلام وقـواعده، ومعـرفة المفهومات والمهارات الأساسية في المواد المهمة الأخرى.

وعدالة توزيـع الفرص التعليـمية تقتضي أن يـكون التعليم بالمجـان، وأن تفتح المدارس والمعاهد الدراسية أمام الجميع لا فرق بين غني أو فقير، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين البنين أو البنات. ويجب أن تتضافر جـهود الموسرين من المسلمين مع الدولة في الإنفاق على التعليم، فقد وقف عليه الموسرون من المسلمين وحتى عهد قريب كثيرا من العقارات والأوقاف، وذلك كي يتـمكن الطلاب الفقراء من متابعة الدراسـة والاستمرار في طلب العلم، وكـان الإنفـاق على الطلاب الأذكـياء من أبناء الفـقـراء سنة من سنن التعليم كي يتعمقوا في الدراسة والبحث.



### ١٣- الاهتمام بإعداد الإنسان للحياة وفق منهج الله:

وكما عني منهج التربية الإسلامية بالنواحي الخلقية والروحية والعقلية والجسمية، فقد عنى، أيضا بالنواحي النفعية والإعداد للحياة الشاملة انطلاقا من حقيقة استخلاف الله للإنسان في الأرض من أجل عمارتها وترقيتها. فقد سبق أن رأينا أن الإسلام نظام شامل كامل وأن العبادة فيه تشمل كل دقائق الحياة وتفصيلاتها، وتنظيم جميع شئونها، وتضع القواعد لجميع مجالاتها. وعلى هذا، فإذا كانت الغاية الأسمى لجميع المناهج الإسلامية هي الغاية الخلقية، والوصول إلى الفرد «الفاضل» والمجتمع «الفاضل» فإن الفرد الفاضل والمجتمع الفاضل يلزمهما عمل، وجد، وسعي، وزراعة، وصناعة، وتجارة، ومهارة وتقدم. ومن هنا لم يهمل منهج التربية الإسلامية أهمية إعداد الفرد للحياة، بدراسة المهن والفنون والصناعات حتى يتمكن من كسب رزقه، ويحيا حياة شريفة. وهذا هو السبيل الحق إلى الحياة وفق منهج الله.

ومن هنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** .. ﴿٧٧﴾﴾ [القصص] وقال عليٌّ كرم الله وجهه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». وقد ذكر ابن سينا في رسالة السياسة أنه: «إذا اشتدت مفاصل الصبي، واستوى لسانه، وتهيأ للتلقين، ووعى سمعه، أخذ بتعليم القرآن، وصورت له حروف الهجاء، ولقن معالم الدين. وينبغي أن يروم الصبي الرجز ثم القصيد، فإن رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن؛ لأن بيوته أقصر، ووزنه أخف. ويبدأ من الشعر بما قيل في فضل الأدب، ومدح العلم، وذم الجهل، وعيب السخف، وما حث فيه على بر الوالدين، واصطناع المعروف، وقرى الضيف، وغير ذلك من مكارم الأخلاق... وإذا فرغ الصبي من تعلم القرآن، وحفظ أصول اللغة، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته، فوجه لطريقه. وليعلم مدرب الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، وأنه لو كانت كل الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة، إذا ما كان أحد غفلا من أدب أو عاريا من صناعة، وإذاً لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات... فلذلك ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبي، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعة بحسب ذلك، فإن ذلك أحزم في التدبير، وأبعد من أن تذهب أيام الصبا فيما لا يواتيه ضياعا»[1].

---

(١) على عبد الواحد وافي وآخرون: مرجع سابق، ص ١١٢-١١٣.

ولقد كان الإسلام نظاما شاملا للحياة، ولما كانت العبادة في الإسلام تشمل الحياة كلها، وتصل العبد بالله، أي أنها تصل السماء بالأرض في آن واحد، وتتغلغل في صميم الحياة الاجتماعية، وتنظيم جميع شئونها، وتضع القواعد لمختلف نواحيها- فإن منهج التربية الإسلامية يسير على نفس النهج، فيعد الإنسان للعيش في المجتمع وللمساهمة في عمارته وتقدمه. وفي هذا الاتجاه يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أحسنوا تربية أولادكم فإنهم سيعيشون عصرا غير عصركم»، فقد أدرك عمر ببصيرته النافذة أهمية أن تواكب مناهج التربية المتغيرات الحادثة في المجتمع، فلكل عصر تغيرات، وعلى التربية أن تعكس وتقود هذه المتغيرات لما فيه خير الفرد والمجتمع، وبما لا يتناقض مع القيم الثابتة في الإسلام.

ويقول عبد الملك بن مروان لبنيه: «يا بني تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم». ويقول مصعب بن الزبير لابنه: «تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا[1].

وقد امتدح أحد الشعراء المأمون بقصيدة قال فيها:

تشاغل الناس بالدنيا وزخرفها ... وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال المأمون: ويحك يا رجل، ما زدت على أن جعلتني عجوزا في محرابها ومعها مسبحتها!! هلا قلت كما قال جرير في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

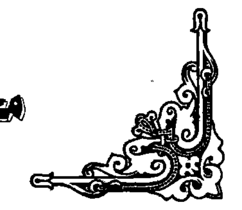
وهكذا نرى أن أصول منهج التربية الإسلامية قد انتظمت جميع الأهدف التي من شأنها أن تساهم في بناء الإنسان الصالح القادر على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وأن تربط الدنيا بالآخرة، والأرض بالسماء في آن واحد[2].

* * *

---

(١) المرجع السابق، ص١٩ .

(٢) انظر تفصيل الأهداف العامة لمناهج التربية في: كتاب: «المفاهيم الأساسية لمناهج التربية»، للمؤلف، مكتبة أسامة للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.



# الفصل السابع

# محتوى منهج التربية في التصور الإسلامي

## محتوى منهج التربية

إذا كان الهدف العام لمنهج التربية الإسلامية هو بناء الإنسان الصالح، المتصف بالتكامل، والاتزان، والإيجابية الفاعلة، والواقعية المثالية بناؤه كله، بجميع جوانبه الوجدانية، والعقلية، والجسمية، من أجل عمارة الأرض وتطبيق منهج الله فيها. نقول: إذا كان هذا هو هدف منهج التربية الإسلامية، فما المحتوى الذي من خلاله يتم تحقيق هذا الهدف؟ إن المحتوى هو مجموع الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة، والمعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة التي يمر بها المتعلم ويتفاعل معها، بقصد تحقيق أهداف معينة. وعلى هذا فكل الحقائق والمعايير والخبرات والمعارف والمفاهيم والمهارات التي تساهم في بناء الإنسان الصالح كله: وجدانه وعقله وجسمه، تعتبر هامة ويجب تضمينها في محتوى المنهج، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والشريعة الإسلامية بما فيها من شعائر وشرائع كل هذه مصادر لمحتوى المنهج. ولا شك أن ممارسة الشعائر المفروضة من صلاة وصيام داخل المدرسة، وممارسة السلوك الذي يتفق مع نص الإسلام وروحه يعتبر من المناشط التي تدخل ضمن محتوى منهج التربية في التصور الإسلامي.

### مصادر المحتوى:

١- إن القرآن هو المصدر الأول لمحتوى منهج التربية الإسلامية، فهو مجال التربية الأول، وخاصة حين يتلقاه المتعلمون بقلب متفتح فتستقر في قلوبهم الشحنة المقدسة التي أودعها الله فيه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] ثم تأتي بعد ذلك سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية، ثم إجماع فقهاء الأمة، ثم اجتهادات أهل الذكر والخبرة من علماء ومفكرين.

٢- إن الكون كله كتاب مفتوح ينهل منه منهج التربية الإسلامية. فتدبر نواميس الكون التي تجري في دقة عجيبة ونظام لا يختل من أهم المجالات التي يحتويها هذا

المنهج. ولا يقل ذلك أهمية حاجات المتعلم ومطالبه في المرحلة التي يمر بها، وكذلك حاجات المجتمع الإنساني المحلي والعالمي ومطالبه المشروعة.

ومن هنا فإن منهج التربية الإسلامية يوجب على المتعلمين في جميع المراحل وعلى جميع المستويات قراءة القرآن وتدبر آياته، مع مراعاة اختيار المحتوى المناسب لكل من المستويات التعليمية المختلفة(١).

## طريقة اختيار المحتوى

إن المناهج العلمية الموضوعية هي التي تسبقها دراسات ميدانية للتعرف على نوعية المتعلمين وحاجاتهم ومطالبهم ومشكلاتهم وبالتالي يمكن للقائمين على وضع هذه المناهج اختيار المحتوى المناسب لمقابلة هذه الحاجات وعلاج هذه المشكلات.

وللوقوف على طبيعة المتعلم قبل اختيار المحتوى المناسب له، يرى علماء التربية أن هناك طرائق ثلاثا للوصول إلى هذه الغاية:

**أولا - طريقة المسح**: ويقصد بها عمل دراسات موضوعية ميدانية على الطلاب بقصد الوقوف على حاجاتهم ومشكلاتهم، ومطلب نموهم التي يمكن أن يساهم المنهج المزمع تصميمه وتنفيذه في علاجها. ففي القراءة- مثلا يمكن عمل استبانة أو بطاقة ملاحظة وتطبيقها على عينة ممثلة لطالبات المرحلة الثانوية للوقوف على ميولهن واتجاهاتهن في القراءة ومراعاة ذلك في محتوى المنهج.

**ثانيا - طريقة التحليل**: ويقصد بها تحليل المادة المراد تصميم وتنفيذ منهج لها إلى مجموعة المفهومات والحقائق، والمهارات والمعلومات الأساسية والمساعدة، واختيار ما يتناسب منها مع نوعية المتعلمين ومطالب نموهم وحاجاتهم ومشكلاتهم. وبالتأكيد على ذلك في المنهج المزمع وضعه. ففي القراءة- مثلا- هنا مهارات النظر، ومهارة الاستبصار التي تشمل الفهم، والتطبيق والتحليل والتفسير والنقد، والتقويم وهناك القراءة للتذوق، والقراءة لجمع المعلومات والبيانات، والقراءة لحل المشكلات الشخصية والاجتماعية، وكل منهج من مناهج القراءة يختار من هذه الأنواع ما يتناسب مع نوعية وطبيعة المتعلم الذي يوضع له المنهج.

**ثالثا - طريقة الخبير**: والخبير أو الخبراء هم أشخاص متخصصون في المادة وطرق تدريسها، ويتم اللجوء إليهم عند وضع منهج لهذه المادة في أي مستوى تعليمي.

---

(١) انظر: المنهج المقترح لدراسة القرآن الكريم في مراحل التعليم العام، في كتاب المؤلف «المفاهيم الأساسية لمناهج التربية».



والخبراء عادة ما يلجأون إلى خبرتهم في مجال المادة وطرق تدريسها في وضع منهج هذه المادة واختيار محتواها المناسب لطبيعة المتعلمين، وهذه هي الطريقة المعتمد عليها غالبا في وضع المناهج في معظم أقطار العالم العربي، وذلك هو أحد أهم أسباب قصور معظم مناهج اللغة، والفشل في تعليمها وتعلمها.

والحقيقة أنه لا بديل عن الاعتماد على الطرائق الثلاث السابقة في اختيار محتوى المناهج، فطريقة المسح تمكننا من الوقوف على طبيعة المتعلمين وحاجاتهم ومطالب نموهم ومشكلاتهم الخاصة، ومشكلات مجتمعهم. وطريقة التحليل تمكننا من الوقوف على طبيعة المادة المزمع وضع منهج لها. ولابد من أن يتم كل عن طريق الخبير المتخصص في المادة، ومناهجها وطرق تدريسها. فالخبرة العملية والميدانية بالتضامن مع الخبرة النظرية الأكاديمية ضروريتان في وضع منهج مناسب من جميع الجوانب.

## ليس في الإسلام علوم للدين وعلوم للدنيا

إن كل علم يُصَمَّمُ ويُدَرَّس على أساس أن يساهم في بناء الإنسان المسلم القادر على المشاركة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله - هو علمٌ دينيٌ من وجهة نظر الإسلام. يستوي في ذلك علوم الشريعة، والعلوم الحديثة، كالرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، وعلوم التقنية الحديثة... إلى آخره.

وقد قرر هذه الحقيقة كثير من المفكرين المسلمين الفاهمين لنص الإسلام وروحه. فمثلا، يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «وفي الحقيقة أن تقسيم العلوم إلى (دينية) وأخرى (دنيوية) يقوم على أساس نظرية الفصل بين الدين والحياة. وتعتبر مثل هذه النظرية متعارضة تعارضا تاما مع الإسلام الحنيف. ذلك أن الدين في نظر الإسلام ليس شيئا منفصلا عن الحياة. وعلى هذا فإن اعتبار العالم مِلْكٌ (لله) تبارك وتعالى، واعتبر الناس فيه عبادا لله، يحيون وفق مشيئته، وحسب تعاليمه، لهو (الدين) بمعناه الصحيح، وهو في نفس الوقت الأساس الذي تقوم عليه الشريعة الإسلامية. وهكذا فإن مثل هذا التصور للحياة البشرية على هذه الأرض يؤدي إلى تحويل جميع العلوم (الدنيوية) إلى علوم (دينية). أما تقسيم العلوم إلى قسمين: قسم (ديني) يدرس من وجهة النظر الإلهية، وآخر (دنيوي) يدرس من وجهة النظر الأخرى المقابلة يفضي بأجيالنا إلى الاعتقاد بأن الدين شيء والحياة شيء آخر، وأن كلا منهما يسير في مجرى لا صلة له بالآخر. وهكذا يصبح التوفيق بينهما بغية إخراج الجماعة المؤمنة التي يريدها القرآن

الكريم إذ يقول: ﴿ .. ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً .. ﴿٢٠٨﴾ ﴾ أمرا صعبا للغاية بالنسبة لهذه الأجيال»(١).

إن العلوم الحديثة لا يجب تدريسها بالحالة التي هي عليها كما وردت إلينا من الغرب، وإنما يجب إعادة صياغتها بعد تخليصها من أوشابها وما قد يكون كامنا في ثناياها من نظريات وفلسفات عن الألوهية والكون والإنسان، والحياة- بحيث تحقق أهداف منهج التربية الإسلامية.

أما إذا أضفنا هذه العلوم إلى منهج التربية الإسلامية بالحالة التي أتينا بها من الخارج فإنها سوف تهدم- دون شك- في نفوس الناشئة وعقولهم كل ما تبنيه علوم الشريعة من عقائد وقيم، وسوف تعمل ضد كل تفسير إسلامي للكون والحياة والسلوك الإنساني.

ويلقي الأستاذ أبو الأعلى المودودي مزيدا من الإيضاح على هذه النقطة فيقول: «إننا بتعلمينا التاريخ، والجغرافيا، وعلوم الطبيعة والفيزياء، وعلوم النبات والحيوان، وعلم طبقات الأرض، والفلك والاقتصاد والعلوم السياسية، وسائر العلوم الحديثة الأخرى بطريقة ليس (لله) فيها أثر أو نصيب فلن نتوقع أن تبدوا في حياة الناس أية علاقات تدل على احترامهم لشرائع الله أو إذعانهم لمشيئته. إن القوانين التي تتحكم في الطبيعة لا تفسر في ظل هذه الطريقة على أساس أنها قوانين تنظمها قوة الخالق المبدع، ولا ينظر إلى الأحداث الكونية الكبرى على أنها مظاهر لإرادة الله -سبحانه وتعالى- من ملكوته. أما مشاكل الحياة ومعضلاتها فتحل دون السماح للحلول التي قدمتها الشريعة السماوية أن تؤدي وظيفتها في حلها. وهكذا لا يصبح ثمة مجال لرأي الأديان في بدء الكون ونهاية العالم أن تجد لها مكانا في كتاب الحياة.

«إن مجموعة العلوم التي تنصب في عقلية الطالب الحديث خليقة- والحالة هذه- أن تخلق في ذهنه تصورا للحياة خاليا من كل أثر المقدرة الإلهية فيها؛ لأن كل شيء يقدم إليه دون الإشارة إلى هذه القدرة التي خلقت كل شيء وأحسنت خلقه. فليس من الغرابة في شيء بعد ذلك أن يسلك في حياته العملية مسالك ليس للدين فيها نصيب... لكن الطالب ينصت من آن لآخر لصوت (الله) من ضميره وفي فطرته

---

(١) أبو الأعلى المودودي: مرجع سابق، ص٢٣ . وانظر أيضا: إسحق أحمد فرحان وزملاؤه نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م- ص٥٠ - ٥١ .



ويتعلم شيئا من الكتب السماوية عن بدء الخليقة ونهاية العالم، ولكنه يجد نفسه في حيرة أين يضع (الله) من هذه العلوم التي تقدمها له برامج التعليم اليوم. وقد يدفعه الشك الذي تنمي بذوره العلوم الحديثة إلى أن يطلب إثبات الله ثم يتطرف إلى مناقشة مسألة (الوحي)، وهل الإيمان به ضرورة أم لا؟. وبعد أن يكد الذهن في الاهتداء للحقيقة وتقبلها يظل على حالة من الحيرة والقلق، كيف يستطيع التوفيق بين العلوم الحديثة التي تعلمها وبين ما يقدمه الدين من نظريات عن الكون والحياة. ومهما يكن إيمانه بالله قويا، واحتماله بعقيدته راسخا لا يتزعزع، فإن الدين يظل في معزل عن حياته لا يؤثر فيها، ولا يهيمن عليها كما ينبغي»[1].

إن الفصل التعسفي بين علوم الشريعة، على أنها علوم للدين، وبين العلوم الحديثة على أنها علوم للدنيا، قد أحدث كثيرا من المتاعب التي تعاني منها الأجيال الحديثة، وهذا الفصل لا يقره الإسلام على الإطلاق. لكن الواجب على المسلمين أن يعيدوا صياغة العلوم الحديثة: كما سبق أن ذكرنا، بحيث تتعاون مع بقية مواد المنهج على تحقيق أهداف منهج التربية الإسلامية، «وتحقيق أهداف الحياة السعيدة للمجموعة البشرية وفق تعاليم السماء»[2].

**العلوم وقواعد تلقيها:**

على أن هناك قاعدتين لا يجوز لواضع منهج التربية الإسلامية تجاوزهما في كل الظروف والأحوال:

**القاعدة الأولى:** أن الإسلام «لا يتسامح أن يتلقى (المسلم) أصول عقيدته ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه، ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره... من مصادر غير إسلامية. ولا أن يتلقى -في كل هذا- عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه».

هذا ما يؤكده الأستاذ سيد قطب. وهو يضيف إلى ذلك قوله: «ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأيا لي أبديه... فالأمر أكبر من أن يُفتى فيه بالرأي، وأثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأي.. إنما هو قول الله- سبحانه- وقول نبيه ﷺ نحكّمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله وإلى الرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله وإلى الرسول فيما اختلفوا فيه. إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ص -٢٣ ٢٤ .

(٢) المرجع السابق، ص٢٤ .

(٣) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

يقول الله -سبحانه- عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران].

كذلك يرد الأمر قاطعا بالأعراض عمن يتولى عن ذكر الله، ويقصر اهتمامه على شئون الحياة الدنيا. ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النجم].

**القاعدة الثانية:** أن المصدر الوحيد الذي يجب على واضع المنهج التلقي عنه في هذه الأمور هو هدى الله المتمثل في القرآن، ثم السنة، ثم إجماع فقهاء المسلمين، ثم الاجتهاد في ضوء روح الإسلام ونصوصه الثابتة. وتحددت هذه القاعدة في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ..﴿١٢٠﴾ ﴾. فليس وراء هدى الله إلا الضلال. وليس في غيره هدى، كما تفيده صيغة القصر الواردة في الآية.

وفي ضوء القاعدتين السابقتين، نتناول أهم العلوم ومجالات الدراسة بشيء من التفصيل فيما يأتي.

### الفلسفة والتصوف:

الفلسفة هي تصور للكون والإنسان والحياة، ولطبيعة العلاقات والارتباطات بينها. وأول ما عرفه المسلمون هو فلسفة أفلاطون وأرسطو. وكان لهذه الفلسفة أثرها على العقل الإسلامي؛ لأنها أخرجت لنا «فلاسفة مسلمين» درسوا الفلسفة اليونانية وتشربوها وعملوا على منوالها «فلسفة إسلامية» تقوم على أساس يوناني. ومن «الفلاسفة المسلمين» الكندي في القرن الثالث الهجري، والفارابي وإخوان الصفا في القرن الرابع الهجري، وابن سينا في القرن الخامس الهجري.

ولقد ظهر التصوف الإسلامي أول ما ظهر في أواخر القرن الثاني للهجرة، كثورة للضمير على واقع الحياة، يتميز أصحابه بانقطاعهم للعباة (الصلاة والصيام والقيام. والذكر والتسبيح... إلى آخره). والعزوف عن الملذات والشهوات الدنيوية. وقد تطور التصوف من اعتماد على السلوك العملي وبعد عن الملذات إلى علم لما يجري للقلوب؛ فكان علم التصوف طريقا للوصول إلى المعرفة عن طريق القلب بعد تنقيته من الشوائب، وعن طريق النفس بعد تجردها من لذاتها. كما كانت الفلسفة تهدف أيضا للوصول إلى المعرفة عن طريق العقل.

ولقد كان الغزالي من علماء المسلمين الذين تأثروا بالتيار الفكري الصوفي في القرن الخامس الهجري، وأصبح واحدا من أهم أعضائه مدافعا عنه، مهاجما للتيار الفلسفي، مؤلفا فيه، واضعا لنظرياته. والحقيقة أن من يقرأ موضوع «الطبيعة الإنسانية» عند الغزالي يدرك التشابه القوي بينه وبين فكرة أفلاطون في نفس الموضوع[1].

وقد كره معظم المفكرين المسلمين الفلسفة لأنها تقوم على منظومة حضارية تختلف بل وتتناقض مع منظومة الحضارة الإسلامية. فقد أنكر بعض الفلاسفة بعض المعتقدات الأساسية التي يقوم عليها النظام الإسلامي، وأنكر بعضهم الآخر حدوث العالم، وأنكر آخرون النبوة والملائكة، كما أن الأساس الذي تبنى عليه الفلسفة وهو العقل لا يتفق، بل قد يتعارض، مع الأساس الذي يبني عليه الدين وهو الإيمان بالله الواحد، والإيمان بأن الحاكمية لله وحده، والإيمان بكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

أما التصوف بمعنى الانقطاع عن البشر، والاعتكاف بعيدا للعبادة؛ بمعنى إقامة الشعائر المعروفة في عزلة عن الحياة والأحياء، فهذه عبادة سلبية كرهها الإسلام أيضا، لأن العبادة بمفهومها الشامل، هي العمل، والسعي، وبذل الجهد مع أجل المساهمة في عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. وأفضل العبادات على الإطلاق هي التي تقع من الإنسان بينما هو يكد ويكدح في عمله متجها في كل الأحوال إلى الله. إن هذا الإنسان عابد لله أينما كان، وحيثما كان. لا بأس- بالطبع- من أن يعتكف الإنسان بعض الوقت من أجل التفكر والتدبر وجمع شتات النفس والعقل والجسم معا لمواجهة الحياة والسعي فيها. أما أن يصير هذا أسلوب حياة مستمر، فإن هذا يكون سلبية، وهروبا، وانسحابا، وبالتالي إخلالا بمسئولية استخلاف الله للإنسان في الأرض.

«والتصور الإسلامي الصحيح لا يلتمس عند ابن سينا أو ابن رشد أو الفارابي وأمثالهم ممن يطلق عليهم وصف «فلاسفة الإسلام» ففلسفة هؤلاء إنما هي ظلال

(١) انظر: محمد لبيب النجيحي: في الفكر التربوي، ط٢، دار النهضة العبية، بيروت ١٩٨١، ص٨٥-٨٧.

للفلسفة الإغريقية، غريبة في روحها عن الإسلام. وللإسلام تصوره الأصيل الكامل، يلتمس في أصوله الصحيحة؛ القرآن والحديث، وفي سيرة النبي ﷺ وسنته العملية. وهذه الأصول هي حسب أي باحث متعمق ليدرك تصور الإسلام الكلي الذي يصدر عنه في كل تعاليمه وتشريعاته ومعاملاته»[1].

إن هذا لا يعني أبدا عدم التعرض لهؤلاء المفكرين المبرزين بالبحث والدراسة، فهؤلاء قد أثروا الثقافة الإسلامية والعربية، بل والثقافة الإنسانية كلها بأفكارهم وعلومهم وفنونهم. لكن الذي أقصده هنا هو بالتحديد أننا عندما نريد تأصيل فكرة أو جزئية في المنظومة الإسلامية فإننا يجب علينا أن نتجه مباشرة إلى أصل النظام كله، وهو القرآن الكريم والسنة القولية والعملية للرسول عليه الصلاة والسلام.

**علوم الشريعة:**

إن علوم القرآن والسنة وأصول الفقه يجب أن تحتل مكانها الحاكم في محتوى منهج التربية الإسلامية. ولا أعتقد أنني أتجاوز إذا قلت إن هذه العلوم يجب أن تحل محل الدراسات الفلسفية حيثما كانت. إن دراسة الفلسفات الغربية في مدارسنا وجامعاتنا قد وجه السلوك الإنساني في المجتمعات الإسلامية، العربية منها وغير العربية وجهة خاطئة، أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها وجهة منحرفة تماما عن الإسلام نصا وروحا.

ولقد أثمر ذلك ثمارا مرة على مستوى الفرد والجماعة، فمعظم مجتمعات الأمة الإسلامية تتجه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا إلى النظم العلمانية مبتعدة بذلك عن منهج الله، ومعظم جماعات الشباب والمثقفين يستشهدون بأقوال أفلاطون، وأرسطو، وكانت، وديكارت، ورسو، وجون ديوي، أكثر من استشهادهم بآيات الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن دراسة علوم القرآن والسنة وعلوم الفقه على شكل جزئيات منفصلة وقضايا مفكوكة لا يجمع شتاتها جامع، قد أدى إلى كثير من السلبيات. إننا يجب أن ندرس هذه العلوم للشباب على صورة «نظم» أو «مناهج» كنظام الأسرة، ونظام الحكم، ونظام المال، ومناهج التربية... إلخ. إننا تحت «نظام الأسرة يمكن أن نحكم الحديث عن الزواج والطلاق، والإرادة الحرة، والولاية والكفاءة، والنفقات، والمواريث.. إلخ، وتحت «نظام الحكم» يمكن أن نحكم الحديث- كما يقول الشيخ محمد الغزالي-: عن اختيار ولي الأمر، والشورى، وأهل الحل والعقد وأهل الذكر، والعدالة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ. إن دراسة هذه الأمور مبعثرة لا يؤدي إلى فهم المعالم الكلية والإطار العام لمنهج الله للحياة.

---

(1) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠ .

**الرياضة البدنية:**

إن الرياضة بصفة عامة، والفروسية، والرماية والسباحة والتسابق، بصفة خاصة، كلها تكون جزءا هاما من محتوى منهج التربية الإسلامية، الذي يقصد إلى تربية الجسم ورياضته على احتمال المشاق، والصبر والجهاد في سبيل تقدم الحياة ورقيها، وتوفير الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق الاستمتاع بها، وتحقيق الجمال في الأداء الذي يتمثل في إحسان الأداء لا مجرد الأداء.

ويبدو أنه لابد من وقفة أطول في موضوع الرياضة البدنية في منهج التربية الإسلامية، فقد يظن البعض خطأ أن الإسلام نظام لا يشجع الرياضة ولا يحث عليها، وهذا غير صحيح للأسباب الآتية:

١- أن المؤمن لابد أن يكون قويا، «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»، ولاشك أن القوة المقصودة هنا هي القوة الشاملة، القوة الروحية، والقوة العقلية، والقوة الجسمية؛ وقوة الإيمان والعقيدة في النفس.

٢- والقوة الجسمانية للمؤمن- إضافة إلى أنواع القوى الأخرى- مطلوبة لأنها تعين المسلم على القيام بحق استخلاف الله له في الأرض، فالله جعل الإنسان خليفته في الأرض ليعمرها ويرقيها ويستخرج كل كنوزها وثرواتها، ويستغل كل طاقاتها لخير نفسه وخير البشرية جميعا. وهذا يتطلب- دون شك- أن يكون الإنسان قويا في بنيانه الجسدي، حتى يكون قادرا على العمل، بل وعلى حسن الأداء في «العمل» «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**».

٣- إن عمارة الأرض وفق منهج الله يتطلب من الإنسان العمل وبذل الجهد ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق] ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴿٤﴾﴾ [البلد]. فالعمل وبذل الجهد- إضافة إلى العلم والعدل- هما السبيل إلى عمارة الأرض. فالإسلام يجعل العمل وبذل الجهد هما أساس التملك، وهما أساس الكسب، فالقاعد لا يجب أن يكسب شيئا، ولذلك حرم الإسلام الربا؛ لأنه مال يجلب مالا، بينما صاحبه قاعدا يستغل نتائج طاقات الآخرين وجهودهم. فالعمل والجهد يستلزمان وجود الطاقة، والطاقة توجد لدى الإنسان القوي جسميا وعقليا وروحيا.

٤- ولأن الإسلام يقدر تقديرا عظيما قيمة القوة الجسدية لدى المسلم، فإنه كان حريصا على منع المسلم من أن يصير ضعيفا، لينا، رخوا، فهو يكره الطراوة والنعومة والميوعة في الإنسان المسلم؛ ولذلك كان الرسول ﷺ يحب لكل مسلم أن يخرج ولو لمرة واحدة في الجهاد في سبيل الله: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق**» (رواه مسلم وأبو داوود والنسائى)؛ ولذلك أيضا حرص الإسلام على منع الإنسان المسلم من أن يصل إلى حد الترف؛ فالترف يقتل الرغبة في العمل وبذل الجهد ويؤدي بالإنسان وبالمجتمع إلى التدهور والفناء، كما سبق أن رأينا، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا**[1] **مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴿١٦﴾﴾[الإسراء]. ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

وهكذا نرى الإسلام إنما يحبذ ضرورة تربية الجسم رياضيا كي يكون الإنسان قويا في أداء مهمته التي كلفه الله بها، وهي الجهاد في سبيل الله، ومحاربة طواغيت الأرض، وبذل الجهد والعمل في عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله وشريعته.

لكن الذي حرمه الإسلام هو تربية الأجساد من أجل الاستعراض وإبراز قوة العضلات التي تهدف إلى كسب المال من وراء إثارة الغرائز والشهوات حول قوى الجسد البشري. وكذلك حرم الإسلام استعراض جمال الأجساد والتركيز على مفاتن جسد المرأة فيما يسمى باسم «حفلات اختيار ملكات الجمال في العالم» وغير ذلك من أسواق تجارة الرقيق في جاهليتنا المعاصرة. إن التربية الرياضية والبدنية التي تهدف إلى هذا هي تلك التي حرمها الإسلام قطعا. وتربية الأجساد من أجل إقدار الفرد على البغي والعدوان على حقوق الآخرين وأملاكهم وأعراضهم تلك هي التي حرمها الإسلام قطعا.

**الفن والأدب:**

إن الأدب هو تعبير فني جميل عن المعاني والأفكار والأشياء والأحداث، نابع من التصور الإسلامي للكون، والإنسان والحياة، ولطبيعة العلاقات والارتباطات بينها[2].

والأدب- كما يقول الأستاذ سيد قطب: «هو التفسير الشعوري للحياة، وهو منبعث من المنبع الذي تصب فيه جميع الفلسفات والديانات والتجارب والمؤثرات في بيئة

(١) أمرنا هنا بمعنى: أكثرنا.

(٢) علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٤، ص٥٣ .



من البيئات. ولقد يكون الأدب أشد المؤثرات في تكوين فكرة وجدانية عن الحياة، وفي طبع النفس البشرية بطابع خاص، ومن هنا يجب أن يكون لنا أدب نابع من التصور الإسلامي»[١].

«والأدب- كسائر الفنون- تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان. هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس، ومن بيئة إلى بيئة. ومن عصر إلى عصر ولكنها في كل حال تنبثق من تصور معين للحياة، والارتباطات فيها بين الإنسان والكون، وبين بعض الإنسان وبعض»[٢].

ومن العبث محاولة تجريد الأدب أو الفنون عامة من القيم التي تحاول الذود عنها. كذلك من العبث محاولة فصل تلك القيم عن التصور الكلي للوجود والحياة. ولو أفلحنا في هذا الفصل- وهذا مستحيل- فلن نجد سوى عبارات خاوية، أو جوفاء، أو أصوات غفل، أو أشكال بلا معنى.

وسوف نقتبس الفقرات التالية للمرحوم الأستاذ سيد قطب عن علاقة الفن والأدب بالتصور الإسلامي، فيقول: «والإسلام تصور معين للحياة، تنبثق منه قيم خاصة لها، فمن الطبيعي إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم، أو عن وقعها في نفس الفنان، ذا لون خاص»[٣].

«وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة، تملأ فراغ النفس والحياة، وتستنفد الطاقة البشرية في الشعور العمل، في الوجدان الحركة، فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة، ولا للتأمل الضائع الذي لا ينشئ سوى الصور والتأملات».

«وأبرز ما فيه هو الواقعية العملية حتى في مجال التأملات والأشواق، فكل تأمل هو إدراك أو محاولة لإدراك طبيعة العلاقات الكونية أو الإنسانية وتوكيد الصلة بين الخالق والمخلوق، أو بين مفردات هذا الوجود. وكل شوق هو دفعة لإنشاء هدف، أو لتحقيق هدف، مهما علا واستطال».

«وقد جاء الإسلام لتطوير الحياة وترقيتها، لا للرضى بواقعها في زمان ما أو في مكان ما، ولا لمجرد تسجيل ما فيها من دوافع وكوابح، ومن نزعات وقيود، سواء في فترة خاصة، أو في المدى الطويل».

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق.
(٣) انظر، المرجع السابق، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.



«مهـمة الإسـلام دائما أن يدفع بالحـياة إلى التـجدد والنمو والتـرقي، وأن يدفع بالطاقات البشرية إلى الإنشاء والانطلاق والارتفاع».

«ومن ثم فالأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامي للحياة، قد لا يحفل كثيرا بتصوير لحظات الضعف البـشري، ولا يتوسع في عرضها، وبطبيـعة الحال لا يحاول أن يبـررها، فضـلا عن أن يزينهـا بحجـة أن هذا الضـعف واقع، فلا ضـرورة لإنكاره أو إخفائه».

«إن الإسلام لا ينكر أن في البـشرية ضعـفا، ولكنه يدرك كذلك أن في البـشرية قوة، ويدرك أن مهمته هي تغليب القـوة على الضعف، ومحاولة رفع البشرية وتطويرها وترقيتها، لا تبرير ضعفها أو تزيينه».

«والنظرة الإسلامـية لا تؤمن بسلبية الإنسـان من هذه الأرض، ولا بضآلة الدور الذي يؤديه في تجـديد الحيـاة وترقيـتهـا. ومن ثم فالأدب أو الفن المنبـثق من التـصور الإسلامي لا يهـتف للكائن البشـري بضعفـه ونقصه وهبـوطه، ولا يملأ فراغ مشـاعره وحيـاته بأطياف اللذائذ الحسـية، أو بالتشـهي الذي لا يخلق إلا القلق والحيرة والحـسد والسلب إنما يهتف لهذا الكائن بأشواق الاستعلاء والطـلاقة، ويملأ فراغ حياته ومشاعره بالأهداف البشرية التي تجدد الحياة وترقيها، سواء في ضمير الفرد أو في واقع الجماعة».

«كذلك ليسـت وظيفة هذا الأدب تزوير الشخـصية الإنسانية أو الـواقع الحيوي، وإبراز الحيـاة البشرية في صـورة مثالية لا وجـود لها. هو الصدق في تصـوير المقدرت الكامنة أو الظاهرة في الإنسان، والصـدق كذلك في تصوير أهداف الحيـاة اللائقة بعالم البشر، لا بقطيع من الذئاب».

«الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسـلامي أدب أو فن موجه باتجاه أن الإسلام حركة تجديد وترقية مستمـرة للحياة، فهو لا يرضى بالوقع في لحظة أو جيل، ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع؛ فمهـمته الرئيسية تطهيـر هذا الواقع وتحسينه، والإيحاء الدائم بالحركة الخالقة المنشئة لصور متجددة من الحياة».

إنه لمن الأهمـيـة بمكان «أن نقـرر هـنا أن الأدب أو الفن الإسـلامي أدب أو فن موجه. موجه بطبيعة التصور الإسلامي للحـياة وارتباطات الكائن البشري فيها، وموجه بطبيـعة المنهج الإسلامي ذاتـه، وهي طبيعـة حركيـة دافعة للإنشـاء والإبداع، وللترقي والارتفاع. ولست أعني التوجيه الإجباري على نحو ما يفـرضه أصحاب مذهب التفسير المادي للتـاريخ أعني أنَّ تَكَيُّفَ النفس البشـرية بالتصـور الإسلامي للحـيـاة، هو وحدة



سيلهمها صورا من الفنون غير التي يلهمها إياها التصور المادي، أو أي تصور آخر؛ لأن التعبير الفني لا يخرج عن كونه تعبيرا عن النفس كتعبيرها بالسلوك في واقع الحياة».

«وأخيرا، فإن الإسلام لا يحارب الفنون ذاتها، ولكنه يعارض بعض التطورات والقيم (المنحرفة) التي تعبر عنها هذه الفنون. ويقيم مكانها- في عالم النفس- تصورت وقيما أخرى، قادرة على الإيحاء بحركات جمالية إبداعية، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالا وطلاقة، تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة التصور الإسلامي، وتتكيف بخصائصه».

«ولا ينبغي أن نفهم من هذا تحريم الآداب الأوربية على الناشئة المسلمة؛ فالذي نعنيه هو مجرد الاختيار والانتقاء. ففي هذه الآداب ما تلتئم روحه من بعض الجوانب مع الروح الإسلامية، لا لأنه حث على الفضائل وتقبيح للرذائل، فالأدب ليس منبرا خطابيا للوعظ والإرشاد. ولكن لأنه ينظر إلى الحياة نظرة روحية أرفع من المادة، ولأنه يعترف بالقيم المعنوية للحياة. فهذا اللون من الأدب يتفق في روحه مع المنهج الإسلامي في عمومه، وتمكن دراسته مع حسن الاختيار».

**اللغة العربية للناطقين بها أو بغيرها:**

إن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها تجعل من الضروري الاهتمام بتعليم وتعلم اللغة العربية بصفة خاصة، واللغات الأجنبية الأخرى بصفة عامة.

أما اللغة العربية فهي بالإضافة إلى أنها اللغة الأم لما يربو على مائة وستين مليونا من المسلمين العرب، فهي أيضا لغة القرآن الكريم، فتلاوة القرآن وتدبر آياته أمر ضروري لكل مسلم، والعربية بطبيعة الحال هي أقدر اللغات التي تعين المفكر والمتدبر على فهم آيات الله، فالمفسرون يدركون حقيقة واضحة وهي أن لآيات الله إيحاءات وظلالا ضاربة أطنابها في أعماق اللغة العربية؛ ولهذا فليس بعجيب أن يخاطب الحق- سبحانه- رسوله ﷺ في شأن القرآن، فيقول: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)**﴾ [الشعراء]﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)**﴾ [يوسف] ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)**﴾ [الزمر] ﴿**حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)**﴾ [فصلت] ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)**﴾ [الشورى]. ﴿**حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)**﴾ [الزخرف].



وتعلم العربية ليس مهما للناطقين بها فقط، بل هو مهم للمسلمين الناطقين بغيرها أيضا؛ وذلك لأن ترتيل القرآن وقراءته فرض على كل مسلم،﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل] ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل].

«إن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها مجال يجب أن يقوم على أسس علمية مدروسة، وهو ميدان جديد نسبيا، يتسع فيه المجال لكل محاولة جادة، ولكل دراسة هادفة. وإحدى المشكلات الحادة التي يواجهها مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها هي عدم توفر المعلمين المختصين المؤهلين، فغالبية المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في البلاد الأجنبية لم يتوفر لهم إعداد لغوي أو مهني أو ثقافي بقدر كاف»(١)، كما أن مناهج تعليم العربية لغير الناطقين بها غير مصممة على أسس سليمة. ومعظم المحاولات التي قامت في هذا الصدد في العالم العربي مازالت تعوزها الخبرة والدقة العلمية. ومعظم المحاولات التي قامت لتعليم اللغة العربية في البلاد الأجنبية يعوزها- تقريبا- كل شيء، المعلم المدرب، والمنهج المصمم بطريقة علمية، والمادة العلمية المناسبة، والإدارة التربوية، والمكان المناسب... إلخ. ولا شك أن هذا المجال يحتاج إلى تضافر جهود المسلمين ماديا ومعنويا وعلميا.

«إن الثقافة الإسلامية هي الأسلوب الكلي لحياة المجتمع وفق للتصور الإسلامي. والحضارة هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها إنسانيا وخلقيا وعلميا وأدبيا وفنيا واجتماعيا وفقا للتصور الإسلامي للألوهية والكون والإنسان والحياة. والمنهج الجيد هو الذي لا يغفل هذا في تخطيطه وتنفيذه. فهو يحتوي على مواد دراسية وخبرات تعليمية تتصل بجوهر الثقافة الإسلامية والحضارة لإسلامية ومكوناتهما الثابتة: القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم ﷺ القولية والعملية وما اشتملت عليه من قيم ومبادئ وأنماط السلوك الثابتة. وهو يشتمل أيضا على مجموعة من أنماط السلوك المتغيرة في ضوء القيم الثابتة كأساليب العمل، والتفكير في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وغي ذلك. وهو يشتمل أيضا على سير الصحابة، والخلفاء الراشدين، وقادة المسلمين وعلمائهم المبرزين في شتى مجالات العلوم والفنون»(٢).

إن اللغة لا تعلم إلا «من خلال الثقافة والحضارة التي أوجدتها، فاللغة بمعناها الأوسع ما هي إلا تعبير عن مدنية، ووعاء لتراث حضاري. ولقد أكدت الدراسات

(١) علي أحمد مدكور: تقويم برامج إعداد معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، منشورات الإيسسكو، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص١٥ .

(٢) المرجع السابق، ص١٣٩ .



الميدانية أن الدارس الذي لا يحترم حضارة اللغة التي يتعلمها لن يستطيع أن يتقدم في تعلم هذه اللغة مهما بذل من جهود. كما أكدت أن الدارسين الذين أجادوا العربية هم أولئك الذين أحبوا الحضارة الإسلامية، فتعاطفوا مع اللغة التي حملت تلك الحضارة(1).

**اللغات الأجنبية:**

ينسجم تعلم اللغات الأجنبية مع عالمية النظام الإسلامي وعموميته للبشر جميعا، كما ينسجم مع أهداف منهج التربية الإسلامية التي ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية بالحكمة، والموعظة الحسنة: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)**﴾ [**النحل**]، كما أن اختلاف الألسنة وتعدد اللغات آية من آيات الله للعالمين، ومادة للتفكر والتدبر في قدرته- سبحانه- وعظمته: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)**﴾ [الروم].

إن تعلم اللغات الأجنبية لفئة من أبناء المجتمع الإسلامي أمر بالغ الأهمية، وخاصة في عالم اليوم الذي تقدم فيه العلم وتقدمت تطبيقاته التقنية، وهو الأمر الذي جعل العالم يبدو كقرية صغيرة ، يرى كل ما فيها لقاصيها ودانيها.

ومن ينظر إلى أوضاع المجتمع الإنساني المعاصر، وتشابك علاقاته ومصالحه، وثورة الاتصالات المتنامية فيه، فإن بصيرته لا تخطئ حاجة الأمم والشعوب إلى بعضها البعض، حتى أنه ليستحيل الآن على أية أمة مهما بلغ غناها وتقدمها العلمي والتقني، أن تعيش بمعزل عن باقي الأمم والشعوب الأخرى.

ومن هذا المنطلق فقد برزت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية في كثير من أمم الأرض المتقدمة والنامية. وأخذ الجميع بمبدأ ضرورة تعلم لغة واحدة أجنبية على الأقل، وذلك تيسيرا للاتصال وترقية للعلاقات وتبادل المصالح على اختلاف أنواعها بين مختلف الأمم والشعوب.

ولقد أصبح للغات معينة في هذا العصر حظ موفور من الأهمية والانتشار،ولعل أهم هذه اللغات هما اللغتان الإنجليزية والفرنسية. وتعود أسباب انتشار هذه اللغات عموما إلى الاستعمار الثقافي والعسكري ومحاولة فرض هذه اللغات على البلاد

---

(1) المرجع السابق، ص١٣٨ .

المستعـمرة، وذلك كفرض الإنجليزية فـي مصر والعراق والأردن، والفرنسـية في سوريا ولبنان وشمال أفريـقيا. وكذلك الهيمنة السيـاسية والاقتصادية والعلمـية للدول الناطقة بتلك اللغات. وحاجة الدول النامية، ودول العـالم الثالث عموما إلى تعلم هذه اللغات للاستعانة بها في عمليات التنمية والتعلم ونقل العلم والتقنية.

ويجب على الدول العربية والإسلامية عموما أن تهتم بتعليم وتعلم هذه اللغات؛ وذلك لأنها دول نامية تتطلع إلى التقـدم والرقى عن طريق الاستفادة من علوم الآخرين وخبراتهم التقنية، «**فالحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق الناس بها**». كما قال الرسول الكريم ﷺ، لكن الدول العـربية والإسلامـية وهي تفعل ذلك فـإنها يجب أن تضع في اعتبارها دائمـا أنها دول إسلامية، وأنها مؤتمنة على المقدسـات الإسلامية التي تتـمثـل- بالدرجة الأولى- فـي منهج الله، وفي اللغـة التي نزل بهـا هذا المنهج، وفي الإنسان المسلـم، الذي هو الهدف؛ لأنه المنفـذ لهذا لمنهج. ولعل أهم مـا يواجه الدول العربية والإسلامـية عموما من تحديات هو: كيف يتعلم أبنـاؤها العلوم والتقنية باللغات الأجنبيـة دون أن يتأثر حـبهم ورغـبتـهم في تعلم لغتـهم، وتمسكهم بدينهم، ودون أن يفقدوا هويتهم الحضارية الأصيلة.

إن اللغة، أيا كان نوعهـا، ما هي إلا تعبير عن مدنية، ووعـاء لتراث حضاري- كـما سـبق أن قلنا-، ومن هنا تجب الحيـطة في دراسة اللغـات الأجنبيـة من أي ظلال فلسفية تتعلق بها، وأي قيم هابطة تحـمله، وأي أنماط سلوكية هدامة تروج لها. والمسألة في الواقع بالنسبة لـتعلم اللغات الأجنبية لا تعـدو أن تكون مجرد حسن اختـيار للمواد التعليمـية المناسبة، التي تتفق في روحـها مع روح الإسلام وقيمه. بالإضـافة إلى إعداد المعلم إعدادا جيدا، بحيث يكون واعيا بالنظام الإسلامي، والأسس التي يقوم عليها وبما يمكنه من إزالة أي لبس في المفـهومات الإسـلامية خـلال عمليـة التعليم والتـعلم لهذه اللغات.

ومن الظواهر اللافـتة للنظر والمؤسـفة في نفس الوقت، تهـافت كثـير من الآباء وكثـير من المدارس، وبالذات المدارس الخـاصة، إلى تعليم اللغـات الأجنبيـة ابتداء من رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية ظنا منهم أن ذلك يكسب الأطـفال اللغة الأجنبية في سن مبكرة، وفي ذلك اطمئنان لمستقبلهم التعليمي والاقتصادي والأدبي وغير ذلك!

ومع الاعتـراف بصدق النيـة والهدف، فإنـنا نشك في الأسلوب وفي النتيـجة، والواقع الموضوعي يصدقنا، فالطلاب يحصلون على الشـانوية العامة- وبعضهم قد درس اللغة الأجنبية لمدة ست سنوات أو اثنـتي عشرة سنة- وحصيلتهم اللغوية ضعـيفة جدا،



ولا تتساوى أبدا مع الجهد والوقت الذي قضوه في دراستها، ويرجع ذلك إلى الخلط وعدم الفهم لجزئيات هذه القضية.

وينطلق معظم الآباء والمربين الذين يشجعون تعلم اللغة الأجنبية منذ الصغر من قاعدة أن «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر». ويرى البعض أن الأطفال الذين صحبوا آباءهم في أسفارهم في البلاد الأجنبية أو أثناء دراستهم بها قد اكتسبوا اللغة وأصبحوا يستخدمونها كالناطقين بها.. وهذا كله صحيح.. ولكن في مناقشتنا لهذه القضية يجب ألا يفوتنا أمران:

**الأمر الأول**، أن تعلم أي شيء أو اكتسابه لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت هناك حاجة للمتعلم ودافع يدفعه إلى تعلم هذا الشيء.

**والأمر الثاني**، هو أننا يجب أن نفرق بين اكتساب اللغة Language Aquisition وبين تعلم اللغة Language Learning.

إن تعلم اللغة كتعلم أي شيء آخر لابد وأن يكون هناك دافع إليه وحاجة تقويه. وهذا مبدأ تربوي لا يشك فيه أحد. وعدم شعور الطفل بحاجته إلى تعلم اللغة الأجنبية وعدم وجود حافز يدفعه إلى تعلمها يجعل عملية التعلم مملة وطويلة وبدون فائدة، وما يتعلمه الطفل منها اليوم ينساه غدا. والنتيجة ضياع الجهد والوقت في سبيل قليل من التحصيل، والدليل على ذلك ما نراه من ضعف خريجي المدارس الثانوية في هذه اللغات، فمعظمهم لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب جملة واحدة صحيحة. وهم إذا سمعوا لا يفهمون، وإذا كان هناك داع للكلام فإنهم لا يستطيعون.

وعلى العكس من ذلك، نرى الذين يسافرون للدراسة أو للعمل في الخارج فإنهم يتعلمون اللغات الأجنبية في فترات قياسية وما ذلك إلا لأنه لديهم الحاجة والحافز القوى لتعلمها، وهو الأمر الذي يفتقده تلاميذ المرحلتين الابتدائية والإعدادية -على الأقل- في بلادنا.

أما القول بأن الأطفال الذين يصحبون آباءهم يتعلمون لغة البلد الذي سافروا إليها، فهذا أيضا صحيح، ولكن يجب فهمه بكل ملابساته. فالطفل هناك يكتسب اللغة بطريقة غير منظمة وغير مقصودة من خلال مخالطته للأطفال الآخرين الناطقين باللغة وتعامله ولعبه معهم. وهو يتعلم اللغة بطريقة مقصودة ومنظمة في المدرسة التي يذهب إليها ويدرس فيها هذه اللغة، بل ويدرس العلوم الأخرى كلها بهذه اللغة. وهو في كل الأحوال لم يفقد الحافز والدافع إلى اكتساب أو تعلم هذه اللغة؛ لأنه يحس بحاجته

إلى التعامل مع الأطفال واللعب معهم، وإلى التقدم في دراسته في المدرسة. وهذا ما يفتقده التلميذ في المرحلتين الابتدائية والإعدادية بالنسبة لتعلم اللغة الأجنبية في بلانا، فهي ليست ضرورية لتعامله مع الآخرين في المجتمع، وليست ضرورية لفهم بقية المواد الأخرى المقررة عليه، كما أن تصوره لمستقبله ولأهمية اللغة الأجنبية فيه لم يتبلور بعد. وهذا سبب رئيسي من أسباب ضعف التلاميذ في التحصيل في اللغة الأجنبية.

وبالإضافة إلى ضياع الجهد والوقت لسنوات طويلة في دراسة اللغة الأجنبية، ومع أن هذا لا يتفق مع ما تقوم به معظم دول العالم المتقدم من بدء تعلم اللغة الأجنبية في المرحلة الثانوية، فإن الاهتمام الزائد بدراسة اللغات الأجنبية في المراحل المبكرة عندنا قد يوحي للتلميذ بطريقة غير مباشرة بأن دراسة هذه اللغة أهم من كل ما عداها، ويجعل التلميذ يقلل من شأن ثقافته وشأن عقيدته، وشأن لغته، وذلك -في النهاية- ضياع لكل شيء.

لذلك فإننا نرى ضرورة تعليم لغة أجنبية واحدة لكل طالب، بحيث تكون من اختياره، وأن يتم ذلك ابتداء من المرحلة الثانوية، ففي هذه المرحلة يكون الطالب قد تبلورت لديه فكرة عن مستقبله. وما يود أن يكون عليه، وعن دور اللغة الأجنبية في المهنة التي يتطلع إليها، وبذلك يكون قد برزت لديه حاجة ودافع لدراستها والاهتمام بتعلمها، فيتعلمها في وقت قصير، وبذلك نوفر كثيرا من الجهد والوقت والمال المبذولين في تعلمها منذ الصغر دون فائدة، ودون مبالغة في الأهمية التي يجب أن تعطى لها.

**المواد المهنية والحرفية:**

الأصل هنا، أن الله -سبحانه وتعالى- خلق الإنسان، وجعله خليفته في الأرض ليعمرها ويرقيها وفقا للنظام الإسلامي. وعمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله لا تكون إلا بالعلم، والعمل، فمنهج التربية الإسلامية يربِّي أبناءه على جميع ألوان العمل الجاد الهادف. فالإسلام- كما سبق أن ذكرنا- ليس فيه عمل عظيم وعمل حقير، وإنما فيه عامل عظيم وعامل حقير، فالعمل عظيم مهما كان صغيرا، ما دام يساهم في عمارة الأرض وفق منهج الله، والعامل حقير مهما كانت وظيفته الاجتماعية ما دام لا يتقن عمله ولا يتجه به إلى الله، يرجو رحمته ويخشى عقابه.

والأصل- أيضا- أن عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله تقضى جميع أنواع الأعمال. والعمل سواء كان عقليا أو يدويا أو فنيا فإن الخبرة والمهارة فيه مطلوبة. فالأرض تحتاج في عمارتها إلى العامل الماهر، كما تحتاج إلى السياسي الماهر والمفكر



المقتدر. وتحتاج إلى المهندس الماهر والطبيب الدقيق، كما تحتاج إلى المعلم الماهر والصانع الماهر؛ ولذلك فإن العلوم الحرفية والمهنية يحتاج إليها الناس في حياتهم تماما كحاجتهم إلى كل العلوم الأخرى. فالعلوم المختلفة متكاملة مع بعضها البعض؛ لأن الخبرة الإنسانية- وفقا لمفهوم منهج التربية الإسلامية- خبرة متكاملة؛ ذلك لأنها منبثقة عن تكامل الوجود كله، الصادر عن الواحد المطلق، وهو الله.

فلا غرابة إذن أن يجعل القرآن الصنعة «حصانة» إذ يقول- سبحانه- في شأن داود: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ]. ويقول ﷺ: **«إن الله يحب المؤمن المحترف»** (أخرجه الطبراني والبيهقي). ويشجع على العمل اليدوي ويحترمه: **«من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له»** (أخرجه الطبراني) ويقبِّل ﷺ يدا تورمت من كثرة العمل، ويقول: **«هذه يد يحبها الله ورسوله ولن تمسها النار أبدا»**.

وهكذا، نستطيع أن نتبين بوضوح أن ما يشاع لدينا من تفضيل للأعمال والوظائف المكتبية على غيرها من الأعمال اليدوية والحرفية إنما هو أثر من آثار اتباعنا لمناهج الغرب السلفية الأفلاطونية في نزعتها ونظرتها إلى الطبيعة البشرية. وهو الأمر الذي لا يتفق مع منهج التربية الإسلامية جملة وتفصيلا.

**التاريخ والجغرافيا:**

والتاريخ مصدر من مصادر محتوى منهج التربية الإسلامية، فعن طريقه يقف المتعلم على سنة الله في الأرض. ويدرس تاريخ السابقين ليتعرف على عوامل البقاء والفناء في المجتمعات السابقة. ويصل إلى فهم «سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنته تبديلا».

وقد ذكر ياقوت في كتابه «معجم البلدان» أن القرآن يستمد من التاريخ حوادث معينة للعبرة والعظة. وقال المقريزي عن علم التاريخ: «إنه من أجلّ العلوم قدرا، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا، لما يحويه من المواعظ... والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى»[1] كما شجع كثير من المفكرين دراسة علم الجغرافيا لما فيه من فوائد عظيمة في إعمار الأرض وترقية الحياة.

---

(1) محمد عطية الإبراشي، مرجع سابق، ص ١٧١ -١٧٢.



ومع أن التاريخ فرع من الأدب بمعناه العام، إلا أنه «ذو طبيعة خاصة، وذو خطورة كذلك. فالتاريخ تفسير لوقائع الحياة، ولابد أن يتأثر بالفلسفة والتصور العام للحياة. وستؤدي تفسيراته على هذا النحو إلى تكوين صورة عن الحياة تختلف اختلافا رئيسيا عن التصور الإسلامي لاتجاه الحياة والتاريخ»(١).

إن دراسة ناشئتنا للتاريخ العالمي الذي كتبه الأوربيون غالبا أو الأمريكيون يجعلهم يخرجون بفكرتين باطلتين- كما يقول الأستاذ سيد قطب: «الأولى: أنه لا أثر للعوامل الروحية في سير خط الزمن، أو أن هذا الأثر ضعيف ضئيل- والثانية: أن أوربا هي محرك خط الزمن، وأن الإسلام بالذات ليس له إلا أثر ضئيل ضعيف».

«وأثر كل من هاتين الفكرتين مؤذ وخطير، سواء في تكوين فكرة عامة عن الحياة والخلق والسلوك، أو في الشعور بالعزة الإسلامية أمام التيار الأوربي [والأمريكي] الجارف».

«يجب أن نأخذ في وضع تاريخ عالمي عام، من وجهة النظر الإسلامية، في تفسير الحوادث والوقائع، فلا تنفرد طريقة النظر الأوربية بهذا العمل الخطير على أن نضع أوربا في هذا التاريخ في موضعها الحقيقي لا تتجاوزه، وعلى أن نبرز دور البشرية بصفة عامة، ودور الإسلام بصفة خاصة في خط سير التاريخ».

«إن التاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو تفسير هذه الحوادث والإهداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان».

«ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها، وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية. وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة، ويستجيب لوقعها في مداركه، ولا يرفض شيئا من استجاباته لها إلا بعد تحرٍّ وتمحيص ونقد».

«وعلى ذلك فإن التاريخ الإسلامي يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر، يجب أن ينظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة، وتحت أضواء جديدة، لكي تعطي كل أسرارها وإشعاعاتها، وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها».

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٨.



«إنه لابد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية، وعلاقة هذه البواعث بالحوادث، والتطورات، والانقلابات، ولابد من ربط كل هذا بطبيعة العقيدة الإسلامية وما فيها من روح ثورية -لا في شكلها الخارجي وخطواتها العملية فحسب- ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية، وللعلاقات الإنسانية، وللعلاقات الاجتماعية. وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال، وطرق التشريع ووسائل التنفيذ... إلخ. وهي كلها من مقومات الحياة، بالتالي من مقومات التاريخ لهذه الحياة».

«وفي هذه الدراسة الجديدة يجب أن تكون المصادر الإسلامية هي المرجع الأول، بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه في جو الإسلام كعقيدة وحركة وفكر ونظام. وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية. وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جدا لتتفتح نوافذ إدراكه جميعا، لا لفهم الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حي، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي»(١).

ومنهج التربية الإسلامية ليس منهج نصوص تحفظ دون وعي، كما هو الحال اليوم وإنما هو منهج يعيش فيه المتعلمون في جو الإسلام، وتاريخه المجيد، ومفاهيمه الشاملة، تشمل الحياة البشرية كلها من سياسة واقتصاد واجتماع وفكر وفن وأخلاق. ويرتبط فيه المتعلمون ارتباطا وجدانيا بالله، فيخرجون من كل درس وهم أشد حبا لله وخشية منه، وأشد حماسا للعمل والجهاد من أجل عمارة الأرض وتطبيق منهج الله، ومن هنا ترتبط في نفوسهم الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والفكر بالعمل.

## محور المحتوى بين الذكور والإناث:

ومنهج التربية الإسلامية- كما سبق أن ذكرنا- يعد الفتاة المسلمة لمهمتها العظيمة المرتقبة، وهي تربية الناشئة، وإدارة البيت وتدبير شئونه بطريقة حسنة. حتى إذا جاءت الخطبة، وجاء الزوج، كانت مهيأة لدورها الطبيعي العظيم في الحياة.

ولاشك أن هناك علوما مشتركة في منهج التربية الإسلامية بين البنين والبنات صغيرهم وكبيرهم على السواء. وهذا القدر المشترك من محتوى المنهج هو ما يتصل بالجانب الثابت في حياة الإنسان. وهو العلم بالدين، ابتداء من قضية الألوهية، وما يتفرع عنها، وما يترتب عليها من مبادئ وقيم، وعلوم الشعائر، وعلوم المعاملات بما يشتمل عليه من نظم وأخلاقيات وسلوك. ولا شك أن هناك قدرا آخر مشتركا. وهو ذلك الخاص بتاريخ المسلمين، وجغرافية العالم الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، وبعض العلوم العامة.

(١) المرجع السابق، ص٢٠٩ - ٢١٠.



وإلى جانب هذا القدر المشترك في المناهج، هناك «التربية النسوية» التي تعد الفتاة لوظيفتها، وتعلمها أصول هذه الوظيفة من إدارة شئون البيت، وتربية الأطفال، وتحول مشاعر الجنس الفطرية إلى تهيؤ عملي لاستقبال الحياة الزوجية المرتقبة.

ولا شك أن للفتاة بعد ذلك أن تتعلم من العلوم الأخرى ما تميل إليه، ولا قيد عليها في ذلك إلا قيدا واحدا هو ألا يصرفها ذلك عن وظيفتها الرئيسية التي تتفق مع فطرتها التي فطر الله الناس عليها.

ومحتوى منهج التربية الإسلامية ترتبط فيه النظرية بالتطبيق، والقول بالعمل. وذلك انطلاقا من- أن الدين الإسلامي لا يفرق بين المثال والواقع؛ لأن مثله موضوعة بحيث يمكن تطبيقها في الحياة: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا.. (٢٨٦)﴾ [البقرة] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.. (١٦)﴾ [التغابن]، وعلى هذا فالإسلام ليست فيه تلك الفجوة المعهودة بين المثال والواقع، أو بين النظرية والتطبيق كما يعبر عنها في أوربا.

لابد إذن أن يكون محتوى المناهج الدراسية- إذا أردنا أن تكون مناهجنا إسلامية في الشكل والمضمون- نظرية وعملية معا، لا نظرية فقط. وأن توجد في مدرسة البنين «ورشة» أو «معمل» أو «مختبر» لتدريب المتعلمين فيها، وربط الأفكار النظرية بتطبيقاتها العملية. وأن يوجد في مدرسة البنات «بيت» يدرن شأنه ويدبرن أموره، بالإضافة إلى كل الخبرات التي تعدهن للقيام بأعباء الحياة الزوجية وتربية الأطفال على خير وجه.

ويشتمل محتوى منهج التربية الإسلامية على مواد كسب المهارة، وتعلم الصناعات المختلفة، والإعداد للحياة العملية والعمل الجاد، الذي يعين الإنسان على عمارة الأرض بمقتضى منهج الله. كما يشتمل على مواد ترقية الوجدان، وإبراز دقة الله في الخلق كالآداب والفنون والموسيقى وزخرف الخط وغير ذلك من الفنون.

لقد وضع الإسلام دستورا شاملا للعمل هو جزء من محتوى منهج التربية الإسلامية. فسواء كان العمل يدويا أو عقليا أو فنيا، فإن الخبرة والمهارة فيه مطلوبة. فالمجتمع يحتاج إلى العامل الماهر كما يحتاج إلى الطبيب الماهر. يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**» (رواه أبو يعلى والعسكري). ويقول: «**من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له**» (أخرجه الطبراني) ويقول: «**إن الله يحب المؤمن المحترف**» (أخرجه الطبراني والبيهقي) ويقبِّل الرسول ﷺ يدا تورمت من كثرة العمل ويقول: «**هذه يد يحبها الله ورسوله**». كما روى أنه ﷺ قال: «**الحرفة أمان من الفقر**».



ولقد تعلم نوح صناعة السفن، إذ أمره الله بصنعها في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود] وكانت النتيجة أن نجا نوح ومن آمن معه في السفينة التي صنعها، وغرق الباقون.

وقد علم الله نبيه داود مهارة الحدادة وصناعة الدروع الحربية: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء] ويقول تعالى في شأن داود أيضا: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (أى دروع واسعة سابغة واقية) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ (أي اجعله بقدر يناسب المهمة التي عمل من أجلها) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ]. وكان الرسول ﷺ يجيد مهنة التجارة، كما اشتغل بالرعي.

من كل ما سبق يتضح لنا مدى اهتمام محتوى منهج التربية الإسلامية بالعمل يدويا كان أو عقليا أو فنيا، وبالإتقان فيه، وبضرورة اشتمال محتوى منهج التربية الإسلامية على مواد كسب المهارة وتعلم الصناعات، وإتقان المهارات على اختلاف أنواعها، وبما يتفق مع قدرات المتعلمين واستعداداتهم.

ويهتم محتوى منهج التربية الإسلامية بالخبرات والمفاهيم وكل ما من شأنه أن يرسي دعائم المنهج التجريبي والبحث العلمي في نفوس المتعلمين كما يهتم بتنمية التفكير، وذلك بالعودة إلى فهم كتاب الله، وكتب الفقه والأصول، وكل المواد التي تساعد على تأكيد هذه المناهج الفكرية والعلمية.

**الاهتمام بالضروري من العلوم:**

في منهج التربية الإسلامية لا تقف العلوم جميعا في مرتبة واحدة من حيث أهميتها لكل دارس، وإنما هناك علوم مقصودة لذاتها، وهناك علوم أخرى إنما تدرس لأنها وسائل ضرورية لدراسة العلوم الأولى، ومن هنا فدراسة العلوم الأولى يجب التوسع فيها، بينما يجب الاقتصار في دراسة العلوم الثانية بما يفي بالغرض منها. ومن أمثلة العلوم الأولى: علوم الشريعة كالقرآن والتفسير والحديث والفقه والتوحيد.. إلخ. ومن أمثلة العلوم الثانية: اللغة والحساب والمنطق.. إلخ. يقول ابن خلدون: «اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من



التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات، والإلهيات...، وعلوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم، كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق [الذي]، ربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين، فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل، واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته، وإيضاحا لمعانيها المقصودة.

وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تفرع المسائل؛ لأن ذلك مخرج لها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير»(1).

وبناء على هذا فقد نادى أبو بكر بن العربي بالبدء بتعليم اللغة العربية، وتقديمها على غيرها من المواد، ثم الانتقال إلى دراسة القرآن الكريم؛ لأن دراسته تَسْهُل بعد معرفة اللغة العربية. وقد وافقه ابن خلدون على هذا الرأي قائلا: أما أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول عهده بالتعليم فيقرأ ما لا يفهم فأمر يدل على الغفلة. فابن خلدون يرى ضرورة مراعاة قدرة الطفل على الإدراك والفهم. ويطالب القائمين على أمر المناهج بأن لا يكلفوا المتعلم إلا بما يفهم ويدرك. ويعترف بصواب رأي القاضي أبي بكر بن العربي. لكنه رأى صعوبة تنفيذه؛ لأن عادات المسلمين على عهده كانت لا تساعد على هذا. فقد كانوا يبكرون بدراسة القرآن وحفظه للتبرك به وخوفا من أن يحدث للأطفال شيء في شبابهم يبعدهم عن حفظ القرآن. وبذلك تفوتهم فرصة حفظه(2).

وعلى كل حال فقد أوضح معظم علماء الإسلام ومفكريه أن تكليف المتعلم بدراسة ما يفوق مداركهم وأفهامهم يؤدي إلى إجهادهم عقليا وجسميا، وإلى كراهيتهم الدائمة للعلم والتعليم. يقول ابن خلدون: «إعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته، كثرة التآليف، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم. وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها، أو أكثرها، ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة، إذا تجرد لها، فيقع القصور ولابد، دون رتبة التحصيل»(3).

وهكذا يهتم ابن خلدون بمراعاة ميول وقدرات المتعلم، ويرى أن النجاح يدفع إلى مزيد من النجاح في التعليم، وأن الفشل يؤدي إلى فقدان ثقة المتعلم بنفسه، وكراهيته للعلم والتعليم.

---

(1) ابن خلدون: مرجع سابق، ص٥٣٦ - ٥٣٧ .
(2) المرجع السابق، ص٥٣٩ - ٥٤٠ .
(3) المرجع السابق، ص٥٣١ .

ويرى إخوان الصفاء أن يشتمل منهج التربية في المرحلة العالية دراسة «علم النفس والعقل والمعقول، والحاس والمحسوس، والعلة والمعلول، والبحث والنظر في أسرار الكتب الإلهية، والتزييلات النبوية ومعاني ما تتضمنه من موضوعات الشريعة والعلوم والرياضيات والهندسة... وأما أكثر العناية فينبغي أن تكون في البحث عن العلوم الإلهية التي هي الغرض الأقصى».

كما رأى بعض مفكري الإسلام أن يستبعد من المنهج، وخاصة في المراحل الأولى من التعليم، كل مادة يخشى منها على العقيدة أو على الخلق والسلوك. والنصوص المأثورة عنهم في هذا الصدد ينصب معظمها على الفلسفة والمنطق المشوب بالفلسفة وعلم التنجيم، وهو التنبؤ بشئون الكواكب والنجوم، وذلك لما قد تؤدي إليه المادة الأخيرة من ادعاء الغيب، ولعدم اعتمادها على أسس يقينية، ولما تنطوي عليه من الشعوذة، وحمل الناس على الانصراف عن الجدية، والتعلق بالآمال الكاذبة. وكذلك الأدب المكشوف أو الخليع؛ شعره ونثره، وما إلى ذلك من الأمور التي تغرس في نفوس الصبيان بذور الفساد.

ويقول ابن تيمية في هذا الصدد: «ومن الكلام ما يسمى علما وهو جهل (مثل) كثير من علوم الفلاسفة وأهل الكلام، والأحاديث الموضوعة، والتقليد الفاسد، وأحكام النجوم؛ ولهذا روى: إن من العلم جهلا، ومن القول عيا ومن البيان سحرا». ويقول: «ومن العلم ما يضر بعض النفوس لاستعانتها به على أغراضها الفاسدة فيكون بمنزلة السلاح (للمعتدي)[1] والمال للفاجر. ومنه ما لا منفعة فيه لعموم الخلق، مثل معرفة دقائق الفلك وثوابته وتوابعه... (والأصل هنا أنه) إذا اشتغل الإنسان بما لا يحتاج إليه عما يحتاج إليه كان مذموما»[2].

### تنظيم المحتوى:

وفيما يتصل بتنظيم محتوى المنهج، يرى بعض المفكرين أن تشتمل مواد الدراسة في المرحلة الأولى على: الهجاء، والحساب، وحفظ القرآن وتجويده ومبادئ الشريعة والمطالعة، وقواعد اللغة العربية، وحفظ مختارات من الأدب وخاصة الشعر. ويرون أيضا أن تشمل مناهج الدراسة في المرحلة الثانوية القواعد وأدب اللغة، والتفسير،

---

(١) في الأصل: للمحارب. وقد أبدلتها إلى: للمعتدي، ليستقيم الكلام.

(٢) ابن تيمية، أبى العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: الاستقامة، ج٢، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، ص١٦٠ - ١٦١.



والحديث، والفقه، والعلوم الطبيعية والرياضية، والإلهيات (الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والحيوان والنبات والموسيقى والعلوم والرياضة والمنطق وما وراء الطبيعة).

كما رأى مفكرو الإسلام أن تدرس المواد في المرحلة الثانوية والعالية مادة مادة، فيشغل وقت الطالب كله بمادة واحدة حتى إذا أجادها انتقل به المعلم إلى غيرها، وهكذا حتى تتم إجادته لجميع المواد التي يراد تدريسها له؛ لأن اختلاط الحقائق من المواد المختلفة في ذهن الطالب في مرحلة تحصيله لها يشوش عليه تفكيره من نظر هؤلاء، ويعوقه عن إجادتها. فيرى ابن خلدون ضرورة «أن لا يخلط على المتعلم علمان معا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معا، ويصعبان»[1]. ورأى ابن خلدون هذا لا يتنافى مع مبدأ تكامل المعرفة بالطبع؛ لأن المعارف المتكاملة تمثل علما واحد وفنا واحدا ومنطقة واحدة، فالدراسات اللغوية تتكامل مع الدراسات الأدبية ومع الدراسات القرآنية، ومع التاريخ، ولكنها لا تتكامل مع دراسة العلوم والرياضيات مثلا.

وقال أيضا في ذلك: «وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعلم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم. ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم، وصوابا فيه... ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال، والأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد يتدرج قليلا قليلا حتى يتم التحصيل»[1].

وقد رأى علماء التربية فى الإسلام ضرورة العناية بالوسائل المعينة على الفهم وضرب الأمثلة المحسوسة التى تعين المتعلم على الانتقال من المحسوس إلى المعقول حتى يسهل الفهم والإدراك على المتعلم.

لقد سبق ما يدل على أن منهج التربية الإسلامية يراعى فى اختيار المواد الدراسية للمتعلم أن تكون ملائمة مع مستوى النمو الفكرى له، ومع ميله واستعداده، ومع مبلغ نفعها له من النواحى الروحية والعقلية والجسمية، أو فلا يكلف بدراسة موضوع لم يقو بعد تفكيره على إساغة حقائقه يتنافر مع ميله واستعداده، أو تؤدى دراسته إلى الإضرار

(١) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص٥٣٤.

(١) المرجع السابق، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.



به فى حياته العقلية أو العملية أو الخلقية؛ ومن ثم يرى الفارابى أنه لا يصح أن نعلم ذوى الطبائع الرديئة شيئا من العلوم التى إذا عرفوها استخدموها فى الشرور والمفاسد. وأن تقتصر الدراسة للبلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم على ما يستطيعون إساغته، وما هو أعود عليهم بالنفع. وكذلك يرى ابن سينا ضرورة مراعاة ميل المتعلم فى الصناعة التى يوجه إليها، إذ ليست كل صناعة يرومها الطالب ممكنة له مواتية، ولكن ما ناسب طبعه ووافقه. ورأى أن يعطى المتعلم على قدر فهمه، فلا يلقى عليه ما لا يبلغه عقله فينفّره.

وربما كان خير ما قيل فى هذا الصدد قول على كرم الله وجهه: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون. أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟!» [1] وقال عبد الله بن مسعود: «ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم» (رواه مسلم).

ولهذا كان ابن العربى يرى ضرورة تأخير دراسة القرآن إلى ما بعد الإلمام باللغة العربية والأدب والحساب؛ لأن فهم كتاب الله يتوقف على دراسة هذه المواد. وقد خالف ابن العربى فى ذلك ما كان يجرى عليه العمل فى البلاد الإسلامية[2].

مما سبق نستطيع أن نستخلص أن هناك اتفاقا على أن محور المنهج يجب أن يتمركز حول المواد الأساسية، وهى تلك التى تتصل بالقرآن والسنة وعلوم الشريعة، وكل ما يتصل بالعقيدة، أما بالنسبة للعلوم الأخرى التى سميت بعلوم «الآلات والوسائل» فإن دراستها تحكمها مجموعة من المبادئ وهى:

١ـ أن يستبعد من المنهج -وخاصة فى المراحل الأولى- من التعليم كل العلوم التى يخشى منها على العقيدة أو على الخلق والسلوك.

٢ـ أن نختار منها ما يتناسب مع طبائع الدارسين، وما يعود عليهم بالنفع.

٣ـ أن العمر لا يتسع لجميع هذه المواد ـ كما يقول ابن سينا ـ فالحكمة أن يؤخذ من كل شىء أنفعه.

٤ـ أن دراسة ما لا يحتاج إليه الإنسان من هذه العلوم، والاشتغال به عما يحتاج إليه من العلوم يعتبر مذموما، كما عبر عن ذلك ابن تيمية.

---

(١) ورد هذا القول عن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- فى: البخارى، جـ١، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠ .

٥- أنه ينبغى الاقتصار فى هذه العلوم على القدر الموصل لفهم علوم «المقاصد»، وخاصة فى المراحل الأولى، أما المقاصد فلا حرج من التوسع فى دراستها بما يتفق مع طبيعة المتعلم وقدراته فى كل مرحلة. فلا يكلف المتعلم بدراسة علم أو موضوع لم يقو تفكيره بعد على إساغة حقائقه.

٦- أن هناك قدرا مشتركا فى محتوى المنهج بين البنين والبنات، وهو كل ما يتصل بالعلم بالعبادات وأداء الشعائر وتنفيذ منهج الله. وإلى جانب هذا القدر المشترك هناك «التربية النسوية» التى تعد الفتاة لوظيفتها من تربية الأطفال، وإدارة شئون البيت، وتحول مشاعر الجنس الفطرية إلى تهيؤ عملى لاستقبال الحياة الزوجية.

٧- أن محتوى منهج التربية الإسلامية ترتبط فيه النظرية بالتطبيق والقول بالعمل. وذلك انطلاقا من أن الدين الإسلامى لا يفرق بين المثال والواقع؛ لأن مثله موضوعه بحيث يمكن تطبيقها فى واقع الحياة.

٨- أن محتوى التربية الإسلامية يشتمل على مواد كسب المهارة، وتعلم الحرف المختلفة، والإعداد للحياة العملية، والعمل الجاد الذى يعين المسلم على عمارة الأرض وفق منهج الله.

٩- أن محتوى منهج التربية الإسلامية يشتمل على مواد ترقية الوجدان، والإحساس بالجمال فى الكون، وإبراز دقة الله فى الخلق كالآداب والفنون والموسيقى وغيرها.

١٠- أن محتوى منهج التربية الإسلامية يهتم بتنمية منهج التفكير، وكل ما من شأنه أن يرسى دعائم المنهج التجريبى والبحث العلمى فى نفوس المتعلمين.

**التكامل فى منهج التربية الإسلامية:**

سبق أن أشرنا إلى أن تكامل الخبرة الإنسانية فى منهج التربية الإسلامية يتفق مع فكرة الإسلام عن الكون والوجود والإنسان. كما يتماشى مع تصور الإسلام لوحدة الوجود وتكامل أجزائه لكونه صادرا عن الإرادة المباشرة للواحد المطلق وهو الله.

لقد بين القرآن أن الشرائع السماوية كلها موحدة الأساس: فهى كلها من عند إله واحد، وهى كلها تدعو إلى عقيدة أساسية، وهى الإيمان بالله الواحد:



﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ . ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف] . . إلخ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ . . ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود] . . إلخ .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ . . ﴿٦١﴾ ﴾ [هود] . . إلخ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ . . ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود] . . إلخ .

ولما كان الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ ولما كان الله الواحد هو رب الجميع، فإن المؤمنين كلهم أمة واحدة: وكثيرا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة فى سورة واحدة، ومعروضة بطريقة خاصة ـ كما يقول الأستاذ سيد قطب ـ لتؤيد هذه الحقيقة، وتؤكدها فى النفوس(1) وضرب لذلك مثلا بما فى سورة «الأنبياء»:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إلى قوله : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

---

(1) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن، ط٧، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص١٤٦-١٤٩ .



﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

ففي نهاية الاستعراض الطويل، يصل إلى الغرض الأصيل والشامل من هذا الاستعراض، ألا وهو أن هذه أمتكم، أمة الأنبياء، أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة.

وتتجه اتجاها واحدا. هو الاتجاه إلى الله وإفراده بالعبودية، أمة واحدة في الأرض، تسير وفق سنة واحدة، وتشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء. قال رسول الله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد**». فالدين واحد والغرض واحد وهو عبادة الله وحده بشرائع متنوعة لرسله ﴿ ..لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

إذن فأصل الوجود واحد. فالوجود صادر عن الإرادة المباشرة لله الواحد. وأصل الأديان واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت الشرائع في الطرائق والسبل التي اتبعتها في توصيل الرسالة. والأنبياء أصلهم واحد؛ فهم أبناء أمة واحدة، ويهدفون إلى غاية واحدة، والكون كله مخلوق لله، من أجل عبادة الله، والأصل في الكون التكامل، والأصل في الإنسانية الوحدة والتكامل. ولقد جعل الله الناس أمما شتى ليتكاملوا لا ليتصارعوا. والتكامل يتطلب الاختلاف والتنوع ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولكن جعلهم مختلفين في الاستعدادات والاتجاهات والقدرات والمشارب والطرائق كي يتكاملوا ويقوموا بحق استخلاف الله لهم في الأرض، فيعملون على عمارتها وترقيتها وفق منهج الله.

**أنواع التكامل:**

وبناء على ما سبق فإن تكامل الخبرة الإنسانية، وتكامل الخبرات التربوية يعد مبدأ أساسيا في منهج التربية الإسلامية يتماشى مع وحدة مصدر الوجود كله، ومع غاية الوجود الإنساني، ومع وظيفة الإنسان، والهدف من تعلمه.

إن الهدف من المعرفة والتعلم في منهج التربية الإسلامية، هو بناء الإنسان القادر على المساهمة بإيجابية وفاعلية فى عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله وهذا يقتضي بطبيعة الحال تكامل المعرفة والخبرات التي تعلم.

والتكامل إما أن يكون أفقيا أو رأسيا. والتكامل الأفقي يعني أن تتكامل المعارف والمفاهيم والمهارات بين مجالات المعرفة المختلفة، وذلك كالربط بين الدراسات الاجتماعية والدراسات اللغوية، وكالربط بين الرياضيات والعلوم الطبيعية...... وهكذا. . أما التكامل الرأسي فيعني الربط بين ما تعلمه التلميذ بالأمس، وما يتعلمه اليوم، وما سوف يتعلمه غدا أو مستقبلا. وهذان النوعان من التكامل يسميان بالتكامل الداخلي.

وهناك نوع آخر يسمى **بالتكامل الخارجي** وهو يعني بالتكامل بين الأقسام المختلفة التي تنطوي على التنظيمات المعرفية المختلفة. وذلك كالتعاون بين قسم الرياضيات وقسم

(١) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن جـ١٧، ص٢٣٩٥، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٤، ص٥٩١.

العلوم الطبيعية؛ وبين قسم العلوم الاجتماعية وقسم اللغات والعلوم اللغوية؛ وبين قسم اللغات وقسم الفنون التعبيرية. . . . . وهكذا.

لكن أهم وأسمى أنواع التكامل ـ والذي يعد الهدف الرئيسي للمنهج ـ هو ذلك الربط بين كل معرفة أو خبرة أو مهارة وبين الغاية منها في منهج التربية الإسلامية، أي الربط بين المعرفة ووظيفتها وتطبيقها ومدى مساهمتها في بناء الإنسان الصالح القادر على المساهمة بجدية وفاعلية في عمارة الأرض وفق منهج الله. إن هذا النوع من التكامل هو الذي يتحقق به وعن طريقه أنواع التكامل الأخرى التي سبق الحديث عنها.

إن التكامل بين جوانب المعرفة في منهج التربية الإسلامية ليس هدفا بحد ذاته؛ لأن أهمية التكامل تكون بقدر ما يؤدي هذا التكامل إلى إقدار المتعلم على التفكر والتدبر في نظام الكون وفي بديع صنعه، وإدراك العلاقات بين الأشياء وخالقها، وبين الأشياء ووظيفتها؛ ومن ثم فإن التكامل هنا إنما يهدف في النهاية إلى إيصال المتعلم إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها. تلك الدرجة التي تجعل الإنسان قادرا على المساهمة بفاعلية وإيجابية في عمارة الأرض، وتجعله قادرا على حسن الأداء لوظيفته، ألا وهي استثمار ما في الأرض من طاقات وثروات وكنوز من أجل ترقية الحياة وفق منهج الله.

إن مواد المنهج يمكن أن تقسم إلى ستة مجالات متكاملة فيما بينها:

١ـ علوم الشعائر والشرائع، وهي: القرآن، والسنة، والفقه. . . إلخ.

٢ـ العلوم الإنسانية، وتشمل: التاريخ، والجغرافيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والدراسات اللغوية. . . إلخ.

٣ـ الرياضيات وتشمل: الحساب، والهندسة، والجبر.

٤ـ العلوم الطبيعية، وتشمل: الطبيعة، والكيمياء، والأحياء.

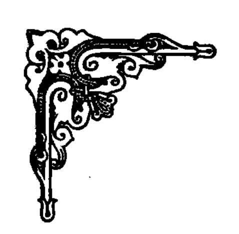
٥ـ الفنون التعبيرية، وتشمل الأدب، والموسيقى، والتمثيل، والرسم، والتصوير، والأعمال المعدنية، والأعمال الخشبية. . . إلخ.

٦ـ التربية الرياضية. إن كل مجال من هذه المجالات يعلم أسلوبا من أساليب التفكير، فعلوم الشعائر والشرائع تعلم الإنسان النظرة الشمولية للكون والحياة، وتعرف الإنسان بملكوت الأرض والعلاقة بين ملكوت الأرض وملكوت السماء. والعلوم

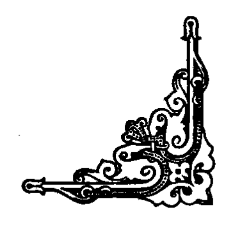
الإنسانية تنمي في الإنسـان أسلوب التفكير التحليلي والأسلوب الرمـزي. والرياضيات تنمي أسلوب التـفكيـر المنطقي والرمـزي. . والعلوم الطبيـعـية تنمي أسـلوب التفكيـر التجريبي. والفنون التعبيرية تربي في الإنسان الإحساس بالذوق والجمال، وتقدير كل ما هو جميل، ومن ثم الإيمان بجمال صنعة الخالق فيما خلق. . . إلخ.

* * *





# الفصل الثامن
## طرائق وأساليب التدريس



**الطريقة في منهج التربية الإسلامية:**

كما أن الكون كله كتاب مفتوح لمنهج التربية الإسلامية، فكذلك يجب على المدرس هنا أن يستخدم أفضل الطرق والوسائل التي تحقق الأهداف العامة لهذا المنهج، والأهداف الخاصة لمادته ودرسه. ويجب أن يكون الموجه لسلوك المدرس هنا هو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿.. وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨)﴾ [الحج]. وقول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وعلى هذا يستخدم منهج التربية الإسلامية مجموعة كبيرة ومتنوعة من الطرق والأساليب في التربية. وأهم هذه الطرق والأساليب هي: طريقة القدرة، وطريقة التلقين، وطريقة المثوبة والعقوبة. وطريقة القصة، وطريقة تكوين العادات الحسنة، وطريقة التربية بالأحداث. وطريقة التربية عن طريق استثمار الطاقات في عمل الخير، وطريقة شغل أوقات الفراغ[1] وطريقة المناقشة والحوار، وطريقة حل المشكلات، وطريقة تحقيق الذات... إلخ، وسوف نلقي بعض الضوء على كل طريقة من هذه الطرق فيما يلي.

### ١ـ طريقة القدوة

القدوة هي أفضل وسائل التربية على الإطلاق وأقربها إلى النجاح. فمن السهل تصميم منهج أو تأليف كتاب في التربية. لكن هذا المنهج يظل حبرا على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة تتحرك في واقع الأرض، وإلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ هذا المنهج ومعانيه؛ ولذلك فعندما أراد الله لمنهجه أن يسود الأرض، ملأ به قلب إنسان وعقله كي يحوله إلى حقيقة في واقع الأرض. فكان بعث الله محمدا ﷺ ليكون قدوة للناس في تطبيق هذا المنهج: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) انظر: محمد قطب، مرجع سابق، ص١٨٠ ـ ٢١٥ .

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

هكذا، أرسل الله محمدا ﷺ ليكون قدوة للناس في تطبيق منهج الله في واقع الأرض. فكان ﷺ هاديا مربيا بسلوكه الشخصي وليس فقط بالكلام به قرآنا أو حديثا. وعن طريق القدوة، بالإضافة إلى القرآن والسنة، أنشأ محمد ﷺ الأمة التي قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

وهكذا، يرى الإسلام أن القدوة هي أعظم طرق التربية، ويقيم منهجه التربوي على هذا الأساس. فلا بد للطفل من قدوة في والديه ومدرسته كي يتشرب المبادئ الإسلامية ويسير على نهجها. ولا بد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة. ولا بد للمجتمع من قدوة في قيادته بحيث يتطلع إليها ويسير على منوالها، ولا بد أن تكون قدوة الجميع هي شخصية الرسول ﷺ التي تتمثل فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه وتعاليمه.

إن القدوة إذا كانت حسنة فإن الأمل يكون كبيرا في إصلاح الطفل، وإذا كانت القدوة سيئة فإن الاحتمال الأرجح هو فساد الطفل. وقدرة الطفل على المحاكاة الواعية وغير الواعية كبيرة جدا. فهو يلتقط بوعي وبغير وعي كل ما يراه أو يسمعه، فالطفل الذي يرى أباه أو أمه يكذب لا يمكن أن يتعلم الصدق.

والطفل الذي يرى أمه تغش أباه أو أخاه أو تغشه هو نفسه لا يمكن أن يتعلم الأمانة. والبنت التي ترى أمها مستهترة لا يمكن أن تتعلم الفضيلة، والطفل الذي يقسو عليه أبواه لا يمكن أن يتعلم الرحمة.

وحين توجد القدوة الحسنة متمثلة في الأب المسلم، والأم ذات الدين، والمعلم الفاضل، فإن كثيرا من الجهد المطلوب لتنشئة الطفل على الإسلام يكون ميسورا وقريب الثمرة في ذات الوقت؛ لأن الطفل سيتشرب القيم الإسلامية من الجو المحيط به بطريقة تلقائية. وليس معنى هذا أن الطفل لن يحتاج إلى جهد على الإطلاق في عملية التربية، أو أنها ستتم تلقائيا عن طريق القدوة وحدها.

ولكن الذي يمكن قوله هنا: إن القدوة الطيبة هي دائما قيمة موجبة، يحذف بإزائها قدر مساو من الجهد الذي يجب بذله.



هذه هي الطريقة التي ربى بها الرسول ﷺ أمة الإسلام الأولى ومن سار على نهجها من التابعين. وقد يكون من المناسب في هذا الصدد أن نذكر ما كتبه عمرو بن عتبة بن أبي سفيان إلى مؤدب ولده يقول له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت. علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه. ثم روِّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. وروِّهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني. وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل الدواء حتى يعرف الداء. وإياك أن تتكل على عذر مني لك، فقد اتكلت على كفاية منك»[1].

### ٢ـ طرائق الإلقاء والتفاعل :

بالرغم من أهمية القدوة إلا أنها وحدها لا تكفي مهما بلغت عظمتها واستقامتها. لا بد من التلقين والتوجيه والموعظة. «ولو كانت القدوة تكفي وحدها لإتمام عملية التربية والوفاء بكل المطلوب فيها لكانت القدوة العظمى للبشرية كلها، ممثلة في شخص الرسول ﷺ، كافية وحدها لإقامة منهج التربية الإسلامية[2] لكن الرسول ﷺ كان يلجأ إلى التلقين والتوجيه والوعظ، هذا فضلا عن أن القرآن الكريم - في كثير من سوره وآياته ـ تلقين وتوجيه ووعظ.

وقد لا يلتقط الإنسان القدوة الصالحة، وقد لا تكفيه بمفردها. ثم إن هناك دوافع فطرية في النفس في حاجة إلى التهذيب والتوجيه. وقد لا يتأتى تهذيبها وتوجيهها عند بعض الأفراد عن طريق القدوة وحدها. فبعض الناس لديهم استعداد كبير للتأثر بما يلقى إليهم من الكلام.

وبالرغم من أن التلقين والتوجيه والموعظة تأتي تالية للقدوة في الترتيب والأهمية، وأنها كلها تعتمد على القدوة اعتمادا كاملا. حتى أنها بغير القدوة الحسنة قد تأتي بنتائج عكسية، إلا أن الإنسان الكبير والصغير على السواء في حاجة دائمة إليها، بل وفي حاجة إلى تكرارها من آن لآخر وكلما دعت الحاجة إليها.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، ج٢، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ ١٩٥٦، ص٧٥.

(٢) محمد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص ١٢٢.



والتلقين قد يأخذ صورة المواعظ والتوجيهات. ونحن نجد القرآن مليئا بالمواعظ والتوجيهات، هذه مجرد نماذج منها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ .. (٥٨) ﴾ [النساء].

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات].

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات].

وأحاديث الرسول ﷺ مليئة بالتوجيهات والإرشادات والمواعظ، وما يأتي بعض نماذج منها:

«طلب العلم فريضة» (رواه ابن ماجه).

«لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا» (أخرجه الترمذي).



**«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»** (أخرجه البخاري).

**«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»** (رواه أبو يعلى العسكري عن عائشة رضي الله عنها).

**«والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»** (أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي).

**«... وإن في بضع أحدكم لأجرا. قالوا: يارسول الله! إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: أرأيتم إن وضعها في حرام، أليس عليه فيها وزر؟ فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر!»** (رواه مسلم والحاكم).

وقد تقدم الرشيد لمعلم ولده الأمين بمذهب عده ابن خلدون من أفضل مذاهب التعليم، وهو عبارة عن مجموعة من التوجيهات والإرشادات. قال الرشيد: «يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته. . . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»(١).

وقد يأخذ التلقين صورة المناقشة والإقناع. كثيرا ما يأمر الأب ابنه، أو تأمر الأم ابنتها بأن تفعل كذا أو لا تفعل كذا. وكثيرا ما يسأل الولد أباه أو أمه: لماذا تصنعون كذا؟ يريد أن يعلم حكمة تصرف معين لأنه لا يريد أن يقلد ذلك التصرف دون أن يعرف سببه أو حكمته. عندئذ لا بد من مناقشة السبب، وتوضيح الحكمة حتى يطيع الأمر عن اقتناع وعلم دون مجرد التقليد بالاقتداء.

لكننا لا يجوز أن ننساق وراء ما تنادي به التربية الأمريكية والأوربية بصفة عامة، من أنه لا يجوز فرض الأوامر على الطفل دون اقتناع منه بأدائها.

فالإسلام لا يرى بأسا من أن «يعلم الطفل حكمة أي تصرف أو سببه، أما تعليق تنفيذ الأوامر على اقتناعه هو الشخصي بصواب ذلك الأمر فمفسدة للطفل أي مفسدة!

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، ص٥٤١ .



فضلا على مجافاته لأبسط مقتضيات المنطق السليم. وإلا فما العمل حين تكون خبرة الأرض قد استقرت على أمر معين ولكن الطفل غير مقتنع به لأن خبرته المحدودة تعجز عن إدراك الحكمة فيه؟! هل نترك الأمر الضروري اللازم الذي نعلم نحن ـ بوعينا وخبرتنا ـ أنه ضروري ولازم، وأن عدم الإتيان به ضرر محقق.. هل نتركه حتى يحدث الضرر؛ لأن الطفل لم يقتنع به بعد وقد لا يقتنع أبدا؟!(1).

إن منهج التربية الإسلامية يقوم ابتداء على طاعة الله، طاعة تسليم واطمئنان. والله -سبحانه وتعالى- قد يتفضل على عباده ببيان حكمة التشريع وقد يعطيهم التشريع في أحيان أخرى دون بيان الحكمة. وله -سبحانه- في كل حالة حكمة. وفي كل الحالات تلزم الطاعة ويلزم التنفيذ.

فهو -سبحانه وتعالى- يحرم الخمر والميسر، ويبين حكمة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة].

ويحرم عليهم مرة أخرى أشياء دون بيان حكمة التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

والله -سبحانه وتعالى- لا يمنع البشر عن استنباط حكمة التشريع بالاجتهاد في ذلك. لكنه لا يكل تنفيذهم لأوامره إلى معرفتهم بحكمة هذه الأوامر والتوجيهات فهو العليم بما وراءها من خير:

﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة]. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة].

ثم إن هذا التسليم لا يكون لغير الله، ولا يكون لغير رسول الله ﷺ الذي ينطق بالوحي الإلهي: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

---

(1) محمد قطب، مرجع سابق، ص١٢٣.



﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥ ﴾ [النساء] ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۝٣٦ ﴾ [الأحزاب].

على أنه من الضروري هنا أن نفرق بين الأطفال وبين الشباب العاقل المكلف الذي بدأ يدخل مرحلة النضج، أما بالنسبة للأطفال فليس معنى ما سبق أن يتحكم الأبوان تحكما فارغا لمجرد إلزام الطفل بالطاعة وتعويده عليها، فقد ينتهي ذلك به إلى الجنوح تمردا أو انطواء. ولكن معناه أن يتحرى الوالدان أو المعلم القصد في الأوامر، فلا يأمروا إلا بما له فائدة تربوية حقيقية، مع ترك المجال دائما لقدر من الاختيار في تصرفات الطفل، لكي لا ينشأ سلبيا، ويتعود تحمل المسئولية، ويواجه التبعات المترتبة على نتائج اختياره.

أما بالنسبة للشباب فلا بد حيالهم من التفريق بين أمرين: بالنسبة للأمور والقيم الثابتة فهي لا تحتمل الجدال ولا النقاش فيها، فإن عليهم تنفيذها أولا، ثم التفكير فيها وتدبر الحكمة من ورائها في أي وقت يشاءون على أن يساعدهم الكبار في ذلك. أما بالنسبة للأمور المتغيرة فلا بد من مناقشتها معهم حتى يصلوا إلى الاقتناع بوجه الصواب فيها، على أن يترك لهم حرية الاختيار والاقتناع بما يرونه بعد ذلك.

**المحاضرة والمناقشة والمناظرة:**

والمحاضرة والمناقشة والمناظرة كلها أساليب تلقين وتوجيه وإرشاد للكبار بصفة خاصة. وهي من التقاليد الإسلامية في عملية التعليم والتعلم. ففي الأزهر حتى عهد قريب كان الطلاب أحرارا في حضور دروسهم وفي اختيار أساتذتهم، وقد كان الأساتذة أحرارا في تحديد عدد المحاضرات التي يلقونها كل أسبوع، واختيار الأوقات التي يلقونها فيها. وكان بعضهم يلقى محاضرة واحدة كل يوم، وبعضهم يلقي محاضرة كل أسبوع. وكانت المحاضرات تلقى في حلقات، ولكل حلقة أستاذ خاص يقوم بالتدريس للطلبة الذين يحضرون فيها. وكان المحاضر يعد محاضراته ويدونها نقطة نقطة، ثم يتكلم عن كل نقطة، والطلاب يستمعون ويناقشون، ويدونون ما يشاءون من نقاط.

وقد شرح ابن خلدون طريقة المحاضرة في مقدمته، ونقد اعتماد الطلاب على المختصرات والمتون. ووضح كيفية الانتقال من الإجمال إلى التفصيل بطريقة متدرجة، فقال: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا



فشيئا، وقليلا قليلا، يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن. وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته. ثم يرجع به، وقد شد فلا يترك عويصا، ولا مهما، ولا مغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد، وهو ـ كما رأيت ـ إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه»(١).

وهكذا فابن خلدون ينادي بالتدرج في المحاضرة في ثلاث تكرارات، وذلك مراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين، فالذكي يفهم ويدرك العلاقات من المرة الأولى. ومن كان فوق المتوسط في الذكاء فهم المسائل بعد الاستماع إليها ومناقشتها في المرة الثانية. والمتوسط يدركها بعد المرة الثالثة.

ولقد ارتبطت المناقشة بالمحاضرة، فغالبا ما كان الأستاذ ينتقل من نقطة إلى أخرى حتى يناقشها مع طلابه الذين قد استعصى عليهم الفهم أثناء عرض الأستاذ، وفي أحيان أخرى كان الأستاذ يلقي محاضرته، وبعد أن ينتهي منها يترك الطلاب مع واحد من تلاميذه النابهين ليناقش الطلاب فيما خفى واستغلق عليهم فهمه من المسائل. وقد سمى هذا التلميذ المساعد لأستاذه فيما بعد باسم «المعيد»؛لأنه كان يعيد على مسامع الطلاب ما قاله أستاذه في كل نقطة من النقاط، ثم يشرحها ويفسرها لهم.

إن طريقة المناقشة تقتضي من المتعلم الإيجابية والنشاط والمشاركة وإعمال العقل كي يتم الفهم والتعلم. وهي بهذا أقرب إلى روح منهج التربية الإسلامية من طريقة المحاضرة والتلقين. فالإنسان يتعلم -وفقا لمفهوم منهج التربية الإسلامية- عندما يضرع إلى الله أن يعينه على المعرفة أو على حل مشكلة لديه، ثم يبذل في ذلك الجهد والنشاط اللازم والضروري وبالأسلوب المتقن الصحيح، عندئذ يلهمه الله الفهم أو الحل؛ لأنه أخذ بالأسباب المؤدية إليه، وهى الاستعانة بهدى الله، والسعي وبذل الجهد، فإذا حول الإنسان ما فهم إلى سلوك عملي في واقع الأرض فقد تعلم: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ..﴿٢٨٢﴾ ﴾ [**البقرة**].

(١) ابن خلدون : مرجع سابق، ص ٥٣٣ .

والحقيقة أن الممارسات التربوية في عصور الدولة الإسلامية الأولى قد عنيت عناية كبيرة بأسلوب المناقشة فحرية السؤال كانت مكفولة للجميع، وكان الأساتذة لا ينتقلون من نقطة إلى أخرى إلا بعد مناقشتها وفهمها من الجميع. وفي نهاية المحاضرة كانت الأسئلة تنهال على الأساتذة من كل صوب. كما كان للطلاب الحرية المطلقة في التعبير عن آرائهم، وقد يختلفون فيها مع أساتذتهم[1]، وسوف نلقي مزيدا من الضوء على هذه الطريقة فيما بعد في هذا الفصل.

وتعتبر المناظرة من الأساليب التربوية التي مارسها المسلمون في تربية أبنائهم. فهي تعتمد على اختلاف الآراء، واختيار الصحيح منها، كما تعتمد على المقارنة والموازنة، وقرع الحجة بالحجة، وتفنيد الآراء بالعقل والمنطق والأدلة المقنعة، كما لا يمكن إنكار أثر طريقة المناظرة في شحذ الذهن، وتقوية الحجة، والتمرن على سرعة التعبير وإتقانه، وتعويد المناظرين الثقة بالنفس، والقدرة على الارتجال.. ولهذا كله عنى بها المسلمون عناية كبيرة، وعدّوها طريقة من طرق التعليم الهامة، وأشاروا إليها في كتبهم الأدبية. كما أن المناظرات الأدبية كانت تقام في أسواق العرب القديمة كعكاظ، ومجنة، وذى المجاز وغيرها من الاجتماعات والندوات.

وكان العلماء يشجعون تلاميذهم على المناظرة والمناقشة، بل ويوجبون عليهم ضرورة التمرن عليها. وكان التلميذ يخالف أستاذه في الرأي أحيانا ولكن مع مراعاة التأدب والاحترام، وقد نقد ابن خلدون الركود الذهني في بلاد المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي، وعزاه إلى رداءة طرق التدريس لأنها أهملت المناظرة والمناقشة في التعليم فقال: «وأيسر طرق هذه الملكة نتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها، ويحصل مراميها، فنجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية ـ سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون. وعنايتهم بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة»[2].

فابن خلدون: يرى أن المناقشة والمناظرة تساعدان على فهم المسائل العلمية واستيعابها، وينتقد صمت التلاميذ وعدم مناقشتهم وتفاعلهم مع المواقف التعليمية، كما يأخذ عليهم عنايتهم بالحفظ أكثر مما تقتضيه حاجتهم. ويرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر كامل في الحفظ والتكرار.

(١) انظر محمد عطية الإبراشي، مرجع سابق، ص ٢٠٩.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص ٥٣١.

وفي مرحلة التعليم العالي، فإن منهج التربية في الإسلام يحبذ الرحلة في طلب العلم؛ أي أن ينتقل الطالب من بلدة إلى أخرى لتلقي العلم مباشرة عن أستاذ كبير في مادة من المواد، وقد تستغرق الرحلة عدة سنوات. ينتقل فيها الطالب في البلاد المختلفة لمقابلة مشاهير العلماء لأخذ العلم من منابعه.

وقد شرح ابن خلدون الأساليب التي جعلت الرحلات في طلب العلم من وسائل التربية الإسلامية فقال: «والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها؛ فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[1]. وهكذا نرى أن طريقة التعليم والتعلم في منهج التربية الإسلامية متأثرة بطبيعة المعرفة في الإسلام؛ فلا بد من النشاط وبذل الجهد في طلب العلم، حتى يلهم الله الإنسان الفهم، فيتغير سلوكه وفقا لما فهم.

### ٣ـ طريقة القصة

التربية بالقصة لون آخر من التربية يستخدم الحادث، ولكنه حادث خارجي، يقع لأشخاص غير قارئي القصة أو مستمعيها. . . . ومع ذلك فهو مؤثر في النفس كما لو كان يقع للقارئ أو المستمع ذاته. وهذا التأثير للقصة يقع عن طريقين اثنين في وقت واحد. . . . أحدهما هو المشاركة الوجدانية، فالمستمع أو المشاهد أو القارئ يتابع حركة الأشخاص في القصة ويتفاعل معهم فيفرح لفرحهم أو يحزن عليهم، أو يتشفى فيهم كما لو كانوا أحياء يتحركون أمامه.

«أما الطريق الآخر فربما كان يتم عن غير وعي كامل من الإنسان؛ ذلك أن قارئ القصة أو سامعها يضع نفسه مع أشخاص القصة أو يضع نفسه إزاءهم، ويظل طيلة القصة يعقد مقارنة خفية بينهم وبينه، فإن كانوا في موقف الرفعة والتميز، تمنى لو كان في موقفهم، يصنع مثل صنيعهم البطولي. وإن كانوا في موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك. . . . وبهذا التأثير المزدوج تثير القصة انفعالاتنا وتؤثر فينا تأثيرا توجيهيا يرتفع بقدر ما تكون طريقة الأداء الفنية بليغة ومؤثرة، وبقدر ما تكون المواقف داخل القصة مواقف «إنسانية» عامة لا مواقف فردية ذاتية»[2].

(١) المرجع السابق، ص ٥٤١ .

(٢) محمد قطب: مرجع سابق ج ص ١٥٤.



ومن هنا تأتي خطورة «الفن» في التربية... إن الفنان ذو براعة خاصة، تجعله يستطيع التأثير في الناس من خلال وصفه للمواقف والمشاعر والأحداث. ولا يكاد ينجو إنسان من تأثير الفن عليه. والرسول ﷺ يقول: «إن من البيان لسحرا!» فإذا كان الفنان منحرف المزاج يصف ببراعته الانحراف والجريمة على أنها بطولة فإنه يؤثر في القارئ أو المستمع ويحببه في الجريمة والفاحشة. وإن كان على بينة من ربه، وكان بارعا في فنه. فإنه ينشئ في نفوس قرائه أو مستمعيه حبا للقيم العليا والمواقف الإنسانية الفائقة(١).

ومنهج التربية الإسلامية يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم.

وهو يستخدم كل أنواع القصة: ومنها القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها. ومن هذا النوع كل قصص الأنبياء، وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من جراء ذلك. وهذه قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها، وأحداثها مثل قصة آدم، وموسى وفرعون، وعيسى وبني إسرائيل، وصالح وثمود، وهود وعاد، وشعيب وقوم مدين، ولوط وقومه، ونوح وقومه، وإبراهيم وإسماعيل.. إلى آخره(٢).

وهو يستخدم القصة الواقعية التي تعرض نموذجا لحالة بشرية، فيستوى أن تكون بأشخاصها أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج. ومن هذا النوع قصة ابني آدم:
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة].

وهو يستخدم القصة التمثيلية التي لا تمثل واقعا بذاتها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات، وفي أي عصر من العصور. ومن هذا النوع قصة صاحب الجنتين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، ط١٠، قصة موسى وبنو إسرائيل ص ٦٩ - ٨٠.



نهرًا ﴿٣٣﴾ وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا ﴿٣٤﴾ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا ﴿٣٥﴾ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا ﴿٣٦﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴿٣٧﴾ لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا ﴿٣٨﴾ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدًا ﴿٣٩﴾ فعسى ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك ويرسل عليها حسبانًا من السماء فتصبح صعيدًا زلقًا ﴿٤٠﴾ أو يصبح ماؤها غورًا فلن تستطيع له طلبًا ﴿٤١﴾ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا ﴿٤٢﴾ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف].

والقرآن يستخدم القصة لتربية جوانب الشخصية الإنسانية: لتربية الوجدان، وتربية العقل، وتربية الجسم. ويستخدمها في التوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس. والقصة في القرآن - على قلة الألفاظ المستخدمة فيها - حافلة بكل ألوان التعبير الفني من حوار، إلى سرد إلى تنغيم موسيقي، إلى دقة في رسم ملامح الشخصيات، وإلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة في القصة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع عليها بالنغم المطلوب(١).

لكن الإسلام وهو يستخدم القصة في منهجه للتربية يشترط أن تكون نظيفة. وليس المقصود بالنظافة هنا أن تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء. فالقرآن يعرض النفس البشرية في القصة كاملة، بكل ما فيها وما يعتريها من لحظات «ضعف بشري». كل ما هنالك أنه لا يصنع كما يصنع بعض القصاصين المحدثين المتأثرين «بالواقعية» الحديثة، المتأثرة بدورها بالتفسير الحيواني للإنسان. فالقرآن لا يجعل من لحظة الضعف الإنساني بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق والتهليل. إنه يعرضها عرضا واقعيا خالصا، ولكنه لا يقف عندها طويلا، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة والإنابة إلى الله.

فالقرآن يعرض إذن في القصص القرآني لحظات الضعف كما هي بلا «رتوش»، على أنها ضعف وخضوع لدافع من دوافع النفس البشرية الفطرية. «لكنها - على

(١) انظر سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط٧، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص١٤٣-٢١٥.



واقعيتها ـ لا تستحق الاحتفال! إلا من جانب واحد فقط ـ هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه. ويعرف أنها كانت لحظة ضعف، فيرتفع عنها، وينيب إلى الله[1].

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة].

«إنها قصة «الانسان» الذي كرمه خالقه ورفعه، ومنحه خلافة الأرض، على أن يكون سيدا لنفسه، وعبدا لله وحده دون شريك، لكنه يضعف، بسبب شهوة من شهوات نفسه... وينسى مهمته الضخمة في خلافة الأرض وتعميرها... ولكن الله مع ذلك لا يطرده من رحمته: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ »[2].

وكذلك الأمر بالنسبة ليوسف: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾، ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ [يوسف]

وكذلك الأمر بالنسبة لموسى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ [القصص].

«وهكذا لا يصنع القرآن من لحظات الضعف بطولة، ولا يعرضها على أنها مفخرة لآدم وبنيه من البشر، كما تعرضها بعض الآداب الأوربية. لكن يعرضها على أنها حالة عارضة تعتري الإنسان، ثم ما يلبث أن يرتفع فوقها حين يطيع دوافع الخير والهدى والصعود؛ ولذلك فإن القرآن وهو يعرض قصص «الفاحشة». إنه لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرف، كما تفعل القصص «الواقعية» و«الطبيعية» في المذاهب الحديثة الضالة. فلحظة الجنس ـ منحرفة ـ لا تستأهل الوقوف

(١) محمد قطب: مرجع سابق، ج١، ص ١٩٦.
(٢) محمد قطب، مرجع سابق، ص ١٩٥.

عندها بأكثر من مجرد الذكر. إنها ليست هي الحياة. إنها عارض يعرض في الحياة ويقضي. يقضي ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق»[1].

واستخدام القرآن للقصة في التربية يقررها كمبدأ من مبادئ منهج التربية الإسلامية، فعلينا أن نستغلها ونستغل قوة تأثيرها في الصغار والكبار على السواء، بشرط أن تكون مشوقة ومناسبة لكل عمر، وأن تكون مصوغة في القالب الذي ينفذ إلى وجدانهم وأن تكون مواقفها دافعة إلى الخير، ومنفرة من الشر والرذيلة، فلا ترسم المواقف الهابطة في صور جميلة، والمواقف المترفعة في صور تثير السخرية والنفور.

ويجب أن نبسط للأطفال قصص القرآن بلغة سهلة مشوقة، يستطيعون استيعابها استماعا أو قراءة. كما نستطيع أن نؤلف لهم القصص التي تحبب إليهم الفضيلة والمشاعر النظيفة، وتنفرهم من الرذائل والمشاعر الهابطة، فما أحوجنا إلى الكثير من الجهود في هذا المجال.

### ٤- طريقة التربية بالأحداث

لا شك أن من طرق التربية الفعالة، التربية بالأحداث، أي استغلال حدث معين لإعطاء توجيه أو تغيير سلوك معين. وميزة هذا التوجيه وهذا التغير في السلوك، أنه يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزا فتكون أكثر قابلية للتأثير، ويكون التوجيه والتغير في السلوك أفعل وأعمق وأطول أمدا في التأثير من تلك التوجيهات والتغيرات العابرة التي تأتي «على البارد» بغير انفعال ولا حدث يهز المشاعر[2].

«إن المثل يقول: اضرب الحديد وهو ساخن! لأن الضرب حينئذ يسهل الطرق والتشكيل، أما إذا تركته يبرد فهيهات أن تشكل منه شيئا ولو بذلت أكبر الجهود؛ لذلك كان استغلال الحادثة و «الحديد ساخن» مهمة كبيرة من مهام التربية، لينطبع على النفس في حالة انصهارها ما يريد المربي أن يطبعه من التوجيهات والتهذيبات، فلا يزول أثرها أبدا... أو لا يزول من قريب»[3].

والأحداث إما أن تكون تلقائية تحدث بسبب التصرفات الخاصة للناس، أو لأسباب خارجة عن إرادتهم وتقديرهم. وإما أن تكون منظمة ومخططة مسبقا كي يمر بها الصغير أو الكبير بقصد إثارة مشاعره وانفعاله حتى يسهل «تشكيله» وتغيير سلوكه في الاتجاه المرغوب و «الحديد ساخن».

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ج١، ص١٩٩.
(٢) محمد قطب، المرجع السابق، ج٢، ص١٥١ .
(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٨ .



والمربي البارع لا يترك الأحداث ـ تلقائية كانت أم مخططة ـ تذهب سدى بغير عبرة توجيه في الاتجاه المرغوب.

ولقد قام الإسلام بتربية الأمة الإسلامية من منشئها، باستغلال الأحداث وكان من نتيجة ذلك تلك الأمة الفريدة في التاريخ، التي شهد لها خالقها فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ومن أجل هذا الهدف كانت التربية بالأحداث يوم «أحد»، للذين فتنتهم غنائم المعركة، فنسوا الهدف الأصيل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران].

ولقد كان الدرس قاسيا وعنيفا يوم حنين، يوم اعتز المسلمون بكثرتهم وأعجبتهم قوتهم فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة! فكان الدرس ـ كما كان في مكة ـ هو ردهم إلى الله، للاعتزاز به وحده، واستمداد القوة منه، وعدم النظر إلى أية قوة أرضية على أنها العامل الحاسم في المعركة، وإنما العامل الحاسم هو في قوة إيمان المسلمين بالله، واعتزازهم به: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة].

وكانت التربية بالأحداث للذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله ﷺ في موقعة «تبوك»: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ



لا يُصيبهُمْ ظَمأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ اللَّه وَلا يَطَئُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إلاَّ كُتبَ لَهُم به عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَاديًا إلاَّ كُتبَ لَهُمْ ليَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة].

بهذه الطرقات العنيفة و «الحديد ساخن»، وبهذا التشكيل والتوجيه المستمرين حتى لا يتخلف أحد عن الجهاد في سبيل الله، تم لمنهج التربية الإسلامية ما أراد... وتحقق الهدف، فلم يتخلف أحد بعد ذلك عن الجهاد.

لكن المربي قد لا ينتظر وقوع الأحداث بطريقة تلقائية حتى يستغلها في تشكيل المتعلم وتوجيه سلوكه، فالمنهج قد يخطط للأحداث وينظمها بحيث يمر بها المتعلم، وكأنها أحداث تلقائية، فينفعل بها ويتأثر ويستغل المربي ذلك في عملية التوجيه والتشكيل. وهذا ما سمي حديثا باسم: التعلم عن طريق الخبرة، أو طريقة المشروع. وخطورة هذه الطريقة تكمن في عدم التخطيط الدقيق للأحداث فتجيء مفتعلة وغير مناسبة للمتعلم، أو للواقع الذي يعيشه، أو لحاجات المتعلم ومطالبه الضرورية، فتفقد عنصر الإثارة، و «السخونة» فلا ينفعل المتعلم بها، ولا ينفذ التوجيه، ولا يتم التشكيل عن طريقها، وبالرغم من ذلك تبقى الأحداث ـ تلقائية كانت أو مخططة ـ من أهم طرق التربية، إذا ما أحسن المربي استغلالها في توجيه المربى وتغيير سلوكه في الاتجاه المرغوب.

ومنهج التربية الإسلامية يستخدم ـ بالإضافة إلى الطرق السابقة ـ بعض الأساليب الأخرى التي تعمل متعاونة في تربية الإنسان الصالح. ومن أهم هذه الأساليب: أسلوب تكوين العادات، وأسلوب المثوبة والعقوبة، وأسلوب استثمار الطاقة، وأسلوب استثمار وقت الفراغ. وسنعرض فيما يلي إلى كل أسلوب من هذه الأساليب بشيء من الإيجاز.

### ٥ـ تكوين العادات:

تؤدي العادة مهمة خطيرة في حياة الإنسان. فهي توفر له جهدا كبيرا ووقتا طويلا، كي يبذلهما في ميادين جديدة في العمل والإنتاج، ولولا فضل الله على الإنسان بإقداره على تكوين العادات لقضى حياته كلها يتعلم المشي والقراءة والكتابة.

والإسلام يستخدم العادة كوسيلة من وسائل التربية، فيحول المعايير والقيم الثابتة إلى عادات يقوم بها الإنسان بغير كد وبغير جهد.



وقد بدأ منهج التربية الإسلامية مع الجماعة الأولى بتكوين العادات الجديدة. وقد سار في ذلك في اتجاهين: الأول هو تخليصهم من العادات القديمة السيئة. والثاني هو تثبيت العادات الجديدة والقيم العليا الثابتة.

أما بالنسبة لتخليص المسلمين الأوائل من العادات السيئة فقد سار المنهج بطريقتين أيضا: الطريقة الأولى هي طريقة الاستئصال والحسم منذ اللحظة الأولى، وذلك تجاه الشرك بكل عاداته وتصوراته، وعادة وأد البنات، وكذلك عادات الكذب والغيبة والنميمة، والكبرياء الزائف. وهذه كلها عادات فردية. والطريقة الثانية، وهي طريقة التدرج في تكوين العادات، وخاصة العادات «الاجتماعية» التي لا تقوم على مشاعر الفرد وحده، وإنما ترتبط بأحوال اجتماعية واقتصادية متشابكة. مثل الخمر، والزنا، والرق، والربا، وغير ذلك.

وكان الإسلام يستخدم في ذلك منهجه الخاص في التغير الاجتماعي فهو يلجأ أولا إلى إثارة الوجدان وإنشاء الرغبة في العمل وتكوين الميل. ثم يحول الميل والرغبة إلى عمل وسلوك واقعي فيتطابقان: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

ومن أبرز أمثلة «العادة» في منهج التربية الإسلامية شعائر العبادة وفي مقدمتها الصلاة. فهي تتحول بالتعود إلى عادة لصيقة بالإنسان لا يستريح حتى يؤديها. وكذلك كل الآداب وأنماط السلوك الإسلامي، مثل: آداب الطعام والشراب، وآداب المشي والجلوس، وآداب النوم، وآداب التحية، وآداب الأسرة، وآداب قضاء الضرورات، وآداب الحديث، وآداب السفر... إلى آخره.

ولا شك أن تكوين العادات في الصغر أيسر بكثير من تكوينها في الكبر ومن أجل هذه السهولة في تكوين الصغر يأمر الرسول ﷺ بتعويد الأطفال على الصلاة قبل موعد التكليف بها بزمن كبير، حتى إذا جاء وقت التكليف تكون الصلاة قد أصبحت عادة: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر**» (أخرجه أبو داود).

وكما يتم تكوين العادة بالقدوة، فإنه يتم أيضا بالتشجيع والتلقين وعن طريق الإلزام باللطف أو الشدة.

ورغم أهمية تكوين العادة كأسلوب ضروري لاكتساب المهارات وأداء السلوك العالي بدون جهد، إلا أن هذا السلوك ربما يتحول إلى أداء آلي خال من الإحساس



بالقيم الكامنة وراء هذا السلوك. والابتعاد عن هذه الخطورة إنما يكون بربط القلب دائما بالله. والتذكير بأن هذا السلوك إنما هو عبادة لله وتطبيق لمنهجه في عمارة الأرض.

### ٦ـ الثواب والعقاب:

الأصل في استخدام منهج التربية الإسلامية لأسلوبي الثواب والعقاب شيئان: **الأول**: تربية الإنسان على التعلق بالله وحده، وطلب العون منه وحده، ورجاء الآخرة ونعيمها، وعدم نسيان الإنسان لذلك طوال معاناته ومكابدته في عمارة الأرض. الشيء **الثاني**: خشية الله، والخوف من غضبه المؤدي إلى العذاب في الدنيا والآخرة، وعدم الخوف من أي شيء على الأرض أثناء عمارته لها: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور]. ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴿١٩﴾ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴿٢٠﴾ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الرعد].

إن الناظر المدقق إلى الجماعة المسلمة الأولى التي تربت على هذا المنهج الرباني، بما فيه من توقيعات كثيرة ومتنوعة على خطى الرجاء والخوف ليدرك عظم الثمار التي تؤتيها هذه التوقيعات المختلفة والمتنوعة في بناء الكيان الإنساني القادر على عمارة الأرض، وعلى القيام بحق استخلاف الله له فيها.

ولقد أثبتت التجربة وأثبت الواقع، أن التربية الرقيقة اللطيفة الحانية في غير إفراط ولا مبالغة، كثيرا ما تفلح في بناء كيان الطفل على استقامة ونظافة واستواء. لكن الإفراط في «الرقة واللطف والحنو تضر ضررا بالغا لأنها تنشئ كيانا ليس له قوام. والنفس في ذلك كالجسم، إذا رفقت بجسمك رفقا زائدا فلم تحمله جهدا خشية التعب، ولا مشقة خشية الإنهاك، فالنتيجة أنه لا يقوى أبدا ولا يستقيم له عود. وإذا رفقت بنفسك رفقا زائدا فلم تحملها أبدا على ما تكره، فالنتيجة أنها تتميع وتنحرف ولا تستقيم. . . . وفضلا عن ذلك فإنها تشقى صاحبها لأنها لا تدع له فرصة يتعود فيها على ضبط مشاعره وشهواته. . . فيصطدم بالواقع الأرضي الذي لا يعطي الناس قط كل ما يشتهون»[1].

إن الإسلام يستخدم جميع وسائل التربية، ويوقع عليها جميعا لعلها جميعا، أو لعل أحدها يصل إلى النفس وينفذ إليها دون غيره. فهو يستخدم القدوة، وحين لا تفلح

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، ج١، ص ١٩٠ - ١٩١.

يستخدم التوجيه والموعظة الحسنة، وحين لا تفلح يستخدم القصة، أو الحدث. وقد يستخدم كل هذا في وقت واحد. وحين لا يفلح كل هذا فإنه يستخدم العقوبة ليضع الأمور في موضعها الصحيح.

ومن هنا فليست العقوبة أول ما يجب أن يخطر على بال المربي، ولا يجب أن تكون هي أقرب السبل وأولها ، بل القدوة والموعظة الحسنة يجب أن تأتي أولا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]. ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وهكذا، فالمربي إنما ينبغي أن يبدأ بالمثوبة إلى أن يحتاج إلى العقوبة. والعقوبة الحسية ليست أول ما يلجأ إليه المربي. فهناك العقوبة المعنوية. والمربي يلجأ إليها أولا، إلى أن يحتاج إلى العقوبة الحسية.

ومنهج التربية الإسلامية ـ وهو المنهج الرباني ـ يأخذ في اعتباره الفوارق الفردية بين طفل وآخر. فهذه الفوارق هي التي تقرر الجرعة اللازمة من القدوة، والموعظة، والثواب، والعقاب، أو منهم جميعا. «فهناك طفل لا يحتاج إلى أن تعاقبه مرة في حياتك. . فلم تعاقبه؟! وهناك طفل يرى في إعراضك عنه لحظة عقوبة قاسية لا يحتملها وجدانه. . . فلم تتجاوز معه لحظة الأعراض؟ أو تطيل عليه الأعراض؟ وطفل يبكي ألما إذا عبست في وجهه. . فلم تتجاوز معه هذه الوسيلة الفاجعة؟ ثم هناك طفل لا يرعوي أبدا حتى يذوق العقوبة الحسية الموجعة. . وأكثر من مرة»[1]، فإذا استخدمت معه أسلوب الأعراض أو الإغراء، فإنك بذلك تفسده، تماما كما تفسد الطفل الذي لا يحتاج منك سوى الأعراض عنه قليلا بتوقيع العقوبة الحسية عليه.

**والخلاصة هنا**، أن وضع قاعدة مسبقة باستخدام العقوبة، أو بعدم استخدامها على الإطلاق، مفسد للتربية، تماما كوضع قاعدة مسبقة بضرورة استخدامها في كل حالة ولو لم تدع إليها الضرورة. والمربي الحكيم -من وجهة نظر منهج التربية الإسلامية- هو الذي يدرس الحالة التي بين يديه، ثم يقرر لها الأسلوب أو الأساليب المناسبة نتيجة لذلك.

### ٧- استثمار الجهد والوقت الفائضين:

«بقي لدينا من وسائل التربية وسيلتان متقاربتان في الأسلوب متشابهتان في الغاية. إحداهما تتصل بالجهد الفائض، والأخرى تتصل بالوقت الفائض. . وكلتاهما

---

(١) محمد قطب، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٣٦ .

ذات أهمية في التربية.. فأما الجهد الفائض.. فينبغي أن يستنفد في عمل طيب، سواء كانت له منفعة مادية (كما يتوقع من الشباب) أو لم تكن (كما هو الأمر بالنسبة للأطفال)، فليس المهم بالنسبة للطفل الصغير النفع المادي، بقدر ما يهم البناء النفسي السليم»[1].

والأصل هنا أن الجهد الفائض طاقة لا بد من بذلها، فإذا لم تبذل في الخير، فإنها ستبذل في الشر لا محالة. وكذلك الأمر بالنسبة للوقت إذا لم يستثمر في الخير، فإنه سيستنفد في الشر لا محالة. ومن هنا تأتي الخطورة، وتأتي أهمية منهج التربية الإسلامية بهما.

فالجهد الفائض لا بد من تنظيم منطلقاته لتصريفه فيما ينفع البناء النفسي السليم للصغير والكبير على السواء. واللعب يمثل جانبا هاما ومنطلقا رئيسيا من منطلقات تصريف الجهد بالنسبة للأطفال. فاللعب بالنسبة للصغير مجال واسع للتربية والتوجيه وتنمية المواهب والقدرات والاستعدادات.

ولكن ينبغي أن لا يخرج المربي بلعب الطفل عن كونه «لعبا» علي أي حال فقلب اللعب إلى «جد» يفسد طعمه ويفسد مفعوله. ولا بأس من تكليف الطفل ـ إلى جانب اللعب ـ بترتيب أشيائه في المنزل وتنظيمها، والقيام ببعض الأشياء البسيطة. كشراء بعض الأشياء من الخارج دون أن يكون لذلك أثر سيئ على حالته العصبية أو الجسمية. وتكليف الطفل على هذا النحو ينمي لديه بعض العادات الحسنة، ويستنفد جهده ووقته في الخير في نفس الوقت.

أما بالنسبة للكبار، فإن استثمار جهدهم فيما يعود عليهم بالنفع جسميا وعقليا وروحيا واجتماعيا بالقراءة والعبادة، والمشاركة في المشروعات الاجتماعية التي تساهم في عمارة الأرض وترقية الحياة فيها على أساس منهج الله، يعتبر أمرا هاما.

إن الوقت الفائض ـ كما قلنا ـ كالجهد الفائض... إنه طاقة، فإذا لم تبذل في الخير، فإنها ستبذل في الشر لا محالة.

وفي الإسلام لا يوجد فراغ، وخاصة لدى المكلفين من الناس. فالعبادة بمعناها الشامل، الذي يشمل الحياة، كل الحياة، أي التوجه إلى الله بكل عمل، وكل فكر، وكل تصرف، والانشغال في عمارة الأرض، وترقيتها على هدى من منهج الله، كل هذا لا يترك فراغا أبدا.

ومع ذلك، فإذا وجد وقت الفراغ، فإنه يجب أن يشغل في الذكر والعبادة التطوعية بعد أداء الفرائض. وفي حفظ القرآن وتدارسه وفهمه، وفي زيارة الأصحاب

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٦ .

والأحباب وعيادة المرضى من المعارف والأصدقاء. وفي المرح النظيف مع زوجته وأولاده. وفي ممارسة الرياضة التي تقوي الجسم والعقل والوجدان، وتعين على حسن الأداء، وتحمل مشاق الكدح في عمارة الأرض، والقيام بأعباء الخلافة فيها. وكل هذه الألوان من العبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه، وتزيد نفسه ثراء، كما تزيد الدنيا خيرا.

### ٨- طريقة المناقشة:

إذا نظرنا إلى الموقف التعليمي وجدنا أنه يقوم على أساس الاتصال اللغوي بالدرجة الأولى. وهذا الاتصال يمكن أن يتم في صور ثلاث: الصورة الأولى يقوم فيها المعلم بتوجيه الحديث إلى المتعلمين، والصورة الثانية يقوم المتعلمون بتوجيه الحديث إلى المعلم، والصورة الثالثة يتبادل فيها الدارسون والمعلم الحديث والاستماع إلى بعضهم البعض، وهذه هي المناقشة(١).

وهذه الطريقة من أفضل الطرق وأقربها إلى روح منهج التربية الإسلامية، وقد اتبع الرسول الكريم ﷺ هذه الطريقة في تبليغ رسالته بوحي من الله: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)** ﴾ [النحل].

والمناقشة هي أن يشترك المدرس من المتعلمين في فهم وتحليل وتفسير وتقويم موضوع أو فكرة أو عمل أو مشكلة ما، وبيان مواطن الاختلاف والاتفاق فيما بينهم، من أجل الوصول إلى قرار. وعلى هذا فهي من أهم ألوان النشاط التعليمي للكبار والصغار على السواء. وإذا أضفنا إلى ذلك ما تقتضيه الحياة الحديثة من اهتمام بالمناقشة والإقناع وجدنا أنها يجب أن تحظى بمكانة كبيرة في المدرسة. فحياتنا بما فيها من تخطيط، ومشاورات، وانتخابات ومجالس محلية أو إقليمية، ونقابات، وما إلى ذلك تقتضي أن يكون كل فرد قادرا على المناقشة كي يستطيع أن يؤدي واجبه كإنسان في مجتمع كبير أو صغير على أساس من الحرية والعدالة الاجتماعية.

وإذا تأملنا حياة المتعلمين خارج المدرسة وداخلها وجدنا كثيرا من مواقف المناقشة التي تجري أثناء الزيارات، وعند تقديم الناس بعضهم لبعض، وعلى الموائد العامة، وفي المؤتمرات، وهناك المناقشات التي تجدها عند الخلاف حول مسألة ما، أو عند وضع خطة

---

(١) انظر: علي أحمد مدكور «طريقة المناقشة وأهميتها في تعليم الكبار»، التربية المستمرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار لدول الخليج بالبحرين، العدد الثامن، السنة الخامسة، يونيو ١٩٨٤م، ص ٤٦ .



للقيام بعمل ما أو عند تقويم عمل ما، فكل هذه مجالات للمناقشة، ينبغي تدريب المتعلمين على آدابها وأصولها. وهم ربما لن يكتسبوا هذه المهارة إلا إذا كنا قدوة لهم؛ فعلمناهم عن طريقها.

### أنواع المناقشة:

تختلف المناقشة تبعا لاختلاف أهدافها، وعلى هذا فهي نوعان:

١ـ المناقشة الحرة.

٢ـ المناقشة الموجهة أو المضبوطة.

**فالمناقشة الحرة** تهدف إلى الحصول على الأفكار الجديدة والمبتكرة والمفاجئة التي تأتي نتيجة للقذف الذهني Brainstorming في قضية ما، وتستخدم هذه الطريقة داخل حجرات الدراسة مع الصغار والكبار على السواء. وهذا النوع من المناقشة فعال في الوصول إلى التعميمات، والطرق المبتكرة لحل المشكلات.

وتمتاز هذه الطريقة بأنها طريقة الحركة الحرة للعقل، التي ينتج عنها الكثير من الأفكار والمقترحات حول موضوع أو مشكلة ما، وقد يكون منها العملي جدا، وقد يكون منها الخيالي بعيد الاحتمال أو الحدوث، فالهدف هنا هو الحصول على كثير من الأفكار دون تدخل من أحد للسيطرة على المناقشة أو توجيهها. ومن عيوب هذه الطريقة أنها تحتاج لوقت طويل نسبيا، وقد تأتي المناقشة إلى نهايتها دون الوصول إلى قرار[١].

**وأما المناقشة الموجهة،** فهي تهدف إلى الوصول إلى الأفكار والمعلومات أيضا عن طريق المتعلمين. ولكنها ـ بالمقابلة إلى المناقشة الحرة ـ تركز على موضوع معين، من أجل الوصول فيه إلى قرار. وطبقا لهذا النوع من المناقشة، فإن المدرس قد يجعل الجماعة كلها تشترك في النقاش حول الموضوع، وقد يقسم الدارسين إلى جماعات صغيرة، ويعطي كل مجموعة مشكلة خاصة، أو جانبا محددا من جوانب الموضوع وبعض الوقت كي يصلوا فيه إلى قرار. وإذا كان المدرس قد وصل بالفعل إلى قرار أو قرارات، فإن عليه أن يتمهل حتى يرى بدائل لقرارته من تلك التي وصل إليها المتعلمون.

وقد تدور المناقشة حول مائدة مستديرة. وهذه عبارة عن جماعة من الدارسين مع قائد لهم يتبادلون الأفكار فيما بينهم حول موضوع ما، ومسئولية قائد الجماعة هنا هي

---

(١) علي أحمد مدكور، المرجع السابق، ص ٤٧.

إثراء المناقشة وتحريكها حول هذا الموضوع، وإثارة التساؤلات التي تعمق المناقشة، وإزالة السأم والملل اللذين قد يطرآن عليها من آن لآخر، وتلخيص ما دار في المناقشة، والنتائج التي توصلت إليها الجماعة في النهاية. وهـذا النوع من المناقشة مناسب بصفة خاصة مع الدارسين الكبار.

وهناك ما يسمى **بالمناقشة على مـلأ من المستمعين**. وهي عبارة عن مجموعة من المتخصصين يتناولون موضوعا ما بالتحليل والتفسير والتقويم؛ كل من جانب تخصصه، وبعد أن تنتهي جماعة المناقشة من عرض المـوضوع من مختلف الجوانب يتركون الفرصة لمن يريد أن يسأل سـؤالا من المستـمعين، والسؤال من المسـتمع قـد يوجه إلى جمـاعة المناقشة كلها، وقد يوجه إلى عضو واحد منها فقط. وهذا النوع من المناقشة بالمقارنة إلى المناقشة حول مـائدة مستديرة يعتبر أكـثر ضبطا وتنظيما، ويتطلب إعدادا مسـبقا بطريقة جيدة. وهذا النوع من المناقشة يناسب الجماعات الكبيرة العدد من الكبار والصغار[١].

**مزايا طريقة المناقشة:**

وعلى كل حال، فإن كثـيرا من البحوث التربوية تميل إلى تفضـيل طريقة المناقشة في التدريس للأسباب التالية:

١ـ إن طريقة المناقـشة تسلم بإيجابيـة المتعلم وتفرده، وتؤمن بدوره في العـملية التعليـمية، وقـدرته على التعلم، من خـلال المناقشة والمشاركة، والعـملية التعليمية هي عملية اتصال تعتمد على المشاركة والتفاعل.

٢ـ إن طريقة المناقشة تقتضي أن تكون علاقـة المدرس بتلاميذه علاقة قائمة على الاحتـرام المتبادل، وإيمان المدرس بقـدرة الدارسين على المشاركة الإيجـابية. وبالطبع فإن المتعلم إذا أحسن بذلك زاد نشاطه وزادت فاعليته.

٣ـ إن طريقة المناقشة أكـثر جدوى في تنمية القيم والاتجـاهات والمستويات العليا في الجانب المعرفي من طريقة المحاضرة.

٤ـ إن طريقة المناقـشة تساعـد أكثر على اكـتساب مـهارات الاتصال، وخـاصة مهارات الاسـتماع والكلام وإدارة الحوار، كمـا أنها تكسب الدارس أساليب وآداب النقاش القائمة على النظام واحترام الآراء، كـما تتيح الفرصة للأفراد من ذوي الاستعدادات القيادية لتنمية هذه الاستعدادات وصقلها.

---

(١) علي أحمد مدكور، المرجع السابق، ص٤٧ ـ ٤٨.

٥- إن طريقة المناقشة تتيح للمتعلم الفرصة كي يتحدث في موضوعات تهمه، ومشاكل تشغله، وبذلك فهو يشعر بقيمة التعلم وأهميته في حياته فيزداد إقباله عليه وتفاعله مع الأنشطة التعليمية.

٦- يقول وليم جلاسر William glasser: إن المناقشة في الفصل الدراسي يمكن أن تساعد الطلاب بقوة في تحليلهم لمشكلاتهم والتعامل معها، واستخلاصهم للنتائج المترتبة على مناقشاتهم، كما أنها تساعدهم أيضا في اتخاذ القرارات نحو ما يجب عليهم عمله. هنا يلعب المعلم دور قائد المناقشة المساعد والمعدل لا المستبد المملي على المتعلمين ما يجب عليهم أن يقولوا أو لا يقولوا، أن يفعلوا أو لا يفعلوا.

٧- إن طريقة المناقشة تجعل المعلم أكثر إدراكا لمدى انتباه الدارسين وتقبلهم أو عدم تقبلهم لموضوع المناقشة فيعمل على تعديله، أو العدول عنه، أو التعامل معه بكيفية أخرى، وقد يساعد المعلم المتعلمين على تقويم ما يرون، آخذين في الاعتبار موضوع المناقشة الأساسي.

«وجملة القول: إنه كلما طال حديث المدرس واتجه إلى التأثير المباشر واستخدام السلطة في المناقشة، توقفت عملية الاتصال والتفاعل، وأنه كلما اتفق الإطار المرجعي لكل من المدرس والدارس، ساعد ذلك على نجاح عملية الاتصال. وإن الثقة المتبادلة بين المدرس والدارس تساعد على التفاعل وإثراء الخبرات التعليمية»(١).

### ٩- طريقة حل المشكلة:

المشكلة هي سؤال محير أو موقف مربك يجابه به الشخص، بحيث لا يستطيع الإجابة عن السؤال، أو التصرف في الموقف عن طريق ما لديه من معلومات أو مفهومات أو مهارات جاهزة. فالمشكلة توجد عندما يواجه الشخص بسؤال لم يواجهه من قبل، أو عندما يجابه بموقف غير عادي لم يتعود على مجابهته، وليست لديه معلومات أو مهارات أو طرق وأساليب جاهزة للرد عليه أو التصرف فيه بطريقة صحيحة. وعليه عندئذ أن يضع كل معلوماته ومهاراته ومفهوماته السابقة في قالب جديد لم يكن موجودا لديه من قبل، وعن طريق ذلك قد يستطيع الإجابة عن السؤال أو التصرف في الموقف، وقد يتطلب الأمر اكتساب معارف ومفهومات ومهارات جديدة

(١) المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.



من أجل الوصول إلى الإجابة الصحيحة، أو التصرف السديد في الموقف الجديد المربك[1].

وعلى هذا فإن الشخص يكون مواجها بسؤال محير أو موقف مشكل إذا توافرت الشروط التالية:

١ـ أن يكون لدى الشخص هدف واضح يعيه ويرغب في تحقيقه. وهذا يستلزم ضرورة أن يكون لدى الشخص دافع ورغبة للإجابة عن السؤال أو لحل الموقف، وإلا فليست هناك مشكلة.

٢ـ أن توجد عوائق وعقبات في طريق تحقيق الهدف، وأن تكون أنماط السلوك والاستجابات الاعتيادية، وكذلك المعلومات والمهارات الجاهزة غير كافية لتخطي هذه العوائق والتخلص من العقبات.

٣ـ يفكر الشخص في الموقف أو في السؤال بتروٍّ وتأن، وأن يستعين في ذلك بإعادة تنظيم معارفه ومهاراته السابقة، أو بإضافة معارف ومهارات جديدة، حتى يصل إلى فهم أكثر دقة للسؤال أو الموقف.

٤ـ أن يضع الشخص مجموعة الحلول أو الفرضيات المناسبة للموقف أو المشكلة ثم يقوم باختبارها لمعرفة مدى مناسبتها للمشكلة.

وكل ما سبق يعني أن موقفا ما قد يكون مشكلة لشخص ما بينما لا يكون. كذلك بالنسبة لشخص آخر، وذلك حسب رد الفعل الشخصي تجاه الموقف، الذي يتوقف بالتالي على خبرات الشخص ومعارفه، ومهاراته، وعلى مكونات شخصيته.

### طبيعة عملية حل المشكلات

وعلى كل حال، فإن المشكلة تتطلب من المتعلم استرجاع المعلومات والمهارات والمفهومات التي تعلمها من قبل، واستخدام كل ذلك في عمليات التحليل والتركيب والاستبصار. فالمتعلم يضع نفسه في قالب جديد كي يواجه الموقف المشكل الجديد أيضا.

وتعتبر عملية حل المشكلات من أعقد النشاطات الإنسانية إن لم تكن أعقدها على الإطلاق. فهي عملية نشاط عقلي عال: لأنها تحتوي على عمليات عقلية كثيرة

(١) انظر: عبدالله المغيرة: طرق تدريس الرياضيات، عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، الفصل الخاص بحل المشكلات.



ومعقدة، مثل: التـذكر، والفهم، والتطبيق والتحليل والتركيب والاستـبصار والتجريد، والتعميم وغـير ذلك من العمليات العقلية والمهارية والانفـعالية المتداخلة؛ ولذلك فليس غريبا أن يكون التغير والتطور السريع والمتلاحق في العلم والمعرفة وفي التطبيق التقني في العالم ما هو إلا نتيجة لمواجهة المشكلات وحلها.

وتسمى طريقة حل المشكلات بطريقة التفكير المنتج؛ فـهي الطريقة العلمية المطبقة في حل المشكلات الإنسانية الممتدة من المشكلات البسيطة للحياة اليومية، إلى المشكلات الاجتماعية المعقدة، إلى المشكلات العقلية المجردة.

**أهمية طريقة حل المشكلات**

١ـ وتنبع أهمـية طريقـة حل المشكلات في التعلـيم والتعلم من أنهـا سلسلة من العمليات العقلية والمهارية والوجدانية التي نتعلم من خلالها أفكارا ومهارات وقيما ومفهومات جديدة، فالمدرس الواعي يستخدم طريقة حل المشكلات لا لتطبيق وإيضاح مفهـومات أو تعميمات سابقة فـقط، ولكن أيضا لاكتشاف مفهومات وتعميمات جديدة.

٢- طريقة حل المشكلات تزود المتعلم بالفرص المتنوعة لممارسة معلوماته ومهاراته ومفهـوماته السابقة، فعن طريق حل المشكلات نتـعلم كيف نحول أو نطور المفهومات والتعميمات السـابقة ونستعملها في مواقف أو مشكلات جديدة. فممـا لا شك فيه أن انتقال أثـر التعلم من خلال تطبيق ما تـعلمه الفرد في حل المشكلات أيسر وأعـمق من انتقال أثر التعلم من خلال تـعلم معلومات ومفاهيم وتعميمات منفصلة ومجردة.

٣ـ طريقة حل المـشكلات وسيلة لإثارة الفـضول العقلي والمتـعة، والرغـبة لدى المتعلم في البحث عن الحل، وخاصة إذا كانت المشكلة متصلة بميل أو حاجة لدى المتعلم، أو تثير رغبته في التحدي.

٤ـ تنمي الشعور بالثـقة والإيجابية، وتجعل المتعلم يثق بقـدراته ومهاراته، وتنمي لديه القـدرة على المناقشـة، والتفكير الـنقدي وتنمي العـلاقة القائمـة على الاحترام والثقة بين المدرس والمتعلم.

٥ـ هي طريقة تقـوم على أساس خطوات البحث والتفكيـر العلمي. ويربط جون ديوي بين طريقة التفكير التـام وبين طريقة حل المشكلات، على أساس أنها

طريقة علمية تعتمد على التفكير التام. ويرى أن هناك خمسة أطوار لإتمام عملية حل المشكلات التي تعتمد على الطريقة العلمية، وهي كما يلي:

أ - تحديد المشكلة.

ب- التعرف على الحالات والشروط والظروف المحيطة بالمشكلة، عن طريق تحديد العوامل المؤثرة فيها والمتأثرة بها، وجمع كل المعلومات المتصلة بها، مما يؤدي إلى فهم المشكلة وتحديدها بصورة أكثر دقة.

جـ- وضع فرضيات للحلول الممكنة لهذه المشكلة.

د - دراسة كل فرضية من هذه الفرضيات على أساس القيمة المحتملة لكل منها، وعلى أساس التنبؤ بالنتائج المحتملة لكل حل.

هـ- اختبار صحة كل فرضية أو حل، على أساس السؤال الآتي: ماذا يمكن أن يحدث لو فعلنا كذا أو كذا؟، ثم اختيار الفرضية التي تنتج الحل الأمثل وفقا للإجابة عن هذا السؤال.

**١٠ـ تفريد التعليم والتعلم الذاتي:**

يختلف الناس في الطرق التي يتعلمون بها. فمنهم من يتعلم أكثر وأسرع عن طريق مشاركته الخبرة مع الآخرين. ومنهم من يتعلم أفضل عن طريق الانفراد. وعلى كل حال فإن كل فرد يتعلم عن طريق تفسير الخبرات من وجهة نظره الخاصة، وفي ضوء خبراته الخاصة. فالتعلم ـ إذن ـ عملية فردية لا يمكن فرضها على الجماعة، فكل شخص له نمط تعليمي خاص به.

وقد أشار أبو حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري إلى أن المربي كالطبيب. فالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم. وكذلك المربي يجب أن يعامل كل تلميذ المعاملة التي تناسب سنه، ومستواه العقلي، وطاقته ومقدرته. يقول الغزالي: «وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة[1] أهلكهم، وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وماتحتمله بنيته من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته»[2].

(١) المراد بالرياضة هنا: طريقة التناول والمعالجة للمشاكل التعليمية.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الثالث، بيروت، دار القلم ط١، ص٥٩ .

ولقد سار التعليم في مدارس الإسلام الشهيرة - كالأزهر في مصر، والمدرسة النظامية في بغداد وجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في المغرب - على أساس التعليم الفردي. فالطالب كان يتمتع بقسط كبير من الحرية، يختار من المواد الدراسية ما يناسب ميوله الفطرية واستعداداته العقلية. ويختار المعلم الذي يتلقى العلم عنده، يستمع إليه ويناقشه، ويسأله فيما صعب عليه من الأمور. وهو حر غير مقيد بنظام معين، ولا بجدول أوقات للدروس، ولم يكن مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف إلى آخر أو من فرقة إلى أخرى.

إن التعليم المبرمج هو أسلوب من أساليب تفريد التعليم، والتعلم الذاتي Self Instruction وقد توقع ثورنديك Thorndike في مطلع القرن العشرين أن علماء النفس المعاصرين سوف يخترعون كتبا مبرمجة أو مصممة بطريقة علمية، بحيث يقوم الكتاب مقام المدرس. وكان يعتقد أن المجهود الضخم للمدرس لا يجب أن يضيع في عمل يمكن لعدة صفحات أو عدة فقرات في كتاب القيام به.

ولقد شاع هذا اللون من التعليم وانتشر بعد الحرب العالمية الثانية، عندما زاد الاهتمام بالتعليم الفردي واستحدثت له إستراتيجيات كثيرة كان من أهمها التعليم المبرمج. وقد انتشرت الأجهزة التي تقوم بالتعليم المبرمج Machine Teaching في نهاية الخمسينيات على يد سكنر Skinner ومنذ ذلك الوقت قامت شركات كثيرة أمريكية ويابانية وأوربية ببرمجة المواد التعليمية المختلفة في الرياضيات والعلوم واللغات والثقافة العامة وغيرها، وكثر استخدام الكمبيوتر الشخصي لغرض استخدامه في تعلم البرامج المختلفة.

### ١١ - التدريس بالفريق Team Teaching

تقوم فكرة التدريس بالفريق على أساس مبدأ ضرورة التعاون بين أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة، وتنفيذ هذا المبدأ ليس بالأمر السهل، فالتزام كل مدرس بمبادئ الجماعة، بالرغم من أنه أمر ضروري، إلا أنه يتطلب قدرا من التضحية الشخصية.

إن التخلص - ولو وقتيا - من الروتين القائم على أساس مدرس لكل مادة إلى نسق منظم من المعرفة يستدعي استغلال كل الطاقات المادية والبشرية في المدرسة والتنسيق بينها بشكل دقيق. لكن هذا لا ينتظر أن يتم بسهولة. فحتى في المجتمعات التي تسود فيها الروح الجماعية، نجد كثيرا من المدرسين يحرصون على سريتهم، والبعض لا يرحب بالتدريس أمام المدرسين الآخرين. وآخرون يخافون أن يفقدوا استقلالهم



وحريتهم. لكن هذا كله يذوب أمام النتيجة العظيمة التي تظهر في ارتفاع مستوى فهم وتحصيل التلاميذ.

إن التدريس بالفريق يعني اشتراك مدرسين أو مجموعة من المدرسين ـ تحت قيادة أحدهم ـ في تدريس موضوع أو وحدة معينة. وقد يشتركون جميعا في وقت واحد أو على فترات متعاقبة، وذلك بهدف ربط وتكامل الأنشطة والخبرات التعليمية وتذويب الحدود والفواصل الجامدة بين المواد التعليمية، والخبرات الإنسانية المتكاملة أصلا.

إن نجاح التعليم بالفريق يعتمد أساسا على اتفاق مجموعة المدرسين على الأهداف المطلوب تحقيقها في المتعلمين من خلال الموضوع أو الوحدة التي سيقومون بتدريسها. كما يعتمد على اتفاق الجماعة على لغة مناسبة للاستعمال وطرق مناسبة للمعالجة وتحقيق الأهداف. فقد يقسم الفصل الواحد إلى مجموعات، وقد يضم أكثر من جماعة معا لمشاهدة برنامج، أو الاستماع إلى محاضرة أو ندوة لبعض الزائرين. وقد يتفق عدد من المدرسين على تدريس وحدة معينة أو موضوع معين لكل طلاب المدرسة على جميع مستوياتهم، أو على قصر نشاطهم على صف بعينه... إلى آخره.

وعلى كل حال فإن هناك بعض المبادئ الموجهة للتدريس بالفريق لعل أهمها ما يأتي(1).

١ـ أن يخطط التعليم بالفريق على أساس التعاون والتكامل، ووجود قدر كبير من الوئام وتبادل المسئوليات.

٢ـ أن يكون حجم الجماعة ونوعها مناسبين لأهداف العمل، فقد تقتضي الأهداف أن تكون الجماعة صغيرة أو كبيرة، وقد تقتضي أن تكون الجماعة مختلفة القدرات أو متجانسة القدرات.

٣ـ أن يكون الوقت المحدد مناسبا لكمية ونوعية العمل ولتحقيق الأهداف.

٤ـ أن تكون البيئة التعليمية مناسبة للأنشطة التي تقوم بها الجماعة، فليست حجرة الدراسة مناسبة لكل الأنشطة؛ فقد يقتضي الأمر خروج الطلاب إلى المعامل أو المكتبات أو الورش أو المختبرات أو المصانع أو المزارع.. إلى آخره.

٥ـ أن تكون المسئوليات الملقاة على عاتق كل مدرس مناسبة لمؤهلاته وقدراته. فكل مدرس يأخذ الدور الذي يستطيع القيام به على أكمل وجه.

٦ـ أن يكون مستوى ونمط التعليم مناسبا لكل متعلم في الجماعة.

---

(1) المرجع السابق، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

### ١٢- التعليم المصغر Microteaching :

سمي بالتعليم «المصغر»؛ لأنه عبارة عن موقف تعليمي عادي، لكنه يتناول فكرة واحدة،أو جزئيـة أو مهارة يتم تعليمـها والتدرب عليهـا حتى يحدث التعلم. فـالتعليم المصغر إذن عبارة عن صورة مصـغرة للدرس التقليدي العادي، وكل ما هناك أن الوقت أقصـر، وعدد التلامـيذ أقل، والمعلومات أو المهـارة أو المفهوم الذي يتم التـدريب عليه بسيط.

والجدير بالملاحظة هنا هو أن التعليم المصغر عبارة عن موقف تعليمي جزئي داخل إطار كلي. فالموقف التعليمي الـكبير قد يتناول كثيرا من المعارف والمهـارات والمفهومات والتعـميمات التـي قد لا يتيسـر تعلمها والتـدرب عليها في مـوقف واحد. وعلى هذا فالتعليم المصغر هو تدريب على هذه الجزئيات والمهارات في عدة مواقف.

إن التعليم المصغر ـ شأنه شأن كل طرق التـدريس الأخرى ـ يتطلب تحديدا دقيقا وإجرائيا للأهداف المرغـوب تحقيقها، ثم تحـديد الجزئية أو المفهوم أو التعـميم أو المهارة التي سيتم تناولهـا وتحقيق الأهداف من خلالها، وذلك عن طريق تخليـصها من الأمور الثانوية والفرعية المتعلقة بها. كما يتطلب إعداد الموقف التعليمي بحيث يناسب الأهداف المحددة سلفا، ويناسب طبيعة المادة التعليمية التي سيتم معالجتها وتدريب المتعلم عليها. وقد يقتضي الأمـر انتقال المعلم والمتعلمين إلى المكتبة أو المخـتبر أو الورشة أو المصنع أو المزرعة.. إلى آخره...

ويستلزم الأمر في التعليم المصـغر وجود وسائل تعليمية وتقنية عـلى مستوى عال من الكفاءة والدقة(١).

ويستند التعـليم المصغر إلى نتائج كثـير من الدراسات والبحـوث التي أثبتت عدم قدرة طريقة التعليم التقليدي على تغطية كل المعـارف والمهارات والمفهومات المتضمنة في محـتوى المنهج، وتناقص قدرة المتـعلم على الفهم كلما طال الموقف التـعليمي، وزيادة فاعليـة التدريب الموزع على التدريب المركـز. كما يعـتمد على مبـدأ الاهتمام بالتـغذية المرتجعة، ومـساعدة المتعلم على تقـويم ذاته، وتعديل المسار التعليمـي كلما انحرف عن اتجاه الأهداف. ويمتاز التعليم المصـغر بالمساعدة على توفير الوقت، والتـركيز في التعليم عن طريق تجنب المسـائل الفرعـية والثانويـة. ففيـه ـ إذن ـ اقتـصاد في الوقت والجـهد والنفقات.

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٤ ـ ١٥٥ .

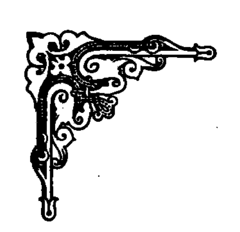


وبعد أن عرضنا لأكثر الطرق شيوعا في التدريس، ولبعض الطرق المقترحة الأخرى التي نعتقد في أهميتها وفائدتها، نود أن نؤكد أن فاعلية أية طريقة وتأثيرها يختلف باختلاف أنواع ومستويات الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها، وباختلاف طبيعة المادة أو المحتوى الذي نتناوله، وبمدى كفاءة المعلم وحذقه في استخدام الطريقة، وباختلاف نوعيات وأعداد التلاميذ، وبمدى توافر البيئة المدرسية المناسبة والتجهيزات المناسبة.

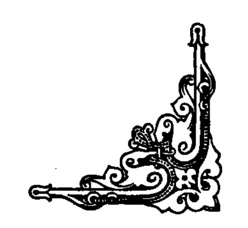
ولكل ما سبق، فنحن نعتقد أنه لا يوجد طريقة مثلى تصلح في كل المواقف ولتحقيق كل الأهداف، فطريقة المناقشة ـ مثلا قد تصلح لبعض المواقف التي لا تنفع فيها طريقة المحاضرة. والتعليم المصغر قد يصلح في مواقف لا يفيد فيه استخدام التعليم بالفريق، ولا بد من اختيار الطريقة المناسبة لنوعية ومستويات الأهداف، ونوعية ومستويات المتعلمين، ونوعية وطبيعة المادة التعليمية ـ إلى آخره. ولا بأس من المزج بين أكثر من طريقة حسب متطلبات الموقف التعليمي.

* * *





# الفصل التاسع
## تكنولوجيا التعليم والاتصال



### الوسائل قديمة قدم الإنسان:

المنهج الإسلامي يستوعب كل وسيلة كريمة من الوسائل المعينة على التعليم والتعلم، قديمة أو حديثة، ما دامت تسهل عملية التعلم، وتساعد على تنفيذ المنهج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

ولا ريب أن إنشاء جسر بين عالم المعاني والأفكار النظرية وعالم المدركات الحسية من الأمور الأساسية في عملية التعلم. ومنهج استخدام الوسائل قديم، استخدمه الله -سبحانه- في تعليم أبناء آدم، ويعرض لنا القرآن الكريم مشهدا من مشاهد استخدام الوسائل التعليمية في تعليم ابني آدم: قابيل وهابيل. فعندما قتل قابيل هابيل، أرسل الله له غرابا ليعلمه كيف يواري سوأة أخيه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

هذا الحادث وقع في فترة الطفولة الإنسانية، حيث كان أول حادث قتل متعمد. وكان الفاعل فيه لا يعرف طريقة دفن الموتى.

وفي هذه الحادثة خسر القاتل نفسه، فأوردها مورد الهلاك، وخسر أخاه؛ ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه، فما تهنأ له حياة.. وخسر آخرته، فباء بإثمه الأول، وإثمه الأخير.

والقصة تقدم نموذجا لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجا كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. وتثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل.

وفي القصة هنا تمثيل لسوأة الجريمة في صورتها الحسية. صورة جثة فارقتها الحياة، وأصبحت لحما يسري فيه العفن، فهي سوأة لا تطيقها النفوس(١).

---

(١) انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ٦، ص ٨٧٧.

وشاءت حكمة الله أن تضع القاتل أمام عجزه. فرغم أنه قاتل جبار، إلا أنه عاجز عن أن يواري سوأة أخيه. عاجز عن أن يكون كالغراب في أمة الطير.

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة].

ومثال آخر في إبراز المعاني، وإنشاء التصور الصحيح للمنهج الإسلامي في ضمير المسلم عن طريق الحقائق الكونية التي تطالع الأنظار والمدارك كل يوم نرى ذلك في الحوار الذي دار بين إبراهيم -عليه السلام- وملك من ملوك أيامه يجادله في الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

فالآية - كما نرى - تمثل مشهدا لحوار بين إبراهيم -عليه السلام- وأحد الملوك، والمشهد يعرض على الرسول ﷺ وجماعة المسلمين من خلال التعبير القرآني العجيب.

وهذا الملك الذي يجادل إبراهيم في ربه، ليس منكرا لوجود الله أصلا، وإنما هو منكر لوحدانيته ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كما كان الحال لدى بعض الناس في الجاهلية؛ يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أندادا ينسبون إليها فاعلية وعملا في حياتهم.

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾.

فالإحياء والإماتة ظاهرتان معروضتان لحس الإنسان وعقله في كل يوم وكل لحظة. فرد الملك على إبراهيم قائلا: أنا سيد هؤلاء القوم، وأنا المتصرف في شأنهم فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته:

﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾!

وعندئذ عدل إبراهيم عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾... إلى طريقة التحدي، حتى يعرف الملك أن الرب ليس حاكم قوم ما في ركن من أركان الأرض، وإنما هو مصرف هذا الكون كله:

«قال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ . . . وهذه حقيقة كونية تطالع الأنظار والمدارك كل يوم دون تخلف أو تأخر. وهو تحد يخاطب الفطرة، ويتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل:

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ . . .

والمثال القادم هو مشهد حي مرسوم بالكلمات. والمشهد تجسيد لمشاعر رجل مر على قرية محطمة، فجال في شعوره سؤال حائر: كيف تدب الحياة في هذا الموات؟(١).

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

إن المشهد هنا ليرتسم للحس قويا واضحا موحيا. مشهد الموت والبلى والخواء. . . يرتسم بالوصف: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ محطمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية. هذه المشاعر المتجسمة في تعبيره: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كيف تدب الحياة في هذا الموات؟.

﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ . .

لم يقل له كيف. إنما أراه في عالم الواقع كيف. فالمشاعر قوية، وعنيفة لدرجة أنها لا يجب أن تعالج بالبرهان العقلي. . . وإنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب، دون كلام!

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ . .

﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾.

---

(١) انظر: حمد عبد العزيز اليوسف «مدى استخدام الوسائل التعليمية في تدريس المواد الدينية بالمدارس المتوسطة للبنين بمدينة الرياض» رسالة ماجستير غير منشورة، الرياض كلية التربية جامعة الملك سعود، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥، ص٢٦.



وتبعا لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، فلا بد أن تكون هناك آثار محسوسة تصور مرور مائة عام. هذه الآثار لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين:

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾.

وإذن فلا بد أن تكون هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة في شخصه أو حماره:
﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾.

أية عظام؟ عظامه هو؟ أم عظام الحمار؟ .

يرجح الأستاذ سيد قطب ـ على خلاف كثير من المفسرين ـ أن العظام التي تعرت وتفسخت هي عظام الحمار، ثم كانت الخارقة هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر، والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلقة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها![1].

ثم تجيء تجربة إبراهيم مع ربه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة].

إن هذا التساؤل من إبراهيم لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله في نفسه، وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان، بل هو تشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾، إنه الشوق إلى رؤية السر الإلهي أثناء وقوعه العلمي. لقد أراد إبراهيم أن يرى يد القدرة وهي تعمل، «ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيتروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها»[2] لم يكن السؤال إذن من أجل تأكيد الإيمان، فقد كان الله يعلم حقيقة الإيمان القوى لدى عبده وخليله إبراهيم. ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع من قلب إبراهيم، ومنحه التجربة المباشرة، أو الخبرة

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ ٣، ص٣٠٠.
(٢) سيد قطب: المرجع السابق، ص٣٠٢.



المباشرة: «قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد أمره الله أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه وينظر إليهن ليتأكد من أشكالهن وصفاتهن ومميزاتهن بحيث لا يخطئ في التعرف عليهن بعد ذلك، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة. ثم يدعوهن، فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات... ففعل، وقد كان.

لقد رأى إبراهيم السر الإلهي يقع بين يديه... طيور فارقتها الحياة، وتفرقت أجزاؤها في أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعيا. وهو سر نحن نرى آثاره بعد تمامه كل يوم، ولكننا لا ندرك طبيعته، ولا نعرف طريقته. إنه من أمر الله[(١)].

إن الصور والمشاهد والتجارب المباشرة السابقة تؤكد لنا أن الوسائل قد استخدمت منذ زمن مسرف في القدم... منذ طفولة الإنسانية.

فمما يسجله التاريخ أن معلمي الأطفال المصريين القدماء كانوا يكتبون لأطفالهم نماذج يحاكونها، فيأخذ كل طفل قلمه ولوحه الخشبي ويجتهد في محاكاة النموذج الذي وضع له[(٢)] وأنهم استخدموا أوراق البردي في صورة لفائف، ثم خطر في ذلك الوقت أن يجمعوا هذه الأوراق أو اللفائف بعضها إلى بعض... وهكذا ظهر الكتاب[(٣)].

ولقد استخدم الإغريق الوسيلة التعليمية أيضا في القراءة والكتابة. واستخدام الوسيلة التعليمية في هذا المجال سبق غيره؛ لأن تعليم القراءة والكتابة كان متقدما ـ بالطبع ـ على غيره. فعند الإغريق كان الأطفال يبدأون في رسم الحروف بالتخطيط في الرمال. أما الرومان فقد استخدموا الحروف المنقوشة في ألواح الشمع.

ولقد استخدم العرب في الجاهلية، وخاصة في الأماكن الحضرية، الوسائل التعليمية. فقد كانت عندهم مدارس ومعاهد للتربية والتعليم «وكانت لهم دور كتب يختلف إليها الطلاب ورواد العلوم، وقد عثر الباحثون في آثار مدائنهم على أنقاض مدرسة للأطفال حوت قراميد عليها دروس للأحداث في الحساب والهجاء، وشملت فوق ذلك معجمات وكتبا للمطالعة وقواعد اللغة»[(٤)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مصطفى أمين: تاريخ التربية: ط٢، ٢٣ .

(٣) إبراهيم عصمت وزميله: التربية العملية وأسس طرق التدريس، ط١، القاهرة، ١٩٨١، ص٥٠ .

(٤) إسماعيل ظافر ويوسف الحمادي: التدريس في اللغة العربية، الرياض دار المريخ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤، ص٣٢٤ .

ولقد استخدم العلماء المسلمون في القرنين الرابع والخامس الهجري وما بعدهما الكتب المصورة والأدوات المجسمة في تعليم الفلك والكيمياء والطب وغير ذلك من العلوم، وبينوا أعضاء الجسم الإنساني ووظائفها مصورة ومجسمة. وقد انتقل هذا إلى أوربا بعد ذلك بعدة قرون.

وفي عصر النهضة الأوربية برزت الوسائل التعليمية بشكل قوى وفعال، لا في المجال العلمي، والتطبيقي فقط، بل وفي المجال الأدبي أيضا، وكان من روادها (جون كومينيوس، ١٥٩٢ ـ ١٦٧٠م، الذي ألف كتابين هما: «باب اللغات مفتوح»، و«عالم المحسات المصورة». وكان للكتاب الثاني شأن عظيم في مجال الوسائل التعليمية، حيث كان أول كتاب مدرسي ظهر للناس في أوربا مصورا، وقد تدرج مؤلفه في عرض موضوعاته من المحسوسات إلى المعقولات والمجردات.

وقد تبع كومينيوس كل من بستالوتزي السويسري (١٧٤٦ ـ ١٨٢٧) الذي كان التعليم عنده يقوم على الملاحظة واستخدام الحواس، و «فروبل» (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢)، الذي دعا إلى إنشاء رياض الأطفال وبناء التعليم على اللعب واستخدام الوسائل التعليمية الوافرة. وقد كان من رواد التعليم عن طريق استخدام الوسائل التعليمية في هذه الفترة المربية «منتسوري»، (١٨٧٠ ـ ١٩٥٢). التي اقترن اسمها باستخدام الوسائل التعليمية في القراءة والكتابة[1].

ولقد شهد القرن العشرون في تطوير الوسائل ما لم يكن يعرف من قبل. فقد تم التوسع في استخدامها تدريجيا منذ العشرينيات من هذا القرن، بحيث أصبح من الممكن لمدرس ما أن يستخدم العديد من الوسائل لتعريف تلاميذه سمعيا وبصريا بأفكار كثيرة؛ وأجزاء كثيرة من العالم.

إن عالم اليوم هو عالم الوسائل التعليمية المتقدمة. عالم الإذاعة، والسينما، والتلفاز أو الرائى، عالم الأقمار الصناعية، وعالم الحاسب الآلي أو الحاسوب. وعدم استخدام هذه الوسائل الآن، واستثمار طاقاتها الجبارة في عملية التعليم والتعلم يعتبر خطأ فادحا، وعدم إعداد مدرسينا الآن على استخدامها في المستقبل القريب يعتبر خطيئة لا مبرر لها.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٥ .

## أنواع الوسائل

تنقسم الوسائل تبعا للحاسة التي تعتمد عليها في الاستخدام إلى وسائل سمعية، ووسائل بصرية، ووسائل سمعية بصرية، ووسائل حاسية.

### ١ـ الوسائل السمعية:

فالوسائل السمعية هي تلك التي تعتمد على الاستماع من حاسة السمع أكثر من اعتمادها على الحواس الأخرى، وذلك مثل «الراديو» وبرامج الإذاعة المدرسية، والتسجيلات الصوتية: كالشرائط، والأسطوانات، ومختبرات اللغات... إلى آخره.

### ٢ـ الوسائل البصرية:

والوسائل البصرية هي التي تعتمد على حاسة البصر أكثر من غيرها من الحواس، وذلك مثل: السبورة والكتاب المقرر، والطباشير الملون، والملصقات الحائطية والرسوم البيانية، والخرائط، والأطالس والنماذج والمعارض والمتاحف، والشرائح، والأفلام الثابتة، والرسوم المتحركة، والتمثيليات، والرحلات، وتجارب العرض، واللوحة الوبرية، ومجلة الحائط، ولوحة النشرات، واللوحة المغناطيسية، واللوحة الكهربائية، والحاسب الآلي «الكمبيوتر»... إلى آخره.

### ٣ـ الوسائل السمعية البصرية:

الوسائل السمعية البصرية هي التي تعتمد على حاستي السمع والبصر، وتشمل الصور المتحركة الناطقة، وأشرطة الفيديو، والتلفاز، والأفلام الثابتة، والشرائح والصور التي تستخدم بمصاحبة تسجيلات صوتية مناسبة على أسطوانات أو شرائط تسجيل[1] والتطبيق العملي أو التربية الميدانية.

### ٤ـ الوسائل اللمسية والشمية:

وهي التي تعتمد على حاستي اللمس والشم. فالوسيلة التي تعتمد على حاسة اللمس مثل طريقة «برايل» في القراءة والوسائل الشمية مثل شم الغاز لتمييز نوعه، وشم الماء لمعرفة ما إذا كان طاهرا أم لا، وشم الطعام لمعرفة ما إذا كان صالحا أم لا.... وهكذا.

---

(١) أحمد خيري، جابر عبد الحميد: الوسائل التعليمية والمنهج، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٩م، ص٣٧ .

**خصائص الوسيلة المناسبة:**

١ ـ الوسيلة المناسبة هي تلك التي ينظر إليها بوصفها أداة مساعدة لبلوغ الهدف وليست هدفا في حد ذاته.

٢ ـ أن تكونَ جزءا من المنهج المراد تدريسه، وأن يتم اختيارها عند التخطيط له بحيث تساعد في تحقيق أهدافه.

٣ ـ أن تكون مرنة. بحيث يمكن استخدامها في أكثر من صف دراسي وأكثر من مرحلة.

٤ ـ أن تكون مناسبة للمادة اللغوية ومتكاملة معها، ومع طريقة التدريس المتبعة.

٥ ـ أن تكون بديلا للمدرس، بل تكتسب وظيفتها العملية حين يستخدمها المدرس من أجل تحقيق هدف ما(١).

٦ ـ أن تكون الوسيلة اقتصادية، بحيث تحقق أهدافا تبرر الجهد والوقت والمال الذي أنفق عليها.

٧ ـ أن تكون مناسبة للاستخدام في الزمان والمكان الذين يجب أن تستخدم فيهما.

٨ ـ أن تكون الوسيلة بسيطة وغير معقدة، وألا يتغلب شكلها على مضمونها.

٩ ـ أن تبعث في التلاميذ الرغبة في المعرفة، والشوق إلى الاطلاع والملاحظة والاكتشاف والاستقصاء.

**فوائد الوسائل المختلفة:**

سبق أن رأينا أن التعلم يحدث ـ من وجهة نظر منهج التربية الإسلامية ـ عن طريق الإلهام من الله ـ سبحانه ـ أو من كتاب الله الموحى به إلى رسول الله ﷺ وعن طريق الخبرة المباشرة، وعن طريق تفكر الإنسان وتدبره في الكون حوله.

فالخبرة المباشرة ـ كما يرى جون ديوي ـ لا تزال من أقوى الوسائل في التربية؛ وذلك لأن المتعلم عن طريق الخبرة المباشرة يواجه الموقف من جميع نواحيه المعرفية والوجدانية والعملية.

---

(١) محمود إسماعيل صيني وعمر الصديق عبد الله: المعينات البصرية في تعليم اللغة، الرياض، عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص٤، ٥



لكن الحياة التعليمية لا تقوم كلها على أساس الخبرات المباشرة، بل إن مجال الخبرات المباشرة ضيق محدود، فماذا نفعل إزاء الأماكن البعيدة، والماضي بتراثه وأمجاده وبطولاته؟ وماذا نفعل تجاه الثقافات القديمة والحضارات البائدة ؟ وماذا نفعل تجاه الأشياء التي لا ترى، بل لا يرى إلا آثارها كالكهرباء ؟ وماذا نفعل تجاه الأشياء الصغيرة كالذرة والخلايا المجهرية؟

إن الخبره المباشرة تقف عاجزة هنا. ولابد من الالتجاء إلى الوسائل التي تغني عنها؛ تقرب البعيد، وتكبر الصغير، وتصور وتجسم الماضي التليد، وتخرج المعنوي المجرد في صورة محسوسة بالعين أو بالعين والسمع معا، تختصر الزمن والجهد، وتوفر تكاليف الانتقال وعناء الترحال:

١ ـ توفر الأساس المادي المحسوس للتفكير والإدراك، ومن ثم تقلل من استجابات الطلاب اللفظية حول معان لا يدركون محتواها. فالوسيلة -إذن- تعطي من وضوح الإدراك ما لا تعطي الكلمة. لكن هذا لا ينطبق على كلام الله، وهو القرآن الكريم، وسوف نرى فيما بعد أنه رسم بالكلمات صورا، ولوحات، ومشاهد، من فرط الدقة في تجسيدها، يخيل إليك أنها كائنات ماثلة أمامك تتحرك. وسوف تعرض نماذج من ذلك إن شاء الله.

٢ ـ إن استخدام الوسائل يثير اهتمام الطلاب، ويثير لديهم الرغبة في التعلم، وبذلك يكون دافعا وحافزا على التعلم، كما يكون مبعدا للملل والسأم للذين ينتابان المتعلمين بسبب الرتابة اللفظية، والتجريدية المعقدة.

٣ ـ تساعد على ترسيخ آثار التعلم، وتجعل الخبرات باقية ومساعدة على عدم النسيان.

٤ ـ تثير النشاط الذاتي للطلاب عن طريق الخبرات الواقعية.

٥ ـ تساعد على التفكير المنسق المستمر.

٦ ـ تسهم في تنمية الثروة اللفظية والمعنوية[1].

٧ ـ تساعد على إرهاف الشعور وتذوق الجمال والميل إليه.

٨ ـ تساعد في تكوين القيم والمثل العليا والاتجاهات.

---

(١) أحمد خيري، وجابر عبد الحميد، مرجع سابق، ص٣١ .



وباختصار: «تعمل وسائل الإيضاح المختلفة على تقريب مستويات الخبرة للدارس، فالرسم والصورة يوضحان ما لا توضحه الكتابة وحدها أحياناً. وتوفر الوسائل التعليمية الأساس المادي المحسوس للتفكير، وتقلل من أخطار التعلم اللفظي، كما أنها تثير اهتمام التلاميذ، وتجعل الخبرات باقية الأثر، وتوفر خبرات منوعة يصعب توفيرها أحيانا، فهي تتخطى حواجز الزمن والمكان والإمكانات البشرية في الرؤية أو السمع أو غير ذلك من الحواس. وقد صدق القول بأن شعار الوسائل التعليمية: «ربَّ صورة خير من ألف كلمة»[1].

## التصوير الفني في القرآن

القرآن كتاب الله الخالد إلى العالمين. هو كتاب الله إلى الإنسانية جمعاء، ليهديها، ويرشدها، ويعلمها، فهو كتاب الله إلى الإنسان الفرد ليهديه ويعلمه ويزيح البلادة التي تزحف على عقله وقلبه من آن لآخر. فهل استخدم القرآن الوسيلة في عملية الهداية والتعلم؟ وهل ضرب المثل، وقص القصة، وصور الوقائع؟ هل استخدم الصور المجسمة، واللوحات الناطقة، والمشاهد المعبرة، والمواقف الصاخبة؟ هل عبر عن الحالات النفسية، والنماذج الإنسانية؟ هل أخرج المعاني المجردة في صورة شاخصة متحركة؟ هل عبر عن الفكرة الذهنية في صورة مرسومة مصورة؟ الإجابة: نعم. فعل كل هذا. وفعله بالكلمة فقط!.

وهنا يحدثنا المرحوم الأستاذ سيد قطب عن «التصوير الفني في القرآن» ثم نقتبس منه بعض النماذج التي عرضها في كتابه القيم «التصوير الفني في القرآن»[2].

يقول: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإن المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوى لها كل عناصر التخيل. فما يكاد يبث العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث

---

(١) إبراهيم عصمت مطاوع وزميله، مرجع سابق، ص٣٩ .

(٢) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، مرجع سابق، ص٣٦، وما بعدها.

الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع. فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة».

« إنها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة. فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المرويّ، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن».

«إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فليس هو حلية أسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتفق، إنما هو مذهب مقرر، وخطة موحدة، وخصيصة شاملة...».

«ويجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان».

«وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة. تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات، بالمشاعر والوجدانات. فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة»(١).

والآن نختار بعض الأمثلة مما ضربه لنا الأستاذ سيد قطب لتوضيح ما سبق:

## إخراج المعاني الذهنية في صورة حسية:

١ - يريد الله أن يبين أن قبول الذين كفروا عند الله، ودخولهم الجنة أمر مستحيل. هذا المعنى الذهني المجرد يعرضه الله - سبحانه - في أسلوب تصويري أخاذ كما يلي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف].

(١) المرجع السابق، ص ٣٦ - ٣٨ .



ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ «الجمل» في سم الخياط، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين معا، ليستقر في النهاية استحالة قبول الكفار عند الله، واستحالة دخولهم الجنة، ويستقر هذا المعنى في أعماق النفس، وقد ورد إليها ـ تصويرا ـ عن طريق العين والحس(١).

٢ ـ ويريد الله أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها المنّ والأذى، لا تثمر شيئا ولا تبقى. فينقل إليهم هذا المعنى المجرد في صورة حسية متخيلة على النحو التالي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا (٢٦٤) ﴾ [البقرة].

فالمنّ والأذى يمحق الصدقة، ولا يبقى لها أثر تماما كهيئة الحجر الصلب المستوى الذي غطته طبقة من التراب فظن فيه الخصب والنماء، فإذا وابل من المطر يصيبه فيتركه صلدا.

ثم يمضي القرآن في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ومعنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ (٢٦٥) ﴾ [البقرة].

هنا الوجه الثاني للصورة، فالصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله، هي في هذه المرة كالجنة، والجنة فوق ربوة عالية. ورغم أن الوابل مشترك بين الحالتين، إلا أنه في الحالة الأولى محا ومحق، وفي الحالة الثانية أربى وأخصب، وفي الحالة الأولى يصيب الصفوان فيكشف عن وجه كالح كالأذى، وفي الحالة الثانية يصيب الجنة، فيمتزج بتربتها الخصبة فيخرج الثمار الوفيرة، وهي يكفيها الندى القليل ليبعث فيها الحياة(٢).

٣ ـ ومن يشرك بالله لا منبت له ولا جذور، ولا أمن له ولا استقرار. يصور القرآن هذا المعنى بصورة سريعة الخطوات، عنيفة الحركات:

---

(١) سيد قطب، المرجع السابق، ص٣٨ .
(٢) سيد قطب، المرجع السابق، ص٤٠.

﴿ ..وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج].

هكذا في لحظة، يخر من السماء من حيث لا يدري أحد، فلا يستقر على الأرض، بل تتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق، حيث لا يدري أحد كذلك.

٤ ـ ويصور الحالة النفسية للإنسان المتزعزع العقيدة، الذي لا يستقر على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ ولا يبتعد بعقيدته عن ميزان الربح والخسارة. يرسم القرآن لهذه الحالة النفسية صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج].

**التخييل الحسي والتجسيم:**

يقول الأستاذ سيد قطب: «قليل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتا ساكنا ـ لغرض فني يقتضي الصمت والسكون ـ أما أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة، حركة يرتفع فيها نبض الحياة، وتعلو بها حرارتها... هذه الحركة... حركة حية مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان، أو الحركة المضمرة في الوجدان. هذه الحركة هي التي نسميها «التخييل الحسي» وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبث الحياة في شتى الصور مع اختلاف الشيات والألوان.

«وظاهرة أخرى تتضح في تصوير القرآن وهي «التجسيم»: تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساما أو محسوسات على العموم»[1].

١ ـ ومن التخييل لون يمكن تسميته «التشخيص»، ويتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية.

ومن المناظر الطبيعية المتحركة في الجو، في خطوات، يمثل كل منها مشهدا:

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص٧٢ ـ ٧٣.



وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم].

هكذا مشهد بعد مشهد: إرسال الرياح، إثارة السحاب، بسطه في السماء، جعله متراكما. خروج المطر من خلاله، نزول المطر، استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين، إحياء الأرض بعد موتها.

وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم لا يفتر ولا يتوقف:

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾[يس].

وهذه هي الأرض «هامدة» مرة، و «خاشعة» مرة، ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا:

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[الحج].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت] .

وهكذا تستحيل الأرض الجامدة، كائنا حيا بلمسة واحدة في لقطة واحدة.

٢- أما التجسيم فهو لون من ألوان التصوير الفني في القرآن. ومنه كل التشبيهات التي جيء بها لإحالة المعاني والحالات صورا وهيئات. ومن هذا النوع:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم].

**التناسق الفني:**

إن التصوير الفني الذي هو القاعدة الأساسية في أسلوب القرآن، ويشتمل على عدة مظاهر؛ منها: التخييل الحسي، والتجسيم، والتناسق الفني.

والتناسق الفني هو أعلى درجات التصوير الفني في القرآن. وللتناسق الفني ألوان ودرجات:



١- منها التنسيق في تأليف العبارات، بتخير الألفاظ، ثم نظمها في نسق خاص، يبلغ أرقى درجات الفصاحة.

٢- ومنها الإيقاع الموسيقي الناشئ من تغير الألفاظ ونظمها في نسق خاص.

٣- «ولعل أعلى نوع من التناسق... هو هذا التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص، والخطوات النفسية التي تصاحبها»[1].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]. هنا نرى التناسق الداخلي بين المعاني والأهداف، بين اللفظ والمعنى؛ كالتعبير بلفظ «الرب» في مواضع التربية والتعليم.

**التصــوير:**

إن تناسق المعاني والأغراض غالبا ما ينتهي إلى التصوير. فالتعبير قد يتناسق مع الحالة المراد تصويرها، فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية، فهو تعبير للتصوير؛ ومثال ذلك: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ..﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة]. «وفي هذا التعبير ألوان من التناسق الظاهر والمضمر، ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة، وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجه الزوجة؛ وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح. وكل هذه الصور تنطوي تحت استعارة في بضع كلمات»[2].

١ ـ وهناك نوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها. ويبدو ذلك واضحا في سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس]. فصوت القارئ يحدث «وسوسة» متكاملة تناسب جو السورة. جو وسوسة «الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس».

---

(١) انظر، سيد قطب: فصل التناسق الفني، المرجع السابق، ص ٨٧ .
(٢) المرجع السابق، ص ٩١ .

ومن طرق التصوير وطـرق التلحين التي يكثر التعبيـر القرآني استخـدامها، تلك المقابلات الدقيقة بين الصـور التي ترسمها التعبيرات وترسمـها الألفاظ على نحو دقيق، وأمثلتها في القرآن كثيرة نكتفي منها بالمثال التالي:

٢ ـ الصـورة القادمـة من صور كـثيـرة مضطردة من صـور النعيم والعـذاب في الآخرة:

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر].

«في وسط هذا الروع الذي يبثه ذلك العرض العسكري ـ الذي تشترك فيه جهنم ـ بموسيـقاه العـسكرية المنتظمة الدقـات، المنبعثـة من البناء اللفظي الشـديد الأسر، وبين العـذاب الفـذ والوثاق النـمـوذجي... يقـال لمن آمن: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

«هكذا في عطف ولطف: «ياأيتـها» وفـي روحانيـة وتكريم: «يا أيتهـا النفس». «المطمـئنة» في وسط هذا الروع، «ارجعي إلى ربـك» بما بينك وبينه من صلة وإضـافة. «راضية مرضـية» بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كلـه بالرضى والتعاطف، «فادخلي في عبادي» ممـتزجة متـوادة معهم. «وادخلي جنتي» المضافـة لي. والموسيقى حول المـشهد مطمئنة متموجة رخية. في مقابل تلك الموسيقى القوية العسكرية»(1).

٣ ـ وهناك التصوير مع مراعاة «وحدة الرسم» التي تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة، فـلا تتنافر الجزئيات؛ بل توزع أجزاؤها بنسب مـعينة بحيث لا يزحم بعـضهـا بعضـا، ومع استـخدام اللون، والتـدرج في الظلال، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع. إن القرآن الكريم يستخدم كل هذا، مع أن وسيلته الوحيدة هي الألفاظ، وهنا يرتفع إلى قمة الإعجاز:

«خذ سورة من السور الصغيرة التي ربما يحسب البعض أنها شبيهة بسجع الكهان أو حكمة السجاع. خذ سورة «الفلق». فما الجو المراد إطلاقه فيها؟ إنه جو التعويذة؛ بما فيه من خفاء وهيمنة وغموض وإبهام فاسمع:

(١) سيد قطب المرجع السابق، ص٩٧ ـ ٩٨ .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق].

«فما الفلق الذي يستعيذ بربه؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر، لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام ما سيأتي: مما خلق، ومن الغاسق، والنفاثات، والحسد. ولأن فيه إبهاما خاصا سنعلم حكمته بعد قليل.

« يعوذ برب الفجر «من شر ما خلق» هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة. وفي هذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام المعنوي في العموم. «ومن شر غاسق إذا وقب» الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء، ويمسي مرهوبا مخوفا. «ومن شر النفاثات في العقد» وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام، بل هن لا ينفثن غالبا إلا في الظلام. «ومن شر حاسد إذا حسد» والحسد انفعال باطنى مطمور في ظلام النفس غامض كذلك مرهوب.

«الجو كله ظلام ورهبة، وخفاء وغموض، وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله... رب كل شيء. فلم خصه هنا برب الفلق؟ وكان المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام برب النور...، لأن النور يكشف الغموض المرهوب، ولا يتسق مع جو الغسق والنفث في العقد، ولا مع جو الحسد «الفلق»... هو مرحلة سطوع النور، تجمع بين النور والظلمة، ولها جوها الغامض المسحور.

ما أجزاء الصورة المتقابلة؟ وكيف تم توزيعها؟

« وهي من ناحية: «الفلق» و «الغاسق» مشهدان من مشاهد الطبيعة. ومن ناحية أخرى: « النفاثات في العقد» و «حاسد إذا حسد» مخلوقان آدميان.

«وهي من ناحية «الفلق» و «الغاسق» مشهدان متقابلان في الزمان. ومن ناحية: «النفاثات» و «الحاسد» جنسان متقابلان في الإنسان.

«وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعا متناسقا، متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق، وكلها ذات لون واحد، فهي أشياء غامضة مرهوبة يلفها الغموض والظلام. والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان»(١).

### القصـــة:

«والقصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق ـ إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية

(١) سيد قطب، المرجع السابق، ص١١٥ ـ ١١٧ .

قبل كل شيء؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها. شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة وللنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثلة التي يضربها، إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم»[1].

وبالرغم من خضوع القصة في القرآن في موضوعها، وفي طريقة عرضها لمقتضى الأغراض الدينية، إلا أن ذلك لم يمنع ظهور الخصائص الفنية في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير.

والقصة في القرآن إما أن تكون مثالا أو نموذجا لأحداث تقع كل يوم ولكنها لم تقع هي بالذات؛ فهي تضرب مثلا للاعتبار بها. وإما أن تكون قصة حقيقية وقعت بأحداثها وأشخاصها.

ومثال النوع الأول، قصة صاحب الجنتين الذي له قصة مع صاحب له، ليس من ذوي الجنان، ولكن من ذوي الإيمان. «وكلاهما «نموذج إنساني» لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف].

«وبهذا ترسم صورة الجنتين مكتملة، في ازدهار وفخامة. وهذا هو المشهد الأول. فلننظر إلى المشهد الثاني:

﴿ .. فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف].

ويبدو أنه قال قولته هذه وهما في الطريق إلى الجنتين، أو وهما على الباب، إذ جاء بعده:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف].

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٣ .

«فها هو ذا في أوج زهوه وبطره، وتعاليه وازدهائه، فماذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير، المؤمن الذي لا جنة له ولا مال، ولا عصبة له ولا نفر؟...

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف].

«وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين: أحدهما متنفش كالديك، ازدهاه ما في جنته من ازدهار، والآخر موقن بالله، مستعز بالإيمان، يذكر صاحبه ويؤنبه، ويبصره بما كان يجب أن يصنع إذا رأى جنته، ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه؛ فهو يقسو عليه قسوة الغاضب لدينه، ويدعو على جنته أن يرسل الله عليها الصواعق، فتصبح جرداء ملساء، تزل فيها القدم وتزلق، أو أن يصبح ماؤها غائرا لا يستطيع أن يطلبه، فضلا على أن يستخرجه... ثم يفترق الصاحبان وهما متغاضبان. فلننظر بعد ماذا يكون؟؟.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف].

«لقد استجاب الله دعوة الرجل المؤمن المتحدي بلا ضرورة فلنشهد صاحبنا شاخصا يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها ولندعه يندم: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ولنسدل الستار على منظر الدمار والاستغفار[(١)].

ولنأخذ بعض الأمثلة للقصص الحقيقية في القرآن الكريم:

١ - ثم لنعرض مشهدا من قصة نوح والطوفان: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ. ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود]، وفي هذه اللحظة الرهيبة، تتنبه في نوح عاطفة الأبوة، فإن هناك ابنا لم يؤمن، وإنه ليعلم أنه مغرق مع المغرقين. ولكن ها هو ذا الموج يطغي، فيغلب «الإنسان» في نفس نوح على «النبي»، ويروح في لهفة وضراعة ينادي ابنه جاهرا: ﴿ .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود] ولكن البنوة العاقة لا

(١) سيد قطب، المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٦ .

تحفل هذه الضراعة؛ والفتوة العاتية لا ترى الخلاص إلا في فتوتها: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ..﴿٤٣﴾﴾ [هود]. ثم ها هي ذي الأبوة الملهوفة ترسل النداء الأخير: ﴿ .. قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ..﴿٤٣﴾﴾ [هود]. وفي لحظة تتغير صفحة الموقف، فها هي ذي الموجة العاتية تبتلع كل شيء ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود]

«إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظات القصار؛ ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء؛ وابنه الفتى المغرور، يأبى إجابة الدعاء؛ والموجة القوية العاتية، تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة. وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية - بين الوالد والمولود - كما يقاس بمداه في الطبيعة - حيث يطغى الموج على الذرى والوديان. إنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصامتة، وفي نفس الإنسان»[1].

٢ - ونموذج آخر للقصة الحقيقية، ذلك قصة موسى مع العبد الصالح العالم، في سورة الكهف. والقصة تجسم شخصية موسى كنموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج. كما أنها تمثل عنصر المفاجأة، حين ظل السر مكتوما عن الشخصية الرئيسية في القصة وهو موسى وعن النظارة، حتى يكشف لهم معا في نهاية القصة؛ والقصة تجري هكذا:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف].

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.



﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف].

«فإلى هنا نحن أمام مفاجآت متوالية، لا نعلم لها سرا، وموقفنا منها كموقف بطلها موسى. بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ولا ينبئنا القرآن باسمه، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا، وما قيمة اسمه؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الكونية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة؛ فعدم ذكر اسمه يتفق مع هذه الشخصية المعنوية التي يمثلها. وإن القوى المجهولة لتتحكم في القصة منذ نشأتها؛ فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود فيمضي في طريقه، ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة، وكأنما نسيه ليعودا، فيجد هذا الرجل هناك؛ وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما، ولولم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى... كل الجو غامض مجهول، وكذلك اسم الرجل الغامض مجهول.

ثم يأخذ السر في التجلي، فيعلمه النظارة حين يعلمه موسى:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف].

«وفي دهشة السر المكشوف يختفي الرجل كما بدا. لقد يخطر للأذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل: من هذا؟ ولكنها لن تتلقى جوابا. لقد مضى في المجهول، كما خرج من المجهول، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مجهولة أبدا»[1].

(١) سيد قطب: المرجع السابق، ص ١٨٣ - ١٨٥ .



## الحاسبات اليدوية (Calculatars)

رغم قلق بعض رجال التربية والتعليم وتخوفهم من أن يعتمد التلاميذ على الحاسبات اليدوية الصغيرة في حل المسائل الحسابية وبذلك يفقدون القدرة على اكتساب المهارات الحسابية الأساسية وبالتالي فهم الرياضيات، إلا أن البحوث التي أجريت حول الفائدة التربوية من استعمالها في الفصل الدراسي تشير إلى أن التلاميذ الذين يستعملونها داخل حجرات الدراسة ـ وخاصة هؤلاء الذين يستعملونها بعد أن يكونوا قد سيطروا على المهارات الحسابية الأساسية ـ يكونون أكثر تحفزا، كما يظهرون مستوى عاليا من التحصيل بالمقارنة بالتلاميذ الذين لا يستعملونها.

وتقول جلندين: «إن الحاسبة اليدوية مثل غيرها من الوسائل التعليمية يمكن أن تولد مشكلات أكثر مما تحل إذا أسيء استعمالها. وعلى الرغم من أن الحاسبة اليدوية سوف تقلل من حاجة الاعتماد على مهارات استخدام الورقة والقلم إلا أنها لا يمكن أن تعوض عنها. كذلك يجب أن يفترض المعلمون أن مجرد تقديم الحاسبة اليدوية في الفصل سوف يكون بالضرورة عامل تشويق للتلاميذ»[١].

وتشير الجمعية الوطنية للتربية في أمريكا «أنه على الرغم من أن الحاسبة الصغيرة مفيدة لكل إنسان إلا أن تأثير استعمالها في المدارس يمكن أن يخلق لرجال تعليم الرياضيات تحديا يفوق التحدي الذي ظهر عندما قدمت الرياضيات الحديثة»؛ ولذلك فإن الكثيرين من الكتاب والمتخصصين يرون أهمية استخدام الحاسبات اليدوية، ولكن في نهاية المرحلة الابتدائية وما بعد ذلك، أي بعد أن يكون التلميذ قد سيطر سيطرة كاملة على المهارات الحسابية والرياضية الأساسية[٢].

ولعل من أهم أهداف تدريس الحاسبات اليدوية في تعليم وتعلم الرياضيات ما يلي:

---

(1)Glenadine,G.E. Calculators in the Class - room Today's Education November December 1975, pp . 42 - 44.

نقلا عن: عبد الله عبد الرحمن المقوشي: الحاسبات اليدوية كوسيلة لتشجيع تلاميذ المرحلتين الابتدائية والمتوسطة على اكتساب المهارات الحسابية: دراسات تربوية، مجلة كلية التربية جامعة الملك سعود، المجلد الأول ١٩٨٤ عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود، ص٤ .

(2) Schminke, C. W., Teaching the Child Mathematics New Yrok, N.Y. halt, rinehart and winstan Publishing Co., Inc., 1978. PP. 323:327.

في المقوشي: المرجع السابق، ص٨ .



«١ ـ تشجيع التلاميذ على أن يكونوا محبين للبحث والابتكار من خلال تجريبهم للأفكار الرياضية.

٢ ـ تثبيت تعلم حقائق الأعداد الأساسية وخواص الجمع والطرح والضرب والقسمة.

٣ ـ تطوير فهم خوارزميات الحساب بإجراء العمليات المتكررة.

٤ ـ مساعدة الفرد على أن يصبح مستهلكا مقتصدا عاقلا.

٥ ـ التأكد من نتائج العمليات الحسابية «مفتاح الأجوبة» بواسطة أداة مرنة.

٦ ـ إيجاد الاستقلالية عند التلاميذ عند حل المسائل.

٧ ـ السرعة في حل المسائل التي يستغرق حلها وقتا طويلا عن طريق الورقة والقلم.

٨ ـ استنباط التعميمات من أنماط الأعداد التي تظهر على شاشة الآلة.

٩ ـ اختصار الوقت في حل التمارين الصعبة» (١).

**الحاسوب:**

هو عبارة عن حاسب آلي لمعالجة المعلومات والتعامل مع الأعداد بيسر وسهولة. كما أنه يستطيع أن ينظم ويتذكر الكلمات والمعلومات التي اختزنها الإنسان فيه للرجوع إليها عند الضرورة ويمكن استخدامه في العديد من التطبيقات اللغوية والحسابية.

والحاسب الآلي هو أحد نتائج التطبيقات التقنية للعلم التي أثرت الحياة الإنسانية في النصف الثاني من القرن العشرين، وقضت -أو تكاد تقضي- على مظاهر الحياة التقليدية في معظم بلاد العالم. وهو ليس مجرد وسيلة تعليمية واحدة، بل هو عدة وسائل في آن واحد. فهو ـ على خلاف الإذاعة والتلفاز ـ يوفر بيئة تعليمية ذات نظام اتصالي ذي اتجاهين. فبينما يستمع المتعلم إلى البرنامج المبثوث عن طريق الإذاعة مباشرة أو المسجل على شرائط، أو يشاهد البرامج التعليمية المتلفزة دون تفاعل معها، فإن المتعلم في حالة استخدامه للحاسب الآلي عندما يستجيب، يقوم الحاسب الآلي بتقويم استجابته، ثم يمده بمعلومات محددة عن استجابته، وبذلك يستطيع المتعلم تعديل الاستجابة أو البحث عن أخرى. . . وهكذا(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٧.

(٢) ضياء زاهر وكمال يوسف إسكندر: التخطيط لمستقبل التكنولوجيا التعليمية في النظام التربوي، القاهرة، مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٤، ص ٤٠ ـ ٤٥.

ويستطيع المتعلم استخدام الحاسب الآلي والتقدم في عملية التعلم وفقا لقدراته وإمكاناته الخاصة؛ ولذلك فهو وسيلة من وسائل التعلم الذاتي وتفريد التعليم. ويتميز استخدام الحاسب الآلي في عملية التعليم والتعلم بتدعيم الحافز وتجديده أولا بأول. حيث إن الحاسب يمد المتعلم بالتغذية الراجعة الفورية التي يستطيع بها تدعيم الاستجابة الصحيحة وتقويم الاستجابة الخاطئة.

ولعل من أهم مميزات استخدام الحاسب الآلي هي قدرته على تخزين المعلومات الهامة واسترجاعها في عدة ثوان بدلا من الرجوع إليها من المراجع والقواميس والموسوعات، فيمكن تخزين هذه المعلومات على شرائط وأسطوانات مغناطيسية واسترجاعها بكتابة الكلمة المفتاحية فتظهر على شاشة الجهاز المعلومات المطلوب النظر إليها.

وبالرغم من هذه الأهمية الواضحة للحاسب الآلي، إلا أنه لا يمكن أن تحل - على المدى القريب - محل المدرسين، فالعملية التعليمية عملية إنسانية تتطلب التفاعل بين العقول في الموقف التعليمي من أجل اكتساب الاتجاهات والقيم الإنسانية الراقية بالإضافة إلى المعلومات والمهارات.

### القواعد العامة لاستخدام الوسائل

إن المعلم الجيد هو الذي يستطيع إنتاج الوسيلة، وتشغيلها وصيانتها، ولكن هناك وسائل كثيرة متقدمة تقنيا؛ ولذلك لا يستطيع المعلم إنتاجها، ويكفي أن يكون عارفا بكيفية تشغيلها وصيانتها. وفي كل الأحول فإن على المعلم أن يراعي المبادئ التالية حتى يجيء استخدام الوسيلة محققا للغاية منه:

١ - على المعلم أن يبتعد عن الشكلية في استخدام الوسيلة. فالوسيلة لا قيمة لها إذا لم تكن معينة على تحقيق الهدف من البرنامج أو الوحدة أو الدرس.

٢ - يجب أن يدرك المعلم أن أفضل أنواع الوسائل هي تلك التي تتكامل مع محتوي البرنامج أو الوحدة أو الدرس، وتتكامل أيضا مع طريقة التدريس المختارة.

٣ - إن استخدام الوسائل جزء من التخطيط للدرس أو للبرنامج، وهذا يعني أن استخدام وسيلة غير مناسبة أو وجود وسائل كثيرة، لا داعي له؛ لأن ذلك يؤدي إلى نتيجة عكسية ويشتت أذهان التلاميذ.



٤ ـ يجب أن تكون الوسيلة مناسبة للمستوى العقلي للمتعلمين، ولخبراتهم السابقة؛ لأنها إذا لم تتناسب مع إدراكهم وعمرهم فإنها تفقد قيمتها التربوية، وربما تصبح مثار سخرية المتعلمين.

٥ ـ يجب أن تكون الوسيلة «الوسائل» المختارة هي أفضل وسيلة معينة على تحقيق الأهداف إذا ما قورنت بغيرها من الوسائل.

٦ ـ يجب أن تكون الوسيلة «الوسائل» المختارة هي أكثر الوسائل إثارة لاهتمام الطلاب وتشويقهم وأكثرها إعانة لهم على التذكر والفهم والتطبيق والتحليل والتركيب والتقويم.

٧ ـ يجب أن تكون الوسيلة مناسبة للطلاب من حيث إمكانية استخدامها من جانبهم، ودون أن يكون في ذلك خطورة عليهم من جراء استخدامها.

٨ ـ يجب أن يقوم المدرس بعملٍ تقويم للوسيلة (أو الوسائل) المستخدمة في برنامج أو درس معين. وتقوَّم الوسيلة بالقياس إلى المعايير التالية:

أ ـ هل حققت الوسيلة الأهداف التي استخدمت من أجل تحقيقها؟

ب ـ هل جاءت الوسيلة مناسبة للمحتوى الدراسي ومتكاملة مع طرق التدريس الواجب اتباعها؟

جـ ـ هل كانت الوسيلة مناسبة لأعمار الطلاب، ومستوياتهم العقلية والاجتماعية والثقافية؟

د ـ هل الوسيلة اقتصادية، بمعنى أنها تناسب الجهد والوقت والمال المبذول من أجل إعدادها واستخدامها؟

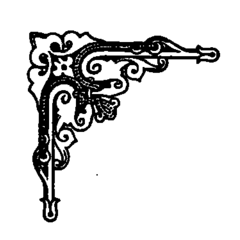
وإذا كانت هذه هي المعايير التي تقوم الوسائل التي استخدمت في ضوئها، فإنها أيضا المعايير التي يتم اختيار الوسائل المناسبة في ضوئها.

٩ ـ يبقى أن تقويم الوسيلة (أو الوسائل) المستخدمة يستلزم ضرورة بيان جوانب القوة وجوانب الضعف فيها، وإدخال التحسينات أو التعديلات التي تزيد من فاعليتها التعليمية في استخداماتها القادمة[1].

* * *

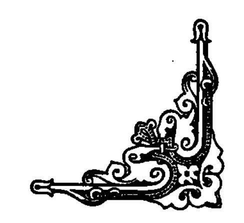
(١) انظر، أحمد خيري، وجابر عبد الحميد: الوسائل التعليمية والمنهج، مرجع سابق، ص ٨١ ـ ٨٥.





# الفصل العاشر

# طرائق وأساليب التقويم



## التقـويم

مما سبق يتضح لنا أن منهج التربية الإسلامية يهدف إلى بناء الإنسان من الداخل كي يكون صالحا لتقوى الله، وعمارة الأرض طبقا لمنهج الله، وأداء الالتزامات المترتبة على استخلاف الله له فيها. فالتربية في هذا المنهج ليست من أجل اجتياز الامتحانات، وأداء الاختبارات، بل من أجل اكتساب القيم والأخلاق والمعارف والمفهومات والمهارات واستخدامها في عمارة الأرض وترقية الحياة بما يتفق مع منهج الله.

ونظام التربية في هذا المنهج فردي وجماعي، جماعي في دراسة علوم المقاصد والغايات. وهو فردي في دراسة ما بعد ذلك من العلوم، والمتعلم في هذا المنهج يتمتع بقسط كبير من الحرية. فهو بعد دراسة علوم المقاصد يختار من المواد الدراسية الأخرى ما يناسب فطرته[1] واستعداداته وميوله المختلفة. فالهدف من التربية في هذا المنهج هو النمو الكامل: جسميا، وعقليا، ووجدانيا، وليس حفظ المعلومات وحشو الذهن بها بقصد اجتياز الامتحانات ثم نسيانها بعد ذلك.

وكانت ممارسة المسلمين التربوية إلى ما قبل قرنين من الزمان تقريبا تسير وفق هذا المفهوم لعملية التربية. فلم يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة كالامتحانات التي تعقد في أيامنا هذه. ولم يكن الطالب مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف إلى آخر، أو من فرقة إلى أخرى. فلم يكن الطالب مقيدا بنظام معين، ولا بجدول أوقات للدروس والمحاضرات.

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة حالة واحدة جاء فيها أنه عقد امتحان لأطباء بغداد في عهد الخليفة المقتدر (في القرن العاشر الميلادي) بحضرة سنان بن ثابت الذي كان يمتحن الأطباء شفويا[2].

---

(١) فالرجل يدرس ما شاء له من العلوم التي يريد التخصص فيها، والعمل بمقتضى هذا التخصص، والأنثى تدرس علوم الاقتصاد والإدارة المنزلية، وعلوم الطب والتربية. وعلم النفس وغير ذلك مما يساعدها في القيام بأعباء المهمة التي خلقت لها.

(٢) محمد عطية الإبراشي، مرجع سابق، ص ٢١٠ .

وقد كان الأساتذة يكتفون بمعرفتهم الوثيقة لكل طالب من خلال مناقشاته ومحاوراته ومناظراته أثناء الدراسة. فبدلا من الامتحان كان الأساتذة يعطون طلبتهم الأكفاء شهادة أو إجازة ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، تحت إشراف الأستاذ فلان، وذلك دون أن يؤدي الطالب امتحانا بالطريقة الشكلية المعروفة واعتمادا على معرفتهم العملية بالطالب أثناء الدراسة. وكان الغرض من الإجازة، الإقرار بكفاءة الطالب وفهمه واستيعابه لعلم أو مادة معينة، وقدرته على البحث. وكانت الإجازة العملية شهادة شخصية من الأستاذ للطالب. ليس فيها عنوان معهد معين، ولا لقب خاص.

## مفهوم التقويم

لكن هذا لا يعفينا من استعراض مفهوم التقويم بمعناه الحديث، مع بيان أنواعه، وأهدافه، ومستوياته، ووسائله؛ فلقد تغير النظام المدرسي، وتغيرت العملية التعليمية، وكثرت أعداد التلاميذ. وحدثت انفجارات علمية، وتقنية ومعرفية. وأصبحت أولى ضرورات هذه الانفجارات في العلم والمعرفة، هي التغيير والتطوير المستمرين. وأولى مراحل التطوير هي التقويم.

والتقويم هو «عملية جمع وتصنيف وتحليل وتفسير بيانات أو معلومات (كمية أو كيفية) عن ظاهرة أو عمل أو موقف، أو سلوك، بقصد استخدامها في إصدار حكم أو اتخاذ قرار»[1].

ويتضح لنا من هذا التعريف أن التقويم ليس نشاطا بسيطا، ولكنه عملية معقدة تحتوى على الكثير من الأنشطة وتسير فى عدة خطوات :

١- تحديد الأهداف العامة والخاصة من عملية التقويم.

٢- تحديد المواقف التي يمكننا أن نجمع منها المعلومات المتصلة بالأهداف.

٣- تحديد كمية ونوعية المعلومات التي نحتاج إليها.

٤- اختيار، ثم تصميم أساليب وأدوات التقويم المناسبة.

٥- جمع البيانات بواسطة الأدوات والأساليب المختارة ومن المواقف التي سبق تحديدها.

---

(١) محمد عزت عبد الموجود وآخرون، مرجع سابق، ص ١٥٩ .

٦- تصنيف البيانات والمعلومات عن طريق تحليلها وتسجيلها في صورة يمكن منها الاستدلال والاستنتاج. ويمكن الاستعانة في هذه الخطوة بالأساليب الإحصائية والتوضيحية المختلفة.

٧- تفسير البيانات في صورة تتضح بها المتغيرات والبدائل المتاحة تمهيدا للوصول منها إلى حكم أو قرار.

٨- إصدار للحكم أو القرار.

٩- متابعة تنفيذ الحكم أو القرار حتى يمكن معرفة مدى جدوى المعلومات التقويمية فى تحسين العمل أو الموقف أو الظاهرة أو السلوك الذي نقومه. وتعرف هذه الخطوة باسم المتابعة؛ لأنها تؤكد على الطبيعة الدائرة لعملية التقويم التربوي[١].

**أساسيات التقويم:**

والتقويم بهذا المفهوم يستند على مجموعة من الأسس والمبادئ أهمها ما يلي:

١- أن التقويم ليس فقط وسيلة للحكم على فاعلية العملية التربوية، بل هو أيضا إستراتيجية أساسية لعملية التغير والتطور التربوي، فالتقويم هو أولى وأهم خطوات التطوير، كما سبق أن قلنا. فالقيادة التربوية وهي بصدد اتخاذ قرارات بالتطوير تحتاج إلى معلومات تقف عن طريقها على مستويات الأداء، والظروف والإمكانات المتاحة، ومدى توافر الطاقات البشرية المدربة واللازمة لعملية التطوير، وغير ذلك من المعلومات التي يحتاج إليها صناع القرارات حتى تتضح أمامهم البدائل والمتغيرات، فيتمكنون من اتخاذ القرارات السليمة والدقيقة، فيبدأ التطوير فى الاتجاه الصحيح.

٢- أن التقويم عملية مرتبطة ارتباطا شديدا بالأهداف التعليمية التي نسعى إلى تحقيقها، فالتقويم هو العملية التي نحكم بها على مدى نجاحنا في تحقيق الأهداف التربوية التي ننشدها، بل إنه العملية التي نحكم بها على قيمة هذه الأهداف ذاتها.

٣- التقويم هو عملية تعزيز لأداء الأفراد والجماعات؛ فهو يخلق لديهم الدوافع لمزيد من العمل والإنتاج. فتعزيز السلوك الإيجابي يدعمه ويثبته، ويؤدي في

(١) المرجع السابق.



نفس الوقت إلى تصحيح السلوك الخاطئ؛ ولذلك لا بد من عرض نتائج التقويم على من يقع عليهم التقويم سواء كانوا تلاميذ أو مدرسين أو مدراء أو مصممي مناهج. فالتلميذ يحتاج إلى معرفة مدى تقدمه في تحقيق الأهداف المنشودة ومدى تعلمه. والمدرس يحتاج إلى معرفة مدى توفيقه في اختيار الطرق والأساليب المناسبة. ومدير المدرسة يحتاج إلى معرفة مدى نجاحه في إدارة المدرسة، وتوفير المناخ المناسب والظروف التي تحفز المدرسين والتلاميذ على التعليم والتعلم. وواضع المنهج يحتاج إلى معرفة مدى توفيقه في تحديد أهداف المنهج، واختيار محتواه، واختيار طرق وأساليب تدريسه، وطرق وأساليب تقويمه، ومدى مناسبة كل هذا لحاجات التلاميذ (الزبائن أو المستهلكين) وميولهم ومستوياتهم العقلية والوجدانية والحركية والاجتماعية. ومدى مناسبة المنهج -أيضا- للإمكانيات والطاقات المادية والبشرية المتاحة. ويستفيد من كل هذا في إعادة بناء المناهج أو البرامج في ضوء كل المتغيرات والبدائل المتاحة التي قدمتها له نتائج التقويم.

٤- أن التقويم عملية شاملة. وشمول عملية التقويم تتجلى في عدة صور، من أهمها ما يلي:

**أولا:** أن التقويم ليس مرادفا للامتحانات والاختبارات وليس مرادفا للقياس. فالامتحانات والاختبارات وسائل للقياس، والقياس أحد وسائل التقويم، فالتقويم أشمل منها جميعا.

**ثانيا:** أن التقويم ليس مجرد «تقييم» أي الحكم على قيمة العمل أو الموقف أو الظاهرة أو السلوك؛ بل يتعدى هذا إلى بيان جوانب القوة والضعف وأسبابها وعلاجها. فهو تشخيص وعلاج.

**ثالثا:** أن التقويم عملية شاملة لجميع أنواع السلوك، ومستوياته. أما أنه شامل لجميع أنواع السلوك؛ فهذا يعني أن التقويم شامل للسلوك المعرفي، والسلوك الوجداني، والسلوك الحركي.

أما أنه شامل لجميع مستويات السلوك أو التعلم. فهو لا يركز على المستويات الدنيا للسلوك المعرفي -مثلا-، كالتذكر والحفظ والفهم، مع إغفال المستويات العليا للتفكير كالتطبيق والتحليل والتركيب والتقويم.



رابعا: أن التقويم ليس عملية ختامية، تأتي في آخر مراحل تنفيذ الدرس أو المنهج، بل هو عملية مستمرة تصاحب العملية التعليمية تخطيطا وتنفيذا ومتابعة [1].

**خامسا**: أن التقويم شامل لجميع جوانب العملية المنهجية؛ فهو يشمل تقويم الأهداف، وتقويم المحتوى والخبرات التعليمية، وتقويم طرائق وأساليب التدريس، وتقويم نتائج التعلم، وتقويم طرائق وأساليب التقويم المتبعة نفسها.

٥- أن تكون الأدوات المستخدمة في التقويم متنوعة، فكلما تنوعت أدوات التقويم زادت معلوماتنا عن العمل أو الظاهرة أو الموقف أو السلوك أو التلميذ الذي نقوِّمه. وبالتالي تكون أحكامنا دقيقة وعلاجنا شافيا. فلا يجب الاقتصار مثلا على اختبار المقال من ضمن الاختبارات التحصيلية المختلفة. فهناك اختبارات: الاختيار من متعدد، والمزاوجة، والصواب والخطأ.. إلى آخره. كما أنه لا يجب الاقتصار في تقويم التلميذ -مثلا- على الاختبارات التحصيلية السابقة، بل يجب أن نستخدم الاختبارات التي نتعرف من خلالها على ملامح شخصيته، وسماته المزاجية، ودرجة ذكائه وابتكاره. وهذا يقتضي استخدام أساليب: الملاحظة المباشرة للسلوك ورصد ملاحظاتنا بطريقة منظمة واستخدام الاختبارات المقننة، وغير ذلك من الأساليب التي تزيد من قدرة المقوّم على مساعدة التلميذ أو تطوير العمل.

٦ ـ أن تكون عملية التقويم صادقة، وثابتة، وموضوعية. والمقصود بالصدق أن تقيس أداة التقويم ما وضعت لقياسه. والمقصود بالثبات أنه إذا أعيد تطبيق الأداة على نفس العينة أو عينة أخرى مكافئة، فإننا نحصل على نفس النتائج تقريبا. والمقصود بالموضوعية، عدم تأثر نتائج الاختبار وفق معايير موضوعية واضحة.

٧ ـ أن تكون عملية التقويم اقتصادية من حيث الجهد والوقت والتكلفة. فالاختبارات المكلفة والطويلة، قد تستغرق الإجابة عليها وقتا طويلا. وبذلك تمثل عبئا ثقيلا على كل من التلميذ والمدرس والمدرسة. والاختبارات التي تطول الإجابة عنها وتكون غير محددة، يصعب أن تكون صادقة وثابتة وموضوعية.

---

(١) المرجع السابق، ١٥٨ .



٨ ـ أن تراعي عملية التقويم خاصية الفروق الفردية بين التلاميذ، واختلاف مستويات الأداء بينهم. فالاختبار الجيد هو الذي يكشف عن الفروق بين التلاميذ، وعن القدرات التي يتمتع بها كل منهم، وبذلك يسهل توجيههم في الاتجاهات المناسبة لهذه القدرات والميول.

٩ ـ يجب التأكد على أن عملية التقويم هي عملية إنسانية فالتقويم ليس عقابا للتلميذ أو ثأرا منه. ولكنه عملية إيجابية فعالة للتعرف على النفس، وتحقيق الذات عن طريق معالجة جوانب النقص وتنمية جوانب القوة؛ فالتقويم إذن عملية يجب أن تنمى مشاعر المحبة والإقدام بين المتعلمين وأولئك الذين يساعدونهم على التعلم وتحقيق الذات(١).

## أنواع التقويم

يفرق المتخصصون في علم المناهج بين ثلاثة أنواع للتقويم هي:

- التقويم المبدئي Inital Evaluation.
- التقويم البنائي Formative Evaluation.
- التقويم الختامي Summative Evaluation (٢).

### أولا - التقويم المبدئي:

إن التقويم المبدئي هو ذلك النوع من التقويم الذي يزود مصمم المنهج أوالبرنامج أو الوحدة بمجموعة من المعلومات والبيانات (كمية وكيفية) عن مستويات التلاميذ الذين يصمم لهم المنهج أو البرامج العقلية والاجتماعية. ويزوده أيضا بمعلومات عن الخبرات السابقة التي تمت سيطرتهم عليها. ويزوده أيضا بمدى استعداد هؤلاء التلاميذ أو المتعلمين لتقبل الموضوعات الجديدة، ومعرفة ميولهم واهتماماتهم وخصائصهم العقلية والنفسية والاجتماعية إلى آخره. وبذلك يحدد أهداف المنهج أو البرنامج، ويختار المحتوى، وطرق وأساليب التدريس والتقويم بما يتفق مع الخصائص والسمات السابقة، وبما يتفق أيضا مع الإمكانات والطاقات المادية والبشرية المتاحة(٣) والتقويم المبدئي هو لون من ألوان التقويم التشخيصي.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٥ .

(2) See: Bloom. B. Et. Al. Hand Book Of Formative And Summative Evaluation Of Student's Learning, Mc Graw Hill Book. Company New York, 1971.

(٣) محمد عبد العليم مرسي: المعلم والمناهج... وطرق التدريس، الرياض، عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

**ثانيا - التقويم البنائي:**

أما التقويم البنائي، فهو الذي يصاحب الأداء أو التنفيذ، ويهدف إلى تصحيح المسار عن طريق التشخيص والعلاج الفوري لكل ما يعترض عملية التعليم والتعلم من عقبات؛ ولذلك يطلق على هذا النوع من التقويم أداء التصحيح الذاتي Self - Carrecting Mechanism والمقوم هنا يضع عينه دائما على مدى مطابقة الأداء للأهداف سلفا[1] إذن فهذا اللون من التقويم هو عملية تشخيص وعلاج معا.

فهذا اللون يزود المدرس والتلميذ معا بالتغذية المرتجعة Feed Back عن أخطاء التلميذ، ومستوى تحصيله، ومدى تحقيقه للأهداف السابقة. كما أنه يزود المعلم والمتعلم أيضا بما يجب على كل منهما فعله. ويمكن تسمية هذا بالتغذية الأمامية Feed Formard. إذا يتبين لكل من المعلم والمتعلم جوانب القوة والضعف، فيحدد كل منهما الطرق والأساليب التي يمكن أن يستخدمها في تعديل الأهداف أو تطويرها، وتعديل المحتوى أو الخبرات التعليمية التي يتم تناول المحتوى من خلالها، أو أساليب التدريس المتبعة، أو كل ذلك إذا اقتضى الأمر.

وهكذا نجد أن التقويم التشخيصي يبدأ قبل وضع البرنامج أو المنهج أو الوحدة، ويستمر معها أثناء التنفيذ، لكن يصاحبه أثناء التنفيذ، ما يسمى بالتقويم العلاجي، أو البنائي.

**ثالثا - التقويم الختامي:**

التقويم الختامي هو أكثر أنواع التقويم ألفة لدى المعلمين والمتعلمين على السواء. فالمعلمون يعتمدون عليه غالبا في تقويم تلاميذهم. ويحدث هذا النوع من التقويم بعد الانتهاء من دراسة المنهج المقرر أو البرنامج أو الوحدة. وهو يستهدف الحصول على تقدير عام لتحصيل التلاميذ، وتحديد مستوياتهم النهائية. وهو ـ بصفة عامة يخدم عدة أغراض لعل من أهمها:

١ ـ تقدير مدى تحصيل التلاميذ ومدى تحقيقهم لأهداف المنهج.

٢ ـ تزويد المعلمين بأساس لوضع الدرجات أو التقديرات بطريقة موضوعية وعادلة.

٣ ـ تزويد المعلمين والإدارة أو القائمين على العملية التعليمية عموما بالبيانات

(١) محمد عزت عبد الموجود وآخرون، مرجع سابق، ص ١٦١ .



التي على أساسها ينقل التلاميذ من صف إلى آخر، وتصنيفهم حسب درجات تقدمهم[1].

٤ - تزويد القائمين على العملية التعليمية بالبيانات والمعلومات المناسبة عن المنهج أو البرنامج مما قد يؤدي إلى إعادة النظر فيه وتعديله أو تطويره، كله، أو بعض أجزائه. وقد يقوم التقويم الختامي مقام التقويم المبدئي في تزويد القائمين على العملية التعليمية بالبيانات التي تمكنهم من وضع برنامج جديد تماما. وبذلك تصبح العملية التقويمية عملية دائرية.

**مستويات التقويم:**

سبق أن أوضحنا أن من أهم أسس التقويم ارتباطه بالأهداف العامة والخاصة التي نريد تحقيقها، لقد صنف بلوم الأهداف التعليمية إلى ثلاثة أنواع: وهي وفقا للطبيعة الإنسانية ومكوناتها تكون كالآتي:

**أ - الجانب المعرفي**، ويتعلق بالسلوك العقلي وله ستة مستويات هي:

| | |
|---|---|
| المستويات العليا | ٦- التقويم<br>٥- التركيب<br>٤- التحليل |
| المستويات الدنيا | ٣- التطبيق<br>٢- الفهم<br>١- التذكر. |

فمستويات الجانب المعرفي هي: التذكر، والفهم، والتطبيق، والتحليل، والتركيب ويسمى أحيانا بالقياس، والتقويم هو أعلى مستويات المجال المعرفي. والمستويات الثلاثة الأولى هي المستويات الدنيا. أما المستويات الثلاثة الأخيرة فهي المستويات العليا للجانب المعرفي في الإنسان. وكل مستوى من هذه المستويات يعتمد على المستوى الأقل منه وليس العكس، فالفهم يعتمد على التذكر، والتطبيق يعتمد على الفهم والتذكر... وهكذا.

---

(١) جابر عبد الحميد وزميلاه: مهارات التدريس، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص ٤٠١ .



ب ـ **الجانب الوجداني**، وهو يتعلق بالسلوك الوجداني أو الانفعالي كإبداء مشاعر الحب والتقدير والميول والتذوق الأدبي والجمالي، والإيمان بالله وبمنهجه في الكون، والاقتناع بالعقيدة السماوية، والقيم الخلقية الفاضلة... إلخ.

وتحت هذا النوع من السلوك نجد خمسة مستويات هي:

١ ـ الرضا أو القبول.

٢ ـ الاستجابة.

٣ ـ التقييم.

٤ ـ التنظيم القيمي.

٥ ـ التخصيص القيمي.

وتشيع الأهداف الوجدانية عموما في القرآن والسنة، وعلوم الشريعة، والآداب والفنون.

جـ ـ **الجانب الحركي**، ويتعلق بالسلوك الحركي أو المهارات. وله ثلاثة مستويات:

١ ـ المهارة البسيطة أو الحركة البسيطة، وأحيانا تكون لا إرادية، مثل: رفع الإصبع أو إغماض العين.

٢ ـ المهارة المركبة، مثل: المشي والجري والاستماع والكلام والقراءة والكتابة.

٣ ـ مهارة التناول، مثل: لعب الكرة، وقيادة السيارة أو الطائرة، والعزف على البيانو وغيره من الآلات.

وتشيع الأهداف الحركية في مناهج التربية الرياضية، والاقتصاد المنزلي، وتعليم اللغات، وخاصة تعليم مهارات الاستماع والحديث والقراءة والكتابة والمواد المهنية عموما: الصناعية، والزراعية، والتجارية.

مما سبق يتضح أن الأهداف التعليمية يجب أن تشمل جميع جوانب السلوك الإنساني: المعرفية، والوجدانية، والحركية، وبالمثل فإن عملية التقويم يجب أن تكون شاملة لجميع أنواع ومستويات التعلم أو السلوك.

لكن الخطأ الشائع هو تركيز الامتحانات والاختبارات المدرسية وغير المدرسية على النواحي المعرفية فقط، بل وعلى المستويات الدنيا منها كالتذكير والفهم مما يدفع التلاميذ



إلى الحفظ والاستظهار وإغفال المستويات العليا للتفكير كالتحليل والتركيب والتقويم، كذلك لا بد عند تقويم التلاميذ أن نهتم بطريقة التفكير حتى يتحول التعلم من اختزان واسترجاع إلى استكشاف واكتشاف، وإلى عملية من النشاط الذاتي الذي يساعد الفرد على تحقيق ذاته لكن يصبح فردا ذكيا منتجا يفكر ويبتكر ويضيف ويخترع وليس إنسانا يستمع ويسترجع ويأخذ من فم المدرس ليمتص ويحفظ.

## إعداد الاختبارات التحصيلية

سبق أن قلنا: إن التقويم عملية أوسع من القياس، وأن القياس عملية أوسع من الاختبارات؛ لأن الاختبار أداة من أدوات القياس.

والاختبارات إما أن تكون شكلية أو غير شكلية ، فالاختبارات غير الشكلية هي تلك التي تتم عن طريق الملاحظة والمقابلة والمناقشة وغير ذلك، والاختبارات الشكلية هي تلك التي تتم عن طريق اختبارات محددة، في زمن محدد، ولتحقيق أهداف معينة، وهي إما أن تكون مقننة أو غير مقننة، وقد تكون لقياس الاتجاهات والاستعدادات، أو لقياس الدقة والسرعة، أو لقياس نتائج التعلم.

### الاختبار التحصيلي:

والاختبار التحصيلي هو وسيلة لقياس نتائج التعلم، أو الحصول على عينة من سلوك التلاميذ. وهو أنواع عدة من أهمها: اختبار المقال، والاختيار من متعدد، واختبارات الصواب والخطأ، والمزاوجة، والتكملة.

وتعتبر الاختبارات التحصيلية أو الامتحانات هي أقدم أنواع القياس وأكثرها شيوعا في مدارسنا في العالم العربي بصفة عامة. فعن طريق الامتحان ينتقل الطالب من صف إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى. وتكاد تقتصر عملية التقويم على نوع واحد هو القياس، وعلى نوع واحد من القياس وهو الاختبارات التحصيلية، وعلى نوع واحد من الاختبارات التحصيلية وهو اختبار المقال في أغلب الأحيان. وفي اختبار المقال تهتم بالمستويات الدنيا في الجانب المعرفي، وهي التذكر والحفظ.

وهكذا بدأ المتعلمون الكبار والصغار على السواء ينظرون إلى عملية التقويم على أنها لون من ألوان الثواب والعقاب. وأنها غاية في ذاتها، وبذلك انصرف جهدهم التعليمي إلى المذاكرة من أجل الامتحان لا من أجل التعلم وتغير السلوك في الاتجاه التربوي المنشود. فإذا أضفنا إلى ذلك هذه المناهج الموسوعية المحشوة بالمعلومات





والمعارف، استطعنا تفسير ظاهرة لجوء المتعلمين إلى الحفظ والاستظهار والاعتماد على الذاكرة، بدلا من التحليل والتفسير والنقد والتقويم والابتكار.

سبق أن قلنا:إن المنهج الدراسي «نظام» مكون من مجموعة من الأجزاء. وكل جزء من هذه الأجزاء يؤثر في السلوك العام للنظام كله. والمنهج أو «النظام» يصمم حول هدف أو مجموعة من الأهداف. والأهداف هي مجموعة من الأوصاف المتوقع حدوثها من التلاميذ نتيجة لمرورهم بخبرات معينة وتفاعلهم معها.

والأهداف هذه لا بد وأن تحقق من خلال محتوى مخطط ومنظم بطريقة معينة، بحيث توجد فيه استجابة لكل هدف من الأهداف السابقة.

ولكي نحصل على نتائج التعلم أو نقيس السلوك المتوقع حدوثه من التلاميذ، لا بد وأن نتبع خطة منهجية في إعداد وبناء الاختبار. وتسير خطة بناء الاختبار في الخطوات التالية:

١ ـ تحديد الأهداف التعليمية في صورة أنماط نتوقع حدوثها من التلاميذ في نهاية عملية التعليم.

٢ ـ تحديد المحتوى الذي تمت تغطيته أثناء عملية التدريس.

٣ ـ عمل جدول لتصنيف أنماط السلوك الذي نريد قياسه في العينة.

٤ ـ وضع مفردات الاختبار التي تقيس أنماط السلوك الموضحة في جدول التصنيف(١).

## اختبار المقال:

يعتبر اختبار المقال من أكثر الاختبارات شيوعا على كافة المستويات التعليمية في بلادنا. وسمي «اختبار مقال» لأن المتعلم يطلب منه كتابة «مقال» في الموضوع أو المشكلة التي يطرحها السؤال.

ومن مميزات اختبار المقال أنه يمكن بواسطته قياس قدرات كثيرة ومتنوعة: كالقدرات على بيان الأسباب والعلل، والقدرة على إدراك العلاقات، والقدرة على توضيح المفهومات والمصطلحات، والقدرة على التحليل والتفسير، والقدرة على تطبيق المبادئ والقوانين والمفهومات في مواقف جديدة، والقدرة على النقد، والقدرة على إعادة

(١) جابر عبد الحميد وزميلاه، مرجع سابق، ص ٤١٦ .



تنظيم الحقائق وتركيبها في كل جديد، والقدرة على التمييز والمقارنة، والقدرة على التقويم، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعبير بطلاقة ووضوح.

ورغم هذه القدرات والمهارات الكثيرة والمتنوعة التي يمكن أن يقيسها اختبار المقال، إلا أن من أهم عيوبه أنه لا يمكن قياس كل هذه القدرات والمهارات باختبار مقال واحد. وهو صعب التصحيح نظرا لطول الكتابة فيه. وتزداد هذه الصعوبة إذا كان المختبر رديء الخط والأسلوب، وهو غير اقتصادي لما يحتاجون من أوراق كثيرة، ووقت طويل، وأماكن كثيرة وغير ذلك.

واختبار المقال - فوق كل هذا - من الصعب أن يكون شاملا لكل موضوعات المنهج وخبراته؛ ولذلك تنقصه خاصية الشمول والصدق. وقد يدفع الطالب إلى التخمين، والاهتمام ببعض موضوعات المنهج دون بعضها الآخر. كما أنه قليل الموضوعية والثبات، نظرا لغموض الأسئلة في بعض الأحيان، ولاختلاف وجهات النظر في المسألة الواحدة في كثير من الأحيان. ولكل هذا فإن هذا الاختبار يثير الشعور بالرهبة والخوف من الامتحانات، ويظل هذا الشعور ملازما الطلاب طوال العام الدراسي مما يجعلهم يفكرون طوال الوقت في كيفية الإجابة على الامتحانات.

وللتخلص من بعض عيوب اختبار المقال، فإنه يمكننا عمل الآتي:

١ - أن نحدد أهداف الاختبار والقدرات والمهارات التي نريد قياسها بدقة قبل صياغة أسئلة المقال.

٢ - أن يحتوي الاختبار على عدد كبير من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات قصيرة وموجزة. بحيث يقيس كل سؤال قدرة واحدة أو مهارة واحدة.

٣ - صياغة أسئلة الاختبار بطريقة محددة وواضحة مع الابتعاد عن المفهومات والمصطلحات الغامضة وغير المفهومة.

٤ - تدريب المتعلم - كبيرا كان أم صغيرا - على أسئلة المقال، أثناء الدراسة، ومناقشتهم في الصعوبات التي واجهتهم والأخطاء الشائعة التي وقعوا فيها ليمكن تجنبها بعد ذلك. ويستحسن بيان الدرجة المخصصة لكل سؤال، والزمن الذي يجب أن يستغرقه الطالب في الإجابة عليه.

٥ - مناقشة نتائج الاختبار مع المتعلمين بعد تصحيحه مباشرة، وبذلك يستعين كل من المتعلم والمعلم بالنتيجة من تقويم نفسه وتقويم أسلوبه في التعليم والتعلم.

### اختبار الاختيار من متعدد

يمتاز هذا الاختبار - مع اختبار الصواب والخطأ، والمزاوجة، والتكميل - بأنه أكثر موضوعية، حيث يحتوي على المثير والاستجابة معا. وما على المستجيب إلا أن يميز الإجابة الصحيحة بوضع علاقة مناسبة أمامها أو في المربع المخصص لذلك.

واختيار الإجابة الصحيحة في اختبار الاختيار من متعدد، له عدة صور هي:

١ - اختيار الإجابة الصحيحة من بين الإجابات الأخرى الخاطئة. وهذا ما يعرف باسم «البحث عن الصواب».

٢ - اختيار الإجابة الخاطئة من بين الأخرى الصحيحة، وهذا ما يعرف باسم «البحث عن الخطأ». ويلاحظ في هذا النوع وجود أداة استثناء مثل «ما عدا» و «إلا».

٣ - اختيار الإجابة الأكثر أهمية أو قوة من بين إجابات كلها صحيحة، ولكنها متفاوتة من حيث أهميتها وقوتها وفقا لمعيار موضوعي تم الاتفاق عليه أثناء الدراسة مع الطلاب. ويعرف هذا النوع باسم «البحث عن الأهمية»[١].

ويمتاز هذا النوع من الاختبارات بالميزات التالية:

١ - ارتفاع درجة الموضوعية، فدرجة الإجابة عن السؤال لا يمكن أن تختلف من طالب إلى آخر أو من مصحح إلى آخر.

٢ - سهولة التصحيح، حيث يستطيع أي شخص أن يقوم بعملية التصحيح، ورصد الدرجات عن طريق استخدام مفتاح للتصحيح من البلاستيك أو الورق المقوى... إلى آخره.

٣ - ارتفاع درجة شمول الاختبار حيث يستطيع هذا الاختبار أن يغطي مساحة كبيرة من محتويات المنهج، نظرا للعدد الكبير من الأمثلة التي يمكن أن يحتويها الاختبار.

٤- يمتاز الاختبار بدرجة عالية من الموضوعية، وبالتالي فإن معدلات الصدق والثبات فيه عالية.

٥- يمتاز هذا الاختبار بالقدرة على قياس مهارات الفهم، وإدراك العلاقات، والمقارنة، والتمييز.

---

(١) محمد غزت عبد الموجود وآخرون، مرجع سابق، ص ١٧٧ .



ومن أهم عيوب هذا الاختبار ما يلي:

١- يتطلب وقتا كبيرا فنيا عظيما في إعداده، وهذا قد لا يتوافر حاليا لدى معظم المدرسين.

٢- يتطلب إلماما بكل جزئيات وتفاصيل المنهج المقرر وأولوياتها، وعلاقاتها بأهداف المنهج العامة والخاصة.

٣- يتطلب من المعلم قدرة لغوية فائقة تتمثل في: الدقة في اختيار الألفاظ والتراكيب، والمعرفة الجيدة بقواعد اللغة، والدقة في الفهم والتمييز بين المصطلحات والمفهومات. وقد لا يتوافر هذا أيضا لدى معظم المدرسين حاليا[1].

٤- قصور هذا الاختبار في قياس مجموعة كبيرة من القدرات والمهارات، مثل: القدرات والمهارات اللغوية، والقدرة على التحليل، والتفسير، والنقد، والتقويم، وحل المشكلات.

**اختبار الصواب أو الخطأ:**

هو مجموعة من العبارات أو الجمل التي تتضمن حقائق أو آراء أو وجهات نظر تتصل بمحتوى المنهج أو البرنامج أو الوحدة أو الدرس المراد تقويم سلوك المتعلم بالنسبة له. ويطلب من المتعلم أن يضع أمام كل منها علاقة صواب أو خطأ حسب وجهة نظره.

ومن أهم مميزات هذا الاختبار أنه سهل الوضع. كما أنه لا يحتاج إلى مساحة كبيرة من الورق، ولا يحتاج إلى وقت طويل للإجابة عليه وهو يمتاز أيضا بالشمول، إذ إنه يمكن وضع اختبار هذا النوع يغطي كل محتوى البرنامج أو الدرس أو الوحدة. ولا يستغرق وقتا طويلا في التصحيح.

ومن أهم عيوب هذا الاختبار أنه يشجع الطلاب على حفظ الحقائق من أجل تذكرها. كما أنه لا يقيس أكثر القدرات والمهارات أهمية، وهي القدرة على التطبيق، والتحليل، والتركيب، وإدراك العلاقات، والتقويم. كما أنه لا يقيس القدرة على استعمال اللغة في عرض الأفكار أو الآراء ومناقشتها. وربما كان من أهم عيوب هذا الاختبار أنه يسمح بدرجة كبيرة من التخمين تصل إلى نسبة ٥٠٪. ولا شك أنه كلما ارتفعت درجة التخمين ارتفعت درجة الذاتية وعدم الموضوعية فيه، وقلت بذلك درجة

(١) المرجع السابق، ص ١٧٨ - ١٧٩ .



ثباته. والمتعلم الذي يخمن الإجابة -صحيحة كانت أم خاطئة- لا يعرف سببها ولا تفسيرا لها.

ولذلك فإنه يحسن -تفاديا لذلك العيب في اختبار الصواب والخطأ- أن يطلب من المتعلم بيان ما إذا كانت العبارة صحيحة أم خاطئة، فإذا كانت صحيحة، فليذكر تفسيرا لذلك أو أسبابا له، وإذا كانت خاطئة، فليذكر الإجابة الصحيحة(١).

**اختبار المزاوجة:**

يعتبر اختبار المزاوجة من أكثر أنواع الاختبارات الموضوعية استعمالا، وخاصة في مناهج المراحل التعليمية الأولى؛ وذلك لسهولة وضعه بواسطة المعلمين، والإجابة عنه بواسطة المتعلمين. وهو اختبار مهم أيضا؛ لأنه تقل فيه نسبة التخمين عن اختبار الصواب والخطأ. كما أنه يعتبر نوعا متطورا من الاختبار متعدد الاختيارات. ونظرا لانخفاض نسبة التخمين فيه فإنه أكثر موضوعية وثباتا من الاختبارات الأخرى(٢).

وفي هذا الاختبار يقوم المتعلم بالتوفيق أو المزاوجة بين عمودين من العبارات، وذلك بأن يختار عبارة واحدة من العمود الثاني توافق أو تكمل عبارة في العمود الأول، وهنا يجب أن تكون عبارات: العمود الثاني أكثر عددا من عبارات العمود الأول، حتى يصبح الخيار دائما من متعدد.

ومن أهم مميزات هذا الاختبار أنه سهل الإعداد والتصحيح، وأنه تقل فيه نسبة التخمين -كما سبق أن ذكرنا- ولذلك فهو أكثر موضوعية وثباتا من الاختبارات الأخرى. وهو مناسب للمتعلمين في كل المراحل التعليمية. وهو مفيد في جعل المتعلمين يتذكرون الأحداث بتفاصيلها. كما أنه يدرب المتعلم على مهارات التمييز والتصنيف وإدراك العلاقات بين الحقائق والمفهومات والتعميمات وغير ذلك.

وربما كانت أهم عيوب هذا الاختبار هو أنه يعطي القدرة على تذكر الحقائق أهمية أكبر من اللازم، كما أنه لا يقيس بعض القدرات العقلية العليا مثل: البرهنة والقياس والتقويم.

وعلى كل حال فإنه يجب على معد هذا الاختبار أن يأخذ في اعتباره الأمور التالية :

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٤ .



- أن تكون عبـارات العمود الثـاني أكثر من عـبارات العمـود الأول، حتى يظل الاختيار دائما من متعدد حتى آخر عبارة. وبذلك تقل نسبة التخمين.
- أن تكون عبارات الاختبار واضحـة ومحددة، وأن تكون لكل عبارة في العمود الأول إجابة واحدة صحيحة في العمود الثاني.
- أن تكون العبارات قصيرة، وأن يتم اختيار ألفاظها بدقة لا تحتمل اللبس.

**اختبار التتمـة:**

يقول رشدي طعيمة: إن مصطلح التتمة Cloze قد صاغه ويلسون تايلور، وقدمه في مقال له نشر عام ١٩٥٣، بعنوان : أسلوب التتمة، وهو أداة حديثة لقياس الانقرائية والتحصيل.

ويعرف تايلور أسلوب التتمة بأنه أسلـوب معين يتم عن طريقة تعديل نص معين أو تغيير أنماطـه اللغوية بحذف بعض أجزائه، ثم تقديمه إلى بعض القـراء أو المستمعين، ومطالبتهم بإكمال الفراغات التي أحدثت فيه، وتعديله بحيث يعود إلى ما كان عليه مرة أخرى.

وقد اشتق تايلور مـصطلح «التتمة» من مفـهوم الإغلاق closure الذي يشيع في نظرية الجشتالت Gestalt، ومفهوم الإغلاق هذا يشيـر إلى ما لدى الإنسان من استعداد فطري لإكمـال النقص الذي يراه، والنظر إلى الأشـياء كوحـدة وليس كأجزاء مـنفصلة، فكثيـرا ما تعرض لنا كـلمة ينقصـها حرف مـعين أو تخلو من بعض النقط، ومع ذلك نقرؤها وندرك المقصود منها، وقد لا نتنبه إلى ما اعتورها من نقص أو شابها من خطأ.

«وفي اختبار التتمة يقـدم إلى الطالب نص محذوفة بعض كلماته وفق نظام معين يكلف بأن يملأ الفراغـات التي أحدثها حذف هذه الكلمات، والتنـبؤ على قدر الإمكان بالكلمات الأصلية التي استعملها مؤلف النص. ويحصل الطالب على درجة لكل كلمة ينجح في التنبـؤ بهـا وفق نظام التقـدير الذي يحـدده واضع الاختـبار ويمثل مـجمـوع الإجابات الصحيحة درجة الطالب»(١).

واختبار التتمـة سهل الإعداد والصياغة والتصحيح، ولذلك فقـد استخدم لقياس تحصيل المتعلمين على جميع مستوياتهم. وفي هذا الاختبار قد يطلب المعلم من المتعلم

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: رشدي أحمد طعيمة: «اختبار التتمة وتعليم اللغة العربية كلغة ثانية» في مجلة معهد اللغة العربية جامعة أم القرى ومكة المكرمة، العدد الثاني، ١٤٠٤ / ١٩٨٤م.

إكمال العبارات أو النصوص الناقصة بكلمة أو برقم من عنده. وقد يعطي المعلم المتعلم مجموعة من الخيارات ليختار من بينها الكلمة أو العدد المناسب. كما أن الجمل الناقصة المطلوب إكمالها قد تكون ناقصة البداية، أو الوسط، أو النهاية وذلك حسب نوع القدرة المراد قياسها.

ومن أهم مميزات هذا الاختبار أنه يمكن أن يغطي قدرا كبيرا من محتوى المنهج كما أنه يقيس قدرات كثيرة ومتنوعة نسبيا. إذ يمكن عن طريقه قياس قدرة المتعلم على التذكر، والفهم، والتطبيق والاستنتاج، وإدراك العلاقات.

ومن أهم عيوب هذا الاختبار أنه يسمح بدرجة من التخمين؛ لأن الإجابة قد يتم اختيارها من متعدد، كما أنه يركز إلى حد كبير على حفظ الحقائق وتذكرها حيث لا يسمح بالمناقشة وعرض الآراء؛ لأن المتعلم ليست لديه حرية الكتابة والانطلاق في التعبير.

ويجب على معد هذا الاختبار أن يكون دقيقا في اختيار العبارات والألفاظ، بحيث يمكن تحاشي الغموض واللبس. كما يجب عليه تحاشي التركيز على أسئلة التذكر والحفظ، والعناية بتلك التي تتطلب مهارات عليا مثل التحليل والتفسير والابتكار.

## تفسير الدرجات

يتم تفسير الدرجة التي حصل عليها المتعلم في الاختبار التحصيلي إما على أساس التقويم مرجعي المعيار، وإما على أساس التقويم مرجعي المحك.

ففي الأدبيات التربوية يوجد اتجاهان متمايزان في تفسير درجات التلاميذ في الاختبارات التحصيلية: الاتجاه الأول يعتمد على تفسير درجة المتعلم بمقارنتها بدرجات أقرانه وزملائه، أي جماعة الصف التي ينتمي إليها المتعلم، ويتفق معها في الخصائص الأساسية: كالسن، والصف الدراسي، والمستوى الاجتماعي والاقتصادي وغير ذلك[1]. وتعرف هذه الجماعة في الاختبارات المقننة ـ كاختبارات الذكاء مثلا ـ باسم الجماعة المعيارية. ومن هنا سمى هذا النوع من التقويم «بالتقويم مرجعي المعيار» Norm Referenced Evaluation.

والاتجاه الثاني هو ذلك الذي يعتمد في تفسير درجة المتعلم في الاختبار التحصيلي بمقارنتها بمحك أو مستوى محدد للأداء أي بمدى تحقيقها للأهداف المحددة

(١) انظر تفصيل ذلك في: جابر عبد الحميد وزميلاه، مرجع سابق، ص ٤٢٦ ـ ٤٣٥ .



سلفا. فالمحك يتحدد على ضوء الأهداف التربوية. التي يسعى المعلم والمتعلمون إلى تحقيقها. وكلما كان تحديد المحك دقيقا، يسر ذلك عملية التقويم. ويسمى هذا النوع من التقويم «بالتقويم مرجعي المحك» Criterion Referenced Evaluation.

والتقويم مرجعي المعيار إما أن يكون في صورة اختبارات مقننة: كاختبارات الذكاء، واختبارات الاستعداد العقلي، واختبارات الشخصية، والميول والاتجاهات.. إلى آخره، وإما أن يكون في صورة اختبارات تحصيلية غير مقننة كالتي سبق ذكرها.

فبالنسبة لبناء اختبار مقنن، لابد لواضعه من إعداد «معايير في صورة مئويات أو نسب ذكاء أو درجات معيارية، يستمدها من الجماعة التي يطبق عليها الاختبار أثناء عملية التقنين، والتي تمثل المجتمع الأصلي الذي سوف يستخدم فيه الاختبار تمثيلا جيدا... وحين يستخدم الفاحص هذا النوع من الاختبارات، فإنه يفسر درجة المفحوص بتحديد موقعها في المتغير، أو الصفة التي يقيسها بالنسبة للجماعة المعيارية (أي جماعة التقنين)، هل يقع عند المئوي ٢٠ أم ٥٠ أم ٧٠ ... إلخ. وحينما نقول إن درجة التلميذ تقع عند المئوي ٢٠ أو المئوي ٥٠، فإننا نعني أنه أفضل من ٢٠٪ أو ٥٠٪ من زملائه»[١].

ومن الخصائص الأساسية للاختبارات مرجعية المعيار، والمعدة بطريقة جيدة، أنها تكشف عن الاختلاف الملحوظ أو التباين في استجابات الأفراد، فإذا جاء التباين (أي الاختلاف) في أداء الأفراد الذين يجيبون على الاختبار ضعيفا، فإنه يصعب المقارنة بينهم. وهذا يعني أن إعداد أسئلة الاختبار لم يكن دقيقا. ومن هنا فإن صلاحية أي سؤال من أسئلة الاختبار تتحدد في ضوء قدرته على التمييز بين الأفراد؛ لذلك تعتبر الأسئلة التي يبلغ مستوى صعوبتها ٥٠٪ (بمعنى أنها يجيب عليها ٥٠٪ من الأفراد إجابة صحيحة، ويخطئ فيها ٥٠٪ منهم) أفضل الأسئلة. أما الأسئلة التي يجيب عليها ١٠٠٪ من الأفراد إجابة صحيحة، وتلك التي يخطئ فيها ١٠٠٪ منهم، أو ما يقرب من هذه النسبة، فإنها تعتبر أسئلة غير صالحة؛ لعدم قدرتها على التميز بين أفراد الجماعة؛ ولذلك يجب استبعادها من الاختبار[٢].

وليس المطلوب من المدرس الذي يتبع نظرية التقويم مرجعي المعيار أن يضع اختبارات مقننة كتلك التي يقوم ببنائها المتخصصون في القياس النفسي والتربوي

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

كاختبارات الذكاء والميول والاستعدادات. . . إلخ. وكل المطلوب منه - في هذه الحالة - أن يضع اختبارات تحصيل كتلك التي سبق تفصيل القول فيها، واتخاذها أساسا للمقارنة بين تلاميذ الفصل أو الصف الدراسي. فدرجة أي تلميذ تفسر بمقارنتها بدرجات زملائه في نفس حجرة الدراسة أو الصف الدراسي.

على أن مقارنة درجة التلميذ بدرجات زملائه في الفصل، يتطلب من المدرس استخدام بعض المفهومات الإحصائية البسيطة، كالمتوسط الحسابي، والانحراف المعياري.

ويحسب المتوسط الحسابي عن طريق جمع درجات جميع التلاميذ، وقسمة حاصل المجمع على عدد التلاميذ[1]:

$$\text{المتوسط الحسابي} = \frac{\text{مجموع درجات التلاميذ}}{\text{عدد التلاميذ}}$$

وبمعرفة المتوسط الحسابي يستطيع المدرس معرفة المستوى العام لمجموعة معينة بمقارنته بمتوسط مجموعة أو أكثر من المجموعات الأخرى المتفقة معها في الخصائص الأساسية. كما يمكنه من معرفة وضع تلميذ معين بالنسبة لباقي تلاميذ المجموعة التي ينتمي إليها، ومعرفة مدى تقدمه بالنسبة للآخرين أو العكس بمقارنة درجاته في الاختبارات المتتالية، وحساب مدى التباين أو الاختلاف بينها. وعلى كل حال فإن مقدار تفوق التلميذ أو ضعفه يقاس بمدى بعد درجته عن المتوسط ارتفاعا أو انخفاضا.

على أنه يهم المدرس أن يحدد مقدار تفوق التلميذ أو ضعفه بصورة أدق. وهو في هذه الحالة في حاجة إلى معرفة مقدار تشتت درجات التلاميذ. والمقصود بالتشتت هو مقدار الفروق الموجودة بين الدرجات. وقد اصطلح على قياس التشتت بالانحراف المعياري.

«والانحراف المعياري ببساطة هو الجذر التربيعي لمتوسط مربعات الانحراف. وهناك طرق متعددة لحسابه، ولكن يكفي أن نشرح لك طريقة بسيطة لحسابه، وتتم وفق الخطوات التالية:

١ - احسب متوسط الدرجات بالطريقة التي شرحناها سابقا، أي بجمع درجات التلاميذ، وقسمة حاصل الجمع على عدد التلاميذ.

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٠ .



٢ ـ احسب انحراف كل درجة عن المتوسط، وذلك بطرح المتوسط من كل درجة من درجات التلاميذ.

٣ ـ ربع جميع الانحرافات الناتجة من الخطوة السابقة بقسمتها على عدد التلاميذ، فتحصل على متوسط مربعات الانحرافات.

٤ ـ احسب الجذر التربيعي لناتج الخطوة رقم ٣، تحصل على الانحراف المعياري.

$$\sqrt{\frac{\text{مجموع مربعات الانحرافات}}{\text{عدد التلاميذ}}}$$

«ويعطيك الانحراف المعياري، كما أشرنا سابقا، مقياسا لتشتت الدرجات في الفصل. فإذا كان لديك فصلان مثلا، وحسبت متوسط الدرجات لكل فصل على حدة، فوجدت أن المتوسطين متساويان، أمكنك أن تستنتج بصفة عامة أن مستوى الفصلين واحد. على أن هذا الاستنتاج غير دقيق تماما، حيث إن الانحراف المعياري قد يختلف. فإذا وجدت الانحراف المعياري في أحد الفصلين٧، وفي الفصل الثاني ٤، على سبيل المثال، يمكنك أن تستنتج أن الفصل الثاني أكثر تجانسا من الفصل الأول، بمعنى أن الفروق بين درجات تلاميذه أقل من الفروق بين درجات تلاميذ الفصل الأول... كذلك يفيدك الانحراف المعياري مع المتوسط في تحديد الوضع الدقيق بالنسبة لكل تلميذ في الفصل...»(١).

لكن التقويم مرجعي المعيار يتمتع بعيوب كثيرة، لعل أهمها ما يأتي:

**أولا:** يكمن أهم عيب من عيوب هذا اللون من التقويم في أهم سمة من سماته، وهي قدرة أسئلته على التمييز. أي أن يكون السؤال متوسطا بحيث يستطيع ٥٠٪ من التلاميذ الإجابة عليه إجابة صحيحة، و ٥٠٪ منهم يعجزون عن الإجابة الصحيحة عليه. وهذا يعني أن الأسئلة التي يجيب عليها المتعلمون جميعا تقريبا إجابة صحيحة؛ لأنها تتناول معارف أو مفاهيم هامة، قد اهتم المدرس بمناقشتها مع المتعلمين، وتلك التي يجيب عليها المتعلمون جميعا تقريبا إجابة خاطئة؛ لأنها تتناول حقائق أو مفاهيم هامة لكن المدرس أهملها ـ هذان النوعان من الأسئلة لا قيمة لهما في الاختبار الذي يتبع فلسفة التقويم المرجعي المعيار. واستبعاد هذين النوعين من الأسئلة يفقد الاختبار

(١) المرجع السابق، ص٤٣١ .

قيمته وأهميته كأداء للتقويم والكشف عن نواحي القوة ونواحي القصور في تحصيل تلاميذه، وفي طرق وأساليب تدريسه، وفي كل مكونات المنهج بصفة عامة، كما أن الاهتمام بقصر أسئلة الاختبار على الاسئلة المميزة، قد يدفع واضع الاختبار على التركيز على التفاصيل التافهة وإهمال الأساسيات والمفهومات التي من خلالها تتحقق أهداف المنهج. وبذلك يفقد الاختبار أهم الصفات التي يجب توافرها فيه وهي الصدق والشمول.

**ثانيا:** يقوم هذا اللون من التقويم على أساس مقارنة التلميذ بأقرانه في حجرة الدراسة أو في الصف الدراسي، وهذا قد يكون له انعكاساته الضارة على تحصيله وتقدمه، فالتلميذ الذي يحتل مركزا متفوقا في حجرة الدراسة بشكل مستمر قد يدفعه هذا إلى التراخي والكسل وعدم بذل مزيد من الجهد والعمل، والتلميذ الذي يحتل مركزا متوسطا أو متدنيا قد يدفعه هذا إلى اليأس والقنوط والكف عن بذل الجهد والعمل.

**ثالثا:** إن قصر تقويم التلاميذ على أساس مقارنتهم بزملائهم دون نظر إلى المستوى الذي وصلت إليه المجموعة ككل، يعني الرضا بنجاح التلاميذ دون الوصول إلى مستوى الأداء الجيد أو الممتاز، وهو مستوى الإتقان للمهارة أو فهم المعلومات والمفهومات فهما جيدا والقدرة على تطبيقها وتحليلها وتفسيرها وتقويمها، وهذه هي المستويات الضرورية لرفع مستوى التعلم وحسن الأداء[1].

لكل ما سبق، فإن التقويم مرجعي المحك هو الذي يستطيع المدرس والمنهج، بل والنظام التعليمي كله، التغلب به على العيوب السابقة وتلافيها.

ففي هذا النوع من التقويم تفسر درجة التلميذ وفقا لوصفها لسلوكه، ومدى قرب هذا السلوك أو بعده من مستوى الأداء المطلوب، فالأداء بشكل معين، وتحقيق الأهداف هما المعيار الذي نفسر درجة المتعلم في ضوئه. وفي هذا اللون من التقويم أيضا، لا يقارن التلميذ بزملائه، وإنما يقارن بنفسه، لمعرفة مدى تقدمه من اختبار لآخر وفقا لأهداف المنهج المحددة سلفا.

وتقاس دقة أسئلة الاختبار هنا بمدى صدقها في قياس أداء المتعلم، لمعرفة مدى قربه أو بعده عن مستويات الأداء المطلوبة، والتي تمثل الأهداف التعليمية للمنهج أو البرنامج أو الوحدة أو الدرس. وفي ضوء هذه المستويات أو الأهداف ينجح المتعلم أو يرسب.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٢ .

فإذا جاز لنا أن نقارن ونختار بين الأسلوبين السابقين في ضوء موجهات السلوك الإنساني في منهج التربية الإسلامية، ألا وهي القرآن والسنة، فإننا نختار التقويم مرجعي المحك، الذي يقوِّم المتعلم عن طريقة، وفقا لمدى قربه أو بعده من درجة الإتقان في العمل وحسن الأداء، وتحقيق الأهداف.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [**الكهف**]. فالمطلوب من الإنسان - طبقا لهذا المنهج الرباني - ليس مجرد العمل، وإنما الإحسان في العمل، وإحسان الأداء.

ويؤكد هذا - أيضا - قول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**» فالمطلوب ليس مجرد العمل، وإنما المطلوب هو الوصول إلى درجة الإتقان في العمل.

ويتفق هذا كله مع وظيفة الإنسان ووضعه في النظام الإسلامي العام، فالإنسان خليفة الله في الأرض، وقيام الإنسان بحق الخلافة، إنما يكون بعمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله، وعمارة الأرض وترقيتها لا يكون بمجرد العمل والأداء، بل يكون بإتقان العمل، وحسن الأداء.

فالمحك في منهج الله هو «التقوى»: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [**الحجرات**]، ولا شك أن التقوى تشتمل ضمن ما تشتمل عليه - على إتقان العمل وحسن الأداء، فهذان محكان رئيسيان يقوم عمل الإنسان على أساسهما، فمن حاد عنهما، فقد حاد عن منهج الله.

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل،،

* * *

# المصـــادر

## أولا: الأصـــول


١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ ابن ماجه: السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، بلا تاريخ.

٣ ـ البخاري: صحيح البخاري، طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، الرياض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨١م.

٤ ـ الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق عزت عبيد الدعاس، ط١، حمص، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٥ ـ مسلم بن حجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.


## ثانيا: المراجـــع


١- آمال حمزة المرزوقي: النظرية التربوية الإسلامية ـ ومفهوم الفكر التربوي الغربي، جدة، المملكة العربية السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢- إبراهيم الشافعي: التربية الإسلامية وطرق تدريسها، الكويت مكتبة الفلاح، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٣- إبراهيم عصمت مطاوع وزميله: التربية العملية وأسس طرق التدريس، القاهرة، ١٩٨١م.

٤- ابن تيمية: الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي، الطبعة الأولى، الرياض، ١٣٨١هـ.

٥- ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد كامل القاهرة، دار الكتب، ١٩٧١م.

٦- ابن تيمية: العبودية، تأليف أحمد عبد الحليم الحراني، القاهرة، مطبعة المدنى ١٩٥٩م.

٧- ابن تيمية: الاستقامة، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

٨- ابن خلدون: المقدمة، الطبعة الأولى، بيروت، دار القلم، ١٩٧٨م.

٩- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

١٠- ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.

١١- ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي، ثلاث مجلدات، ١٩٧٢م.
١٢- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١٣- ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٤- أبو الأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، الرياض، الدار السعودية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٥- أبو الأعلى المودودي: المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم، جمعه وقدم له وعلق عليه محمد مهدي الاستانبولي، الطبعة الثانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٦- أحمد خيري كاظم وجابر عبد الحميد: الوسائل التعليمية والمنهج، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٩م.
١٧- إسحق أحمد فرحان وزملاؤه: نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٨- إسحق أحمد فرحان وزملاؤه: المنهج التربوي بين الأصالة والمعاصرة، عمان، دار الفرق - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٩- إسماعيل ظافر ويوسف الحمادي: التدريس في اللغة العربية، الرياض، دار المريخ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٢٠- ألكيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
٢١- أنور الجندي: التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.
٢٢- أنور الجندي: أخطاء المنهج العربي الوافد، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ٨٠ .
٢٣- أنور الجندي: أعلام وأصحاب أقلام، القاهرة، دار النهضة مصر، للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
٢٤- البيهقي: مناقب الشافعي، تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
٢٥- توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ط٥، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م.
٢٦- جابر عبد الحميد وزميلاه: مهارات التدريس، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ.
٢٧- الجاحظ: البيان والتبيين، الطبعة الرابعة، تحقيق حسن السندوي القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

٢٨- جون ديوي: الديموقراطية والتربية، ترجمة متى عقراوي وزكريا ميخائيل، الطبعة الثانية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤م.

٢٩- حسن البنا: حديث الثلاثاء، سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور، القاهرة، مكتبة القرآن، بدون تاريخ.

٣٠- حمد عبد العزيز اليوسف: مدى استخدام الوسائل التعليمية في تدريس المواد الدينية بالمدارس المتوسطة للبنين بمدينة الرياض، رسالة ماجستير غير منشورة، الرياض، كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٣١- الدمرداش عبد المجيد سرحان: المناهج المعاصرة، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣٢- دراسات تربوية: مجلة كلية التربية جامعة الملك سعود، المجلد الأول، ١٩٨٤م، عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٤م.

٣٣- الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق عبد الرءوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٣م.

٣٤- الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، تصحيح أحمد أسعد علي، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

٣٥- سعيد إسماعيل علي: دراسات تربوية، جـ٣، يونيو، ١٩٨٦، وجـ٦، ١٩٨٧م.

٣٦- سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٧- سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، بيروت، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٨- سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٩- سيد قطب: معالم في الطريق، ط١٠، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤٠- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٤١- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤٢- شوكت محمود عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، الرياض، دار الرشيد للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤٣- عباس العقاد: المرأة في القرآن، القاهرة، دار الإسلام، ١٩٧٣م.

٤٤- عبد الرحمن صالح عبد الله: المنهاج الدراسي: أسسه، وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٥- عبد الرحمن الباني: مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٤٦- عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.
٤٧- العبدري: المدخل، الطبعة الأولى، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨ ـ ١٩٢٩م.
٤٨- عبد الغني عبود: في التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.
٤٩- عبد الغني عبود: الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة ، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩م.
٥٠- عبد الغني عبود: التربية الإسلامية في القرن الخامس عشر الهجري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٢م.
٥١- عبد القادر هاشم رمزي: النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية، الدوحة دار الثقافة، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٥٢- علي أحمد مدكور: تدريس فنون اللغة العربية: الكويت، مكتبة الفلاح، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٥٣- علي أحمد مدكور : نظريات المنهاج العامة، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.
٥٤- علي أحمد مدكور : تقويم برامج إعداد معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، منشورات الأسيسكو، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
٥٥- علي أحمد مدكور: «طريقة المناقشة وأهميتها في تعليم الكبار» التربية المستمرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة، والعلوم، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار لدول الخليج بالبحرين، العدد الثامن، السنة الخامسة، يونيو ١٩٨٤م.
٥٦- علي أحمد مدكور: «طريقة تحقيق الذات في تدريس التعبير» الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.
٥٧- علي أحمد مدكور: المفاهيم الأساسية لمناهج التربية، الرياض، دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٥٨- علي عبد الواحد وافي: أصول التربية ونظام التعليم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م.
٥٩- علي الطنطاوي: «سووا صفوفكم» الشرق الأوسط، عدد رقم ٣٢٩٩، في ١٠ / ١٢ / ١٩٨٧م.



٦٠- عمر الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية، طرابلس، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٧٥م.
٦١- الغزالي: إحياء علوم الدين، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم بدون تاريخ.
٦٢- فاخر عاقل: التعليم ونظرياته، بيروت، دار العلم للملايين.
٦٣- الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق الدكتور عثمان أمين، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.
٦٤- فتحي يونس وزميلاه: أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الدينية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
٦٥- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٨هـ.
٦٦- فهمي هويدي: «لغز الحل الإسلامي» الأهرام، عدد ٣٦٦٨٦، في ١٩ / ٥ / ١٩٨٧م.
٦٧- فهمي هويدي: «هؤلاء الدراويش»، الأهرام، في ٢٥ / ٨ / ١٩٨٧م.
٦٨- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن...
٦٩- ماجد عرسان الكيلاني: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨م.
٧٠- الماوردي: أدب الدنيا والدين، الطبعة الثالثة، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.
٧١- الماوردي: الأحكام السلطانية...
٧٢- مجلة كلية التربية جامعة الملك عبد العزيز: العدد الخامس، رجب ١٤٠٠هـ- مايو ١٩٨٠م.
٧٣- مجلة معهد اللغة العربية جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد الثاني، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٧٤- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط.
٧٥- محمد أمين المصري: المجتمع الإسلامي، الكويت، دار القلم، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
٧٦- محمد رشاد خليل: علم النفس الإسلامي العام والتربوي، الكويت، دار العلم، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٧٧- محمد أحمد كريم: بحوث ودراسات في التربية، جدة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٧٨- محمد حسنين هيكل: «حوار مع أينشتين»، أخبار اليوم عدد ٢٢٠٤، في ١٤ / ١ / ١٩٨٧م.

٧٩- محمد سيف الدين فهمي: النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م.

٨٠- محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ط١٣، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٥م، بيروت، دار الشروق.

٨١- محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م.

٨٢- محمد عبد العليم مرسي: المعلم والمناهج... وطرق التدريس، الرياض، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٨٣- محمد عزت عبد الموجود وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.

٨٤- محمد عطية الإبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

٨٥- محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.

٨٦- محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، بيروت، دار الشروق، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٨٧- محمد قطب: منهج الفن الإسلامي: ط٦، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٨٨- محمد متولي الشعراوي: هذا هو الإسلام، الطبعة الدولية، نيقوسيا، قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٨٩- محمد متولي الشعراوي: منهج التربية في الإسلام، القاهرة، دار المسلم، بدون تاريخ.

٩٠- محمد لبيب التبجيحي: في الفكر التربوي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

٩١- محمود إسماعيل صيني وعمر الصديق عبد الله: المعينات البصرية، في تعليم اللغة، الرياض، عمادة شئون المكتبات جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٩٢- مور. ت : النظرية التربوية، ترجمة محمد أحمد الصادق، وعبد الحميد عبد التواب ضيحة ط١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦م.

٩٣- يوسف القروضاوي: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٩٤- يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ط٤، القاهرة، مكتبة وهبة.


| رقم الإيداع | ٥١٩٥ / ٢٠٠١ |
|---|---|
| I. S. B. N الترقيم الدولى | 977-10-1445-5 |